

الطبيعة
في الشعر الجاهلي
عالم الكتب
مكتبة النهضة العربية

الطبيعة في الشعر الجاهلي





بيـروت ـ المزرعة بنـايـة الايـمـان ـ الـطابـق الأول ـ ص . ب . ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ ـ ٣١٥١٤٢ ـ ٣١٣٨٥٩ ـ برقياً : نابعلبكي ـ تلكس : ٢٣٣٩٠

الطبيعة في الشعر الجاهلي

الدكتور
نوري حمودي القيسي

عالم الكتب مكتبة النهضة العربية

الطبعة الثانية
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

الإهداء

إلى من أعانني على إنجاز هذا العمل .. ودفعني إلى اتمام الرسالة .. وصحبني في الرحلة الشاقة ..

إلى زوجتي ... التي كانت تخفف الأعباء .... وتهوّن الصعوبات . وتُعين على الصبر .

أهدي هذا العمل ... تقديراً للمودة . واعترافاً بالفضل وايماناً بالحياة المشتركة ...

نوري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الدكتور شوقي ضيف

هذه دراسة علمية خصبة للطبيعة في الشعر الجاهلي نهض بها الدكتور نوري حمودي القيسي ، وهي تمتاز بخصلتين أساسيتين : خصلة الريث والأناة في الأحكام الأدبية حتى تجتمع لها الأدلة التي تسندها من النصوص الحسية وما يداخلها من الحقائق الفنية ، وخصلة الجهد الشاق وابتغائه والمتاع به متاعاً من شأنه أن يجعل صاحبه كلما ذلل صعوبة من صعاب البحث وعقبة من عقابه تحول إلى أخرى باذلاً في تذليلها كل ما استطاع من قوة وكل ما تهيأ له تهيؤاً حسناً من وسائل البحث العلمي وأدواته ، حتى تستقيم له ، وحتى تنقاد انقياداً .

وليست الدراسة في الشعر الجاهلي شيئاً هيناً سهل المنال ، إذ لا بد لها من التزود زاداً وفيراً باللغة وألفاظها الآبدة ، وزاداً وفيراً آخر بأساليبها وصياغاتها العتيقة ، ولا بد لها من التحقق من صحة الشعر ونسبته الوثيقة إلى أصحابه ، ولا بد لها من الفقه به فقهاً يحوط الأحكام المستنبطة ويحول بينها وبين الخطأ والتورط فيه قليلاً أو كثيراً ، ثم لا بد من الإحاطة بنماذج هذا الشعر ومحاولة استقصائه واستقرائه حتى لا يعتور ما يستنبطه الباحث عوج أو نقص أو انحراف ، وحتى تنكشف له الحقائق دون غموض ودون مبالغات تشوبها وقد تفسدها إفسادا .

ولا أغلو إذا قلت إن الدكتور نوري حمودي القيسي صبّر نفسه على البحث في الشعر الجاهلي حتى كُفلت له الأسباب المعينة على صحة نتائجه العلمية فيه صحة تصوّر في تضاعيفها جهداً مضنياً كما تصور قدرة واضحة على دراسة هذا الشعر وفهمه وتحليله قويماً . والدراسة موزعة على تمهيد وبابين أما التمهيد فجعله لوصف جزيرة العرب وصفاً جغرافياً دقيقاً ،

ومضى يدرس في الباب الأول الطبيعة في الشعر الجاهلي دراسة موضوعية صوّرها في فصلين ، خصّ أولهما بالطبيعة الصامتة واتخاذ الشاعر الجاهلي عناصرها مادة لأشعاره ورَمْزه بهذه العناصر أحياناً لمعان كلية على نحو رمزه بالجبل للبقاء والخلود ، مع بعثة للحياة والحركة في جوانبها الهامدة ، ومع إحساسه بما يتناثر فيها من حسن ، ومع ما أوحت إليه من معان متنوعة . وفي الفصل الثاني تحدث عن الطبيعة الحيّة مفصّلاً القولَ في حيوانها الأليف والوحشي وما كان يجد فيه شعراء الجاهلية من جمال جعلهم يبدعون في وصفه ، كما جعلهم يستشعرون فيه كثيراً من الأحاسيس والمشاعر الإنسانية ، كما فصّل القول في تصويرهم للطير والتفاؤل به والتشاؤم ، مع ما مثّلوا في الحمام من حنين لا ينضب معينه .

وانتقل إلى الباب الثاني ، وفيه عُني بدراسة الطبيعة في الشعر الجاهلي دراسة فنية ، ممهداً لذلك بالحديث عن فن الشعر الجاهلي وتطوره حتى غدت له تقاليد راسخة ، والباب بدوره مقسوم إلى فصلين ، أما الفصل الأول فتحدث فيه عن تصوير الشعراء لظواهر الطبيعة الصامتة ومدى إيمانهم بقوى خفية تكمن في بعض عناصرها وروعة تصاويرهم لأحاسيس الحيوان مع التوقّف بإزاء الأطلال وبكائها ومحاولة تفسير هذه الظاهرة تفسيراً دقيقاً . وأما الفصل الثاني فقصره على الخصائص الفنية لشعر الطبيعة في الجاهلية ، ملاحظاً أنه يمتاز بالواقعية وعرض الحقائق دون أي نقاب أو حجاب ، وأن روحاً قصصية تشيع في ثناياه دون أي تهويل أو مبالغة ، وأن صياغته تمتاز بالقوة والصلابة والجزالة ، مع إصرار الشعراء دائماً على إرضاء الأسماع ، مما دفعهم دفعاً إلى الملاءمة الوثيقة في الجرس بين الكلمة والكلمة ، بل الحرف والحرف ، حتى تصغى الآذان لإرناناتهم المتلاحقة ، وتصغى القلوب والأفئدة .

وأنا أهنىء الدكتور نورى حمودى القيسي بما حقق في هذه الدراسة العلمية من فوز ومن نتائج سديدة تفيد الباحثين في الشعر الجاهلي فوائد قيمة . والله أسأل أن يلهمنا الإخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

شوقي ضيف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

استهوتني دراسة الشعر الجاهلي لاعتقادي بأصالة هذا التراث واستيعابه كثيراً من جوانب الحياة الجاهلية . فالشعر الجاهلي أساس لكيان الشعر العربي ، والأصل الذي هيأ لكل المتأخرين أن يستمدوا منه فيض معانيهم وصورهم وأخيلتهم .

وينبغي أن تكون دراسته دراسة تتوفر فيها عناصر الدقة ولا تتهيأ مثل هذه الدراسة إلاّ إذا اقتصر على جانب من جوانبه أو ظاهرة من ظواهره ، أو تيار من تياراته له سماته المتميزة ، وهكذا وجدت نفسي أتتبع الجوانب والظواهر والتيارات ، لأقف عند واحد منها ، وانتهيت من هذا التفكير برسالتي الأولى التي قدمتها لنيل الماجستير ، وكان موضوعها (الفروسية في الشعر الجاهلي) ، وظلت الرغبة تحدوني إلى الاستزادة من دراسة هذا الأدب ، ولهذا وجدت نفسي مرتبطاً بهذا العصر ، فكان موضوع رسالتي الثانية « الطبيعة في الشعر الجاهلي » لأن شعر الطبيعة أخذ مكانته البارزة في القصيدة العربية ، ورمز إلى كثير من الأوضاع النفسية التي كان الشاعر يعيشها .

ويقع البحث في بابين ، جعلت الباب الأول للدراسة الموضوعية وقسمته إلى فصلين ، الأول تناولت فيه الظواهر الصامتة في الطبيعة الصحراوية وجعلت فيه الجبال والكثبان والسراب والوديان والدارات والبُرق والرياض والحرّات والآبار والعيون والرياح والأنواء والامطار والشجر والنبات .

وعقدت الفصل الثاني للظواهر المتحركة في الطبيعة الصحراوية وجعلت فيه الحيوان الأليف والوحشي والطيور والزواحف ، وقسمته إلى فصلين ، وعرضت في الفصل الأول منه لتصوير الطبيعة ، فدرست تصوير الطبيعة الصامتة ، ووقفت عند حديث الشعراء عن الأطـــلال ثم درست تصوير الحيوان الوحشي والأليف وأنهيت هذا الفصل بدراسة الصيد ودوافعه ، ووسائله ، ثم كان الفصل الثاني الذي أفردته للخصائص الفنية ، وقد انتهيت إلى أن هناك خصائص عامة يتميز بها هذا الفن الشعري ، وهي الواقعية والقصصية وخصائص معنوية ولفظية .

لقد ظل هذا الشعر — شعر الطبيعة — مبعثراً في دواوين الشعراء ومتفرقاً بين الأغراض التي عالجوها على الرغم من وضوح ملامحه عند أغلب الشعراء وفي أكثر قصائدهم ، ولم أجد القدامى ، أو أصحاب الاختيارات من التفت إليه فصنف فيه كتاباً مستقلاً .

ولكن هذا لا يمنعني من التنويه بالمصادر التي اعتمدتها أساساً في هذا البحث وهي المعلقات والمفضليات والأصمعيات ، ودواوين الحماسة باعتبارها أوثق المجموعات الشعرية وأروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلي ، ثم الدواوين الشعرية الموثوق بها ، والمحققة تحقيقاً علمياً ، بالإضافة إلى الكتب الأدبية والتاريخية التي تعد من مظان كتب اللغة وأمهات مصادر الأدب ولا تفوتني الإشارة إلى كتاب الحيوان للجاحظ ، الذي يعدّ ذخيرة قيمة لدراسة الظواهر المتحركة من الطبيعة ، فقد عرض لها الجاحظ عرضاً واسعاً لأن كتب الحيوان — بما في ذلك كتب الخيل والإبل والغنم والشاء والوحوش والطير

والبازي والحمام والحيات والعقارب والنحل والحشرات – التي ألفت قبل الجاحظ ، أو بعده ، كان يراد بها أن تكون أبحاثاً في اللغة ، فهي بمثابة معجمات لغوية خاصة بما ألفت له .

وفي حيوان الجاحظ تكمن عقليته الدقيقة التي اعتمدت التجربة أصلاً لكل حديث يعرض له ويبرز ذوقه الفني المرهف في اختيار النصوص الشعرية التي يستشهد بها . أما أساس منهجي الذي سلكته فكان يعتمد أولاً على استقصاء الشعر الجاهلي الصحيح الذي يعني بالطبيعة ، ويعرض لمظاهرها ، ويعتمد ثانياً تحليل هذا الشعر ، ودراسته واستقراء نماذجه ، واستخلاص النتائج منه . مسجلاً من خلال ذلك الظواهر البارزة فيه .

ودراستي تشمل جانبين من هذه المظاهر ، الجانب الموضوعي الذي كنت أنظر إليه نظرة دقيقة فاكشف عن معالجة الشعراء له وأوصافهم الخارجية والداخلية لأشكاله وأجزائه والجانب الفني الذي أوضح إحساس الشعراء وموقفهم من هذه الظواهر .

وقد حاولت تحديد الزمن الذي اخترته لهذا الموضوع ، فكان بداية العصر الأدبي الذي عرف بالعصر الجاهلي .

وبعد ، فهذا ما استطعت تحقيقه في هذه الدراسة ، كما وجدته عند الشعراء وكما رأيته متمثلاً في الصور الشعرية التي قدموها لنا من خلال أوصافهم لهذه المظاهر .

أما أستاذي الدكتور شوقي ضيف ، المشرف على هذه الرسالة ، فله شكري على الجهود التي بذلها في قراءة ما كتبت والرعاية التي شملني بها وأنا أتلمس الخطوات الأولى في العمل جزاه الله عني كل خير ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

بغداد ٢٢ / ١ / ١٩٦٦ نوري حمودي القيسي

تمهيد
وصف جزيرة العرب

تقع جزيرة العرب في الجنوب الغربي من آسيا ، وسميت جزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من جميع جوانبها ، أما مساحتها فتزيد على ثلاثة ملايين كيلومتراً مربعاً ، ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت قسماً من أفريقيا الشرقية ، فحدثت في العصور الجيولوجية المتأخرة سلسلة من الحركات الارضية ، أدّت إلى تكوين الأخدود الذي يشكل البحر الاحمر ، وخليج السويس ، وبذلك انفصلت جريرة العرب عن قارة إفريقيا .

وتمتد الجزيرة في مناطق متعددة ، وفي الحجاز مساحات واسعة غطتها صخور سود ، تمثل حمم البراكين التي ثارت في بعض العصور القديمة ، وتعرف هذه المناطق البركانية باسم الحَرّات ، والحرات في بلاد العرب كثيرة[1] . لانها كانت أماكن تستقر فيها القبائل ، وتقيم عندها ، لوفرة مياهها وخصوبة أرضها ، ولم تشكّل الحرّات وحدها مناطق الخصب في

(١) انظر ابن الفقيه الهمداني في مختصر البلدان– ٣١ ، والبكري في معجم ما استعجم٢–٤٣٥ وما بعدها ، وياقوت في معجم البلدان ٢ – ٢٥٢ .

جزيرة العرب وإنما كانت الدارات والبرق والرياض والوديان تشكل جانباً آخر من هذه الأراضي الخصبة التي نزلت عند مياهها القبائل .

وقد حفلت كتب الجغرافية بذكر هـذه البُرق والرياض والحرّات والدارات وألّفت فيها الكتب لأهميتها ، ووصلت أعدادها إلى المئات كما تعرّض لذكرها أصحاب المعاجم ، وتسابقوا في جمع ما تناثر من أسمائها .

وتخترق جزيرة العرب سلسلة جبال السراة المحاذية للساحل الغربي من الشمال إلى الجنوب ، مكونة انحداراً شديداً نحو الغرب وخفيفاً تدريجاً نحو الشرق ، وتسمى المنطقة الساحلية تهامة وقد تذكر مضافة إلى القسم الذي تحاذيه ، فيقال ، تهامة اليمن .وتهامة الحجاز ، وتضيق هذه المنطقة وتتسع في أماكن معينة حتى يصل عرضها في بعض الأحيان إلى الأربعين أو الخمسين ميلاً وتسمى الغور لانخفاض أرضها .

وأغلب هذه المنطقة الساحلية رملي شديد الحرارة ، قليل الإنبات ، وقد قامت بها بعض المرافىء والثغور ، وتتصل منطقة الهضاب والنجود بالمنطقة الشرقية من جبال السراة مباشرة ، وتمتد الهضاب والنجود إلى الشرق مسافة طويلة حتى تحاذي العراق والسماوة .

وتزخر هذه المنطقة بكثبان الرمـال الحمر ، التي تتخللها بعض المراعي الفسيحة ، المؤذنة بالخصب ، وتجمع القبائل ، وإذا اقتربت هذه الصحراء من أرض العراق انبسطت نحو الجنوب ، لتفصل بين نجد والبحرين ، وحينذاك يطلق عليها الدهناء التي تشكل قوساً ضيّقاً من النفوذ ، يختلف عرضه من عشرة إلى خمسة وسبعين كيلو متراً فتربط النفوذ الشمالي بالربع الخالي ، وتشكل في الوقت الحاضر حدوداً بين نجد والأحساء .

أما القسم الأعلى من الدهناء ، فيمتد شمالاً حتى بادية الشام ويقطعه وادي الرمة ، وتنتشر رمال الدهناء في القسم الجنوبي وتسير موازية لهضبة الصمّان الصخرية .

وتمتد العَرفَة في غربها ، وهي منطقة قصيرة ، تنتهي في وادي حنيفة ، ثم تستمر الدهناء إلى جنوب الصمّان نحو الشرق ، وتنحدر نحو الغرب ، ثم تستمر في سيرها حتى تتصل بالربع الخالي ، وتعترض الطريق الجنوبي من هذه الرمال بعض الحجارة .

والدهناء ضيّقة في أطرافها الشمالية والجنوبية ، ولكنها عريضة في المناطق الوسطى ، حيث تضم مجموعة من التلال الرملية الهرمية المرتفعة والتي يصل ارتفاع بعضها إلى مائة وخمسة وسبعين متراً . يصعب عبورها في مواسم القحل لخطورتها ، وتتناثر في أطرافها بعض الآبار غير العميقة . وقد ساعدت بعض البدو على الرعي في هذه الأطراف ، وخاصة في فصل الشتاء والربيع ، وقد وصف ياقوت مراعي الدهناء ، واورد ما قاله الشعراء فيها[1]

وتعد هذه الصحارى التي تحيط بنجد في أقسامها الثلاثة قفاراً متسعة ، لا تجد فيها أثراً للحياة ، إلاّ في موسم الشتاء الذي ترتدي فيه أقسامها الشمالية رداءً أخضر من المراعي بعد نزول المطر .

وتشمل العروض ، اليمامة والبحرين وما والاها ، وفيها مرتفعات وأغوار ، لقربها من البحر ، وانخفاض مواضع منها ، ومسايل أودية فيها .

أما اليمن ، فيشمل القسم الواقع خلف تثليث ، وما قاربها الى صنعاء ، وما والاها من البلاد إلى حضرموت والشحر وعمان وما بينهما ، وفيها التهائم والنجود ، وقد يطلق اليمن على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وهو الإطلاق المشهور الآن . وهو أكثر أرضها خصباً . وتمتاز اليمن عن غيرها من أقسام الجزيرة بأوديتها الكثيرة ، وسهولها وزراعتها ، لكثرة أمطارها وقد ساعدت هذه الحياة على الاستقرار الذي عم هذا الجزء من جزيرة العرب .

---

(١) انظر ياقوت . معجم البلدان ٢ - ٦٣٥ .

وهذا التقسيم الإقليمي لجزيرة العرب ، يقوم على التقاء هذه الأقسام في صفات مشتركة ، وخضوعها لظروف طبيعية واحدة . على أن هذا لا يحول دون اشتراك جميع الأقاليم في خصائص تشمل جزيرة العرب بأكملها ويجعل منها إقليماً موحداً .

وبلاد العرب كثيرة الجبال الجرد . وتعد السلسلة الجبلية المستطيلة والممتدة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب من أعلى المناطق ارتفاعاً ، وتضم هذه السلسلة قنناً يبلغ ارتفاعها أحياناً ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر وتتساقط الثلوج على بعضها في فترات متقطعة[1] وتتخلل هذه الجبال الوديان الصالحة لاقامة السكان الذين يعتمدون على ما تنبته أرضهم . وما يجدونه فيها من ماء يشربونه ومرعى يسيمون فيه أنعامهم . ومن الطبيعي أن تتشكل هذه الوديان نتيجة للتكون الطبيعي للجبال الممتدة فوق الجزيرة . وسقوط الأمطار . وتتوزع هذه الوديان بالنسبة الى السطح الذي تنبسط فيه . فهي قصيرة ومنحدرة وعميقة حينما تتجه إلى البحر الأحمر ، بسبب ضيق الشقة بينها وبين البحر ، وطويلة ومنبسطة وأقل عمقاً عندما تتجه إلى الشرق .

وقد عرفت في الجزيرة وديان كثيرة ترددت في أحاديث الشعراء وأوصافهم ، فكان وادي الرمة ، ووادي حنيفة ، والحزامي ، والساجوم ومطرق ، وسرحان ، والدواسر ، والعقيق ، وغيرها من الوديان . كما تنتشر فيها مجموعة من الجبال التي عرفت منذ أقدم الأزمنة . منها أبان وشهلان ، ورضوى ويذبل وضارج وكبكب ويلملم وتعار ، وإلى الجنوب من هذه الجبال توجد سلاسل آكام ممتدة على محاذاة الساحل . وفي الوسط منطقة جبلية أخرى ، وفي أطراف المدينة إلى الشمال والغرب والجنوب عدة جبال مشهورة أهمها أحد . وفي أطراف مكة مجموعة من الجبال التي انتشرت أسماؤها

---

(١) انظر الهمداني . الإكليل – ٧ – ٨ ، والاصطخري . المسالك والممالك – ١٩ ، وتاريخ العرب (مطول) فيليب حتي ١ – ٢١ .

في احاديث الشعراء ، وإلى شرقي السلسلة العظيمة من الشمال إلى الجنوب ، تبدأ الهضبة النجدية، وفي ديار طي سلسلة أجأ وسلمى ، وما تضمه من هضاب وقنن .

وتشكل الكثبان الرملية الحمر في منطقة الربع الخالي سلسلة طويلة متصلة ، تتوزع بينها الرمال المتماوجة والتلال والهضاب بشكل غير منتظم ولا متسلسل . وترتفع هذه الكثبان وتنخفض في أماكن عدة ، وتتكون في أغلب الأحيان من الرمال الرقيقة التي تسفيها الرياح . وتعد منطقة الربع الخالي أكبر حقل لهذه الكثبان . وقد ظلت هذه المنطقة مجهولة في التاريخ لأن البدو الذين يخترقونها . لا يميزون حدودها وأقسامها لتشابه المناطق واتساع رقاعها وقد دفعت هذه المتاهات ــ في العصور المتأخرة ــ بعض الغربيين إلى اختراقها من الجنوب إلى الشمال الشرقي ، واستغرقت هذه الرحلة أكثر من شهر[1] .

وفي أواسط منطقة الرمال ترتفع سلسلة عروق كلسية، ترتكز قاعدتها على هضبات المنطقة النجدية المتاخمة للمحيط الهندي .

وأدى وقوع جزيرة العرب في المنطقة القريبة من خط الاستواء إلى اشتداد الحرارة إلا أن هذا لم يحل دون وجود ظروف إقليمية ومناخية متفاوتة ، وأماكن ذات هواء معتدل ، وجو لطيف بسبب وجود الأماكن المرتفعة ، أو القليلة الارتفاع .

ونظراً لجفاف الصحراء ، فإن مناخها في حرارته وبرودته متطرف ، ففيها لهيب يشوي الوجوه . وسموم تلفح الأبدان : ولهذا التطرف الشديد في المناخ اثر كبير في تنقل البدو فقد تهطل الأمطار الغزيرة . فتحدث السيول ثم تعقبها فترة طويلة من الجفاف التام .

ولا غرابة إذا وصل العرب بعلم الأنواء إلى درجة بعيدة من الدقة اذ

---

(١) فؤاد حمزة . قلب جزيرة العرب – ٢٣ .

كان علم الحياة بالنسبة لهم..

وهذه الأمطار التي كانت تنعم بها السماء عليهم لم ينتفعوا بها لتسربها إلى مسايل الأودية، التي تصبها في البحر أو ذهابها إلى الفيافي المقفرة التي تغيض عندها الماء فلا يترك فيها إلاّ غدراناً وقيعاناً وأحساء وعيوناً.

ومن هنا كانت الوديان إلى جانب الدارات والبرق والحرات والرياض، تشكل الكثرة العظمى من الأراضي الزراعية التي كانت تقوم حولها الحياة، ولكن هذه الأودية بما تحويه من مياه — لم تشكل أنهاراً دائمة الجريان وإن وردت إشارات إلى الأنهار والغدران في الشعر الجاهلي. ويسود الاعتقاد عند بعض المؤرخين أن هذه الأودية كانت تشكل انهاراً في الوقت الذي كانت تسود جزيرة العرب ظروف مناخيــة تختلف عن الظروف السائدة اليوم كوادي الرمة، الذي تنصب فيه عدة أودية[1].

ووادي الدواسر الذي يعد من أعظم أودية الجزيرة، ووادي المروّت وفيه يقول الأعشى[2]:

ولو أن دون لقائها المروّت دافعةً شعابُه
لعبّرتُه سبحاً ولو غُمرت مع الطرفاء غابه

ووادي الجريب الذي أكثر الشعراء من ذكره[3].

وكانوا إذا حبس المطر عن مكان انتجعوا أمكنة أخرى، يلتمسون فيها مواقع الغيث والكلأ، وعرفت لهم في هذه الأوقات تقاليد يمارسونها[4].

وكانت الرياح المتجاوبة في أجواء الجزيرة تختلف شدة وجفافاً باختلاف مهابها، وقد وضعت العرب لكل ريح اسماً، يختلف باختلاف مناطق هبوبها

---

(١) انظر عرام بن الأصبغ : أسماء جبال تهامة وسكانها — ٤١٤، ٤٢٠، ٤٣١. والبكري: معجم ما استعجم ٢ — ٦٧٥.

(٢) الأعشى: الديوان — ٢٨٧. (٣) انظر البكري: معجم ما استعجم ٢ — ٣٧٨–٣٨٠

(٤) الجاحظ: الحيوان ٤ — ٤٦٦.

وكانوا يطعمون إذا هبت الصبا ، كما كانوا يتشاءمون بالرياح الشمالية ويعتبرونها مثلاً للشر . وقد أشار الشعراء إلى قسوتها وبرودتها وشدتها لأنها تنذر بالقحط ، وتنزل الجدب ، وهذه المقاييس تختلف بالنسبة للاتجاهات التي تهب منها وعليها . وقد سموا الريح التي تهب بين مهب ريحين أصليين ، النكباء كالتي تهب بين الصبا والجنوب ، أما الجربياء فهي التي بين الجنوب والصبا ، وقيل هي الشمال . وذكروا الهيف ، وهي الريح الباردة التي تجيء من قبل مهب الجنوب ، وقيل هي كل ريح ذات سموم تعطش المال وتيبس الرطب . وقد حفلت كتب اللغة والمعاجم بأسماء كثيرة من الرياح التي أطلقوا عليها من الاسماء ما يتناسب مع ما تحمله لهم من غيث او سموم .

✓ وتشكل الواحات المتناثرة في الجزيرة جزءاً كبيراً من المناطق الخصبة القابلة للزراعة ، وهي تختلف من حيث التكوين الطبيعي وسعة المساحة . ويمكن اعتبار البلاد سلسلة من الواحات ، لإحاطة الصحراء بها من جميع جهاتها .

وتعدّ هذه الواحات من المصادر المموّلة للسكان بالفواكه والكروم والثمار .

أما النخيل فقد أصبح الرمز الشامخ للجزيرة وقد عرفت الزراعة في كثير من المناطق ، وإلى جانب النخل تبرز اسماء أصناف أخرى من الشجر والنبات والعشب والأزهار والبقول ، كالنبع والشوحط والضال والتنضب والعرفط والسدر والأثل والغضا ، والخزامى والأقحوان والشيح والقصيص والقيصوم .

وكذلك الحيوان الذي شغل جانباً فسيحاً من الحياة الجاهلية لاتصاله بأسباب هذه الحياة . فالخيل والإبل والغنم والبقر والكلاب . كانت وسيلتهم على مقاومة قسوة الحياة ، أما الحيوانات الأخرى التي كانت تنتشر في أطراف الجزيرة ، كالحمر والثيران الوحشية والظباء والضباع والذئاب والوعول والاسود والنمور ، فكانت تأخذ مكاناً بارزاً في القصيدة الجاهلية .

وقد حيكت حول بعضها أساطير غريبة ، تتجلى في أحاديث الشعراء وأخبار القصاص والرواة

البَابُ الأول

الدِّراسَة المَوْضوعيَّة

الفَصْلُ الأول

الطبيعَة الصَامِتَة

١ ـ الجبال والكثبان والسراب
٢ ـ الوديان والدارات والبرق والرياض والحرات
٣ ـ الآبار والعيون والحساء
٤ ـ الرياح والأنواء والأمطار والنجوم
٥ ـ الشجر والنبات

الجبال والكثبان والسراب

الجبال :

تعد سلسلة جبال السراة الممتدة من اليمن جنوباً إلى أطراف بادية الشام شمالاً ، من أعلى المناطق ارتفاعاً ، وتبرز في ذرى هذه السلسلة مراقب عالية . اتخذ منها الصعاليك والذؤبان ملاذاً يأوون إليه للاستراحة ، أو الاستخفاء ، وتحتضن هذه السلسلة الممتدة ودياناً ومدناً وقرى كثيرة ، لاذت بها كثير من القبائل ، ونعم بخضرتها الجاهليون ، ووقف عند رياضها وجناتها عدد كبير من الشعراء يذكرون خيرها وخصبها ونماءها .

ولم تكن هذه السلسلة وحدها في الجزيرة ، وإنما هناك سلاسل أخرى تحيط بها من سائر أقسامها ، ويتجه قسم من هذه السلاسل نحو الداخل ، مشكلاً مجموعة اخرى لا تصل في ارتفاعها إلى ما وصلت إليه سلسلة جبال الحجاز .

وكان الشعراء يتحدثون عن الجبال في أثناء حديثهم عن قطع المفاوز ، وقدرتهم على اختراقها وعبورها بناقة تقرب البعيد وتصل ما تباعد من الجبال ، قال امرؤ القيس[1] :

---

(١) امرؤ القيس . الديوان ١١٦

جالت لتصرعني فقلت لها اقصري   إني امرؤ صرعي عليك حرام
فجزيت خير جزاء ناقة واجدٍ   ورجعت سالمة القرا بسلام
وكأنما بدرٌ وصيل كتيفةٍ   وكأنما من عاقل أرمام[1]

وقال تأبط شراً يفخر بنفسه ، لأنه سبق أصحابه ولم يكسل بفضل قوته وصبره وصعوده قمة الجبل التي تشبه سنان الرمح لدقتها وطولها[2]

وقُلةٍ كسنان الرمح بارزة   ضحيانة في شهور الصيف محراقِ
بادرتُ قنتها صحبي وما كسلوا   حتى نميت إليها بعد إشراقِ

وفي حديث الشعراء عن ديار أحبتهم ، ومواضع سكناهم . اشاروا إلى مواضع الجبال وأماكنها فذكروا جبل خزاز . قال عمرو بن كلثوم:[3]

ونحن غداة أوقد في خزاز   رَفدْنا فوق رفد الرافدينا

وجبل الرجام الذي أشار إليه أوس في قوله[4] :

زعمتم أن غولاً والرجام لكم   ومنعجاً فاذكروا والأمر مشترك

وجبل شطب الذي ذكره عبيد[5] . وامرؤ القيس[6] . وأوس بن حجر[7]

ومثل هذا في الشعر الجاهلي كثير . كما ذكروا الجبال مقترنة بحوادث معينة تمثل انتصارهم أو اندحارهم . خصبهم او جدبهم . قال لبيد[8] :

درس المَنَا بمُتالعٍ فأبَان   وتقاومت بالحُبْس فالسُّوبَان
فنعافِ صارة فالقَنَان كأنها   زُبُرٌ يرجِّعها وليدُ يَمَانِ

(١) كتيفة – من بلاد باهلة ، وعاقل جبل قريب منها. أرمام . متباعد عنها (وفي البيت الأول والثالث أقواء)   (٢) المفضل . المفضليات ١ – ٢٧ .   (٣) انظر ابن الأنباري . شرح القصائد السبع الطوال – ٤٠٩ ، ٤٣٩ ، وديوان لبيد – ٢٦٥ ، ومعجم ما استعجم ٢ – ٤٩٧ .
(٤) أوس بن حجر . الديوان – ٨٠ ، وانظر المفضليات ٢ – ١٨٧ .   (٥) انظر ديوان عبيد – ٥٩   (٦) انظر ديوان امرىء القيس – ٢٠١ .   (٧) انظر ديوان أوس – ١٥ .
(٨) لبيد الديوان – ١٣٨ .

وقال أيضاً[1] :

فالضيف والجار الجنيب كأنما   هبطا تبالة مخصباً أهضامها

ووجدوا فيها ملاذاً يلوذون به في مواسم الصيف ، قال تأبط شراً[2] :

هلاّ سألت عميراً عن مصاولتي   قوماً منازلهم بالصيف البان

وحصوناً يصعدون إلى شعابها ، ويدخلون فيها العيال والذراري[3] وأمكنة يتحالفون عندها[4] .

وكانوا يذكرون الجبال في أحاديثهم عن السيول ، لأن قوة هذه السيول كانت تحط الوحوش من ذرى هذه الجبال ، وتسقط الشجر من قللها ، وتنزل العصم من كل جانب من جوانبها ، وهذا ما دفعهم إلى تصوير هذه الحركات العنيفة في أشعارهم[5] . قال لبيد يصف سيلاً[6] :

وحطَّ وحوش صاحةَ من ذراها   كأن وعولها رملك الجمـــال

أقول وصَوبُهُ منّي بعيدٌ   يَحُطُّ الشَثَّ من قُلَل الجبال

وقد شغل حديث المراقب جانباً كبيراً من شعر الهذليين والصعاليك لأنهم وجدوا فيها أمكنة آمنة ، لإنجاز مهماتهم ، يرقبون منها أعداءهم ويترصدون صيدهم ، لأن طبيعة حياتهم كانت تضطرهم إلى الحذر الدائم والترقب الشديد ، وقد رسم أبو كبير الهذلي صورة لبعض هذه المراقب في بعض أبياته قائلاً[7] :

وعلوتُ مرتَبِئاً على مَرْهُوبةٍ   حَصَّاءَ ليس رَقيبُها في مَثْمِلِ

عَيطاءَ معنقة يكونُ أنيسها   وُرقَ الحمامِ جميمها لم يُؤْكَلِ

---

(1) لبيد . الديوان – ٣١٨ ، وانظر – ٤٨ .   (2) البكري . معجم ما استعجم ١ – ١٨٧ .
(3) انظر النقائض ٢ – ١١٥ والأغاني ١٠ – ٣٣ والعقد الفريد ٣ – ٣٠٧ ومعجم ما استعجم ٢ – ٣٦٥ – ٣٦٦ .   (4) البكري . معجم ما استعجم ٣ – ٨٢٤ .   (5) انظر ديوان امرىء القيس – ١١٦ .   (6) لبيد . الديوان – ٩١ – ٩٣ .   (7) أبو كبير الهذلي . شرح أشعار الهذليين ٣ – ١٠٧٧ .

وضَعَ النعاماتِ الرجال بريدها — من بين شَعْشَاعٍ وبين مُظَلَّل
أخرجتُ منها سلقة مهزولةً — عجفاء يبرُقُ نابُها كالمعول[1]

وكان ارتقاء هذه المراقب يعد من المفاخر حتى تمدحوا به فقال أبو المثلم يرثي صخر الغي[2] :

ربَّاءُ مرقبةٍ مَنَّاعُ مَغْلَبَةٍ — ركَّابُ سَلْهَبَةٍ قطَّاعُ أقرانِ[3]

وكان شعراء هذيل يتناولون ، وهم يعرضون لأوصاف هذه الجبال موضوع جمع العسل من بيوت النحل المبنية في حناياها ، وما كانوا يقاسونه في سبيل تسلقها من المصاعب ، واصفين أدواتهم التي كانوا يستخدمونها وطرائقهم التي كانوا يصلون بواسطتها إلى هذه البيوت[4] . والجبال الشامخة بألوانها المتباينة ، وأشجارها التي تكتنف سفوحها ، تثير في النفس شعوراً غريباً ، يشوبه الخوف . ويمازجه الإجلال ، لهذا الوقار الهادىء ، والرزانة المستديمة ، وقد وجد الشعراء الجاهليون في هذه الظاهرة الصامتة صوراً يعبرون بها عن هذه المشاعر .

وحاول فريق من الشعراء الجاهليين أن يكونوا دقيقين إلى حد ما في تصوير بعض صور الجبل . متناولين الخصائص البارزة فيه ، من القمم والشعاب والتلاع والسفوح . وحاولوا كذلك تمييز الألوان التي كانت تتلون بها بعض هذه الجبال . وما تثيره هذه الألوان في نفوسهم من الأحاسيس الغريبة .

الكثبان :

أما الكثبان الرملية المنتشرة في مساحات واسعة من جزيرة العرب ،

---

(١) حصاء . ليس فيها نبات ، في مشل : في حفظ ، سلقة : ذئبة . (٢) أبو المثلم — شرح أشعار الهذليين ١ — ٢٨٥ . (٣) مناع مغلبة : يمنع أن يغلب ، وقطاع أقران : لا يثبت على ما لا ينبغي عليه الثبات . (٤) انظر شرح أشعار الهذليين — ١١٠٣ — ١١١٣ .

مشكلة جبالاً وألسنة رملية متناسقة ، فهي أشكال عرفها الشعراء فارتسمت صورها في أذهانهم ، وحددوا أبعادها هندسياً ، فكان ما استطال منها حبلاً ، وما اعوجّ حقفاً ، وما استدار دعصاً ، وما كان بين التقطع والاتصال منها فهو سقط ، وما احدودب كثيباً ونقاً ، وبقيت هذه الأشكال واضحة ، يستمد منها الشاعر صوره ، ويعقد بينها وبين ما يريد الحديث عنه تشبيهاته ، ومثلما وجد الشعراء في الجبال أمكنة يذكرونها في أشعارهم كذلك وجد الشعراء في أسنمة الرمال المتناثرة وكثبانها أمكنة يقفون عندها في أحاديثهم وحكاياتهم .

فقد ذكر عبيد رمال لين فقال[1] :

تغيرت الديار بذي الدفين ... فأودية اللوّى فرمال لين

ووقف امرؤ القيس عند رملة حومل فقال[2] :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول وحومل

وأشار إليها طرفة وهو يصف ناقته فقال[3] :

مؤللتّان تعرف العتق فيهما ... كسامعتّي شاة بحومل مفرد

ورملة عالج التي ذكرها زهير في قوله[4] :

يهدّله ما بين رملة عالج ... ومن أهله بالغور زالت زلازله

وكرر ذكرها لبيد في قوله[5] :

جاوزن فلجا فالحزن يدلجن بالليل ومن رمل عالج كثباً

وقد ذكروا رملة هيثم[6] وماذق[7] وكثبان العفر[8] وحنّان[9] وغيرها .

---

(١) عبيد . الديوان – ١٣٢ . (٢) امرؤ القيس . الديوان – ٨ . (٣) طرفة . الديوان – ٣١٤ (الأعلم) . (٤) زهير . الديوان – ١٤٤ . (٥) لبيد . الديوان – ٢٦.
(٦) أوس بن حجر . الديوان – ١٤٠ . (٧) انظر البكري . معجم ما استعجم٤–١١٧٥
(٨) انظر البكري ٣ – ٩٤٨ . (٩) انظر البكري . معجم ما استعجم ٢ – ٤٧٠ .

ونستطيع أن نقول إن أغلب ما ورد فيه ذكر الرمال . كان في أثناء حديث الشعراء عن الأطلال ، وتخصيصهم ملتوى الرمل لأنهم كانوا لا ينزلون الا في صلابة من الأرض ليكون ذلك أثبت لاوتاد الأبنية . وأمكن لحفر النؤي ، وإنما تكون الصلابة حيث ينقطع الرمل ويلتوى ويرق . كما كانوا يتعرضون لذكر الرمل في حديثهم عن الثيران الوحشية. وغيرها من الحيوانات التي كانت تتعرض لهجمات الصيادين . فتتخذ الرمال الصريحة أمكنة للاختفاء لشدتها وصلابتها وصلاحها للبقاء[1] . ولم ينس الشعراء صوت الرمال إذا هبت الرياح ، وما كان يسمع لها من أصوات وما كانوا يتوهمونه فيهـــا . وهم ينصتون لهذه الأصوات ، وقد دفعهم هذا الوهم إلى أن يسموا رمالاً معينة (بالعزّاف) لأنهم سمعوا فيها عزيف الجن[2] وقد حيكت حول هذه المناطق التي لم يتمكنوا من دخولها أساطير غريبة[3] وأطلقوا على بعض هذه المواضع مواضع الجن . وضربوا بها المثل[4] .

والصورة الرابعة التي كانت تجد لها محلاً في أخيلة الشعراء . هي وصفهم للمرأة وتشبيه بعض أعضائها بالكثيب والدعص والنقا وغيرها .

السراب :

وصف الشعراء كل ما شاهدوه في صحرائهم المترامية الأطراف . وصوروه بما كان يجيش في نفوسهم من الصور ، وعقدوا بينه وبين ما كانوا يبتغون وصفه من صور المشابهة ما تهيأ لهم . وأكثر ما كانوا يتحدثون عن مظاهر الصحراء في حديثهم عن المجالات التي يظهرون فيها بطولاتهم .

---

(١) انظر ديوان النابغة – ١٧١ ، ديوان بشر – ٥١ ، ٥٥ ، ٨٢ ، ٢٠٥ . (٢) انظر ديوان زهير – ٢٦٥ . وديوان الأعشى – ٣٧ ، ٥٩ والبكري معجم ما استعجم ٢ – ٥٥٥ ، ٣–٩٤٠ ، وبلدان ياقوت ٣ /٦٦٧ ، ٦٦٨ . (٣) انظر البكري . معجم مـا استعجم ٤ / ١٣٦٦ ، وبلدان ياقوت ٤ /٨٩٦ . (٤) الهمداني . صفة جزيرة العرب /١٢٨ ، وتاريخ العرب لجواد علي ٥ /٤٢ – ٤٥ .

ولا بد أن يتطرقوا في حديثهم عن الصحراء ، إلى الحديث عن السراب ، وكانوا يتناولون في حديثهم عنه ارتفاعه الذي يكنون به عن ارتفاع النهـــار وشدة الحر ، ثم يتطرقون إلى وصف رواحلهم ، ويضفون عليها كل صفات القوة ، وهي ترتفع وتنخفض وسط هذا السراب كما تتراءى لهم ، وحتى في حديثهم عن الجبال الشامخة وسط هذا الفضاء الرحب ، والكثبان الرمليـــة المنتشرة بينها ، كانوا يختارون لأوصافها أوقات النهار حين يمتد هذا السراب فإذا كل هذه المظاهر تتحرك في الصورة وتتراقص أجزاؤها فكأنها مجاميع من شجر الدوم والنخيل تارة ، أو السفين تارة أخرى ، قال امرؤ القيس(1) :

فشبهتُهمْ في الآل لما تكمشوا ... حدائقَ دَوْم أو سفيناً مُقَـيِّرا
أو المكرعاتِ من نخيل ابن يامن ... دُوين الصفا اللائي يلين المشقّرا(2)
سوامق جَبَّار أثيثٍ فُروعُه ... وعالَيْنَ قنواناً من البُسْرِ أحمرا(3)

وقال زهير يصف ظعنا(4) :

يقطعن أجواز أميال الفلاة كما ... يَغْشَى النوّاتي غِمارَ اللُّجِّ بالسُّفُنِ
يَخفِضُها الآل طوراً ثم يرفعها ... كالدوم يَعمِدنَ للإشراف أوقطنِ

وأغلب ما ورد من الشعر في السراب كان — كما أسلفنا — من خلال أحاديثهم عن الإبل وسرعتها وشدتها ، والأعلام التي كانوا يهتدون بها وقد أشار المرقش الأكبر إلى ذلك في قوله(5) :

وأعرضَ أعلامٌ كأن رؤوسَهَا ... رؤوس جبال في خليج تُغَامَسُ
إذا علم خلفته يُهتدى بـــه ... بدا علم في الآل أغبر طامس

(1) امرؤ القيس . الديوان /٥٧ . (٢) المكرعات . النخيل المغروس في الماء . وهي أنعم النخل وأطولها . (٣) الجبار . الذي فات اليد لطوله . (٤) زهير . الديوان /١١٨ – ١١٩ (٥) المفضل . المفضليات ٢ /٢٦ .

الوديان والدارات والبرق والرياض والحرات

الوديـــان :

تقوم الأودية المتشعبة بين جبال الجزيرة بمهمتين كبيرتين، إرسال المياه عند نزول الأمطار من منحدرات الجبال إلى البحر والفيافي ، وكونها تؤلف معظم الأراضي الخصبة التي نزلت حولها القبائل وأقامت عندها بيوتها وخيامها ومرابعها . فشاص واد في ديار بني كنانة[١] وشبرمان واد نزلت عنده بنو كعب[٢] والشيِّطان واديان نزلت فيهما تميم[٣] ، وكان ورود الوديان في الشعر يأتي في كثير من الاحيان مقترناً بذكر الأحبة ، والاشتياق إلى ديارهم ، قال امرؤ القيس[٤] :

وتحسب سلمى لاتزال ترى طلاً ... من الوحش أو بيضاً بميثاء محلال[٥]

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا ... بوادي الخزامى أو على رسّ أوعال[٦]

وقال زهير[٧] :

بكرن بكوراً واستحرن بسُحرةٍ ... فهُنّ ووادي الرسّ كاليد في الفم

---

(١) انظر البكري . معجم ما استعجم ٣ /٧٧٤ . (٢) نفس المصدر ٣ /٧٧٨ . (٣) نفس المصدر ٣ / ٨١٩ . (٤) امرؤ القيس . الديوان /٢٨ . (٥) الطلا . ولد الظبية والبقرة والميثاء مسيل الوادي . (٦) الرس . البئر . وأوعال . هضبة يقال لها ذات أوعال .
(٧) زهير . الديوان /١٠ – ١٢ .

ظهرن من السوبان ثم جزّعنه على كل قيني قشّيب ومفأم[1]

وقال لبيد[2] :

درس المنا بمتالع فأبان وتقادمت بالحبس فالسوبان
فنعاف صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد يمان[3]

وطبيعي أن تكون خصوبة هذه الوديان ، ووفرة مياهها من العوامل التي حملت الناس على اتخاذها أماكن سكنى ينزلون بها ، لأن عوامل التعرية أزالت جزءاً كبيراً من سطح الأرض ، فقربت الإنسان إلى طبقة المياه الجوفية ، حتى أصبح من السهولة حفر الآبار القليلة الغور ، ولا بد ان تكثر اسماء الوديان في أخبارهم وأيامهم لارتباطهم بها . فالسوبان واد في ديار بني تميم ، وفيه حدث يوم من أيام تميم وعامر وفي ذلك اليوم سمي عامر بن مالك ، ملاعب الأسنّة ، وقد ردد ذكره زهير ولبيد في ديوانيهما[4] والأحص واد لبني تغلب كانت فيه بعض وقائعهم مع إخوتهم بكر وهذا ما حمل المهلهل على أن يقول[5] :

وادي الأحصّ لقد سقاك من العدى فيض الدموع بأهله الدعس

وذو أقر ، واد الى جنب جبل أقر ، كان أحماه عمرو بن الحارث الغساني فتحاماه الناس ، وتربعته بنو ذبيان ، فأوقع بهم هناك[6] وكان كثير من الشعراء يرددون ذكر الوديان المقترنة بالنصر ، للمباهاة ، قال ربيعة ابن مكدّم[7] .

إن كان ينفعك اليقين فسائلي عني الظعينة يوم وادي الأخرم

---

(١) قيني ، قتب طويل يكون تحت الهودج ، مفأم ، وقد وسع وزيد في جانبيه ليتسع .
(٢) لبيد ، الديوان /١٣٨ . (٣) المنا ، منزل ، وقالوا المنا ، أراد المنازل ثم حذف الزاي واللام . والسوبان واد . (٤) انظر ديوان زهير /١٢ وديوان لبيد /١٢٦ ، ١٣٨ ، ٢٣٦ .
(٥) البكري ، معجم ما استعجم ١ /١١٨ . (٦) البكري ، معجم ما استعجم ١ / ١٧٩ .
(٧) الأصفهاني ، الأغاني ١٦ /٦٥ . (دار الكتب) .

وذكرت بعض الوديان في أحاديث الشعراء عن ظعائن أحبتهم لأنها كانت تتخذ بعض الوديان مراكز تنزل فيها بعد عناء السفر الطويل والرحلات المتواصلة ، لتتزود بما تحتاج اليه من مياه ، أو طعام ، قال امرؤ القيس(١) :

فأتْبعتهم طرفي وقد حال دُونَهمُ   غواربُ رمل ذي آلاءٍ وشِبرق
على إثر حيّ عامدينَ لنيَّـــةٍ   فحلوا العقيق أو ثنيَّةَ مُطرِقِ

وقد أثارت الوديان العميقة في نفوس العرب الهواجس والتصورات لتفردهم في السير فيها وإذا استوحش الإنسان ، تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب ، وتفرق ذهنه وداخلته الظنون ومثلت له الأشخاص فكانت حكايات الجن ، وما حيك حول عزيفها من اساطير ، فكانوا يتصورون أشكال الجن ويسمعون أصواتها ، ويحسون بها وهي تتشكل بأشكال الحيوانات ، وقد حفل الشعر بأمثال هذه الحكايات وخاصة إذا توسطوا الصحراء والوديان والمهامة المقفرة قال زهير(٢) :

وبَلدةٍ لا تُرامُ خائفــةٍ   زوراءَ مُغبَّرةٍ جوانبُها
تسمعُ للجنِّ عازفين بهــاً   تضبحِ من رهبةٍ ثَعَالبُها
يَصْعَدُ من خوفها الفؤاد ولا   يَرقدُ بعضَ الرقاد صاحبُها

وقال بشر بن أبي خازم(٣) :

وخرق تعزف الجنان فيــه   فيافيه يطير بهــا السّهام

وقال الأعشى(٤) :

وبهماء تعزف جنّانها   مناهلها آجنات ســدم

وقال لبيد(٥) :

غلب تشذّر بالذحول كأنهــا   جنّ البدى رواسياً أقدامها

(١) امرؤ القيس . الديوان /١٦٩ . (٢) زهير . الديوان /٢٦٥ . (٣) بشر . الديوان /٢٠٣ . (٤) الأعشى . الديوان /٣٧ . (٥) لبيد . الديوان /٣١٧ .

واعظم اودية الحجاز وادي اضم ، الذي تردد ذكره عند الشعراء وهو واد يشق الحجاز ، حتى يصل الى البحر ، ويقع بين جبال تهامة ، ويسمى عند المدينة العثاة ، واذا انحدر الى اسفل يسمى اضماً ، قال سلامة بن جندل يذكر ديار احبته[1] :

يا دار اسماء بالعلياء من اضم   بين الدكادك من قوّ فمعصوب
كانت لها مـــرة داراً فغيرهـــا   مر الرياح بسافي الترب مجلوب

وقال طرفة[2] :

لخولـة بالاجزاع من إضم طَلَلْ   وبالسّفح من قَوّ مُقام ومحتمل

وقال النابغة[3] :

بانَتْ سُعادُ وامسى حبْلُها انجذَمَا   واحتلّت الشّرَعَ فالأجزاعَ من إضما

ومن اودية المدينة العقيق ، وفيه عيون ونخل[4] ، وفي نجد اودية كثيرة اعظمها وادي الرمة ، وهو واد يمر بين ابانين ، ينحدر من الغرب ، وهو اكبر واد بنجد يجيء من الغور والحجاز ، اعلاه لأهل المدينة وبني سليم ، ووسطه لبني كلاب وغطفان ، واسفله لبني اسد وعبس ، ثم ينقطع في رمل العيون ، لا بكثر سيله حتى يمده الجريب ، واد لكلاب[5] قال طفيل الغنوي[6] :

قذفن بفي من سأهن بصخرة   وذمّ بخيل الرمتين وناصله

وهناك اودية كثيرة وردت اسماؤها في الشعر ، وتغنى بخصبها ومنازلها ومياهها الشعراء ، فاستعذبوا الماء في وادي شوارق والابطن[7] ، وكانت غني تسكن وادي الجريب ، ثم صار لبني فزارة ، وتردد ذكره عند كثير

---

(١) شيخو . شعراء النصرانية ٤ /٤٨٦ .   (٢) طرفة . الديوان /١١١ .   (٣) النابغة . الديوان /١٦٩ ، وانظر البكري معجم ما استعجم ١ /٦٨ .   (٤) انظر البكري معجم ما استعجم ٣ /٩٥٢ وياقوت ٣ /٧٠٠ .   (٥) ياقوت ٢٠ /٨٢٢ .   (٦) الطفيل الغنوي . الديوان/٦٣ .
(٧) البكري معجم ما استعجم ١ ١٠٠ .

من الشعراء[١] ، وكذلك وادي مطرق الـــذي اشار اليه امرؤ القيس[٢] ، ووادي ذو طلال الذي تحدث عنه عروة[٣] ، ووادي الاحص الذي وقف عنده المهلهل[٤] ، واودية اخرى حفلت بها دواوين الشعراء ، وكتب التاريخ والادب والاماكن .

الدارات :

في بلاد العرب دارات كثيرة ، وهي كل ارض واسعة بين جبال ، وقال الاصمعي[٥] الدارة كل ما اتسع من الارض ، واحاطت به الجبال ، غلظ او سهل ، ولكن الذي يبدو ، انها ارض سهلة ، لينة ، بيضاء في اكثر الاحيان ، تنبت الاعشاب والنباتات الصحراوية ، وتتخذ في المباطح ونحوها

ولبعض الدارات شهرة كبيرة في الادب العربي ، لورودها على ألسنة الشعراء ، وتغنيهم بها ، وتذكرهم ايامهم التي قضوها في ربوعها ، وقد ألف الاصمعي كتاباً فيها[٦] وذكر البكري ، ان ابن فارس ألف كتاباً في الدارات والبرق ، ورام محمد بن حبيب جمعها ، وتلاه صاعد بن الحسن[٧] ولم يقع في ايدينا من هذه الكتب الا كتاب الاصمعي .

واختلف في عدد هذه الدارات ، ذكر الاصمعي ان دارات العرب المعروفة في بلدانهم واشعارهم ، ست عشرة دارة ، وقال ابن الفقيه الهمداني سبع عشرة دارة[٨] وذكر البكري منها اثنتين وعشرين دارة[٩] . اما ياقوت فقد ذكر نيفاً وستين دارة ، استخرجها – كما يقول – من كتب العلماء

---

(١) نفس المصدر ٢ /٣٧٨ . (٢) إنظر ديوان امرىء القيس /١٦٩ . (٣) انظر ديوان عروة/١٢٣ . (٤) انظر البكري معجم ما استعجم ١ /١١٨ (٥) الأصمعي . الدارات /١٤ . (٦) سعى بنشره ، وجمع رواياته الدكتور أوغست هافنر ، وهو عبارة عن ثلاث صفحات ، جمع فيها الأصمعي أبياتاً لبعض الشعراء ، يذكرون بها دارات العرب ، ونشر في مجلة المشرق السنة الأولى ١٨٩٨ (بيروت) . (٧) انظر معجـــم ما استعجم ٢ /٥٣٣ . (٨) انظر مختصر البلدان لابن الفقيه /٣٢ . (٩) انظر معجم ما استعجم ٢ /٥٣٣ .

منتقمة واشعار العرب المحكمة ، وافواه المشايخ الثقات ، واستدل عليهـا الاشعار وقال ، انه لم يرَ احداً من الائمة القدماء ، زاد على العشرين دارة ، لا ما كان من ابي الحسين بن فارس ، فانه افرد لها كتابـاً ، فذكر نحو لاربعين[1] واوصلها السخاوي في سفر السعادة الى نيّف واربعين دارة ، واستدل على اكثرها بالشواهد لأهلها فيها ، وذكر المبرد في اماليه دارات كثيرة واورد الصغاني في تكملته احدى وسبعين دارة[2] .

وجاء ذكر قسم من هذه الدارات في المعاجم اللغوية[3] وهي تنيف على مائة وعشر ، وادعى صاحب التاج ، انها لم تجتمع لغيره مع بحثهم وتنقيرهم فأوصلها الى مائة واثنتي عشرة دارة ، ذكرها مرتبة على الحروف الهجائية[4] .

واشهر هذه الدارات ، دارة جلجل التي اقترنت بذكر امرىء القيس[5] ودارة القلتين التي ذكرها بشر فقال[6] :

سمعت بدارة القلتين صوتاً لحنتم فالفؤاد به مـروع[7]

ودارة موضوع التي قال فيها الحصين بن الحمام[8] :

جزى الله افناء العشيرة كلهـا بدارة موضوع عقوقاً ومأثما

ودارة الصفائح ، وفيها يقول الافوه الاودي[9] :

تبكيها الارامـل بالمآلي بدارات الصفائح والفصيل

ودارة المروراة ، قال زهير[10] :

تربّص فان تُقو المروراة منهم وداراتها لا تُقوِ منهم اذاً نخل

---

(١) ياقوت . معجم البلدان ٢/٥٢٦ . (٢) التاج الدار . (٣) انظر مادة (دار) في اللسان والتاج . (٤) الزبيدي . التاج (دار) .
(٥) انظر ديوان امرىء القيس /١٠ . (٦) بشر . الديوان /١٣٢ .
(٧) حنتم : اسم امرأة ، جاء به مرخماً . (٨) الأصمعي . الدارات /١٨ ، والمفضليات ٦٢/١ (٩) الافوه . الديوان /٢٣ . (١٠) زهير . الديوان /١٠٠ .

ودارة محصن ، قال دريد بن الصمة[1] :

فدارة محصن فبذى طلوح   فسرواح المثامن فالضواحي

واغلب احاديث الشعراء – كما وردت في النماذج – المتقدمة عن الدارات كان يأتي من خلال احاديثهم عن الاماكن التي ارتبطت ببعض الحوادث ، تاركة في نفوس الشعراء وقعاً تاريخياً معيناً وكانوا يذكرونه مقترناً بهذه الدارات

ا البرق :

اما البرق فهي غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة وتنبت اظهرها البقل والشجر ، وتكون الى جنبها الرياض احياناً ، والغالب على حجارتها البياض ، وفيها حجارة حمر وسود تبرق بلون حجارتها وترابها[2] .

وبرق ديار العرب تنيف على مائة ذكرها صاحب القاموس والتاج واستشهد على كل برقة منها بشاهد واحد ، او اكثر ، وقد شاع ذكر البرق في الشعر الجاهلي ، ودارت اسماؤها في احاديث الشعراء ، وهم يذكرون ايام لهوهم وصباهم ويحنون الى مرابع احبتهم التي كانوا يتخذونها في امثال هذه البرق ، فيقيمون عندها ، وكان ذكرها يأتي من خلال احاديث الشعراء عن الحوادث التي اقترنت بها .

وربما تكون العوامل التي دعتهم الى ذكرها هي نفس العوامل التي دفعت الشعراء الى ذكر الدارات ولكن الذي يتميز في البرق انها كانت في اغلب الاحيان – تتخذ اماكن للاستقرار واقامة القبائل ، واشهر هذه البرق ، برقة ثهمد التي افتتح بها طرفة معلقته فقال[3] :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

---

(١) دريد . شعراء النصرانية .

(٢) انظر مادة برق في اللسان والتاج .   (٣) طرفة . الديوان / ٣٠ .

وبرقة رحرحان ، قال لبيد يعدد مفاخره[1] :

اني امرؤ منعت ارومة عامر ضيمي وقد جَنَفَتْ عليّ خصُوم[2]
جهدوا العداوة كلها فأصدّها عني مناكب عزّها معلوم
منها حُوَيّ والذهاب وقبله يوم ببرقة رحرحان كريم

وبرقة ثَمْم قال بشر[3] :

تبيّن خليلي هل ترى من ظعائن غرائر ابكارٍ ببُرقة ثَمْمِ

وبرقة الروحان ، قال عبيد يتحسر على تفرق قومه[4] :

لمن الديار ببرقة الروحان درست وغيّرها صروف زمان

وبرقة حليت[5] وبرقة خنزير[6] وهناك برق كثيرة اخرى يمكن الرجوع اليها في دواوين الشعراء[7] .

الرياض :

تشكل الرياض في جزيرة العرب مساحات لا بأس بها ، ففيها من الرياض ـ كما يذكر ياقوت[8] مائة وست وثلاثون روضة ، سميت بهذا الاسم ، لاستراضة الماء فيها[9] وهي تكون مطمئنة ، يسيل اليها ماء السيول فيستريض فيها ، فتنبت ضروب من العشب والبقول ولا يسرع اليها الذبول ، واذا اعشبت الرياض ، وتتابع عليها الوسمي ربعت العرب بنعمها جمعاء ، وكانت تسيل في بعضها الجداول الصغيرة وتسمى الرياض حدائق اذا التف عشبها وتكاثف .

---

(١) لبيد . الديوان ١٣٢ . (٢) جنفت . جارت . (٣) بشر . الديوان/١٩٣ .
(٤) عبيد . الديوان/١٣٠ . (٥) انظر ديوان عامر بن الطفيل . الديوان/١٣٦ .
(٦) انظر ديوان الأعشى، الديوان/٥٧ . (٧) انظر ديوانامرىء القيس /٧٨ وديوان بشر /٢٠٧ وديوان الأعشى /٥٤ . وديوان لبيد /١١٨ .
(٨) ياقوت . معجم البلدان٢/٨٤٠ . (٩) استراض .استنقع فيه الماء .

وقد استرعى الجاحظ ذكر الشعراء لرطوبة النبات ، ولدونة الاغصان وما يجري في ديارهم احياناً من خصب بعد مطر نزير[1] وقد اعجب اعجاباً شديداً بوصف عنترة لروضة من هذه الرياض ، وتصويره للذباب وحركة جناحيه حين يسقط وتشبيهاته للحديقة في استدارتها وصفاء مائها ، وتشبيه صوت الذباب بصوت الشارب المترنم[2] .

وكانت بعض الرياض تضاف الى الاعلام او الاقوام او المواضع المجاورة او الوديان، وللشعراء في ذكرها مواقف . قال طرفة يذكر روضة دعمي[3] :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
فروضة دعميّ فاكفاف حائل ضللت بها ابكي وابكي الى الغد

وقال المسيب بن علس في رياض الاخرمين[4] :

ترعى رياض الاخرمين له منها موارد ماؤها غدق

وقال الاعشى يذكر روض التناضب[5] :

مليكيّة جاورت بالحجا زقوماً عداة وارضاً شطيرا
بما قد تربع روض القطا وروض التناضب حتّى تصيرا

وقال لبيد في رياض الاعراف[6] :

هلكت عامر فلم يبق منها برياض الاعراف الا الديار

ومن هذه النماذج نجد ان وصف الشعراء للرياض لم يكن واحداً بل يتفاوت ادراكهم لسر الجمال واحساسهم به .

---

(١) الجاحظ الحيوان ٣ /١١٩ — ١٢٢ . (٢) . الجاحظ . الحيوان ٣/٣١١ — ٣١٢ .
(٣) طرفة الديوان / ٣٠٨ (٤) شيخو . شعراء النصرانية ١ / ٣٥٤ .
(٥) الأعشى . الديوان /٨٥ . (٦) لبيد . الديوان /٤٤ .

الحرّات :

اما الحرار ، فقد اشتهر بعضها بالخصب والنماء وبكثرة المياه فيها ولا سيما حرار المدينة وخيبر ، حتى اصبحت تؤلف مجموعة كبيرة من القرى المزدحمة بالسكان وقد استفاد العرب من هذه الحرار باستخراج احجار الرحى والمسان منها ، وشغلت احاديث الحرار جانباً كبيراً من قصص العرب ورواياتهم ، فحرة اشجع بين مكة والمدينة ، وهي التي ظهرت فيها نار الحدثان ، فكان طوائف من العرب يعبدونها تشبهاً بالمجوس ، فقام رجل من عبس يقال له خالد بن سنان — وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلّم ذاك نبي ضيّعه قومه ، فقال : انا اقتل هذه النار كيلا تعبدها العرب ، فتشبه بهذه الطماطم ، يعني المجوس فقال له اخوته ، مهلاً يا خالد انك ان قتلت هذه النار لا نأمن عليك من ان تموت قال : لا ابالي فقبض على عصاه ، وشدّ عليه ثيابه ، ومضى نحو تلك النار ، وجعل يضرب بعصاه ويقول : بدّا بدا ، كل هذا له مؤدّى حتى اطفأها[1] .

وظلت احاديث الحرار تتردد حتى عهد الخلفاء الراشدين ، فحرة النار لم تزل ثائرة تخرج منها النار حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي)[2] .

ولا بد ان تدل هذه البراكين — التي كانت عاملاً من عوامل وجود هذه الحرار على ان فعلها لم ينقطع في جزيرة العرب ، وشأن الحرار في الشعر ، شأن الدارات والبرق والرياض ، فقد تطرق لذكرها الشعراء مندفعين بنفس العوامل التي اندفعوا من اجلها لقول الشعر في الدارات والبرق والرياض ، فقد ذكر النابغة حرة النار فقال[3] :

إمّا عُصيت فاني غيرُ مُنفلتٍ ... مني اللصابُ فجنبا حرّة النار

---

(١) البكري . معجم ما استعجم ٢ /٤٣٥ .
(٢) نفس المصدر ٢ /٤٣٦ .
(٣) النابغة الديوان /٥٦ .

تُدافعُ الناسَ عنا حين نركبُهــا   من المظالم تُدعى أم صبَّارِ[1]

وذكر حرة راجل فقال[2] :

يؤمّ بربعيّ كأن زهــاءه   اذا هبط الصحراء حَرَّةُ راجِلِ[3]

وذكر بشر بن أبي خازم حرة ليلى وحرة ضارج فقال[4] :

مُعاليةً لاهمَّ إلاَّ محجّــر   وحرة ليلى . السهل منها ولوبُها[5]

وقال في حرة ضارج :

بكل فضاء بين حرة ضارج   وخل الى ماء القصيبة موكب

ان تحديد الشعراء لهذه المواضع لم يقتصر على كونها مناطق خصب اتخذتها القبائل مرابع تنعم بخصبها ومياهها ، وانما هي شيء غير هذا ، فالشعراء حاولوا ان يحددوا لنا هذه المناطق . ويرسموا اماكنها بكل دقة ، وما كانوا يجدونه فيها ، وبهذه المعلومات يوضحون اخباراً تاريخية ، ويصورون تخطيطاً جغرافياً يمكن الانتفاع منه ، لانه يلقي اضواء قوية على هذه المناطق التي لم تزل مجهولة وفي هذه الناحية تكمن اهمية الشعر الجاهلي الذي يعد من اصدق الوثائق صحة وتوثيقاً .

---

(١) اللصاب . الواحد لصب . الثقب الضيق من الجبل . حرة النار . حرة لبني مرة ، يقول : إن عصيتموني فإني ألجأ إلى هذه الحرار فلا تصل إلى الجبل .

(٢) النابغة . الديوان / ٩٥ .

(٣) الربعي . الجيش المنسوب إلى الربع ، يشبه الجيش في كثرته بجبل .

(٤) بشر بن أبي خازم . الديوان /١٤ .

(٥) معالية . مرتفعة تقصد أرض العالية ، ومحجر وحرة ليلى . موضعان . ولوب ، جمع لوبة ، وهي الحرة . يقول بانت تقصــد العالية وليس لها هم إلا أن تأتي محجراً وحرة ليلى .

المياه

الآبـــار :

اجمع المؤرخون والباحثون على ان جزيرة العرب كانت تختلف اختلافاً كلياً من حيث وفرة المياه ، والخصب ، وكثرة الامطار ، والشعر الجاهلي يحفل باشارات كثيرة الى الغدران والجداول والعيون والسيول والوديان ، وكثيراً ما كان يأتي ذكر بعض هذه المظاهر في حديث الشعراء عن قدرتهم على اجتياز المسالك الصعبة ، وقطع مجاهل الارض في جرأة ، غير محتاجين الى وصف الواصف ، او هداية الدليل ، قال تأبط شرّاً يصف غدراناً تجمعت من سيل عظيم ، خلع الصخر من مواضعه[1] .

وشعب كشل الثوب شكس طريقه   مجامع صوحيه نطاف مخاصر[2]
به من سيول الصيف بيض اقرها   جبار لصم الصخر فيه قراقر

وكانت العرب تشبه الدروع الرقيقة النسج لصفائها ، والسيوف بالغدران. قال عبد قيس يصف درعه[3] :

---

(١) الأصمعي . الأصمعيات / ١٣٥ . (٢) الصوحان . بضم الضاد وفتحها . جانبا الجبل أو حائطا الوادي . النطاف . جمع نطفة ، وهي ما يجتمع من ماء المطر في موضوع . (٣) المفضل المفضليات ٢ /١٨٦ .

وسابغة من جياد الدروع تسمع للسيف فيها صليلا
كماء الغدير زفته الدبور يجر المدجج منهــا فضولا

فاذا امتلأ الغدير ، وضربته الرياح بدت فيه طرائق ، وعندها تتضح الصورة في ذهن الشاعر ، وتتمثل صافية رقراقة ، قال ابو قيس بن الاسلت يصف درعه(١) :

اعددت للاعداء موضونة فضفاضة كالنهي بالقاع
احفزها عني بذي رونق مهنّد كالملــح قطاع

وقال الشنفرى يصف حساماً(٢) :

حسام كلون الملح صاف حديده جزار كاقطاع الغــدير المنعت

واستخدم شعراء شرقي الجزيرة العربية صورة الانهر المتدفقة في المدح لاظهار فيض الممدوحين . قال النابغة يمدح النعمان بن المنذر ويعتذر اليه (٣) .

فما الفراتُ اذا هبَّ الرياح له ترمي غواربــه العبرين بالزبد
يوماً باجودَ منه سيب نافلةٍ ولا يحول عطاء اليوم دون غدِ

وقال بشر يمدح اوس بن حارثة(٤) :

ولو جاراك ابيض متلئبٌ فُرى نبَط السّواد له عيال(٥)
تهفُّ يداك من هذا وهذا وتعزف من جوانبه السِّجال (٦)
لاصبحت السفين مُخوّياتٍ على القُذُفاتِ ليس لها بلال(٧)

---

(١) المفضل . المفضليات ٢/ ٨٤ . (٢) المفضل . المفضليــات١ /١٠٩ وانظر معلقة عمرو ابن كلثوم في شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري/٤١٦ وديوان أوس /٨٤ وديوان عامر بن الطفيل /٢٧، ١٠٢ ، وديوان الأعشى /٢٥ والأصمعيات /١٥٠، والمفضليات ١/ ٤٠ ، ٢/ ٨٢.
(٣) النابغة . الديوان /١٥٤ (مختار الشعر الجاهلي للأعلم) . (٤) بشر . الديوان /١٦٩—١٧٠ .
(٥) أبيض متلئب . أي نهر أبيض . (٦) السجال . جمع سجل . بفتــح السين وهو الدلو الضخمة المملوءة ماء . (٧) مخويات . أي مرتفعات . القذفات . الجبال ، وللأعشى=

ويمكننا ان نستدل ايضاً على وفرة المياه في بعض المناطق من اشارات بعض الشعراء الى وجود العروض والطحلب الاخضر الذي يعلو الماء ، قال ابو كبير يرثي بعض أصحابه[1] :

ولقد وردتُ الماءَ فوقَ جمامــة مثلُ الفَريقة صُفّيت للمُدنفِ[2]
فصدرت عنه ظامئاً وتركتــه يَهتزُّ غَلفَقُهُ كأن لم يكشف

على ان هذه المناطق لم تكن في الواقع الا جزءاً صغيراً من جزيرة العرب ، اما المناطق الاخرى التي تشغل المساحات الشاسعة ، فقد كانت نادرة المياه ، وان توفرت بعض الآبار في اجزاء متباعدة منها ، ولهذا وجدنا التحول الاجتماعي الشامل في حياة سكانها ، فغلب عليهم طابع البداوة ، فكانوا قبائل رحلاً ، يطلبون الماء ويسعون وراء الكلأ ، الذي يعتبر عماد حياتهم .

وكان العرب في فجر تاريخهم البعيد ينظرون الى المياه نظرة تقديس لانها مورد الخصب والنماء ، وواهبة البركة والخير فكانوا ينشدون الأراجيز في اثناء حفر الآبار ، ويتبين من الاراجيز التي وصلت الينا ، ان نار المنافسة اشتعلت بين بطون قريش المختلفة ، كي يحفر كل بطن منها بئراً خاصة به ، ويسقي منها حجاج مكة ، فقد حفر قصي بن كلاب ابو القبيلة كلها بئراً سماها العجول . وفيها يقول بعض رجاز الحاج[3] :

نــروى العَجول ثم ننطلــق قبلَ صدور الحاج من كل أفُقْ
إن قصيّــاً قد وفى وقد صدقْ بالشبــع للناس وريّ مُغْتَبَقْ

وحفر بنو هاشم زمزماً وسَجْلة وبذرّا ، قال ابن اسحق : وقد سمعت

= قصائد كثيرة، يسلك فيها هذا المسلك، ويشبه الممدوح بالفرات أو النيل أو النهر. انظر /٢٩ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١٩٣ ، ٢٩٧ ، ٣٣٩ .

(١) أبو كبير . شرح أشعار الهذليين٣ /١٠٨٦.

(٢) الفريقة حلبة تطبخ للنفساء مع حبوب .

(٣) البلاذري . فتوح البلدان /٤٨ .

من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم . (١)

ثم ادْع بالمـاءِ الرويّ غير الكدر يَسقي حجيج الله في كل مَبَرّ

ليس يُخافُ منه شيء ما عَمَر

وحفر بنو عبد شمس خُمّاً ورُمّاً والطوى . وحفر بنو أسد شُفَيّة ، وحفر بنو عبد الدار أم أحراد ، وحفر بنو جمح السّنبلة وحفر بنو سهم العَمْر وحفر بنو عدي الحفير (٢) .

ونظم كل فريق منهم الاراجيز التي تثني على بئره ، وتمدح ماءه وقد تعيب ماء غيره من الآبار ، حتى أننا نجد بينها ما يشبه النقائض المعروفة . فاكتفى بنو سهم ، وبنو عدي بوصف آبارهم بغزارة الماء قال شاعرهم (٣) :

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا بحراً يَجيشُ ماؤه غَزيراً

وشبه بنو جمع وبنو أسد ماء آبارهم بماء المطر الهاطل من السماء ، وأضاف بنو أسد إلى بئرهم صفة أخرى ، وهي أن ماءه ليس بالماء الآسن المتكدّر فقالوا (٤) :

ماء شفُيّة كماء المُزن وليس ماؤها يطرق أجْن

ووافقهم على ذلك التشبيه بنو عبد شمس ، ولكنهم ذهبوا فيه إلى العذوبة مع الصفاء ، قالوا (٥) :

إن الطوى إذا شربتم ماءها صوبُ الغمام عُذوبة وصفاء

ووهب بنو هاشم بئرهم سجلة للمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، ويزعم بنو نوفل أن المطعم ابتاعها من أسد بن هاشم ، وقد وجدت خالدة بنت

---

(١) ابن هشام . السيرة ١/١٥٦ . (٢) انظر ابن هشام ١/١٥٩ – ٦٢ . والبلاذري . فتوح البلدان /٤٩ . (٣) البلاذري . فتوح البلدان /٤٩ . (٤) نفس المصدر/٤٩ .
(٥) نفس المصدر/٤٩ وانظر ياقوت (الطوي) .

هاشم الفرصة مواتية لتجلو محاسنها ، فذكرت أنها محفورة في أرض طيبة سهلة وأن ماءها غزير يروي الحجيج دفعة بعد دفعة[1] .

نحن وهبنا لعديّ سجّلة في تُربةٍ ذاتِ عَذَاة سَهْلة
تروي الحجيج زغلة فزغلة

وإذا كنا نرى في الشعر السابق فخراً ، فإن أشعار السقاة أو المائحين تختلف وتتنوع ، فمنهم من يفتخر بقوته وقدرته على العمل ، ومنهم من يمدح صاحب البئر وحافرها كما ذكرنا [2] .

ولعلّ الحرمان ، وندرة المياه ، وجدب الأرض ، هو الذي جعلهم يبالغون في تقدير الحصب ، ويرون له رونقاً خاصاً في هذه البيئة الجرداء ، ومن هنا وجدنا القصص الطويلة التي دارت حول الآبار والمياه ، وما ورد حول حفرها من روايات دليل على ما ذكرنا [3] .

وهم بعد هذا لم يكتفوا بتقدير الحصب وحده ، وإنما قدسوا مواطن الماء القديمة ، واعتقدوا فيها أسراراً غامضة ، وأضفوا عليها من القوى الخفية ما لم يضفوه على غيرها من الأماكن ، حتى كان إذا غمّ عليهم أمر الغائب ، جاؤا إلى بئر قديمة ، بعيدة الغور ، نادوا يا فلان أو أبا فلان ، ثلاث مرات فإن كان ميتاً لم يسمعوا في اعتقادهم صوتاً ، قال شاعرهم [4] :

دعوت أبا المغوار في الحفر دعوة فما آض صوتي بالذي كنت داعياً
أظن أبا المغوار في قعر مظلم تجر عليه الذاريات السوافيا

وقال آخر [5] :

وكم ناديته في قعر ساج بعادي البئار فما أجابا

---

(١) البلاذري . فتوح البلدان/٤٩ . (٢) انظر أمالي القالي ٢/٢٤٤ . (٣) ابن هشام السيرة ١/١٥٤ . (٤) الألوسي . بلوغ الأرب ٣/٣ . (٥) المصدر نفسه ٣/٣ .

وما بئر زمزم إلا دليل من هذه الأدلة ، فقد انصرف اليها الناس لفضلها على سواها من المياه ، لجلال قدرها ، وكان يتمثل بشرفها على سائر المياه ، فكانوا يتفاخرون في المقام عليها ، والشرب منها ، والاغتسال بها ، لمكانها من المسجد الحرام ، ولأنها بئر اسماعيل عليه السلام[1] وقد بلغت منزلة من يشرب منها درجة الشرف والفخر حتى قال الأعشى يهجو رجلاً ويؤنبه ويخبره أنه مع شرفه لم يبلغ مبلغ قريش الذين هم سكان حرم الله ولهم حظ الشرب من زمزم[2] .

فما أنت من أهل الحُجون ولا الصفا ولا لك حق الشرب من مـــاء زمزم

وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلّها وعلى سائر العرب فقـــال مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو يفخر عـــلى قريش بما ولوا عليهم من السقاية والرفّادة[3] .

ورثـــنا المجد من آبا ئنـــا فنمى بنا صعـــدا
ألم نسق الحجيج وننحـ ـر الدلافـــة الرفّـــدا
وزمـــزم في أرومتنـــا ونفقـــأ عين من حسدا

وقال حذيفة بن غانم أخو بني عديّ بن كعب بن لؤيّ[4]

وساقي الحجيج ثم للخير هـــاشم وعبد مناف ذلك السيد الفهري
طوى زمزماً عند المقام فأصبحت سقايته فخراً على كل ذي فخر

وبلغ إعزازهم للمطر مبلغاً عظيماً ، حتى أصبح غاية دعائهم للمرجـــو والمشكور أن يقولوا . سقى الله فلاناً الغيث ، وأسقاهم ، وطلبوا له السقيا حتى إذا ذكروا أياماً طابت لهم قالوا . سقى الله تلك الأيام ، وربما دعوا للديـــار

---

(١) انظر الثعالبي ثمار القلوب /٤٤٤ . انظر الأعلاق النفيسة لابن رستة/ ٤٠ و [illegible] يافوت (زمـــزم) (٢) الأعشى . الديوان/١٢٣ . (٣) ابن هشام . السيرة ١/١٦٤ .
(٤) ابن هشام السيرة ١/١٦٤ .

المحبوبة بالسقيا كما حدثنا الشعراء .

وندرة المياه اضطرتهم إلى أن يمهروا في العثور على مواضع الماء وعرفت هذه الفراسة عندهم ، وعرف بعضهم بها ، فكانوا يستدلون عليه ببعض الإمارات الدالة على وجوده فيعرفون بعده وقربه بشم التراب أو برائحة بعض النباتات ، فالثيل مثلاً لا يكاد ينبت إلا على ماء وفي موضع تحته ماء يستدل به عليه [1] وكانوا يهتدون إلى الماء من حركة بعض الحيوانات ، ويسمى من له هذه الفراسة (بالنصّات) أو (القناقن) [2] أما حفظ المياه ، فكانت له طرق معينة ، منها أنه كان يعهد إلى الجباة بجمعها في أحواض خاصة ، وقد ذكر النابغة هذه الطريقة في قصيدته التي يمدح فيها عمرو بن هند فقال [3]

على أنيابهـا بِغَريض مُزْنٍ تَقَبّله الجُبَاةُ مـن الغمـام
فأضحتْ في مَدَاهِنَ باردات بمنطَلَق الجنوبِ على الجَهَام

أو كانوا يجمعونها في حفر بين الجبال ، قال أوس بن حجر [4]

وأخلفه من كل وقط ومدهن نطاف فمشروب يباب وناشف

وكانوا يتخذون مواضع تحفظ ماء السماء ، فتحفر فيها حفرة ، وتجعل لها مثايل من الماء ، فيجتمع ماء المطر فيها ، فيشربه الناس ، وهذا ما أطلقوا عليه الثماد . قال بشر بن أبي خازم يشير إلى يوم النثار الذي كان بين بني أسد وأحلافها وبين بني عامر [5] .

اليكَ الوَجْهُ إذ كانت مُلوكي ثِمادَ الحزنِ أخطأها الربيعُ [6]

---

(١) أبو حنيفة . النبات/٨٢ . (٢) القناقن . البصير بالماء في حفـر القنى ، وقيل . هو البصير بالماء تحت الأرض ، أو بحفر المياه واستخراجها ، وقيل المهندس الذي يعرف موضع الماء تحت الأرض ، فيعرف مقدار الماء في البئر قريباً أو بعيداً من السماع (التاج مادة قن) .
(٣) النابغة . الديوان /٢٠٣ (مختار الأعلم الشنتمري) . (٤) أوس بن حجر . الديوان/٦٨.
(٥) بشر . الديوان / ١٣٥ . (٦) الملوك . جمع الملك بتثليث الميم ، وهو ها هنـا بمعنى الماء .

وقال عبيد يصف أحد بني أسد[1]

القائد الخيلَ تَرْدي في أعنتّهـا ورِدَ القطا هَجّرتْ ظِماً إلى الثّمدِ

أما حفظ الماء في بطون الإبل فكان معروفاً عند العرب الجاهليين ، وقد أجمع شرّاح بيت علقمة على تفسير قوله[2]

وقد أصاحب فتياناً طعامهم خضر المزاد ولحم فيه تنشيم

إن خضر المزاد ، هي البطون ، أراد أنهم يفتظون ماءها ، وكانوا إذا قطعوا مفازة وأعوزهم الماء ، افتظوا كروش الإبل ، وشربوا ما فيها من ماء ، ويذكر محمد ابن حبيب[3] ، أن رافع بن عمير الطائي ، دليل خالد بن الوليد (بن المغيرة) من اليمامة إلى الشام حين كتب إليه أبو بكر رحمه الله بالمضي إلى الشام ، فظمأ الإبل وكعمها[4]

وكانوا يشقون بطون الإبل ، ويسقون ماءها الخيل ويشربونه ، ويأكلون لحومها ، ومن غير المعقول أن تكون هذه الحادثة الأولى ، فلو لم تكن مسبوقة بعشرات غيرها ، لما خاطر المسلمون باستعمالها ، وعرضوا جيوشهم لنتائج غير معلومة ، إذ لا بد أن يكون طعامهم هذا في الغزو والسفر البعيد الغاية .

أما ما ذكره صاحب الأغاني عن السليك[5] فدليل آخر من أدلة هذه الندرة التي دفعتهم إلى إيجاد طرق غريبة في حفظ المياه ، قال أبو عبيدة .

---

(١) عبيد . الديوان/٥٩ . (٢) علقمة . الديوان/٤٣٢ . وجاء في التاج الفظ . ماء الكرش ، يعتصر ، ويشرب منه عند عوز الماء في المفاوز والفلوات ومنه قوله افتظ الرجل ، وهو أن يسقي بعيره ثم يشد فمه لئلا يجتر فإذا أصابه عطش شق بطنه فعصر فرثه فشربه . (٣) محمد بن حبيب . المحبر/ ١٩٠ . (٤) كعم والكعام . شيء يجعل على فم البعير لئلا يأكل أو يعض وكم البعير . شد فاه . (٥) الأصفهاني . الأغاني ١٣٣/١٨ ، وتنسب القصة إلى دعيمص الرمل العبدي في المحبر١٨٩ ، وفي الأزمنة والأمكنة ٢١٤/٢ ، ينسبها للسليك ، ويذكر أخباراً مستفيضة عن أدلاء العرب وقدرتهم على الاهتداء بواسطة النجوم ، ومعرفتهم مجاهل الطريق والمفاوز .

حدثني المنتجع بن نبهان قال . كان السليك بن عمير السعدي ، إذا كان الشتاء استودع ببيض النعام ماء السماء ، ثم دفنه ، فإذا كان الصيف ، ونضبت المياه وانقطعت إغارة الخيل ، أغار فلا يخطىء السمت ، ولا يضل عن تلك الدفائن فيمضي معتسفاً على غير هدى ، حتى يقف على البيضة .

إن ندرة المياه التي وجدناها تتفاوت عند هؤلاء الناس وتختلف صور التعبير عنها ، دفعتهم إلى السعي وراء الماء ، والاستقاء منه بأي شكل من الأشكال، والمحافظة عليه بأي وجه من الوجوه، وهذا ما دفع القبائل إلى الاحتفاظ بعيون معينة ، وآبار معلومة يستقون منها ، ويحمونها بكل ما يقدرون عليه، من وسائل الحماية ، لذا فقد اقتصرت بعض الآبار والعيون على هذه القبائل التي كانت تقطن عندها ، وتنتفع بها ، وفي كثير من الأحيان كانت مصدراً للنزاع الخطير بين هذه القبائل ، وسبباً من أسباب إثارة الحروب الطويلة ، وقد سميت بعض أيام العرب بأسماء هذه العيون والآبار .

أما وسائل استخراج المياه من الآبار فكانت بطريقة الدلاء ، والحبال والبكرات ، وكانت مواقع هذه الآبار ، مواضع للخصب والرزق ، يجتمع حولها الناس ويقيمون عندها ، فكانت تشعرهم بالتآلف وتملأ نفوسهم بالاطمئنان وقد صور لنا الشعر هذا الجانب من الحياة تصويراً دقيقاً ، وما كان يثيره التفرق في نفوسهم من ألم ، وحسرة نتيجة جفاف هذه العيون أو نضوب تلك الآبار .

وطبيعي أن يتحدث الشعراء عن الوسائل التي كانوا يستخرجون بها المياه والوسيلة التي ينقلونها بها من قرب ومزادات وما كانت تبعثه في نفوسهم أصوات هذه البكرات من حنين وشوق وما صاحب هذا العمل من صور وتشبيهات استعملوها في حياتهم ، قال بشر بن أبي خازم [1] :

---

(١) بشر . الديوان/ ١٤ .

تحدّر ماء البئر عن جرشيّة   على جربة تعلو الديار غروبها (١)
بغرب ومربوع وعود تقيمه   محالة خطاف تصر ثقوبها (٢)

وقال أيضاً ، وقد جعل قشيراً أحد خصومه ، غاية لحيله ، تطوه ، حتى تنتهي إلى آخر قومه كما أن الدلاء غايتها قعر القليب (٣) .

جعلن قشيراً غاية يهتدى بها   كما مدّ أشطان الدلاء قليبها

وقال يهجو أوس بن حارثة ، ويشبه نقض قومه للعهد بقطع الحبل من الدلو (٤) .

إذا عقدوا لجار أخفروه   كما غرّ الرشاء من الذنوب (٥)

وكثيراً ما كانوا يشبهون الرماح بحبال البئر في الطول (٦) أما زهير فيشبه الاتن في سرعتها وانقضاضها على عدوها بالدلو إذا انقطع حبلها فيقول(٧) :

فشج بها الأماعز وهي تهوي   هويّ الدلو أسلمها الرشاء

وكانوا يسمون من يستقي من الآبار نازلاً فيها عند قلة مائها : المائح ، أما الماتح فهو الذي يستقي وهو على حافة البئر ورأسه ، ووردت إشارات كثيرة إلى الدلاء في مجال تشبيه الدموع بها (٨) ، أما أعجاز النساء الممتلئة فقد شبهها الأعشى بالعجل المملوة بالماء فقال(٩) :

والساحبات ذيول الخز آونة   والرافلات على أعجازها العجل

---

(١) الجرشية . ناقة منسوبة إلى جرش ، وهي أرض من مخاليف اليمن تنسب اليها . وأهل جرش يستقون الماء على الإبل ، والجربة : المزرعة ، والديار : جمع دير ، وهي المشارة من المزرعة ، والساقية بين المزارع .   (٢) الغرب . الدلو العظيمة . المربوع . الحبل المفتول على أربع قوى العود البعير المسن .   (٣) بشر ، الديوان/١٧ .   (٤) بشر . الديوان/٢١ .   (٥) غر . قطع .   (٦) انظر ديوان بشر /٢٣ والمفضليات ١٢١/١ .   (٧) زهير . الديوان /٦٧ .
(٨) انظر ديوان علقمة (مختار الأعلم) /٤٢٥ ، وديوان زهير /١٤٨ ، وديوان لبيد/١٢١ .
(٩) الأعشى . الديوان/٥٩ .

الحساء

على نحو ما ورد ذكر الآبار والعيون في الشعر ، ورد ذكر الحساء أيضاً ومياه الحساء تجري تحت الحصا على مقدار ذراع ودونه ، وأحياناً على ذراعين وربما أثارته الدواب بحوافرها [1]. ومواضعها المناطق الرملية التي تكون تحتها صلابة ، فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل ، نزل الماء ، فمنعته الصلابة أن يفيض ومنع الرمل السمائم أن تنشفه ، فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء [2] واستخراج المياه من هذه الأرض لا يحتاج إلى حبال للإدلاء بها ، قال طفيل الغنوي [3] :

إذا وردت تسقي بحسي رعاؤها ... قصير الرشاء قعره غير مجعل

وكانت مناطق الحساء معروفة عندهم ، حتى جعلوها أمكنة ينزلون عندها ، وذكرها الشعراء وهم يستذكرون ديار أحبتهم [4] .

وحدد امرؤ القيس بعض مناطق الحساء [5] . وتتميز الحسي بأنها كلما نزح دلو جمت أخرى . ولهذا شبه امرؤ القيس فرسه بها ، فكلما حرك بالساقين ، واستحث بهما كثر جريه [6] .

يجم على الساقين بعد كلاله ... جموم عيون الحسي بعد المخيض [7]

الأحواض

أما الأحواض فقد استعملت في السقي ، فإذا تساقطت الأمطار سالت إلى هذه الحياض للاستفادة منها أيام الجفاف ، فيشربون منها ، ويسقون أنعامهم

(١) عرام بن الأصبغ . أسماء جبال تهامة / ٤٢١ ، نوادر المخطوطات .
(٢) المبرد . الكامل ١ / ١١٤ ، وانظر اللسان (حسا) وجواد علي ٨ / ٣٠٩ . (٣) الطفيل الغنوي . الديوان / ٣٦ . (٤) انظر ديوان زهير / ٥٦ ، وديوان بشر / ٢ ، وديوان لبيد / ٢٦٢ .
(٥) انظر ديوان امرىء القيس / ٦٩ . (٦) امرؤ القيس . الديوان / ٧٥ . (٧) المخيض . أي يمخض ويستخرج ماؤه فضرب مثلا للفرس .

وكانوا يطرحون في أحواض الإبل حجراً يقدرون عليه الماء ، ويقتسمونه بينهم وكانوا يحاولون المحافظة على هذه الأحواض بشتى الأساليب فيدعمونها ويقوونها بالتراب ، أو يرفعون جدرها فوق الأرض ، أو ينصبون الأحجار ليسدوا ما بينها من الخصاص بالمدَرة المعجونة [١] ، وكانوا يعملون فيها الصنابير والمخارج والمسايل لخروج الماء منها [٢] .

وفي كتب اللغة ألفاظ عدة أطلقت على الحوض ، شملت اتساعه وعمقه وشكله وبناءه ، وهدمه وتنقيته ، وحددت هذه الأوصاف بدقة إلى جانب ما ذكرته في المصانع [٣] والصهاريج [٤] والأحباس [٥] والقلات [٦] ، والمداهن [٧] .

ولا بد أن تدل هذه الكثرة من الألفاظ على تعمق القوم بكل ما يدور حول المياه ، باعتبارها أساساً لحياتهم ، وقد ألف كل من الأصمعي وأبي زيد الأنصاري كتاباً في مياه العرب [٨] ، ووضع سعدان بن المبارك كتاباً في الأرضين والمياه والجبال [٩] وألف ابن الأعرابي كتاباً في البئر [١٠] وأبو عبد الله أحمد بن ابراهيم ، نديم المتوكل كتاباً في أسماء الجبال والمياه والأودية .

---

(١) ابن سيده . المخصص ٤٩/١٠ . (٢) نفس المصدر ٤٩/١٠ . (٣) المصانع جمع مصنع ، وهو الموضع يتحدر ، ويحتفر فيه بركة يحتبس فيها الماء ، وانظر ديوان لبيد/١٦٨ .
(٤) الصهاريج . مفردها صهريج ، وهي كالحياض ، يجتمع فيها الماء . (٥) الحبس . حجارة أوخشب ، تبنى في مجرى الماء ، لتحبسه ، كي يشرب القوم ، ويسقوا أموالهم والجمع أحباس .
(٦) القلات . جمع قلت ، بإسكان اللام ، وهو النقرة في الجبل ، تمسك الماء وقيل هو النقرة في الجبل ، يستنقع فيها الماء إذا انصب السيل . (٧) المدهن . نقرة في الجبل ، يستنقع فيها الماء ، وقيل هو كل موضع حفره سيل ، وانظر ديوان أوس بن حجر/٦٧ . (٨) انظر فهرست بن النديم/٨١ ، ٨٣ . (٩) نفس المصدر/١٠٥ . (١٠) مخطوط في مكتبة الدراسات الإسلامية ببغداد ، ولم يشر اليه بن النديم في الفهرست ، ومنه نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي .

الرياح والأنواء والأمطار

الريـــاح

وضعت العرب لكل ريح اسماً يختلف باختلاف مناطق هبوبها ، فالـــتي تهوى من مطلع الشام هي الشمال ، لأن مهبها من بلاد العرب فما يلي الشام ، والتي تهوى من مطلع الشمس ، أطلقوا عليها الصبا كما سموها القبول وكانت العرب تجعل بيوتها بإزاء الصبا ومطلع الشمس . وقد أكثر الشعراء من ذكرها ، لهبوبها في أوائل الربيع حين يستوي الليل والنهار .

قال امرؤ القيس(١)

إذا التفتت نحوي تضوّع ريحها نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وقال عبيد(٢)

كأن صبا جاءت بريح لطيحه من المسك لا تسطاع بالثمن الغالي

وكانت قريش تطعم ما هبت الصبا ، فإذا سكنت أمسكوا (٣) ويروى أن أحيحة بن الجلاح الأنصاري ، وكان يبخلّ ، كان إذا هبت الصبا طلع من أطمه فنظر إلى ناحية هبوبها ، ثم يقول لها . هبّي هبوبك ، فقد أعددت لك

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/١٥ . (٢) عبيد . الديوان/١٤٤ . (٣) محمد بن حبيب المحبر/٢٤١ .

ثلاثمائة وستين صاعاً من عجوة[1] . وكان لبيد بن ربيعة شريفاً في الجاهلية والإسلام ، وكان قد نـذر أن لا تهب الصبا إلا نحر وأطعم حتى تنقضي[2] وأكثر ما كان يخيف العرب الرياح الشمالية الشرقية ، وكان هبوبها نـذيراً بالقحط والجدب ، لذا فقد وجدوا الكرم عند هبوبها مكرمة يفتخرون بها .

قال الأسعر الجعفي يفخر بأنه مأوى الضيفان في الليالي الباردة ، ينحر لهم الكوم[3] .

باتت شآمية الرياح تلفهم حتى أتونا بعدما سقط الندى
فنهضت في البرك الهجود وفي يدي لدن المهزة ذو كعوب كالنوى[4]
أحذيت رمحي غائطاً ممكورة كوماء أطراف العضاة لها حلى

وقال أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة الأسدي ، وينعت شدة البرد وغلبة الشمال[5] .

والحافظ الناس في تحوط إذا لم يرسلوا تحت عائذ ربعا
وعزت الشمال الرياح وقد أمسى كميع الفتاة ملتفعا[6]
وكانت الكاعب المنعمة الحسناء في زاد أهلها سبعا[7]

وكانوا يكنون عن الأوقات التي تهب فيها أمثال هذه الرياح ، وما يعقبها من قحط ومحل وجدب بالسنين ، لأن هذه الأوقات تجلب الشدائد ، وفيها يقل الطعام، ومن أجل ذلك تمادحوا بالقرى فيها ، قال عروة بن الورد :[8]

هلا سألت بني عيلان كلهم عند السنين إذا ما هبت الريح

وكانوا يتشاءمون بالشمال ، ويعتبرونها مثلا للشر ، قال زهير[9] .

---

(١) المبرد . الكامل/٢/٧٨٠ . (٢) نفس المصدر ٢/٧٨١ ، والقصة مع اختلاف في الأغاني وآمالي بن الشجري وخزانة الأدب . (٣) الأصمعي . الأصمعيات /١٥٩ .
(٤) البرك . جماعة الإبل الباركة . (٥) أوس بن حجر . الديوان/٥٤ – ٥٥ .
(٦)تحوط وقحوط . اسمان للسنة الجدبة . (٧) الكميع. الضجيع . (٨) عروة بن الورد . الديوان /١٤٩. (٩) زهير . الديوان/٥٩ .

فلما أن تحمل أهــل ليلى جرت بيني وبينهم الظبــاء
جرت سنحاً فقلت لهــا أجيزي نوى مشمولــة فمتى اللقــاء

وقد وردت إشارات كثيرة في دواوين الشعراء إلى هذه الرياح وقسوتها وبرودتها ورطوبتها وشدتها (١) .

أما الجنوب ، فهي الريح اليمانية ، لأن مهبها من اليمن ، والجنوب ريح أهل الحجاز ، وإياها يستطيبون ، وأما غير أهل الحجاز فليست الجنوب بموافقة لهم (٢) .

واقترن ذكرها بالأمطار في حديث الشعراء ، فإذا تحدثوا عنها تحدثوا عن المطر الغزير الذي يعم المرتفعات والمنخفضات ، وحينئــذ ينتشر الخصب في السهول والرياض قال عبيد (٣) .

هبّت جنوب بأولاه ومال به أعجاز مزن يسح الماء دلاّح
فمن بنجوتــه كمن بمحلفــه والمستكن كمن يمشي بقرواح(٤)
فأصبح الروض والقيعان ممرعــة من بين مرتفق فيه ومن طاحي

وقال طرفة يذكر ريح الجنوب وهي تستدر السحاب ، لينزل الماء على ديار حبيبته(٥) .

مرته الجنوب ثم هبّت له الصبا إذا مس منها مسكناً عدملاً نزل(٦)

وإذا انقضى الربيع ، وحلت أيام الصيف بدأوا بالرحيل والتفرق ، وكان هذا التفرق بعد الألفة يبعث في نفوسهم الألم والحسرة ، وكانوا يذكرون ذلك في أشعارهم ، ومن هنا وجدنا وصف الارتحال والاظعان والبكاء وراء الراحلين

---

(١) انظر ديوان بشر/٢٨ و١٢٥ و ١٧٤ وديوان لبيد /١٦ – ١٧ . (٢) ابن الأجدابي . الأزمنة والأنواء/١٣٠ . (٣) عبيد . الديوان /٣٦–٣٧ . (٤) القرواح . الأرض المستوية الظاهرة . (٥) طرفة . الديوان /١١٣ . (٦) عدمل . سحاب عظيم كثيف .

صفحات طويلة من أدبنا ، وهي تفيض بالعاطفة الصادقة والإحساس لذي كان يمتزج بالحنين والغربة في وقت واحد . وكانت الرياح ، تبعث سهم الألم لأنها تكون قاسية حتى على الاطلال التي كانت تمثل ذكريات القديم ، وملاعب صباهم الغالية ، قال بشر[1]

رت المنــازل مــن سليمي برمّــة فالكثيب إلى بطــاح
أجزاء اللوى فــبراق خبت عفتها المعصفات من الريــاح

قال أيضاً[2]

تْ أطلالُ ميّــةَ بالحَفير فهُضْبِ الواديَيْنِ فبرقُ إير
عبت الرياحُ الهوجُ منهــا بذي حُرُضٍ معــالِمَ للبصير
ِّ الرامِساتُ بهــا ذُيولاً كأنّ شَمالها بَعْدَ الدَّبُــور
ـادٌ بين أظــآرٍ ثَلاثٍ كما وُشِم الرّواهشُ بالنؤور

ا يزيد قسوة الحياة في فترات الجفاف اقترانها في الغالب بريح السموم يح المهلكة التي تشوي مها الصحراء وتطبخها كما يقول البعيث الحنفي[3]

رةٍ تشوي مهاها سمومُها طبختُ بها عَيرانةً واشتويتُها

ال مليح الهذلي يصف رواحل أحبته وهي تتقي سموم الضحى ولهيب الهاجرة[4] :

ستوت أحمالُها وتَصدّفَتْ بشُمِّ المَراقي بارِدات المَداخِلِ
ولوجَ الباقر العين بادَرَتْ سَمُومَ الضحى أعياصَ دُهمٍ ظلائلِ[5]

ال علقمة يذكر الحر :[6]

وتُ قُتُودَ الرَّحلِ يَسفعُني يومٌ تجيء به الجوزاءُ مَسمومُ

بن أبي خازم . الديوان/٤٣ . (٢) بشر بن أبي خازم . الديوان /٩٤ .
تمام الحماسة (المرزوقي) ٤/١٨٠٤ . (٤) شرح أشعار الهذليين ٣/١٠٢٢ .
نت : تعرضت . شم المراقي : يعني الهودج . ولجن : دخلن، الباقر: بقر الوحش يريد أن ن في الموضع الذي لا تصيبهن فيه الشمس ، ودهم : سود يعني الشجر . وأعياص الشجر .
(٦) علقمة : الديوان/ ٤٣١ .

أما الدبور فهي الريح التي تقابل الصبا والقبول وهي ريح تهب من الغرب والصبا تقابلها من ناحية الشرق(١) . والعرب تكره الدبور لأنها تجفل السحاب ويقل فيها المطر ، ويكون فيها الرهج(٢) ، ولا تهب إلا بشدة ، فتكاد تقلع البيوت وتأتي على الزروع(٣). والدبور أقل الرياح هبوباً، وهي الريح العقيم(٤) ولهذا وجدنا ذكرها أقل ، والتعرض لها مقصوراً على شدتها وقوتها وإثارتها للغبار ، قال الأعشى يمدح هوذة بن علي الحنفي ويصف ابله(٥)

إذا ازدحمت في المكـــان المضيق حت التزاحـــم منها القتـــيرا

لهـــا جرس كحفيف الحصــــا د صادف بالليل ريحاً دبورا

وذكرها عبد قيس في وصفه لدرعة الذي شبهه بماء الغدير الذي تصفقه ريح الدبور فتكدره(٦) ، وقال عدي بن زيد من قصيدة كتبها لأبي قابوس لما حبسه(٧)

ثم صاروا كأنهـــم ورق جفّ فالوت بـــه الصبـــا والدبور

أما النكباء ، فهي الريح التي تأتي من بين ريحين فتكون بين الشمال والصبا أو الشمال والدبور ، أو الجنوب والدبور ، أو الجنوب والصبا(٨) وقيل هي الريح بين الريحين الشديدة الهبوب(٩) وهي تهلك المال وتحبس القطر ، والعرب تسميها . نكباء لأنها نكبت عن مهاب الرياح أي عدلت(١٠) وهبوبها في أيام الشتاء(١١) وقل ورودها في الشعر الجاهلي ، والظاهر أنها كانت غير متميزة لدى الشعراء كغيرها من الرياح التي تعرضوا لها .

---

(١) اللسان (دبر) . (٢) الرهج : الغبار . (٣) المبرد : الكامل/٧٨٩ .
(٤) ابن الأجدابي . الأزمنة والأنواء /١٣٠ . (٥) الأعشى . الديوان /٩٩ .
(٦) انظر المفضليات ١٨٦/٢ . (٧) عدي بن زيد . الديوان /٩٠ .
(٨) المبرد . الكامل ٣٩٦/١ . (٩) ابن منظور . اللسان (نكب) . (١٠) ابن الأجدابي . الأزمنة والأنواء/١٢٦ . (١١) المرزوقي . الأزمنة والأمكنة ٢١٨/١ .

وهناك أنواع أخرى من الرياح عرفها العرب ، منها الجربياء وهي التي تهب بين الجنوب والصبا ، وقيل هي الشمال ، والهيف وهي ريح حارة بين الجنوب والدبور ، والنافحة ، وهي أول كل ريح تبدأ بشدة ، والهوجاء ، وهي المتداركة الهبوب ، وقيل هي التي تحمل المور[1] وتجر الذيول ، والرخاء ، وهي الريح السهلة الهبوب ، الزفزافة ، الشديدة التي لها زفزفة ، والسهوك والحرجوج والخيفق ، كلها السريعة ، والمتذئبة ، التي تجيء من هنا مرة ومن هنالك مرة ، وهناك أنواع كثيرة من الرياح عرفها العرب ، وحددوا لها أسماء تتناسب مع اتجاه مهابها ، وشدتها أو سهولتها وأصواتها [2]

وكما نسبت الرياح إلى الأماكن التي تهوى منها ، نسبت إلى الشهور المقدسة التي تهب منها ، فقد سموا الرياح التي تهب في رجب ، رجبيّة ، والمعروف أن رجباً شهر كان معظماً في الجاهلية ، وكانوا لا يستحلّون القتال فيه ، قال عبيد ابن الأبرص يتحسر على تفرق قومه ، ويبكي ديارهم :[3]

سجماً كأن شنانة رجبية سبقت إليّ بمائها العينان

وحاول بعض الشعراء أن يجعل الريح طرفاً في المعارك ، فبفضلها ينتصر قوم على قوم ، إلى جانب العوامل الأخرى التي تؤدي إلى الانتصار ، والمتمثلة في كثرة عدد المقاتلين ، وسلامة القيادة وشجاعتها ، فهذا عبيد يصف يوماً وقع بين أسد ونمير ويعلّل انتصار بعضهم فيقول [4]

كما حميناك يوم النعف من شطب والفضل للقوم من ريح ومن عدد

الأمطار

إن اهتمام العرب بالمياه ، وحرصهم على المحافظة عليها دفعهم إلى الاهتمام بالمطر والسحاب ، وما يتعلق بهما من برق ورعد وصقيع وصواعق ، فعرفوا

---

(١) المور . الموج . (٢) ابن سيده . المخصص ٧/٨٣ . (٣) عبيد . الديوان/ ١٣٠ وانظر ديوان بشر/٨٢ . (٤) عبيد . الديوان/ ٥٩ .

الأنواء ، ونجوم الاهتداء ، حيث لا إمارة ولا هادي ، ولا بد أن تكون صعوبة الحياة ، وشدة العوز ، والحاجة الملحة ، من العوامل التي اضطرت العربي إلى تتبع مواقع المطر ، والتماس ما ينجيه ويؤذيه(١) . فجابوا بطون الأودية ارتياداً للكلأ ، وطلباً للعشب ، وسعياً وراء الماء ، لأنهم أحوج الناس اليه إذ بـه حصول معايشهم من السقي والرعي . ومن هنا وجدنا تطلعهم نحو السمـاء ، وتعلق أبصارهم بمطالع النجوم التي ربطوا بينها وبين المطر ، وفضلوا بعضها على بعض ، لأنها عندهم أحمد وأغزر . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط من النجوم ، فإذا سقط فيها نجم ، أو طلع آخر ، قالوا لا بد من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح ، فينسبون كل غيث يكون عند ذلك إلى ذلك النجم، فيقولون مطرنا بنوء: الثريا، والدبران، والسماك ، وسمي النوء بذلك ، لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ، ناء الطالع بالمشرق أي نهض وطلع ، وأطلقوا على هذا العلم علم الانواء(٢) .

وكان اهتمامهم بهذا العلم يكثر حين تحيق بهم سنوات الجدب ، وتشتد عليهم أزمات المحل فامتلأت كتبهم بأخبار طويلة ، لكل ما يتعلق بهذه المظاهر وارتبطت حياتهم ارتباطاً وثيقاً بمعرفتها .

ولا شك في أن فرحة البادية بالمطر عظيمة ، وهي فرحة تمثلت في وقفات الشعراء الطويلة ، وهم ينظرون إلى السحاب والمطر والبرق والرعد، فينتابهم الشعور بالنشوة ، وتعلوهم الغبطة بالمنظر الرائع .

لقد اضطرتهم الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، والاستدلال عن كيفيته من أحوال الرياح والسحاب ، وما يتعلق بهما ، فكان علم الأنواء الذي يدل على قدرة العرب الكبيرة فيه ، وتعمقهم في معرفته ، نتيجة ما مروا به من التجارب ، حتى برع قوم بعلمه ، وقد عرفت بعض القبائل بقدرتها على ذلك ، ومن

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٦/٣٠ .
(٢) انظر كتاب الأنواء لابن قتيبة ، وكتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ، وكتاب الأزمنة والأنواء لابن الأجدابي ، ومادة (نوء) في اللسان والتاج .

هذه القبائل بنو عامر بن صعصعة ، فقد ذكر ابن دريد[1] روايتين في ذلك نسبهما الى اعرابي من بني عامر بن لؤي بن صعصعة ، وقال ابن كناسه: اعلم العرب بالنجوم بنو ماريه من كلب ، وبنو مرة بن همام من بني شيبان[2] .

وقد احصى ناشرو كتاب الانواء لابن قتيبة ثبتاً باسماء اربعة وعشرين كتاباً في الانواء لم يطبع منها سوى كتابين فقط ، هما كتابا ابن قتيبة وابن الاجدابي وقد جمعت هذه الكتب وغيرها احاديث كثيرة واخباراً طويلة عن دلائل المطر وامارات الغيث .

ودفعهم الاهتمام بالمطر الى الاهتمام ببروج السماء ، فورد ذكرها في اشعارهم ، وكانوا ينسبون لكل نجم من المنازل نوءاً يجعلونه علماً ووقتاً له ، كما يجعلون الشتاء وقتاً للمطر ، ومن العرب من ينسب النوء الى الكوكب نفسه ، فيكون هو الذي انشأ السحاب واتى بالمطر[3] قال بشر بن أبي خازم[4] :

باتت له العقرب الاولى بنثرتهــا وبلّه من طلوع الجبهة الاسد

اما الرعد فهو مقدمة الغيث ، وعلامة من علاماته ، ودليل من اقوى دلائله وهو الذي يستنزل المطر ، قال الاعشى[5] :

والشعر يستنزل الكريم كما استنزل رعد السحابة السبلاّ

فاذا صوت الرعد ، وكان صوته شديداً ، استدلوا بذلك الصوت على بعد المطر واذا كان صوته اشد استدلوا به على قربه ، وكان صوت الرعد يخيفهم ، وقد اقترنت صورته بصورة هدير الابل[6] . وورد ذكر الصواعق عند الشعراء الجاهليين لمصاحبتها الرعد في بعض الأحيان النادرة ، واكثر

---

(١) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. السحاب والمطر/ ١٤ ، ٤٣ . (٢) المرزوقي الأزمنة والأمكنة ١/١٩٩ . (٣) ابن قتيبة . الأنواء / ٥٠ . (٤) بشر بن أبي خازم . الديوان / ١٥٧ . (٥) الأعشى . الديوان / ٢٣٥ . (٦) انظر ديوان لبيد / ٩٠ .

لبيد من ذكرها ، لأن اخاه –[1] كما تذكر الروايات – مات نتيجة سقوط صاعقة عليه ، وكان لهذا الحادث صدى في شعره ، ويقول علقمة :

كأنهم ضابت عليهم سحابة   صواعقها لطيرهن دبيب

والظاهرة التي تلاحظ في هذا الحديث ان اكثر الشعراء لم يتطرقوا الى ذكر السيول ، وان الذين تحدثوا عنها ، تحدثوا مرة واحدة او مرتين فقط .

وصورة السيل لم تقف عند هذه الصور ، وانما وجدت طريقها للتشبيه عند الشعراء وهي – كما ذكرنا – كانت تجد هوى في نفوسهم ، لقوتها ، وشدتها ولهذا كان الفارس يشبه نفسه بالسيل لأنه يجرف الاعداء ، وقد حسن تشبيه الجيوش بالسيول لكثرتها قال عنترة[2] :

اذا ما مشوا في السابغات حسبتهم   سيولاً وقد جاشت بهن الاباطح

وقال قيس بن الخطيم[3] :

جاءت بنو الاوس عارضاً بردا   تجلبه الريح مقبلاً حلبا
ارعن مثل الأتيّ اعقبه   صوب ملثّ يسيل الحدبا

وكان انحباس المطر وانقطاعه بسبب الجدب أزمة صعبة ، يمنع الناس من العمل ، والبرد الذي يضطر الناس الى تقريب البيوت الى بعضها ، ليستكنوا من شدته ، قال طرفة[4] .

اني من القوم الذين اذا   ازم الشتاء ودوخلت حجره
يوماً ودونيت البيوت له   فثنى قبيل ربيعهم قرره
رفعوا المنيح وكان رزقهم   في المنقيات يقيمه يسره[5]

---

(١) ابن هشام . السيرة ٤/٢٣٥ وانظر ديوانه/١٥٨ ، ١٦٧ وانظر اللسان (صعق) .
(٢) عنترة . الديوان/٤٠٧ (مختار الأعلم) .   (٣) قيس بن الخطيم . الديوان/٥٨ وانظر صفحة ٣٣ من الديوان . وحماسة أبي تمام (المرزوقي) ١/٤٤٥ .   (٤) طرفة . الديوان /٣٥٧ .
(٥) أزم . اشتد . المنيح . قدح يؤثر بفوزه . المنقيات . النوق السمان . اليسر . القوم المجتمعون على الميسر .

وفي مثل هذه الاوقات يختبر كرم الرجال ، وتعرف طبائع البشر وخيم النفوس وكان عمل الكرماء هذا يجد له صدى في اذكاء قرائح الشعراء ، فيمدحونهم بتكفّل النساء ، والارامل ، والايتام ، قال بشر بن أبي خازم ، يرثي سميراً اخاه[1] :

يا سمير من للنساء اذا ما   قحط القطر امهات العيال
كنت غيثاً لهن في السنة الشهباء   ذات الغبار والامحال

وقال زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف[2] .

اذا السنة الشهباء بالناس اجحفت   ونال كرام المال في السنة الأكل
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم   قطينا لهم حتّى اذا انبت البقل

وقال المسيّب بن علس يمدح القعقاع بجوده[3] :

واذا تهيج الريح من صرّارها   ثلجاً ينيح النيب بالجعجاع
احللت بيتك بالجميع وبعضهم   متفرق ليحلّ بالاوزاع

واطلقوا على الابل التي كانت تنحر عند سقوط الثلج (قلاص الثلج) قال لبيد يصف يوماً بارداً[4] :

ذعرت قلاص الثلج تحت ظلاله   بمثنى الايادي والمنيح المعقب

وكانوا يعدون الاستيلاء على مناطق الخصب في اوقات الجدب مفخرة ، قال بشر يفخر بقومه[5] :

كفينا من تغيّب واستبحنا   سنام الارض اذا قحط القطار

اما في مجال الرثاء والعطاء ، فلم يجدوا احسن دعاء وترحماً من استمطار الغيث لانه احسن النعمى ، وافضل السقيا ، فكل ما استمطروه ، يجود وابله

---

(١) بشر . الديوان / ١٧٤ . (٢) زهير . الديوان/ ١١٠ . (٣) المفضل . المفضليات ٦١-٦١
وانظر ديوان طرفة / ٣٥٩ . وديوان عامر بن الطفيل / ٤٧ . (٤) لبيد . الديوان/ ١٧ .
(٥) بشر . الديوان / ٧٣ .

عليهم ويسّح ماؤه ، وهذا ما كانوا يصبون اليه ، قال النابغة يرثي النعمان[١] :

سقى الغيث قبراً بين بصرى وجاسم   بغيث من الوسمي قطر ووابـــل

وقال اوس بن حجر[٢] :

لا زال ريحان وفغو ناضر   يجرى عليك بمسبل هطّـــال

وقال الاعشى يمدح شريح بن حصن بن عمران بن السموءل بن عادياء[٣] :

فكان اوفاهم عهداً وامنعهم   جاراً ابوك بعرف غير انكار
كالغيث ما استمطروه جاد وابله   وعند زمته المستأسد الضاري

وندرة المياه وقلتها كانت سبباً من اسباب خلق الاساطير وكثرتها حول هذه الندرة واسبابها ، ولهذا وجدنا حكاية التضرّع والدعاء للمطر ، والروايات والاخبار التي تتحدث عن سنوات الجدب التي حلّت بأرض الحجاز وعروضها منشورة في مصادرنا القديمة[٤] وكذلك وجدنا حكاية نار الاستمطار ، وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية ، وما حيك حولها من اساطير فقد كان العرب يزعمون انه اذا امسكت السماء قطرها ، وتتابعت عليهم الأزمات ، وركد عليهم البلاء ، واشتد الجدب ، واحتاجوا الى الاستمطار ، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في اذنابها ، وبين عراقيبها ، السلع والعشر[٥] ثم صعدوا بها في جبل ، واشعلوا فيها النيران ، وضجوا بالدعاء والتضرع ، فكانوا يرون ان ذلك من اسباب السقيا ، ولذلك قال امية بن ابي الصلت[٦] ان صح انها له :

سنة ازمة تخيّـــل بالنا   س ترى للعضاه فيها صريرا

---

(١) النابغة . الديوان / ٩٠ (صادر) .   (٢) أوس بن حجر . الديوان/١٠٨ وانظر حماسة أبي تمام (المرزوقي) ١٦٢٨/٤ .   (٣) الأعشى . الديوان/١٧٩ وانظر ديوان بشر /٣٨ ، ٢٢٣ .
(٤) انظر صفة جزيرة العرب للهمداني/٢١٤ (ليدن – ١٨٨٤) .   (٥) السلع بالتحريك والعشر بضم ففتح . ضربان من الشجر ، كان العرب يأخذون حطبهما للغرض الذي ذكرناه .
(٦) الجاحظ . الحيوان ٤٦٦/٤ .

اذ يسفّون بالدقيق وكانوا قبل لا يأكلون شيئاً فطيرا
ويسوقون باقراً يطرد السهل مهازيل خشية أن يبورا[1]
عاقدين النيران في شكر الأذناب عمداً كيما تهيج البحورا[2]
فاشتوت كلها فهاج عليهم ثم هاجت إلى صبير صبيرا[3]
فرآها الاله ترشم بالقطر وامسى خيامهم ممطـورا
فسقاها نشاصه واكف الغيث منه اذ رادعوه الكبيرا[4]
سلع ما ومثله عشر ما عائل ما وعالت البيقورا[5]

النجـوم

واهتم العرب بالنجوم ، لانها تقودهم الى موضع حاجاتهم ، ولانهم كانوا يحتاجون الانتقال من محاضرهم الى المياه وهم يعلمون ان عملية التنقل هذه تحتاج الى وقت صحيح يوثق فيه ، فالغيث والكلأ ، وهذا ما حملهم الى الاهتمام بمطالعها ومساقطها ، هذا مع الحاجة الى معرفة وقت الطرق ووقت النتاج ، ووقت غور مياه الارض ، وزيادتها ووقت ينع الثمر ، والحصاد ووقت وباء السنة في الناس وفي الابل وغيرها فالنوء يرتبط في اعتقادهم بالكوكب نفسه ، فهو الذي ينشيء السحاب ويأتي بالمطر ، كما قال بشر بن ابي الخازم[6] .

جادت له الدلو والشعرى ونوهما بكل اسحم داني الودق مرتجف

واذا ذكروا الحر نسبوه الى الطلوع كما ذكر علقمة[7] :

وقد علوت قتود الرحل يسفعني يوم يجيء به الجوزاء مسموم

(١) الباقر . البقر . (٢) الشكر . جمع شكير وهو الشعر القصير بين الشعر الطويل .
(٣) الصبير . السحاب يثبت يوماً وليلة ولا يبرح . (٤) النشاص . السحاب المرتفع .
(٥) البيقور . بمعنى البقر . (وعال الشيء فلاناً . ثقل عليه . يقول أثقلت البقر بما حملته من السلع والعشر) . (٦) بشر الديوان/١٥٧ . (٧) علقمة . الديوان/٤٣١ (مختار الشعر الجاهلي)

وهذا حملهم على القول: لولا نوء الجبهة ما كان للعرب ابل[1] وما امتلأ واد من نوء الجبهة ماء الا امتلأ عشبا[2] وكما نسب الحر والبرد الى الطلوع فقد قرنوا اوقات التبدي في طلوع الثريا . قال طفيل الغنوي[3]:

على اثر حي لا يرى النجم طالعاً من الليل الا وهو باد منازله[4]

اما في احاديثهم عن الكرم ، فكانوا يقرنونه بغياب الثريا ، لان غيابه يصادف في الشتاء البارد ، وهو الوقت الذي تشتد فيه حاجة الفقراء الى الطعام بسبب المحل الذي يصيبهم ، او القحط الذي تأتي به ريح الشمال ، وعندها يجد الشعراء في الكرم لهذا الفصل مجالاً واسعاً للمدح اذا ارادوا ان يمدحوا، قال حاتم الطائي[5] :

وعاذلة هبت بليل تلومني وقد غاب عيوق الثريا فعوّدا
تلوم على اعطائي المال ضلة اذا ضن بالمال البخيل وصرّدا

اما في احاديثهم عن طول الليل ، فقد كان يرتبط ذلك بصورة النجوم وقد شدت إلى الجبال ، بأمراس وحبال ، فهي ثابتة لا تتحرك ، واقفة لا تتغير قال الاعشى[6] :

كأن نجومها ربطت بصخرٍ وامراسٍ تدور وتستريد
اذا ما قلت حان لها افولٌ تصعّدت الثريا والسعود

او كما قال امرؤ القيس[7] :

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شُدت بيذبل

وحاول بشر ان يمنح هذه الصورة لوناً جديداً ، ويضفي عليها جانباً

---

(١) ابن قتيبة . الأنواء/٥٨ . (٢) نفس المصدر وانظر ديوان بشر/٥٦ والأنواء/٣٨.
(٣) الطفيل . الديوان/٤٩ . (٤) يريد أن من تبدى في هذا الوقت لم ير الثريا من أول الليل إلا وهو نازل بالقفر ، وقد ترك محضره وتبدى . (٥) حاتم . الديوان/٤٠ وانظر أنواء ابن قتيبة .
(٦) الأعشى . الديوان/٣٢١ . (٧) امرؤ القيس . الديوان/١٩ .

غير الجوانب التي وقف عندها الشعراء فقال[1] :

فبت مسهداً ارقاً كأني تمشت في مفاصلي العُقـــارُ
أراقب في السماء بناتِ نعشٍ وقد دارت كما عطف الصوار
وعاندت الثريا بعد هدءٍ معاندةً لها العيّوق جار

ويربط الأسود بن يعفر بين ما يلاقيه في حياته من مصاعب وما يعانيه فيها من مصائب وبين اليوم الذي ولد فيه ، فهو منحوس لأنه ولد بغروب نجم وبطلوع نجم آخر وكلاهما منحوسان . يقول[2] :

ولدت بحادي النجم يتلو قرينه وبالقلب قلب العقرب المتوقد

والذي نستطيع قوله في هذا المجال ان العوامل التي دفعتهم الى معرفة النجوم ومعرفة اوقات طلوعها او افولها ، كانت نفس العوامل التي حملتهم على معرفة المطر والسحاب والرياح ، لأنها عوامل ترتبط بحياتهم ، وتحدد استدامة هذه الحياة ، ومن هنا كانت معارفهم بهذه المظاهر تصل الى درجة رفيعة من العمق والدراية .

---

(١) بشر بن أبي خازم . الديوان/٦٥ . (٢) ابن قتيبة . الأنواء/٣٨ .

الشجر والنبـــات

من الطبيعي ان ينال الشجر والنبات والازهار والثمار والاعشاب نصيباً وافراً من حديث الشعراء الجاهليين ، لاتصالها المباشر بحياتهم ، وعلاقتها بحاجاتهم التي يعتمدون عليها في مواجهة الحياة ، ومجابهة عوارضها ، فهي تدخل فيما يأكلونه منها وما يبنون منه بيوتهم وحظائرهم وخيامهم، ومـــا يصنعون منه قسيهم وسهامهم ورماحهم وقصاعهم وجفانهم وآنيتهم وصيغانهم واقداحهم وموائدهم وحبالهم ومنازلهم وامشاطهم ومعظم ما كانوا يستعملونه في حياتهم ، وكانوا ينتفعون ببعضهـــا في دباغتهم وصباغتهم وزينتهم ، ويستوقدون بحطبها ، اضافة الى ما كانت ترعاه ماشيتهم وابلهم ، وكان لشجر التالب عناقيد ، اذا ادرك وجف ، اعتصر للمصابيح ، وهو اجود لها من الزيت[1] ، والتنوب كانوا يتخذون منه اجود القطران[2] والجعدة لها ثمر ثخين متلبد تحشى به المخاد[3] والضرم له ثمر اشباه البلوط تأكله الغنم والحمر ، وله وريد ابيض صغير ، كثير العسل ، تجرسه النحل ، ولعسله فضل في الجودة ، ويدلك بورقه اجواف الخلايا فتألفها النحل[4] .

---

(١) ابن سيده . المخصص ١٤٢/١١ . (٢) نفس المصدر ١٤٧/١١ . (٣) نفس المصدر ١٤٥/١١ . (٤) نفس المصدر ١٤٦/١١ .

وقد وصل تعلقهم بالشجر واعتزازهم به حدّ التقديس ، فمما يذكر في ذلك ان ذات الانواط شجرة عظيمة خضراء ، كانت قريش ومن سواهم من المشركين ، يأتونها كل سنة، فيعلقون عليها اسلحتهم ، ويذبحون عندها ، ويقومون يوماً (١) ، وكان الرجل اذا خرج في سفر عمد الى شجر الرتم فعقد بعض اغصانه ببعض، فاذا رجع من سفره واصابه على تلك الحال . قال . لم تخني امرأتي ، وان اصابه قد انحلّ قال . خانتني . قال الشاعر :

هل ينفعنك اليوم ان همت بهم كثرة ما توصي وتعقاد الـــرتم

واشار القدامى الى اسماء بعض هذه الاشجار والمواضع التي تضمها ، منها نخلة نجران التي كان اهل البلد يتعبدون لها ، ويعلقون عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلي النساء(٢) .

وتقدير بعض الاقوام والقبائل لهذه الأشجار ، واتخاذ مواضعها حرماً آمناً مقدساً يتبركون بها ، ويتقربون اليها بالنذور والقرابين ، يدل على تصورهم وجود قوى روحية كامنة فيها ، معتقدين ان لهذه القوى اثراً خطيراً في حياتهم وربما جاء هذا التصور والاعتناء نتيجة ضخامة هذه الاشجار وقوتها ، او ثمرها الكثير ، اونفعها من حيث استعمالها(٣) ومن هنا جاء تقديسهم لها ، وعنايتهم بها ، فاجتمعوا حولها وهم يقيمون هذه الاحتفالات(٤) وقد ادرك القدماء اهمية الشجر — وان كان التأليف في كتب النبات قد تأخر قليلاً عن التأليف في الحيوان — فوضعوا كتب النبات والزرع والشجر والنخل والعشب والبقل ، وقد جمعت بعض هذه الكتب نوعين من النبات او اكثر .

وقد رأيت ان اجعل النماذج الشعرية التي وجدتها متميزة عند الشعراء اقساماً ، فجعلت للشجر قسماً وللنبات قسماً ، وللازهار قسماً ، وللثمار

---

(١) ابن منظور . اللسان مادة (نوط) وانظر التاج في المادة نفسها . (٢) ياقوت . معجم البلدان ٧٥٣/٤ . (٣) انظر جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ١٦٨/٥ . (٤) نفس المصدر .

قسماً، مستفيداً من الصور التي شبهوها بها ، والمعاني التي ذهبوا اليها من وراء كل صورة ، وقد وجدت هذا التقسيم افضل من غيره لانه اشمل واكمل ، لاتساعه من ناحية ، ووضوح ملامح الاصناف التي تنتمي لكل فصل من ناحية اخرى وحاولت ان اجمع بعض الانواع التي تلتقي في الغرض من استعمالها ، ضمن مجموعة واحدة ، فالأشجار التي تتخذ منها الرماح مثلاً جعلتها مجموعة واحدة والاشجار التي تستخدم في بناء البيوت والحظائر في مجموعة ثانية ، والاشجار التي تشبه بها الظعون والابل والخيل في مجموعة ثالثة ، على الرغم من ان كل هذه الانواع داخلة ضمن مجموعة واحدة .

وهكذا صنعت في باب النبات والازهار .

الأشجـــار

النخيـــل

النخيل من أقدم انواع الشجر الذي عرفه الانسان ، وقد وردت اشارات اليه في شريعة حمورابي ، الذي تعد من اقدم الشرائع البشرية[1] ، واستعملت النخلة في الزخارف الرمزية التي شاع استعمالها في العراق القديم ، خصوصاً في عصر الامبراطورية الآشورية ، وقد عرفت هذه الزخرفة باسم شجرة الحياة[2] .

اما في جزيرة العرب ، فقد وجد النخيل في كثير من اماكنها ، وخاصة الاماكن التي يتوفر فيها الماء ، حتى وان كانت كميته قليلة ، لانه يقاوم العطش ، ويكتفي بالماء القليل ، وقد اصبحت النخلة رمزاً شامخاً من رموز الصحراء .

وكانت بعض المناطق تشتمل على مزارع ونخل وعيون كثيرة ، مثل خيبر التي كان يحمل منها التمر الى الجهات القصوى ، حتى اصبحت مضرباً للمثل في كثرته ، وفي ذلك يقول خارجة بن ضرار المري[3] :

فانك واستبضاعك الشعر نحونا   كمستبضع تمرا الى ارض خيبرا

---

(١) شريعة حمورابي . المنشورة في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد/ ١٩٦١ للدكتور محمود الأمين.
(٢) حسن الباشا . تاريخ الفن في العراق القديم/ ١١٩ . (٣) الألوسي . بلوغ الارب ١/ ١٩٢ .

ومثل خيبر، هجر والطائف وفدك والمدينة وغيرها من المناطق في الشمال ولا بد ان يكون شعراء هذه المناطق اعرف في وصف النخل الذي ينبت في ارضهم وقد دفعهم اهتمامهم بالنخل الى تقصي أصناف التمور وانواعها، للتمييز بين جيدها ورديئها، فكان الصّفري سيد التمور، ثم السري، ثم اللصف ثم الفحاحيل ثم المجتني ثم الحباوى والشماريخ والمشمرخ ثم الصرفان وغير ذلك من الأصناف[1].

وكانوا يستخلصون من التمر عصيره (الدبس) لينتفعوا به في الشتاء، وبه شبه عنترة العرق السائل من رأس فرسه وعنقها[2]:

وكأن رُبّاً او كحيلاً مُعْقداً حَشّي القيانُ به جوانبُ قُمقُم

وكانوا يستعملون رضيخ النوى المدقوق علفاً للخيل والابل وينسبونه الى السواد، قال المثقب العبدي ينعت ناقته[3]:

كساها تامكاً فرداً عليهـا سواديُّ الرضيخ مع اللُّجين

وكانوا يحفظون التمر بجلال تصنع من الخوص، يسمون الواحدة منهـا الخصف[4] حتى يبقى التمر طرياً، وحتى يتمكنوا من استعماله في الشتاء، قال الاعشى[5]:

قلنا الصلاحَ فقالوا لا نصالحكم اهل النبوك وعير فوقها الخصفُ

وكانت المواطن المليئة بالنخيل والزروع وعلف الحيوان والدواب مدعاة للفخر لأن هذه الامور تمثل عماد الحياة الاقتصادية التي يستطيعون بواسطتها الاستمرار في البقاء، وفي هذه الزروع والنخيل يفاخر الاعشى علقمة فيقول[6]:

---

(١) الهمداني . صفة جزيرة العرب / ١٥٥ . (٢) عنترة . الديوان / ٣٧٤ . (٣) المثقب العبدي . الديوان / ٣٥ وانظر ديوان أوس / ١١٢ وديوان الأعشى / ١٨٩ والمفضليات ٢ / ٩٠ .
(٤) لا زالت هذه اللفظة مستعملة في العراق ولا زال وعاء التمر يسمى خصافة . واحدة خصاف .
(٥) الأعشى . الديوان / ١٥١ . (٦) الأعشى . الديوان/ ١٥١ وانظر ديوان أوس/ ٤١ .

ألم تر ان العرض اصبحَ بطنُها نخيلاً وزرعـاً ثابتاً وفصائصا

اما المحافظة على الفسيل فكانت تشغل جانباً من هذا الاهتمام بالنخيل وكانوا يحافظون عليه بتغطية عذوقه ، خوفاً من الجراد والدبا والحر والقر ، وهذا ما جعل الطفيل الغنوي يشبه احبته في ظعونهن بالفسيل المكمم[1] :

اشاقتك اظعان بجفن بينهم نعمْ بُكراً مثل الفسيل المكمم

ولا بد ان تدفعهم هذه المحافظة عليه ، وهذا الفخر بوجوده في ارضهم الى الدفاع عنه بسيوفهم ، وحمايته بكل ما يملكون من الشجاعة وحراسته رغبة في الاستفادة منه[2] ..

ولهذا كانت ظاهرة حرق النخل معروفة في العصر الجاهلي لأن فيها ايذاء مباشراً ، وخسارة جسيمة ، فاذا غلب قوم قوماً احرقوا نخيلهم حتى تصبح كأنها نساء قائمات في مأتم ، قد لبسن الحداد ، قال الاعشى مفاخراً[3] :

وايام حَجْر اذ يُحرّق نخلُهُ ثأرناكم يوماً بتحريق ارقم
كأن نخيل الشطِ غبَّ حريقه مآتم سود سلّبت عند مأتم

او تصبح كالنوق الهزيلة العجاف[4] .

وتقرن بساتين النخيل في الغالب بعبارة الجنة ، مضافة الى المكان ، فقالوا جنة يثرب ، وجنة ملهم ، وكانت تشبه الابل لكثرتها ببساتين النخيل ، قال بشر يمدح عمرو بن ام اياس ، ويعدد صفاته[5] .

والمانح المائة الهجان بأسرها ترجى مَطافِلُها كجنةِ يثربِ

وقال[6] :

وأوهب للكوم الهجان بأسرها تساق جميعاً مثل جنة يثرب

---

(١) الطفيل الغنوي . الديوان / ٤١ .
(٢) انظر ديوان امرى القيس / ٥٧ .
(٣) الأعشى . الديوان / ١٢٧ .
(٤) انظر ديوان الأعشى /٢٤٧ ، ٣٠٥ .
(٥) بشر . الديوان/٣٩ .
(٦) بشر . الديوان/٢٠٠ وانظر ديوان زهير/٣٧ .

وهم على الرغم من انفتهم من الزراعة ، وهجائهم لمن يعمل في حقلها ـ كما جاء في قول الاعشى في هجاء اياد عندما كانوا مع كسرى في حرب بكر يوم ذي قار فقد وردت اشارات كثيرة الى معرفتهم بفنون زراعة النخيل ، وشروط التباعد بين غرسه وامتداد جريده ، وتكثير خوصه ، واتصال بعضها ببعض ، بحيث يمتنع الطير من ان يطير من تحتها الى اعلاها وقد زعموا ان منادياً كان يصعد الى اطم من آطام المدينة ، حين يدرك البسر ، فينادي (التمر في البئر) أي من سقى وجد عاقبة سقيه في ثمره . كل هذه الامور تدلنا على اهتمامهم بهذا النوع من الشجر ومعرفتهم بدقائق زراعته ، والمحافظة عليه ، ورعايته الرعاية الكافية . وكان يحملهم منظر النخلة ، وقد تدلت عذوقها ، ثقلاً وحملاً على عقد المقارنة بينها وبين ظعون الاحبة ، وكانت توحي لهم ألوان النخلة وقد زها ثمرها وتلوّن رطبها ، واخضرّ سعفها ، بألوان الظعون اللامعة ، وما على الهوادج من ألوان الوشي والعهون ، وهي تغطي الاحبة ، لتحفظهم من حرارة الشمس ، وتقيهم لفح الهجير ، الذي يشوي الوجوه والابدان ، قال امرؤ القيس ، يصف هوادج احبائه[1] :

علون بانطاكية فوق عقمةٍ كجرمة نخل او كجنّة يثرب[2]

وقال عبيد[3] :

كأن اظعنَهم نخـلٌ موسقّةٌ سودٌ ذوائبها بالحمل مكمومة

ولا بد ان تذكرهم صورة النخلة ، وهي تشمخ بجذعها وسعفها وعذوقها ، بصورة الجمال الضخمة في تمامها وحسنها[4] ، وقد شبهوا ذنب الناقة ، وهو متدل على فخذيها بعرجون النخلة المتدلي ، قال بشر يصف ناقته[5] :

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/٤٣ . (٢) العقمة . ضرب من الوشي . (٣) عبيد الديوان/١٢٨ وانظر ديوان عامر بن الطفيل /٦٢ وديوان أبي داوود / ٣٣٨ وديوان أوس /٢٢ وديوان لبيد /٥٨ – ٥٩ . (٤) انظر ديوان امرىء القيس/٢٤٧ ، وديوان الأعشى /٢٩٧ .
(٥) بشر . الديوان/١٩٦ .

كأن على انسائها عذقَ خصبــةٍ تدلّى من الكافور غير مكمّم

ويصف الاعشى راحلته ، فيشبه ذنبها ، وقد اكتنفه الشعر من ناحيتين بقنو النخلة[1] .

ولم تكن الابل وحدها طرفاً في تشبيهاتهم ، وهم يتأملون هذا الشكل المتناسق من الشجر ، فالخيل الطويلة ، التامة الخلق ، المرتفعة هي ايضاً نخيل ، طالت على الذين يجنون ثمارها ، فلا تنالها ايديهم ، وقد ادرك عبيد هذه الصورة للخيل التي ظلت عاكفة على حجر ، بعد قتل بني أسد له فخاطب امرأ القيس بذلك قائلاً[2] :

والخيل عاكفة عليه كأنهــا سُحُقُ النخيل نأت عن الجُرّام

ولم يكن تشبيههم للفرس بالنخلة مكتملة فحسب ، وانما شبهوا بكل جزء منها فشبهوا بساقها[3] وبجريدها المشذب[4] وبشوكها في الدقة[5] اما التمر ، فقد وجد الشاعر في صورته ، وهو ينثر من جراب جامعه ، صورة سريعة ومتحركة وحيّة ، فقابلها بصورة الخيل وهي تخرج من خلال غبار المعارك سريعة مضطربة ، قال ضمرة بن ضمرة[6] :

والخيل من خلل الغبار خوارج كالتمر ينثر من جراب الجرّم

وكانوا اذا استهلوا لقاء قوم قالوا : لقاءهم احلى من التمر[7] ، وكان التمر الرديء مدعاة للهجو ، فعندما أراد طرفة أن يهجو جماعة ، ويصفهم بالضعة ، ذكر ان الضعف وسوء الحال قد بلغ بهم الى انهم كانوا يرسلون العذارى — مبالغة في الذم — يلقطن لهم ما تبقى من التمر الرديء[8] وعندما أراد الاعشى ان يهجو علقمة شبهه وقومه بحثالة التمر فقال[9] :

---

(١) انظر ديوان الأعشى / ١٠٥ . (٢) عبيد : الديوان/١٢٣ . (٣) انظر ديوان عامر بن الطفيل / ١٠٢ . (٤) انظر ديوان عامر بن الطفيل / ٢٧ . (٥) انظر ديوان علقمة / ٧٥ . (٦) ابن قتيبة . كتاب المعاني/٥٢ وانظر المصدر نفسه في أبيات لدريد بن الصمة . (٧) المفضل . المفضليات ٢ / ١١٠ . (٨) انظر ديوان طرفة/١٥١ . (٩) الأعشى الديوان/١٥١ .

فلو كنتم نخلاً لكنتم جُـــرامَةً   ولو كنتم نبلاً لكنتم معاقصـــا

ودفع الاهتمام بهذه الشجرة اللغويين الى التأليف فيها ، فقد وضع ابو عمرو الشيباني كتاباً في النخلة[1] واعقبه الاصمعي فوضع كتاباً في النخل[2] ذكر فيه نعوت سعفها وكربها وقُلبها ، ونعوت طولها وحملها واجناسها وعذوقها ونعوتها واموراً اخرى تتعلق بها ، ثم الّف ابن الاعرابي كتاب صفة النخل[3] والف ابو حاتم السجستاني كتاب النخلة[4] ثم اعقبه الزبير بن بكار فوضع كتاباً في النخل[5] وافرد ابن سيده في المخصص للنخل كتاباً سماه كتاب النخل[6] ذكر فيه اغتراس النخل ، وافتساله ، وبدء نهايته واصوله ، ونعوت سعفه وكربه وقلبته وعذوق نخله ، ونعوتها وترجيبها ، وتكميم عذوقها ولقاحها ، كما ذكر نعوتها في اصطفافها ، وبعدها عن الماء وقربها ، فالنخل الجاري هو المستغني عن السقي اما البعل فهو ما شرب بعروقه من عيون الأرض من غير سماء ولا سقي واياه عنى النابغة بقوله يصف نخلاً[7] :

من الواردات الماء بالقاع تستقي   باعجازها قبل استقاء الحناجر

وهو يقول انها تشرب باعجازها ، يريد العروق على الاستعارة .

هذه صور النخل التي وردت في الشعر الجاهلي ، وهي — كما وجدناها — صور تعرض لها الشعراء في احاديثهم ، وعلى ضوئها نستطيع أن نحكم على مدى انتفاعهم بهذه الشجرة . واستفادتهم من ثمرها الذي كان يشكل غذاء رئيسياً لهم ولحيوانهم ، وباستطاعتنا ادراك اهمية هذه الشجرة من الصور التي استمدوها منها في تشبيهاتهم واستعاراتهم .

اما شكلها المتناسق ، وتجمع سعفها ، وقد توسطته العذوق والشماريخ

---

(١) ابن النديم . الفهرست/١٠٢ (الرحمانية) .   (٢) الأصمعي النخل بتحقيق هافنر .
(٣) ابن النديم . الفهرست/١٠٣ .   (٤) أبو حاتم السجستاني نشره الأستاذ برتلميوجوفيا/١٨٩١ روما .   (٥) ابن النديم . الفهرست/١٦١ .   (٦) ابن سيده . المخصص ١١/١٠٢ .
(٧) النابغة . الديوان/١٨٨ .

فكانت مجالاً آخر من مجالات التذكير بالظعون والهوادج – وهي تشق تلك المفاوز المقفرة ، والفلوات الصحراوية الرهيبة – التي مكنت الشاعر الجاهلي من التعبير عنها واستغلالها في بسط احاسيسه المؤلمة ، وذكرياته الجميلة في آثار هذه الظعون .

شجر الجبال

اما هذا القسم فيمكننا أن نضع فيه اكثر من نوع واحد ، لاشتراكه في صفة واحدة ، وتميزه بميزة واحدة ، واستعمال معظمه في غرض واحد فبالاضافة إلى النبع والشوحط والضال يمكننا ان ندخل شجر الشث والعرعر (وهو السرو) والطباق والاشكل والقان والشريان والبان في هذا القسم باعتبار كونها من شجر الجبال ، ولكن اكثرها ذكراً في الشعر هو النبع والشوحط والعرعر والضال .

وكانوا يتخذون من النبع القسي والسهام ، حتى اصبح مجرد ذكره يحدد السلاح المقصود منه ، قال عبيد بن الابرص يصف جيش بني اسد[1] :

فيه الحديد وفيه كل مصونة   نبع وكل مثقف وحسام

وقال اوس بن حجر[2] :

وصفراء من نبع كأن نذيرها   اذا لم تخفضه من الوحش افكل

وكانوا يختلفون الى منابته ، فاذا وجدوا قوساً صغيراً يمكن ان تتخذ اذا نمت وكبرت ، تعهدوها بالرعاية ، حتى تصلح وتستقيم وتكبر ، وعندها يقطعونها ، ليتخذوها قوساً ، قال اوس بن حجر[3] :

تعلّمها في غيلها وهي حَظْوَةٌ   بواد به نبع طوال وحثيلُ[4]

(١) عبيد . الديوان/١٢٣ .   (٢) أوس بن حجر . الديوان/٩٦ وانظر المفضليات ٢/ ٨٢ .
(٣) أوس بن حجر . الديوان/٩٧ .   (٤) الحظوة . القضيب الصغير ينبت في أصل الشجرة والغيل . الشجر الملتف . والحثيل من أشجار الجبال .

وكما كانوا يصنعون القسيّ من النبع ، كانوا يصنعون منه القداح[1] ومثل النبع ، الضال والغرب ، قال اوس بن حجر يصف سهامه التي اعدها للحرب[2] :

وحشو جفير من فروع غرائب تنطّع فيها صانع وتنبّلا

وكانوا يحرصون على اختيار العود السليم الذي ليس فيه عقد ، لأن ذلك اقوى لها واشد ، قال الاعشى يمدح قيس بن معديكرب الكندي يصف نبلاً[3] :

سلاجم كالنحل انحى لهـا قضيب سَراء قليلَ الأُبـن

وقد استعملوا المعنى المجازي لهذه الانواع من الشجر في مواضعها المناسبة فكان استعمالهم لها في مواضع القوة والصلابة والشدة والاحكـام وطبيعي ان تحتاج الاشجار الجبلية الى صلابة العود ، وقوة الجذور والاغصان ، لتتمكن من مقاومة الظروف النباتية الصعبة التي تحيا تحت وطأتها ، وقد ادرك الشعراء الجاهليون هذه الحياة ، وعرفوا شدة هذا النبات ، فحاولوا الاستفادة من ذلك في توضيح معاني الشدة والصلابة التي كانوا يريدون التعبير عنها ، قال الاعشى مفاخراً[4] :

ونحن اناس عودنا عود نبعـة اذا انتسب الحيّان بكر وتغلب

وكانوا يكنّون عن الضعف بشجر السدر لخوره ، وعن القوة بالنبـع لشدته ورزانته ، قال المفضل النكري[5] :

وجدنا السدر خوّار ضعيفـا وكان النبع منبته وثيق

واثارت شدة التناسق الموجودة في هذا الشجر اعجاب الشاعر الجاهلي فلم يجد حيواناً اجدر بهذا الانسجام والتناسق من فرسه لدقته وطوله ، قال عبيد[6] :

---

(١) انظر ديوان علقمة/ ٨٠ . (٢) أوس بن حجر . الديوان/ ٨٩ . (٣) الأعشى . الديوان/ ٢٥ .
(٤) الأعشى . الديوان / ٢٠٣ . (٥) الأصمعي. الأصمعيات / ٢٣٣ . (٦) عبيد. الديوان/ ١٠٩ .

فهو كالمِنزع المَريش من الشوحط مالت به شِمالُ المُغالي

وقال الاعشى يمدح الاسود بن المنذر[١] :

وجياداً كأنها قضب الشوحط تعـدو بشكة الابطـال

الظاهرة التي تطالعنا في هذا الصنف من الاشجار هي ان الشعراء استعملوا نوعاً واحداً – في اغلب الاحيان – في باب الغزل ، وهو شجر الضال وخاصة اذا شبهوا الحبيبة بالمهاة ، والظاهر ان هذا النوع من الشجر كان قصيراً لا يرتفع عن الارض كثيراً ، ولهذا كانت الظباء تتمكن من اسقاط ثمره بقرنها ، فكأنهم بذلك يجمعون بين وداعة هذا الحيوان الوديع ، وبساطة هذه الشجرة ، السهلة التي يستجيب ثمرها لمجرد الحركة الخفيفة ، قال طرفة يصف حبيبته[٢] :

جأبة المدرى لها ذو حدّة تنفض الضال وافنان السمر

وقال بشر بن ابي خازم يصف ظعون احبته[٣] :

كأن على الحدُوج مخدّرات دُمى صنعاء خُطّ لها مثالُ
او البيض الخدود بذي سُديرٍ اطاع لَهُنّ عبريٌّ وضال

اما بالنسبة للحيوانات الاخرى وعلاقتها بهذه الشجرة ، فقد وردت عرضاً في حديث الشعراء عن الصحراء ، وما يلاقونه من صعوبة في قطعها متوصلين من ذلك الى الثناء على نياقهم التي تمكنت من قطع هذه الصحراء المقفرة[٤] .

وورد ذكر انواع اخرى من شجر الجبال في حديث الشعراء الهذليين عن النحل والعسل والوعول مثل القان والنشم .الظأن والتالب[٥] وكما استعملوا النبع والشوحط في صنع الاقواس ، اتخذوا من شجر الوشيح الرماح حتى

---

(١) الأعشى . الديوان/٩ . (٢) طرفة . الديوان/٧٠ . (٣) بشر . الديوان /١٦٧ وانظر /١٤٣ من الديوان نفسه ، والمفضليات ٢/٤٤ . (٤) انظر ديوان امرى القيس /٤٥ وديوان بشر/ ١٩٧ وديوان لبيد / ٧٧ . (٥) انظر شرح أشعار الهذليين ٣ / ١١٢٥ .

غلب اسم الوشيج على الرماح نفسها ، قال الاعشى[1] :

وترى الجياد الجرد حول بيوتنا　　موقوفة وترى الوشيجَ مُسنّدا

وكانوا يستعملون بعض اصناف الشجر في بناء الحظائر ، لترد الريح عنهم كما كانوا يعملون من خشب هذه الاشجار حظائر لابلهم وغنمهم ، يحبسونها فيها وكانوا يطلقون على هذه الحظائر العنن ، قال لبيد يذكر بني جعفر حين ارتحلت فنزلت بلاد بني الحارث بن كعب[2]

هلكت عامرٌ فلم يبق منهـا　　برياض الاعراف الا الديارُ

غير آلٍ وعُنّةٍ وعـريشٍ　　ذعذعتها الرياح والامطار

اما الشث والصرائم ، فمن الاخشاب التي كانت تستخدم في اقامة البيوت ، قال ساعدة بن جؤية[3] :

إنْ يكُ بيتي قَشعةً قد تخذمت　　وغُصْناً كأن الشوك فيه المواشم

فذلك ما كنا بسهل ومَـرةٍ　　إذا ما رفعنـا شَثّة وصرائم[4]

وكانوا يتخذون من الاسحل المساويك ، فاذا عظم وغلظ وصلب ، عند ذاك تتخذ منه الرحال ، لأن خشبه يصبح اصلب من خشب الاراك قال الطفيل[5] :

اذا هي لم تستك بعود اراكةٍ　　تبخل فاستاكت به عودُ أسحل

وقد شبه امرؤ القيس اصابع صاحبته ونعمتها وبياضها بالاسحل فقال[6] :

وتعطوا برخص غير شَثْن كأنه　　اساريعُ ظبي او مساويكُ اسحلِ

وكانوا يستعملون شجر المرخ في اقامة الخيام ، فينصبونه بالمرتبع ، ثم

---

(١) الأعشى الديوان / ٢٣٣ وانظر ديوان عبيد / ٣ ، وديوان عامر بن الطفيل/١١٨ ، ١٢٩ .

(٢) لبيد . الديوان/ ٤٤ – ٤٥ .　(٣) ساعدة بن جؤية . شرح أشعار الهذليين ١١٨٤/٣ .

(٤) قد تخذمت قد تقطعت . المواشم . الابر .　(٥) الطفيل الغنوي / الديوان / ٣٧ وانظر ديوان امرىء القيس/١٧ .　(٦) امرؤ القيس . الديوان/٧٨ .

يظلل بالثمام ، وهم يفعلون ذلك لأن ظل الثمام ابرد من ظل الابنية[1] . وكذلك الميس الذي كانوا يصنعون منه الرحال والموائد الواسعة ورحاله مشهورة ، حتى اصبح معنى الميس الرحل ، لغلبة استعماله قال الاعشى[2] :

زيّافة بالرحل خطّارة تُلْوى بشَرْخي ميْسة قاتر[3]

ومن اشجار الجبال العرعر والبان والشث ، وكانت تذكر مع بعضها وتقترن في كثير من الشواهد بأعمال البطولة والجرأة والغارة ، قال بشر في رجل[4] :

وصعب يزل الغفر عن قذفاته بحافاته بان طوال وعرعر

وقال عامر بن الطفيل[5] :

وافراسنا بالسهل بدّلن مذحجا ذرى شعف شثاً وباناً وعرعرا

وقال عروة بن الورد يصف غارات جماعته[6] :

فيوماً على نجد وغارات اهلها ويوماً بأرض ذات شث وعرعر

ولا بد ان يكون الشعراء قد استمدوا هذه المعاني من صعوبة الوصول الى منابت هذه الاشجار لوعورة المسلك .

ولصلابة هذا الشجر شبهت ضلوع الناقة بسقائفه . قال علقمة[7] :

ورفعت راحلة كأن ضلوعها من نص راكبها سقائف عرعر

ومن الاشجار التي تسمو وتطول باستواء، البان، ولاستواء نباته، ونبات افنانه وطوله ، شبه الشعراء الجواري الحسان والغانيات به، قال الاعشى يشبه امرأة طويلة[8] :

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/١٥٤ . (٢) الأعشى . الديوان /١٤٧ ، وانظر المفضليات ٢٣٢/٢ . (٣) قتر الشيء . ضم بعضه إلى بعض . (٤) بشر بن أبي خازم . الديوان/٨١ . (٥) عامر بن الطفيل . الديوان/٧٠ . (٦) عروة بن الورد . الديوان/٨٤ . (٧) علقمة . الديوان/١١٩ . (٨) الأعشى . الديوان/٣٥٣ .

نياف كغصن البان ترتج ان مشت وبيت قطا البطحاء في كل منهـــل

واذا شبه به الرجل ، فهو هجاء له ، لان التثني في المشي من صنعة النساء ، وقد هجا طرفة عمرو بن بشر بذلك[1] ووردت اشارات الى استعمال شجرة البان والعشب في الكتابة[2] .

وكانت اشارات الشعراء الى الاشجار التي يصبغ بها كثيرة ، فكانوا يذكرون العندم ، والفرصاد ، والبقم ، والعنم ، والعضرس[3] وهنالك انواع من الشجر ، استعملوها في مجال التشبيه بالغبـــار ، كالغرقد ، والتنضب والعلندى ، لان هذه الاشجار كثيرة الدخان اذا احرقت ، حتى اوشكت صورتها ان تتضح لهم ، وترتسم ملامحها في اذهانهم ، عند اثارة الخيل لهذا الغبار لسرعتها ، وقوة ضربها الارض ضرباً تثير به غباراً يماثل دخان هذه الاشجار وهي تحترق وكثر التشبيه بها في مثل هذه الاحوال[4] .

وللاثل اكثر من ذكر في حديث الشعراء لمنافعه الكثيرة ، فخشبه جيد يُحمل الى القُرى فتبنى عليه بيوت المدر ، ومنه تصنع القصاع ، والجفان ، والآنية والمكاييل والصيعان والاقداح[5] وخضرته التي تدوم دفعت الشعراء الى تشبيه حمولة الظعائن وما عليهن من الالوان الخضر ، بهذه الخضرة اللامعة[6] ولهيب ناره المتقد جعلهم يستشهدون به عند حديثهم عن البرق وشدة وميضه[7] ووعورة منابته هيأت لهم مجال الاستشهاد به عند تعرضهم لذكر الغـــزو والغارات . قال عروة بن الورد عندما اراد ان يحث جماعته على الغزو[8] :

فانكم لن تبلغوا كل همـــتي ولا اربتي حتى تروا منبت الاثل

---

(١) طرفة . الديوان/١٤٢ . (٢) انظر ديوان لبيد/١٣٨ . (٣) انظر ديوان امرىءالقيس ١٠٣ ، وديوان عبيد / ٤٩ وديوان عنترة / ٣٧٥ (الأعلم) وديوان الأعشى /٢٩٣ ، ٣٥٣ ، والمفضليات ٣٨/٢ . (٤) انظر ديوان الطفيل الغنوي/٩ وديوان بشر/٣٧ وديوان لبيد/١٦ . (٥) أبو حنيفة . النبات/١٣ . (٦) امرؤ القيس . الديوان/٦٢ . (٧) انظر ديوان الطفيل الغنوي/٤٣ . (٨) عروة بن الورد . الديوان /١٠٦ .

وعرفت انواع من الشجر بشوكها كالسيال والعضاة[1] والهراس واكثر ورودها في الشعر كان في حديث الشعراء عن الالم والقلق والحذر والانتظار ، فالاعشى عندما اراد ان يصور حالة مضطربة ، عبر عنها بمداعبة النوم للجفون وشبه امتناع الجفون عن الغمض بجريانه خلال شوك السيال المعروف بكثرة شوكه ولا بد لنا ان نتصور البراعة الفنية في هذه الصورة . وفي مكان حساس كالعين ، حتى ندرك دلالة ذلك المعنى ، قال الاعشى[2] :

باكرتها الاغراب في سنة النوم فتجري خلال شوك السيال

وتأخذ صورة الألم عند اوس شكلاً آخر فعندما صرعته ناقته واندقت فخذه ، واخذه الالم ، كانت هذه الآلام تشبه في حدتها وقوتها طعنة من شوك السيال[3] :

كأن اطاول شوك السيال تشك بها مضجعي شـــاجره

والنابغة الذبياني . الذي وشي به عند النعمان . فبات ليلته قلقاً مضطرباً يتقلب على مضجعه الذي بسط له الزائرات عليه هراسا . قد أحسن رسم صورة القلق والانتظار بهذه الصورة الشعرية ، فأبرز لنا مقدار ما يعانيه من خلال هذه اللوحة[4] :

فبت كأن العائذات فرشنني هَرَاساً به يُعلى فرَاشي ويُقشَبُ

وتتخذ الزناد من شجر العفار والمرخ : وهما شجرتان سريعتا الورى ، وذكرهما يرد في مجال الكتابة على نحو ما نجد عند علباء بن أرقم في اعتذاره للنعمان إذ يقول[5] .

وزَنْدَي عَفارٍ في السلاح وقادح اذا شئتُ أورى قبل ان يبلغ السأم

---

(١) ذكر الأصمعي في كتاب النبات والشجر/٣٣ : أن العضاة كل شوك يعظم ، يريد ان العضاة يطلق على كل شجر طويل ذي شوك . (٢) الأعشى . الديوان/٥ . (٣) أوس . الديوان/٣٤ .
(٤) النابغة . الديوان/١٧٥ . (٥) الأصمعي . الأصمعيات/١٧٩ .

وحينما مدح الأعشى قيس بن معديكرب قال له في تضاعيف قصيدته [١]

زنادك خيرُ زناد الملـــو ك خالط منهنّ مَرْخٌ عقارا

وأما الصاب والألاء والشبرم والحنظل والسليع والقار فهي من الأشجار التي تجمعها صفة المرارة ، ويتميز بعضها بحرارته التي تدمع منها العين ، وقد شبه امرؤ القيس ما جرى من دمعه لفقد أهل الدار بما يسيل من عين ناقف الحنظل[٢]

كأني غداة البين يوم تحملوا لدى سَمُرات الحي ناقف حنظل

ويشبه الشاعر الجاهلي ما اجتمع من المـــاء ، والتغيير الذي يصيبه نتيجة التجمع هذا ، ولبعد عهده بالوراد، بالصبيب لمرارته ، وورود هذا النوع من الماء كان من المفاخر التي يفاخر بها الفرسان ، لتوغلهم في هذه الأماكن التي لم تقطع من قبل ، ولم تطأها أقدام أحد ، فظل ماؤها راكدا ، قال علقمة يصف راحلته والمشقة التي صادفتها ، والطريق الذي سلكه [٣] :

فأوردتها ماءً كأن جمامـــه من الأجن حنّاءٌ معاً وصبيبُ

أما الألاء — وهو المعروف بالدفلى — فشجره حسن المنظر ، ولكنـــه مر الطعم وقد وجد الشاعر الجاهلي في هذا النبات صورة للمنافق الذي يظهر للناس وجهاً لطيفاً ، ويخفي باطناً مراً ، قال بشر يهجو قومه[٤] :

فانكم ومدحتكم بُجـــيرا ابا لجأ كما امتـــدح الألاءُ

يراه الناس اخضر من بعيد وتمنعه المـــرارة والاباء

ومن الأشجار ما استعمل في المثل لارتباطه بحوادث معينة كالقرظ ، وهو أجود ما تدبغ به الأهب في أرض العرب ، وكانت تدبغ بورقه وثمره ، وقد نسب إلى هذا الشجر رجلان سميا بالقارظين ، وضرب بهما المثل في طول الغيبة [٥] واستشهد به بشر بن أبي خازم عندما أصابه سهم الغلام الوائلي وهو

---

(١) الأعشى . الديوان/٥٣ . (٢) امرؤ القيس . الديوان/٩ . (٣) علقمة . الديوان/٢٨ .
(٤) بشر . الديوان/٣ . (٥) ولها حديث في طبقات ابن سلام / ١٥٠ والمعارف / ٢٦٩ =

يجود بنفسه ويخاطب ابنته [1] .

وان الوائلي اصاب قلبي بسهم لم يكن يكسى لغابا
فرجّي الخير وانتظري ايابي اذا ما القارظ العنزي آبا[2]

وهذا ما لا يكون أبداً ، لأن القارظ العنزي مات ، ولا أمل في عودته ، فكان يضرب به المثل في استحالة العودة والرجوع .

وعرف شجر الغضا بجزالة ناره ، وشدة جمرته ، وبقاء هذا الجمر متقدا مدة أطول من غيره من الشجر [3] وأثار توقد الحلي على صدور الأحبة ، وأعراف الفرس ولبّاته صورة حسية تتكرر كلما وقعت أبصارهم عليها ، فعقدوا المشابهة بينها وبين صورة النيران المتأججة من الغضا والعرفج ، لتوافق الألوان وتشابه الهيئات التي ترتسم فيها الصور ، قال امرؤ القيس[4] :

كأنّ على لبّاتها جمرَ مصطلٍ اصاب غضىً جزلا وكُفّ بأجذال[5]

وقال الطفيل الغنوي ينعت فرسه [6] :

كأن على اعرافه ولجامه سنا ضَرمٍ من عرفج متلهب

وجاء ذكر الطلح والكنهبل والعضاة والدوم في وصف الشعراء للظعون والابل والخيل ، لعظمة هذه الأشجار ، وضخامة هذه الموصوفات في نفوسهم فلم يجدوا صورة أوقع في التشبيه من صورة هذه الأشجار الكبيرة التي كانت تمدّ بظلالها مسافة يجدون تحتها الظل الوارف الجميل ، قال المرقش يصف ابلاً [7] :

تنزلن عن دومٍ تَهف مُتُونُه مُزيّنةٍ اكتافها بالزخارف

= والكامل ١/١٤٥ والاشتقاق /٩٠ والأغاني ١١/١٤٥ واللآلي/٩٩ وفصل المقال/١٩ والميداني ١ / ٧٥ واللسان والتاج (قرظ) . (١) بشر بن أبي خازم . الديوان / ٢٥ — ٢٦ .
(٢) اللغاب . الريش الرديء . (٣) انظر ديوان امرىء القيس/٢٠٥ . (٤) امرؤالقيس . الديوان/٢٩ . (٥) الأجذال . أصول الشجر . (٦) الطفيل الغنوي . الديوان/١٠ .
(٧) المفضل . المفضليات ٢ / ٣٢ وانظر ديوان امرىء القيس/٥٧ وديوان طرفة /١٦٩ .

وشبه بالعضاة نبات الأرومة ، فقال معاوية بن مالك[1] :

اني امرؤ من عصبة مشهورة حُشد لهم مجدٌ اشمُّ تليد
الفوا اباهم سيّداً واعانهم كَرَمٌ وأعمام لهم وجدود
اذ كل حيّ نابت بأرومة نبت العضاه فماجد وكسيد

وعرفت بعض النباتات بزهرها الأبيض الذي شبهوا به الشيب ، كشجر الثغام ، فإذا يبس ابيض بياضاً شديداً ، وإذا أقحل كان أشد ما يكون بياضاً وهذه الصورة الناصعة حملتهم على المقارنة بين الحالتين ، قال الأعشى يذكر كبره[2] :

فأن تك لمّتي يا قتل اضحت كأنّ على مفارقها ثغَاما
فإن دوائر الايام يفني تتابع وقعها الذكر الحُساما

وكما عرفت بعض أنواع الشجر بقوتها ، عرف بعضها الآخر بخورها وضعفها ، كالبروق والخلاف والنشم ، فكانت مضرباً للمثل بالضعف[3] وعرف البعض الآخر منها باشتداد صوت الريح فيه ، كشجر الثأب والعشرق[4] ووجدوا في شجر الاستن صوراً منكرة ، لسواد أسافله ، فعرضوا له في أوصافهم ، وشبهوه بما رسمه لهم خيالهم من الصور التي كانوا يعدونها منكرة[5]

وهناك أنواع أخرى من الشجر ، استعملها الشعراء في أحاديثهم ، وقرنوها بالصور التي كانت تتناسب مع كل نوع منها ، وما كانوا يجدونه في هذه الأنواع من الصفات .

أما النبات فكان وروده في الشعر أقل لضعفه ولأن حاجاتهم اليه قليلة ، واستعمالهم له محدود ، وأكثر النبات وروداً في الشعر ، البردي وبه شبهت العرب

---

(١) المفضل . المفضليات ٢/١٥٥ . (٢) الأعشى . الديوان /١٩٥ وانظر ديوان عامر بن الطفيل/٤٨١ وديوان بشر/٢١٠ . (٣) انظر ديوان بشر/١٤٦ ، وديوان زهير/٢٥١ .
(٤) انظر ديوان امرىء القيس/٤٩ ، وديوان الأعشى /٥٥ . (٥) انظر ديوان النابغة/١٧١ (مختار الأعلم) .

السيقان ، قال عبيد : [١]

خودٌ مبتلّة العظام كأنها بَرديّةٌ نبتتْ خلال غروس

والثمام الذي تتخذ منه المكانس ، ويظلل به المزاد ، فيبرد الماء . أو تسد به الفتحات والثقوب كما قال الأعشى في مدح اياس بن قبيصة[٢] .

وهل يشتاق مثلك من رسوم عفت الا الاياصر والثماما

وقد ورد ذكره في حديث الشعراء الهذليين في أحاديثهم عن الربايا لأنهم كانوا يطرحون عليها شيئاً من الثمام ، ليستظل بها الربيئة [٣] وضرب به المثل في تسهيل الحاجة ، وقرب النجاح ، فقالوا . هو على طرف الثمام[٤] وذلك أن الثمام نبت ضعيف سهل التناول ، وقيل أنه ينبت على قدر قامة المرء . فهو لا يطول ، فيشق تناوله ، وان درس اتخذته بعض الطيور في وضع أعشاشها لضعفه وخفته وسهولة نقله ، قال عبيد [٥]

بَرِمَتْ بنو اسد كما بَرِمَتْ ببيضتها الحمامة
جَعلت لها عودين من نَشَمٍ وآخرَ من ثُمامة

والنبات الذي كانت تقتات عليه الحيوانات كثير ، منه اليعضيد ، والجرجار والقتّ والتعليق ، والخلة والصفار . وجاء ذكر معظمها في حديث الشعراء عن علف حيوانهم ومدح الناس الذين يأمرون باطعام حيواناتهم بأمثال هذه النباتات ، قال الأعشى يمدح المحلق بن خنثم لرعايته لفرسه اليحموم[٦] .

ويأمر لليحموم كل عشيّة بقتّ وتعليق وقد كاد يسنق[٧]

وقال أبو دؤاد[٨] :

فبتنا عراة لدى مهرنا ننزّع من شفتيه الصّفارا

---

(١) عبيد . الديوان /٦٨ . (٢) الأعشى . الديوان/١٩٥ . (٣) انظر شرح أشعار الهذليين ١٠٧٧/٣ ، ١١٥٩ وكتاب النبات لأبي حنيفة/٧٨ . (٤) انظر فصل المقال / ٢٧٦ ، وأمثال الميداني ٢٦١/٢ . (٥) عبيد . الديوان/١٢٦ . (٦) الأعشى . الديوان / ٢١٩ .
(٧) السنق للحيوان كالتخمة للإنسان . (٨) أبو دؤاد الديوان/٣٥٢ .

وقال النابغة يمدح خيل بني دودان من بني أسد[1]

يتحلّب اليعضيد من اشداقها ، صفراً مناخرها من الجرجار

وكانوا يستعملون الخضاب والعظلم والورس والشيان في خضاب الرأس وصبغها وكانت النساء تطلي بالورس وجوههن للزينة [2] قال بشر بن أبي خازم[3]

لم تر عيني ولم تسمع بمثلهم حيّاً كحي لقيناهم ببسيانا
العاطفين على ما كان من الم كأنما خضبّوا ورسـا وشيّانا

وكانوا يطلقون على الحناء اليرناء[4] ووردت إشارات إلى استعمال الصمغ في تثبيت الشعر ، وخاصة عند الشعراء الصعاليك ، قال ساعدة بن جوية ينعت منازل قومه[5] .

ولكنما اهلي بواد أنيسه سباع تبغي الناس مثنى وموحد
لهن بما بيّن الاصاعي ومنصح تعا وكما عجّ الحجيج الملبّد[6]

أما الخطمي فهو نبات له رغوة تغسل به الثياب ، ويشبه به ما يخرج من الزبد من فم الناقة ويتطاير على خدها ولحييها من الجهد والسرعة ، قال علقمة[7] .

كأن غسلة خطميّ بمشفرها في الخدّ منها وفي اللحيين تلغيم

وقال الافوه الاودي[8]

وجاءوا بماء بارد وبغسلة فيا لك من غسل سيتبعه غـــبر

وشبه زبد لغام الناقة بمحلوج القطن الذي تبعثره النوادف ، كما جاء في قول أوس بن حجر[9]

---

(1) النابغة . الديوان/١٦٨ وانظر ديوان امرىء القيس/٨٧ وديوان عروة /١٧٥ والمفضليات ٢/٢١٥ . (2) أنظر ديوان عنترة /٣٧٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ وديوان الأعشى /١٢٧ .
(3) بشر . الديوان/٢١٨ ، وانظر ديوان امرىء القيس ٥٥ ، ٢٤٦ ، وديوان الأعشى /١٩١ ، ٣٢٣ . (4) انظر ديوان المزرد/٣٢ . (5) شرح أشعار الهذليين ٣/١١٦٦ .
(6) الملبد . الذي يلبد رأسه بالصمغ لئلا يتطاير شعره ولا يشعث . (7) علقمة . الديوان / ٤٨ .
(8) الأفوه الأودي . الطرائف الأدبية / ١٥ . (9) أوس بن حجر . الديوان/٦٦ .

علا رأسها بعد الهباب وساحت　　كمحلوج قطن ترتميه النوادف

وهي صورة نادرة في الشعر .

✓ ودخلت بعض النباتات في التقاليد الاجتماعية التي مارسها العرب آمادا ، فكانوا إذا أرادوا الحرب جعلوا معهم الحنوط ، واستبسلوا في القتال وكان الحنوط خليطاً من الغِسل والمسك ، ويتكون الغسل من الخطمي وورق السدر[1]

وشبهت هامات الرجال بالحنظل في سرعة قطع السيوف لها ، وتساقطها.

قال قيس بن الخطيم[2]

كأن رؤوسَ الخزرجيين اذْ بَدَتْ　　كتائبنا تَتْرى مع الصبح — حنظل

وكذلك يضرب المثل به في التراص في الحرب ، فيقولون حتى لو وقع حنظل على رؤوسهم — على املاسه واستوائه — لم ينزل إلى الأرض[3]

✓ واستعملوا الحرمل (النبات المر) في الهجاء ، فإذا أرادوا هجاء شخص أو جماعة شبهوهم بالحرمل المر الوبيل الذي لا يستمرىء أكله أحد[4] واستعملوا العلقم في حديثهم عن إذلال الخصم وارووائه الكأس الذي طعمها كطعم الحنظل[5] .

ووردت اشارات إلى العنصل (البصل البري) ولكنها محدودة . وكان يقترن ذكره بالسيل في هذه الاشارات ، والظاهر أنه كان ينبت قريباً من مسايل المياه وكان شكله أشبه بالكرة ، وهذا ما كان يستهوي الصبيان إلى جمعه وبعد انتهائهم منه كانوا يرمونه في السيل فيجرفه . قال الطفيل الغنوي[6]

ووحف يغادي بالدهان كأنــه　　مديد غداه السيل من نبت عنصل

---

(١) انظر ديوان عبيد /٧ .　(٢) قيس بن الخطيم الديوان /٤٩ وانظر ديوان عنترة /٣٩١ .
(٣) انظر ديوان قيس بن الخطيم / ٤٠ .　(٤) انظر ديوان طرفة / ٣٥٢ (الأعلم) .
(٥) انظر ديوان عنترة/٣٧٥ والمفضليات ٢/١٤٩ .　(٦) الطفيل الغنوي . الديوان/٣٦ .

وقال امرؤ القيس[1]

كأن سِبَاعاً فيه غَرْقَى غُدَيّةً   بأرجائه القُصوى انابيش عُنصلِ

وهناك أصناف أخرى من النبات كالطحماء ، والسحم والثمام ، والذيح والحوذان والنَفَل والعلجان والراء والغمير ، وعشرات غير هذه الأنواع وقد وردت في الشعر في حديث الشعراء مشبهين ومادحين وواصفين وهاجين ولكنها لم تتميز حتى نفرد لها قسماً كما فعلنا في هذه الأصناف .

أما الأزهار ، فهي أقل ذكراً في الشعر من الشجر والنبات ، لقلتها في أرض الجزيرة ، وقصر موسمها الذي تعيش فيه بسبب العوارض الطبيعية القاسية التي تمر بها ، ولهذا كانت صورها غير واضحة في أذهان الشعراء ، كما أن طبيعة الحياة لم تترك لهم الوقت الكافي حتى يتفرغوا لاستقصاء وصفها ، إضافة إلى كونها غير متعلقة بحياتهم المعاشية ، ولهذا كان ذكرها في مواضع الغزل والتشبيب أغلب وهذا ما تؤكده أكثر النصوص التي عثرنا عليها ، ويعدّ الاقحوان الذي شبهت به الثغور لبياضه اعمها ذكرا ، وقد اقترن وصفهم للثغور ، وتعرضهم للاقاح بصورة الضحك والابتسام ، لأنهم وجدوا في صورته صورة الثغر ، فأوراقه صغيرة ومفلجة ، وفي إدراك هذه الصورة حسّ دقيق ، وتفكير يحمل نضجاً عقلياً ، وكثيراً ما كانت تختلط أوصاف الثغر والأسنان والبياض في تشبيهاتهم ، قال طرفة يصف ثغر صاحبته[2]

تضحك من مثل الاقاحي حوى   من ديمة سكب سماء دلوح

وقال الأعشى[3]

وتضحكُ عن غُرّ الثنايا كأنه   ذُرَى أقحوانٍ نبتُهُ مُتناعِمُ

---

(1) امرؤ القيس . الديوان/٢٦ .   (2) طرفة . الديوان/١٦٩ وانظر/٣٢٦ من الديوان أيضاً.

(3) الأعشى . الديوان/٧٧ وانظر من الديوان الصفحات / ٢٠٩ ، ٣٥٣ وانظر ديوان عبيد /٥٣ وديوان النابغة /١٨٥ .

واستشهد ابو هلال العسكري في ديوان المعاني[1] ببيت بشر بن أبي خازم [2]

يفلجنّ الشفاه عن اقحوان   جلاه غبّ سـارية قطار

من جملة ما جاء به من الأمثلة على أجود ما قيل في الثغر من شعر المتقدمين، وقال المرتضى[3] . « قال الاصمعي « ما وصف أحد الثغر إلا احتاج إلى قول بشر بن أبي خازم » .

واثار زهر الاقحوان الابيض في نفوس بعض الشعراء، صورة الشيب، فحملهم على التشبيه به [4]

أما الخزامى فهو نبت زهره من أطيب الأزهار، وريحه من أنعش الرياح وكانوا يأتون على ذكره في حديثهم عن الرياض والمياه المنسابة، ثم يقرنون ذلك بريح الخزامى، لأنها من مستلزمات هذا الحديث، قال عبيد [5]

وريحِ الخُزَامى في مَذانبِ رَوْضَةٍ   جلا دمنها سارٍ من المُزن هَطّالِ

وكذلك العرار، المعروف بطيب رائحته، قال الأعشى، يصف امرأة ناصعة البياض[6]

بيضاء ضحوتها وصفراء العشية كالعرارة

وقد استعملت بعض أنواع الأزهار، الطيبة الرائحة كالفغو، والريحان والحوذان في الرثاء، وهم يذكرونها مصحوبة بالغيث المسيل، ليمتلىء بأريجها وعطرها وغيثها مكان المرثي، وهذا أقصى ما يبتغونه للميت، قال أوس بن حجر [7]

لا زال ريحانٌ وفغوٌ ناضـرٌ   يجري عليك بمسيل هطّال

---

(١) أبو هلال العسكري . ديوان المعاني ١/ ٢٣٨ . (٢) بشر . الديوان/ ٦٣ . (٣) المرتضى . الأمالي ١/ ٥١١ . (٤) انظر أبيات المرقش الأكبر في المفضليات ٢/ ٣٦ . (٥) عبيد . الديوان / ١١٤ وانظر ديوان امرىء القيس / ١٥٧ . (٦) الأعشى . الديوان / ١٥٣ .
(٧) أوس بن حجر . الديوان/ ١٠٨ .

وقال النابغة يرثي النعمان بن الحارث[1]

سقى الغيث قبراً بين بصرى وجاسم بغيث من الوسمي قطر ووابل
ولا زال ريحان ومسك وعنبر على منتهاه ديمة ثم هاطل
وينبت حوذاناً وعوناً منورا سأتبعه من خير ما قال قائل

وأشار الشنفرى إلى الريحان وطيب ريحه وتوهجه وتفرقه في كل جانب واستطابة نسيمه عند العشاء ، لأنه أبرد للريح عند مغيب الشمس فقال[2]

فبتنا كأنّ البيت حُجّرَ فَوقَنا بريحانة ريحت عشاء وطُلَّت
بريحانةٍ من بطنِ حلية نوّرت لها أرج ما حولها غير مُسْنِتِ[3]

وقف الأعشى كذلك عند الريحان في حديثه عن الخمر وانتشار قضبانه بين شاربيه وهم يتناقلون الكؤوس التي لا تجف[4] .

ومن الأزهار الشقر (شقائق النعمان)وبثماره الحمراء شبهوا الدماء[5] وقد عرفوا غير هذه الأنواع من الأزهار كالرند[6] والكافور والزنبق[7] والقرنفل[8] والياسمين[9] .

وإلى جانب هذه الأزهار عرف الشعر الجاهلي مجموعة من الفواكه كالعنب والاترج والتفاح والتين ، ولكن العنب أغلبها ذكراً ، وذكر الهمداني الرمان والسفرجل والاجاص والمشمش والخوخ والكمثرى[10] .

وأحصى الاصمعي ستة عشر نوعاً من العنب الطائفي في كتاب النخل

(١) النابغة الذبياني . الديوان / ١٩٨ وانظر حماسة أبي تمام (المرزوقي) ٤ / ١٦٢٨ .
(٢) المفضل . المفضليات ١٠٨/١ . (٣) حجر . أحيط . طلت . أصابها الطل وهو الندى . حلية . واد بتهامة . أعلاه لهذيل وأسفله لكنانة ، وبطن حلية في حرن أي أرض غليظة ، ونبت الحرن أطيب من غيره ريحا . المسنت . المجدب . (٤) انظر ديوان الأعشى / ٥٩ ، ٢١٧ .
(٥) انظر ديوان طرفة / ١٩٦، ٣٢٩ (الأعلم) . (٦) انظر ديوان امرىء القيس/ ٦٠ .
(٧) انظر ديوان الأعشى / ١١٩ ، ٢١٧ ، ٣٦٥ . (٨) انظر ديوان قيس بن الخطيم/ ٨٠ .
(٩) انظر ديوان الأعشى / ١٧٣ . (١٠) الهمداني . صفة جزيرة العرب/ ٦٩ .

والكرم [1] بأوصافها وأحجامها وألوانها ، وما صغر حبه منها ، وعظم ، وذكر أبو حنيفة صنفاً من العنب أسود كأنه البلوط في طوله ، كانت تشبه به أصابع العذارى المخضبة ، وكان عنقوده نحو الذراع ، متداحس الحب وله زبيب جيد ومنابته السراة[2] وكانت بعض المناطق تعرف بأعنابها التي تتخذ منها الخمور وقد أشار إلى بعضها الأعشى بقوله[3]

احب اثافت وقت القطاف ووقت عصارة اعنابهـــا

وكانوا يجففون العنب، ويدخرونه زبيباً ، ويأكلونه في أوقات الشتاء[4] وذكر الأصمعي طرق العصر والتجفيف[5] . أما عصيره ، فكان يذكر في حديث الشعراء عن ثغور الأحبة ووصفهم لرضابهن ، قال عروة بن الورد [6]

بآنسة الحديث رضاب فيهـــا بعيد النوم كالعنب العصير

وذكر أبو حنيفة أجناس التين ، فقال . إنها كثيرة ، سهلية وجبلية ، وهو كثير بارض العرب ، ويأكله الناس رطباً وتزببه متدخرة [7] .

قال أمية بن أبي الصلت[8]

فأنبتنا خضارم ناضرات يكون نتاجها عنباً وتينا

وتتضح لنا من خلال هذه النماذج الشعرية بعض الحقائق التي يمكن أن تقرر في هذا المجال ، إذ استوحوا من هذه الأشجار والنباتات والأزهار صورا لما يريدون أن يصفوه أو يمدحوه أو يتغزلوا فيه . سواء أكان ما لفت نظرهم فيها الهيئة أو اللون أو التكوين ، ويظهر ذلك جلياً في النماذج الشعرية التي استعملوا فيها هذه الأصناف بصورة مباشرة ، وبصورة غير مباشرة ، ولا بد للشعراء أن يتعرضوا بعد ذلك إلى صور قد تبدو نادرة في حديثهم عنها ، ولكنها لم تشكل اتجاهاً معيناً .

---

(1) الأصمعي . النخل والكرم /٧٥ (تحقيق هافنر) . (2) أبو حنيفة . النبات/٤٥ .
(3) الأعشى . الديوان/١٧٣ . (4) انظر الوحشيات /١٣٤ (غفاء بن الحارث) وديوان الأعشى /٢٥٦ ، ٢٣٥ . (5) الأصمعي . النخل والكرم /٧٩ . (6) عروة بن الورد . الديوان/٤٦ وانظر شرح أشعار الهذليين ١١٠٧/٣ . (7) أبوحنيفة . النبات ٦٩ — ٧٠ .
(8) أمية بن أبي الصلت . جمهرة أشعار العرب/١٨٨ .

الفَصلُ الثَاني

الطبيعَة المتحَركة

١ ـ الحيوان الأليف .
٢ ـ الحيوان الوحشي .
٣ ـ الطيور .
٤ ـ الزواحف والحشرات .

الحيوان

كان موقف الإنسان من الحيوان – من أقدم العصور – غريباً فهو يستأنسها مرة ، ويفتك بها للتغذّي مرة أخرى ، ويستعملها وسيلة لنقله تارة ، ويقدس بعضها أخرى ، وكانت آثار تلك الغرابة تلوح جلية في آدابه وحكاياته وأساطيره .

وتاريخ البشرية ، لا يخلو من النفوس الكريمة ، التي عاشت متعلقة بالحيوان أشدّ التعلق ، وآداب الأمم حافلة بغرر النظم والنثر ، لصور الحيوانات التي أعانت الإنسان على تذليل كثير من مصاعب الحياة ، ومنحته القدرة الفائقة على وصفها بالأوصاف التي خلدتها في آثاره وبقاياه .

والعرب كغيرهم من الأقوام الذين تعلقوا بحب هذه الحيوانات فقرّبوها وأعزّوها ومنحوها رعايتهم وعطفهم ، ولم تكن ظروفهم في جزيرتهم قادرة على أن يعيشوا بمعزل عنها ، فندرة النبات كانت الدافع الحقيقي الذي دفع القبائل إلى عدم الاعتماد في حياتهم على ما تنتجه الأرض فقط ، ودفعها إلى استغلال كافة الموارد على أية طريقة كانت فاضطروا إلى أن يجعلوا الحيوان عماد حياتهم ، متنقلين وراء ماشيتهم من مرعى إلى مرعى يقيمون اودها ، ويحفظون حياتها ، ويقون بها أنفسهم من هلاك محقق .

. والأدب الجاهلي زاخر بوصف الحيوان على اختلاف أصنافه والوانه ،

والقصائد العربية المخصوصة بالحيوانات تعد من أجمل الشعر وأظهره ، جدّة وطرافة وحياة ، وسوف نعرض في دراستنا إلى أحاديث الشعراء عن هـذه الحيوانات ، بما نجده ملائماً لطبيعة البحث ، محاولين ابراز الخصائص الفنيـة التي توصل اليها الشعراء من خلال أوصافهم .

ويتميز الأدب العربي ولا سيما الجاهلي منه ، عن سائر الآداب العالميـة الأخرى ، بأنه عني بوصف الإبل والخيل عناية عجيبة ، واننا نستطيـع أن نقول أنه ليس في آداب العالم أدب وصف هذين الحيوانين ، واهتم بدقائقهما وخصائصهما ، واستقصى حركاتهما ووصف أعضاءهما مثل الأدب العربي . وطبيعي أن تكون تلك العناية منبعثة من منافع هذه الحيوانات للعربي في صحرائه فهو يعد بعضها للحرب والغزو والصيد ، ويستعين ببعضها لتفريـج همه ، وتخفيف أحزانه ، ويستخدم البعض الآخر في التنقل والترحال والغذاء ، وكانت الأبل والخيل أولى تلك الحيوانات باهتمامه لأنها أوثق بحياته ، وأشدها صلة بمستقبله .

الحيوان الأليف

الإبــل

اهتم الشعراء الجاهليون بوصف الابل ، واستأثرت بحبهم لأنها الحيوان المناسب للحياة في الصحراء، لتحملها وعورتها ، ومقاومتها ظروفها، ومن هنا كثر تردد ذكرها في الشعر حتى لا تكاد تخلو قصيدة من ذلك ، ولم يكن حديثهم عنها مثقلاً أو مملاً ، وإن طالت الأبيات وكثرت الأوصاف وتعددت التشبيهات والصور ، فالابل في واقع حياة هذه المجموعة من الشعراء، لا تعنيهم إلا باعتبارها وسيلة من وسائل النقل التي تتحمل ما يفرضه السفر عليها من الجهد والمشقة لتبلغ بهم أماكن لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس[1] ، وأداة للتسلية التي يفرجون فيها عن أحزانهم ، فالابل تصر آذانها إذا حدا في اثارها الحادي ، وتزداد نشاطاً وتزيد في مشيها[2]، فكانوا بها يسلون همومهم، فتذهب عن نفوسهم بواعث الألم والضيق. وبسرعتها ومشيها تثار نوازعهم للوصف، وهي جسر ينتقلون بواسطته من حديث النسيب الحزين الذي يشتد فيه الألم ، حتى يؤثر في النفس . فيكاد يبلغ اليأس والجزع ، وبها يقطع الصحراء المخيفة، فيذعر الظباء ، وهي مع كل ذلك لا تمل ولا تشكو ولا تضجر . تحملهم إلى

(١) انظر : سورة النحل/٧ . (٢) الجاحظ . الحيوان ٤/١٩٣ .

ممدوحيهم ، وتنقلهم إلى ديار أحبتهم . فلا عجب إذا سمى العربي الابل المال أو النعم[1] ولا عجب أن تشغل الناقة المكان الكبير عند شعراء الجاهلية . فتستأثر بعناية العرب ، وتستحوذ على جزء كبير من شعرهم ، فهي قرى ضيفانهم . قال طرفة [2] :

وبَرْكٍ هجود قد أثارت مخافتي بواديها امشي بعضب مجرّد
فمرّت كَهَاة ذات خيف جلالة عقيلة شيخ كالوبيل يلندد
يقول وقد ترّ الوظيفُ وساقُها ألستَ ترى أنْ قد اتيتَ بمُؤيد

وكانت البلسم الذي يشفي الجروح ، ويزيل لهب النار المتأجج من النفوس[3] .

تعفّي الكُلُومُ بالمئين فأصبحتْ يُنجّمها من ليس فيها بمجرم
يُنجّمها قومٌ لقومٍ غرامةً ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

وربما يكون عدم اقتصار شيوعها على فئة معينة ، لكثرتها ولصبرها على التعب وقلة حاجتها إلى الماء والعلف ، من الأسباب التي ربطت بين العربي وهذا الحيوان مما أدّى إلى هذا الاستغراق في الوصف .

ولم يكن هذا الاهتمام بالابل اهتماماً عابراً ، وإنما جاء نتيجة الفائدة التي كان ينتفع بها البدوي ، فاستخدم الابل لحمل المتاع والماء وأدوات الحرب وعدتها ، ودفعته إلى تقدير ذلك الجهد الكبير الذي يقع عليه ، لو لم تكن هذه الحيوانات موجودة ، قال زهير يذكر الابل التي يحمل عليها المتاع[4]

يسيرون حتى حبّسوا عند بابه ثقال الروايا والهجان المتاليا

وقال الأعشى يمدح الأسود بن المنذر ، ويشير إلى الدروع التي كانت تحمل أكداساً فوق الجمال [5]

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس /١٣٦ وديوان بشر بن أبي خازم/١٧٤ وديوان الأعشى /٢٣٩ وخزانة الأدب ١/١٦٥ . (٢) طرفة . الديوان/٣٢١ (الأعلم) . (٣) زهير . الديوان/١٧ (٤) زهير . الديوان/٢٩١ . (٥) الأعشى . الديوان/١١ .

ودروع من نسج داود في الحر ب وشُوق يُحملنَ فوق الجمال

أما الاعتزاز بها فقد بلغ حداً كبيراً، فالزبّاء ناقة أبي دؤاد الايادي، كانوا يتفاءلون بها [1]، وكان بعض الشعراء ينعت ناقته بعبارة صاحبي، كما عودنا الفرسان إطلاق هذه اللفظة على خيلهم، لاعتزازهم بها، ومشاركتها لهم في الحروب، قال امرؤ القيس[2]:

قد أقطع الأرض وهي قَفْرٌ وصاحبي بازلٌ شملال

وكان التجاوب العميق في نفوس الشعراء تجاه هذا الحيوان والاحساس الذي يشعر به هذا الحيوان تجاه الانسان متبادلا، والمشاركة الوجدانية لما يقع عليه واضحة في الصور التي قدمها لنا الشعراء، فعندما شعر امرؤ القيس بالموت. تصور ابله قائمة لم تذق شيئاً من الطعام، مشاركة إياه في مصابه. قال [3]:

على قلص تظل مقلدات ازمتهنّ ما يعدفن عودا [4]

ولا غرابة بعد هذا إذا وجدنا الشعراء يساوون في الفداء بين أنفسهم ونوقهم، فعندما أراد بشر بن أبي خازم أن يمدح أوس بن حارثة، قال له [5]:

فدى لك نفسي يا بن شعدى وناقتي إذا بدت البيض الحذام الضوائع

وعظم بعض الشعراء الابل. فحلف النابغة بما كانوا ينذرونه لآلهتهم منها عندما أراد أن يعتذر للنعمان [6]:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذوامة وهو طائع
بمصطحبات من لصاف وثبرة يزرن الالا سيرهن التدافع

ويقسم ساعدة بن جؤية بها [7]:

---

(١) الأصفهاني. الأغاني ١٥/٩٧، وثمار القلوب في مثل كجار أبي دؤاد. (٢) امرؤ القيس. الديوان/١٨٩. (٣) امرؤ القيس. الديوان/٢١٣. (٤) ما يعدفن. ما يأكلن وما يذقن. (٥) بشر بن أبي خازم. الديوان/١١٦. (٦) النابغة. الديوان/١٥٧. (٧) ساعدة بن جؤية. شرح أشعار الهذليين ٣/١١٠١ – ١١٠٢.

إني وايديهـــا وكل هدية ممـــا تثج لها ترائب تثعب
حلف امرىء برّ سرفت يمينه ولكل ما تبدي النفوس محرب

وحرم العرب على أنفسهم الحامي والسائبة[1] والمفقأ والمعمى[2] .

إن إعجاب العربي بالابل وتركيبها، كان يشكل عاملاً نفسياً آخر من عوامل الاعجاب بهذا المخلوق ، فحاول أن يصور وقائعها وهيئتها وأعضاءها ، لأنه يرى فيها نواحي الجمال، وعبقرية الكون، التي لا يحيط بها وصف ولا عد، وفي القرآن الكريم دلالات على ذلك .

ففيها الدفء بما يعملونه من لباس ، وما يأكلون من لحوم ، وفيها زينة بيوتهم لأن الرعيان إذا روّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة زينت باراحتهـــا وتسريحها الافنية، وتجاوب الرغاء فآنست أهلها ، وفرحت أربابها وأحلتهم في عيون الناظرين اليها ، وأكسبتهم الجاه عند الناس[3] وكأنهـــا خلقت للنهوض بالاثقال ، وسخرت منقادة لكل من اقتادها ، ولا تمانع صغيراً ، ولا تقاوي ضعيفاً ، ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز ، فجاء ذكرها مع السماء والجبال والأرض فكانت مساوية لها في القدر ، مجانسة لأشكالها في العظمة .

وقد حملهم هذا الاهتمام والاعجاب على اكرام فحول الابل ، والاحتفاظ بأنسابها ، فكان اكرم فحل للعرب يسمى عصفوراً ، وتسمى

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٥ / ٥١٠ . الحامي : الفحل من الإبل يضرب الضراب المعدودة قبل عشرة أبطن فإذا بلغ ذلك قالوا : هذا حام ، أي حمى ظهره فيترك ، فلا ينتفع منه شيء ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى . والسائبة : كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برىء من علة ، أو نجته دابة من مشقة أو حرب قال : ناقتي سائبة أي تسيب ، فلا ينتفع بظهرها ولا تملأ عن ماء ولا تمنع من كلأ وتركب . (٢) انظر سورة الغاشية : « أفلا ينظرون إلى الإبل ... » المفقأ : وهو البعير الذي تفقأ عينه ويسرح حتى لا ينتفع به . وكانت العرب في الجاهليـــة تصنع ذلك في إبل الرجل إذا بلغت الفاً وإذا أتمت ألفين عماه وأعماه . (٣) انظر سورة النحل: « والانعام خلقها، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم » .

اولاده عصافير النعمان ، وكان عصفور وداعر وشاغر وذو الكبلين من فحولة الابل المعروفة[1] .

على ان الشعراء الجاهليين لم يقفوا منها موقفاً واحداً في وصفهم لها ، فهنالك طائفة وقفت عند اعضائها واجزائها ، كما هو الحال عند طرفة ، فقد قدم مجموعة من الصور ، والحّ في تأكيدها الحاحاً لم نجده عند غيره من الشعراء .

فجاءت اوصافه لها مغايرة لما عهدنا عند غيره ، فهو يحدق في اعضائها ، ثم يرسم هذه الاعضاء ويصورها تصويراً دقيقاً ، وقد كان لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً بلا وصف او تصوير وتشبيه .

وفي هذه الصور والتشبيهات والاجزاء ، ينسى طرفة مهمة هذه الناقة ، وكونها اداة للتسلية ، تنسيه همه ، وتفرج كربه ، ووسيلة للتغلب على أهوال الصحراء . ووقفت طائفة اخرى عندما تمدح به من القوة والصلابة والسرعة والقدرة على اجتياز المفاوز ، ثم الارقال الذي يقرّب المسافة التي يحتاجها الشاعر ليصل الى مبتغاه ، أما القسم الثالث من الشعراء ، فوقف عند صفاتها الداخلية ، وسوف اعرض لنماذج من هؤلاء الشعراء لاوضح قدرتهم المتكاملة على تصوير هذا الحيوان .

فاكتناز اللحم وعظمه ، والصلابة والشدة ، والقوة ، والغلظة ، والجرأة كلها من الصفات التي وقف عندها الشعراء ، وكانت عبارات (مقذوفة)[2] و (عذافرة)[3] ، و (الوجناء)[4] ، و (جمالية)[5] ، و (عرمس)[6] ،

---

(١) انظر حيوان الجاحظ ٥/٢٣٣ واللسان (عصفر) و (دعر) و (شغر) و (كبل) .
(٢) المقذوفة . الكثيرة اللحم . (٣) العذافرة . الناقة الشديدة . (٤) الوجناء من النوق . ذات الوجنة الضخمة . (٥) الجمالية . الناقة الوثيقة التي تشبه بالجمل في خلقتها وشدتها وعظمها .
(٦) العرمس . الناقة الصلبة الشديدة ، شبهت بالصخرة .

و (غلباء)[1] ، و (عجنّس)[2] ، و (علنداة)[3] ، و (مذكرة) [4] ، و (عرندسة)[5] ، و (عنتريس)[6] ، و (دوسرة)[7] ، و (عاقر)[8] ، من اكثر الأوصاف التي دارت على السن الشعراء ، ولابد للشعراء من ان يضفوا على رواحلهم هذه الأوصاف وينعتوها بهذه النعوت ، لتتمكن من مقاومة ظروف الحياة القاسية ، وتقدر على اداء ما كان يطلب منها ان تؤديه ، في هذه المفاوز الرهيبة ، فبشر بن ابي خازم عندما أراد ان يصف ناقته اضفى عليها مجموعة من النعوت ، كلها تشعر بالقوة ، وتعبّر عن معاني الصلابة [9] :

فقمتُ الى مَقْذُوفةٍ بجنَبيها عُذافرةٍ كالفَحْلِ وجناءَ عِرمِسِ
جُماليةٌ غلباء مضموزةِ القَرى أمونٍ ذمول كالفنيق العجنّس

وعبيد يقطع المفاوز الصعبة ، الخالية من كل علامة تدل على الطريق ، يهتدي بوساطتها ، فيخترقها بناقة غليظة شديدة ، يقول : [10]

ومَهْمه مُقفِرِ الاعلامِ مُنْجرِدٍ نائي المناهِلِ جَدْبِ القاعِ منساحِ
أجزْتهُ بعلنداة مُذكَّرةٍ كالعَيْرِ موّارة الضَّبْحَينِ مِمراحِ[11]

أما النابغة ، فعندما أراد ان يرثي النعمان بن الحارث ، وقف على آثار الديار ولم يجد تسلية لهمه سوى هذه الناقة الشديدة الصلبة[12] .

فَسلّيتُ ما عِندي بِروحَةِ عِرمِسٍ تَخُبُّ برحَلي تَارةً وتُنَاقِلِ

والمثقب العبدي يجمع في بيت واحد خمسة أوصاف من أوصاف الشدة والصلابة لناقته التي يقطع بها ساعة القيلولة ، ورمضاء الصحراء تتلهبّ في

---

(١) الغلباء . الغليظة الرقبة . (٢) العجنس . الجمل الشديد الضخم . (٣) العلنداة . الناقة الضخمة الطويلة . (٤) المذكرة . الشديدة . (٥) العرندسة . الناقة الشديدة .
(٦) العنتريس . الصلبة ، الوثيقة الشديدة ، الكثيرة اللحم . (٧) الدوسرة . الضخمة ، الشديدة.
(٨) العاقر . القوية . (٩) بشر الديوان/ ١٠٠ . (١٠) عبيد . الديوان/ ٣٩ .
(١١) الضبح: العضد أو الابط . (١٢) النابغة . الديوان/ ١٩٥ (الأعلم) .

كل شبر منها فيقول :[1]

عرفاء وجناء جمالّية　　مكربة ارساغها جلمــد

ومثل هؤلاء الشعراء ، بشامة بن الغدير ، الذي ينتقل الى وصف ناقته بعد وقوفه على ديار الاحبة ، فيذكر رحيله على ناقة عيرانة ، شديدة ، ضخمة ، قوية ، متينة محكمة الجسم ، مجموعة الخلق ، يقول :[2]

فقربت للرحل عيرانة　　عذافرة عنتريسا ذمولا
مداخلة الخلق مضبورة　　اذا اخذ الحاقفات المقيلا[3]

ولم يكتف الشعراء بهذه الاوصاف اذ حاولوا ان يقابلوا بينها وبين الحيوانات الاخرى القوية والسريعة ، كالثور الوحشي ، والحمار الوحشي ، ليضفوا عليها طابع الشدة ، ويؤكدوا صفة السرعة الّتي كانوا يسعون الى تصويرها . فعمرو بن قميئة يصف ناقته الّتي قطع بها الصحراء فيقول[4] :

وبيداء يلعب فيها السرا　　بُ يخشى بها المُدلجون الضّلالا
تجاوبتها راغبــاً راهبــاً　　اذا ما الظباء اعتنقن الظلالا
بضامرة كأتان الثميل　　عيرانة ما تشكّى الكــلالا

وعبيد بن الابرص ، لا يجد واسطة لقطع المفاوز والفلوات ، الا على نوق صيعريّة خفيفة صعبة ، تشبه الثور الوحشي ، الموشى بالسواد والبياض ، فيقول[5] :

ولقد أقطع السبّاسِبَ والشُّهبَ على صيعريّة الشملال
عنتريس كأنها ذو وشومِ　　احرجته بالجو إحدى الليالي

وامرؤ القيس يشبه ناقته بحمار الوحش المسن الشديد ، الذي يطوي

---

(١) المثقب . الديوان/٧ .　(٢) المفضل . المفضليات ١/٥٤ .　(٣) الحاقفات . الظباء تكون في الأحقاف ، والحقف ما اعوج من الرمل .　(٤) لويس شيخو . شعراء النصرانية ١/٢٩٦ .
(٥) عبيد . الديوان/١١٠ — ١١١ .

البلاد نشاطاً وقوة[1] :

كأني ورحلي فوق احقب قارحٍ بشَربّة أو طاو بعرنان مُوجس[2]

أما بشر فيشبه ناقته بحمار الوحش الذي يريد اتانا ليلقحها ، فهو يعدُو خلفها ، يقول :[3]

كأن قتودي على أحقبٍ يُريدُ نحوصاً تَؤمٌ السّلاما
شتيم ، تربّع في عانةً حيالُ يكادمُ فيها كداما[4]

ويشبه الاعشى راحلته بالحمار الوحشي المخطط القارح الذي يتابع اتنا موفورة النشاط ، مكتنزة اللحم فيقول[5] :

وشملّة حرف كأن قتودها حَللْته حَوْنَ السّراة خَفَيددا
وكأنها ذوحُدّةٍ غِبٌ السّرى او قارحٌ يتلو نحائِصَ جُدّدَا

ويشبهها ببقر الوحش في نشاطه فيقول[6] :

عرندسةٍ لا ينقُصُ السيرُ غَرْضهَا كأحقب بالوفراء جأب مكدّم[7]

ويقدم المثقب العبدي صورة غير الصور الّتي عرفناها فهو يشبه ناقته بالثور الاسفع ، الملمع الخدين الذي أردفت اكرعه بالشعر[8] .

كأنها اسفعُ ذوحُدّة يَمُدُهُ الوَبْل وليلُ سدِ
ملمع الخدين قد اردفت اكرعُهُ بالزمع الاسود[9]

ومن هنا نجد الشعراء يجمعون على وصف رواحلهم ونوقهم بالشدة

---

(١) امرؤ القيس. الديوان/١٠١ . (٢) شرية وعرنان. موضعان . (٣) بشر. الديوان/١٨٧ .
(٤) قتودي: جمع قتد، وهو خشب الرحل ، يريد أدوات رحله . النحوص : الأتان ليس في بطنها ولد . والسلام : اسم ماء . الشتيم : حمار الوحش الكريه الوجه. تربع : أكل الربيع ، وهو الكلأ فسمن ونشط ، والحيال : جمع حائل ، وهي الأتان الّتي لن تلقح . (٥) الأعشى . الديوان/٢١٩ .
(٦) الأعشى . الديوان/١١٩ . (٧) الغرض . حزام الرحل . جأب . غليظ . الوفراء . الأرض الّتي لم ينقص من نبتها شيء . (٨) المثقب العبدي . الديوان/١٠ . (٩) الزمع . الشعر الذي خلف الظلف .

والصلابة والجسارة والضخامة ، واحكام البنية ، والعقم لأن ذلك اصلب لها .

وكما وصفوا الناقة بهذه الصفات الدالة على الصلابة ، وصفوها بالسرعة وكل المعاني الدالة عليها فقالوا : (ناجية)[1] ، و (ذعلبة)[2] و (خطارة)[3] (عوجاء مرقال)[4] ، و (مجدّة)[5] و (امون)[6] و (ذمول)[7] و(مذعورة)[8] و (جفول)[9] ، و (مزؤدة)[10] ، و (هلواع)[11] وغيرها من الصفات التي تدور حول معاني السرعة والارقال والذعر والنشاط ، واوشك الشعراء ان يجمعوا على ان نوقهم نشيطة لم يكسرها السير وقت الكلال ، يزلّ عن سنامها الرحل لملاسته ، وهي تسير في يوم مايسار في أيام . وهي كالنعامة المذعورة .

والشعراء في كل هذه الاوصاف يريدون وصفها بالشدة والصلابة والقوة والسرعة ، والانطلاق على الرغم من اختلاف الوسيلة التي كانت تدفع الناقة الى هذه السرعة ، لان قسماً من الشعراء اشاروا اشارات بسيطة الى السياط ، باعتبارها وسيلة من وسائل الزجر التي كانوا يستعملونها لاكراه هذا الحيوان على السير .

ولو حاولنا استقصاء كل ما قالوه في الناقة لطال بنا القول ، فهم عالجوا كل جانب من جوانبها ، وتحدثوا عن كل عضو من اعضائها مستخدمين في سبيل ذلك كل ما وقع تحت ابصارهم ، لعقد مقارناتهم ، وقد دلّت صورهم التي قدموها على قدرة تصويرية ناضجة ، ولا نغالي اذا قلنا ان

---

(١) الناقة الناجية . السريعة . (٢) الذعلبة . وهي السريعة ، شبهت لسرعتها بالذعبلة وهي النعامة.
(٣) الخطارة . التي تخطر بذنبها في السير ، أي تضرب به يميناً وشمالا من النشاط . (٤) عوجاء. ضامرة لحق بطنها بظهرها ، ومرقال . صيغة مبالغة من الإرقال ، وهوان تسرع وتنفض رأسها ، وهو بين السير والعدو . (٥) المجدة . المجدة في السير ، المجتهدة فيه . (٦) الأمون . التي يؤمن عثارها. (٧) الذمول. الناقة التي تسير الذميل ، وهو ضرب من سير الإبل ، فيه سرعة ولين .
(٨) المذعورة . الخائفة . (٩) الجفول . الخائفة . (١٠) مزؤدة. مذعورة .
(١١) هلواع . سريعة مذعانة .

صورة طرفة التي قدمها لنا . تعد اكمل الصور واشملها لاحتوائها على الشكل العام لهذا الحيوان العجيب ، الذي وقف امامه الشاعر الجاهلي وقفة التأمل والحيرة والاعجاب .

أما اللغويون ، فكانت عنايتهم بالابل تضاهي العناية التي لقيتها عند الشعراء انفسهم ، فألف الاصمعي كتاباً في الابل . عرض فيه لحملها ونتاجها . وما يذكر من اسمائها وادوائها وسيرها والوانها واسماء اظمائها[1] وافرد ابن سيده اكثر من مائة وثلاثين صفحة من السفر السابع من مخصصه للابل ، عني فيه بحملها ونتاجها وصفاتها ، واسنانها وفطامها ، ونعوتها في الوله . واشتداد الحنين ونعوتها في ضروعها ، وفي كثرة البانها ، والوانها ، ونعوتها في حسنها ، وتمام خلقها ، وفي دمامتها ، ونعوتها في اسنمتها وفي سمنها ، وقلة لحومها واوبارها وصوت انيابها وتركها واهمالها وعلفها واجترارها وازيادها ورعيها وبروكها واناختها ، وسيرها في اللين والرفق والسرعة[2] .

الخيـــل

أحب العرب الخيل في العصر الجاهلي . لما ادته لهم من نفع كثير . لذلك كانت عنايتهم بها ، واهتمامهم بتربيتها . عناية تفوق كل شيء .

وقد اشتهر الجاهليون بالمحافظة عل انسابها . وعدم الخلط بين سلالاتها . فنراهم يخلدون ذكرها وصفاتها في قصائدهم ، ومقطعاتهم ، وقد عكف فريق من العلماء ، كالأصمعي وابي عبيدة وغيرهما على تدوينها تدوينا منظمـــا ، ووضعوا في ذلك رسائلهم التي لم يصل الينا منها الا النزر اليسير .

---

(١) الأصمعي . الإبل ضمن مجموعـــة الكنز اللغوي /٦٨ وهناك كتب أخرى الفت في الإبل ولم تصل الينا منها ، كتاب الإبل للنضر بن شميل (١٢٢–٢٠٣) وكتاب لأبي عبيد (١١٠ – ٢٠٩) ولأبي زياد الكلاي، ولأبي حاتم الجستاني (٢٤٨) انظر فهرست ابن النديم ٤٤، ٥٢، ٥٣، ٥٩ .
(٢) ابن سيده . المخصص ٧/١ – ١٣٨ .

وكان اطلاق الاسماء على الخيل عادة مألوفة ومعروفة ليتمكنوا من تمييزها ، وليعرفوا الأصيل منها من غيره ، وقد ذكر ابن الكلبي طائفة من فحولها وجيادها ، والمعروف المنسوب منها في الجاهلية ، وما شهر باسم أو نسب من ذكورها واناثها ، ومما ذكره : زاد الراكب ، واعوج ، وسبل ، والنعامة ، والهطال ، والعرادة ، والوجيه ، ولاحق ، وقرزل ، والجون ، وداحس ، والغبراء ، والورد ، وجروة ، والشموس .

وحفلت قصص الفروسية العربية بذكر كثير من أسماء الخيل التي كانت تمثل الأصحاب الحقيقيين لها ، والتي كانت لا تقل بطولاتها عن بطولات فرسانها ، فاستحقت بذلك الاعجاب والتقدير ، وقد ذكر صاحب انساب الخيل اكثر من مائة فرس من افراس الجاهلية والاسلام مع نسبتها إلى أصحابها[١]

ومن هنا نستطيع القول انه ليس في مملكة الحيوان نوع يتداخل تاريخه مع تاريخ الانسان كالخيل ، ولسنا نخشى الاتهام بالمغالاة اذا قلنا : إن ظهورها وترويضها لخدمة الانسان كان من العوامل الحاسمة في سير التاريخ ، لأن قيام كثير من الممالك القديمة كان رهنا بمدى اقتناء الخيول السريعة ، او بمدى معرفتها لوسائل استخدامها .

ولم تكن العرب في الجاهلية تصون شيئاً من أموالها ، وتكرمه صيانتها الخيل واكرامها لها ، فكانوا بها يدافعون عما يملكونه ، ويحمون دمارهم ، ويطلبون ثاراتهم وينالون بها الغنائم ، ويتخذونها معاقل تقيهم غارة خصومهم ، فظل ذكرها يتردد على شفاههم .[٢]

وكان لهم فيها من التباهي والتفاخر والتنافس ما يدعو إلى التأمل ؛ ففي اكرامها اكرام للمرء نفسه ، لأنها وقاية للنفوس ، وفي ذلك يحث أحد بني عامر بن صعصعة قومه فيقول :[٣]

---

(١) ابن الكلبي . أنساب الخيل/١٢٩ .

(٢) انظر ديوان أبي دؤاد/٣١٧ .

(٣) أبو عبيدة . الخيل/١٢ .

بني عامر ما لي أرى الخيل اصبحت بطانا وبعض الضمر للخيل افضـــل
بني عامر ان الخيول وقـــايـــة لانفسكم ، والموت وقت مؤجل
اهينوا لهـــا مـــا تكرمون وباشروا صيانتهـــا ، والصون للخيل اجمـــل
متى تكرموهـــا يكرم المرء نفسه وكل امرىء من قومه حيث ينـــزل

وكان العربي يبيت طاويا ، ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه واهله وولده ، فيسقيه المحض ، ويشرب المـــاء القراح ، ويأكل التمر ، ويعلفه الشعير في الصيف ، ويجلله بالاكسية التي تصونه ، وتمنع عنه اذى الرياح في الشتاء ، وقد افرد ابن قتيبة بابا في القيام عليها وسقيها اللبن[1] واصبح يعيّر بعضهم بعضا باذالة الخيول وهزالها، وسوء صيانتها[2]، واعتبرت الخيل العتاق من اسرة الفارس ، فهو يحبها اشد الحب ويرعاها احسن الرعاية ، ويديم النظر اليهـــا من كل ناحية وفي كل حركة .

وقد لا يكتفي باوصافه هذه ، وانما يحاول ان يكون دقيقاً في الوصف ، ويطيل من مناخه ، فيتناول اعضاءها وقوتها وقد دارت اوصافها في شعرهم ، فلم يتركوا عضوا من اعضائها الا وصفوه ، وقد ارتسم في صورهم الـــتي صوروها مدى الاهتمام والاعتزاز الذي كان يساورهم تجاه هذا الحيوان .

ولم تزل العرب على ذلك من تثمين الخيل ، والرغبة في اتخاذها وصيانتها والصبر على مقاساة مؤونتها مع جدوبة بلادهم ،وشدة حالهم في معيشتهم[3] الى درجة أنهم سموها الخير ، كما ذكر الطفيل الغنوى[4] :

وللخيل أيام فمـــن يصطبر لهـــا ويعرف لها ايامها الخير تعقب

وليس ادل على اعزاز الخيل وكرامتها على اهلها . ورفعتها في نظرهم من قول امرىء القيس في معلقته[5] :

---

(١) ابن قتيبة . المعاني الكبير/٨٣ . (٢) أبو عبيدة . الخيل/٢ . (٣) المصدر نفسه/٣ .
(٤) الطفيل الغنوي . الديوان/١٦ . (٥) امرؤ القيس . الديوان/٢١ .

وبات عليه سرجـــه ولجامـــه وبات بعيني قائما غير مرسل

واضيف لفظ الخيل إلى بعض الاسماء ، فقيل زيد الخيل ، لشغفه بهـــا وكثرة ما اجتمع لديه منها ، فقد عرفت له ستة أفراس باسمائها[1] .

والفرس عدة للفارس في الحروب ، لغيرتها على صاحبها وهذا ما حملهم على تقريبها من بيوتهم ، اكراما لها ، وتعظيما لقدرها واعتزازا بها ، حتى سميت بالمقربات[2] .

وبلغ من تعظيم الخيل أنهم كانوا لا يهنئون الا بغلام يولد . او شاعر ينبغ ، او فرس تنتج[3] ، وكما كان لفظ الخيل يضاف الى بعض الاسماء، كان يضاف لقب الفارس الى فرسه، تعظيما واكراما ، فيقال فارس اليحموم[4] وفارس الجون[5] ، وفارس العرادة[6] وفارس المزنوق[7] ، وهكذا ، وكان اشراف العرب يخدمون الخيل بانفسهم ، وكانوا يفتخرون بذلك ، حتى عد ذلك مأثرة من المآثر التي يعتزون بها ، فكانوا يمرنونها على اكل قديد اللحم ، فإذا أجدبوا ، وقل اللبن اطعمـوها منـه ، ويسقونها المـاء الدافىء في الشتاء[8] ويصنعون لها النعال لتقي حوافرها ضد الصخور والأرض الصلبة كما ذكر زهير[9] :

تهوي على ربَذاتٍ غـــير فائـــرةٍ تُحذي وتُعقد في ارساغها الخَدَمُ

ويلبسونها غطاء الرأس لعزتها[10] ، وافتتح فريق من الشعراء قصائدهم

---

(١) الأصفهاني . الأغاني ١٦ /٤٦ (ساسي) . (٢) انظر ديوان عبيد/١١٨ وديوان عنترة/٤١٠ وديوان عامر بن الطفيل / ٣٢، ٣٥ ، ودريد بن الصمة في شعراء النصرانية / ٧٧٨ ، وديوان المزرد/٤١ . (٣) ابن رشيق العمدة ١/٢٩ . (٤) فارس اليحموم . النعمان بن المنذر . (٥) فارس الجون . الحارث بن النعمان ، والجون . الحصان الأسود . (٦) فارس العرادة . أبو دؤاد الايادي . (٧) فارس المزنوق . عامر بن الطفيل . (٨) الجزائري . نخبة عقد الأجياد/٢٢٣ . (٩) زهير . الديوان/١٥٦ . (١٠) انظر ديوان الطفيل الغنوي/٣٠ وديوان عنترة/٧٨ والمفضليات ١/٥٠ وكتاب الخيل لأبي عبيدة/١١ .

بذكرها [١] ، وكان السهر على العناية بها مثار اعجاب الشعراء الذين كانوا يتخذون من ذلك موضعاً للمدح [٢] .

وطبيعي – بعد كل ما ذكرنا – ان نجد العربي يتغنى بامتلاكه الفرس ، ويفخر باهتمامه بها ، وولعه بركوبها . ولم يمنعه الإقتار من الحصول عليها . لانها مكسبه في كل رهان وحصن يتحصن به تجاه كل معتد ووسيلة يستعملها في الحرب والصيد . وقد جمع ابو دؤاد من منافعها ما برر له الاحتفاظ بها ، فقال [٣] .

عَلِقَ الخيلَ حبُّ قلبي وليداً — واذا ثابَ عندي الاكثارُ
علقت همّي بهن فما يمـ — ـنعُ مني الاعنّة الاقتار
جُنة لي في كلّ يوم رهانٍ — جُمّعت في رهانها الأعشارُ
وانجراري بهن نحو عَدوّي — وارتحالي البلاد والتسيار

وصور القرآن الكريم اهميتها ، فأقسم بها . وهي تضبح بأصواتها اللاهثة . فتوري الشرر بحوافرها القادحة ، فتثير النقع . وتتوسط الجمع في اندفاع وقوة . : « والعاديات ضبحا . فالمُوريات قَدْحا . فالمُغيرات صُبحا . فأثرن به نَقعا . فوسطن به جمعا [٤] » .

وكان من تقاليد العربي الاّ يبيع فرسه مهما ضاقت به المسالك . لأن في بيعها مثلبة لا تدانيها مثلبة . وهذا ما يوحي بالثقة الأكيدة التي تغمر قلب العربي . والاعتقاد الراسخ بحبه لهذا الحيوان الاصيل العريق .

ولا بد ان تعطي هذه الاهمية لهذا الحيوان . المكان البارز في الادب العربي : لأنه ملأ جوانب كثيرة من حياة العرب . فلا غرابة اذا وجدنا فريقاً

---

(١) انظر ديوان عامر بن الطفيل / ١٢١ والأصمعيات / ٦٧ والمفضليات ٢ / ٩٦ و ٩٧ .
(٢) انظر ديوان الأعشى / ٩٩ . (٣) أبو دؤاد . الديوان/٣١٧ . (٤) سورة العاديات . الآيات ١–٥ .

من الشعراء قد تخصصوا في اوصافه ، فذكر الاصمعي ان ثلاثة من العرب لا يقاربهم احد في وصف الخيل ، ابو دؤاد الايادي ، والطفيل الغنوي ، والنابغة الجعدي ، فأما ابو دؤاد ، فكان على خيل النعمان بن المنذر ، والطفيل كان يركبها وهو اعزل الى ان كبر . والجعدي سمع اوصافها من اشعار اهلها فأخذها عنهم[1] .

وقال ابو عبيدة ، ان ابا دؤاد اوصف الناس للفرس في الجاهلية والاسلام ، وبعده الطفيل الغنوي ، والنابغة الجعدي ، وكان ابو عبيدة عالماً بأوصاف الخيل ، وكان يقول : ما التقى فرسان في جاهلية ولا اسلام الا عرفتهما وعرفت فارسيهما ، وقال ابن الاعرابي : لم يصف احد قط الخيل الا احتاج الى ابي دؤاد ، وقد لقب بنعّات الخيل ، لانه احسن نعتها[2].

وطبيعة الحياة العربية ، وقسوة الظروف الطبيعية في جزيرة العرب جعلت العربي يستحب في خيله الصلابة والضخامة والامتلاء ، لتكون قادرة على تلبية كل مطلب[3] وهذا ما حمل امرأ القيس على تشبيه فرسه بالهراوة لانها لا تتخذ الا من اصلب العود واشده[4] .

بعجلزة قد أترز الجري لحمها كميت كأنها هــراوة منوال

وكذلك صنع لبيد حينما شبه فرسه بعصا الرعاء الذين يبعدون بإبلهم وهي لا تفارقهم ، لانهم يتخذونها سلاحاً ، يدفعون بها عنهم السباع وهوام الليل فقال[5] :

تهدى اوائلهن كلّ طمرّة جرداء مثل هراوة الأعزاب

اما ضخامتها وعلوها ، فقد اكثر الشعراء من ذكرهما ، فشبهوا الفرس

---

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء /١٦٢ (بيروت) ١٩٦٤ . (٢) الجزائري . نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد/١٠٠ . (٣) انظر ديوان أبي دؤاد/٢٩١،٣٢٨ وديوان بشر/٧٧ . (٤) امرؤ القيس . الديوان /٣٧ . (٥) لبيد . الديوان/٢١ وانظر ديوان الأعشى والمفضليات ١٠٢/١، ٧٧/٢ .

الضخم بالبناء العالي الذي يتعبد فيه[1] وشبهها ابو دؤاد بالثور الوحشي النشيط بالقوة[2] ، وشبه امرؤ القيس فرسه لقوته ونشاطه بتيس الربل فقال[3] :

وراح كتيس الربل ينفض رأسه اذاة به من صائك متحلّب

وتتمثل اكثر من صفة من صفات الشدة والصلابة والسرعة في بيت امرىء القيس حينما يشبهها بالجلمود ، ويجعل الجلمود منحطاً من فوق الجبل لان ذلك اصلب له ، واسرع لوقوعه ، يقول[4] :

مكر مفر مقبل مدبر معـــاً كجلمود صخر حطّه السيل من عل

وتكاد الصورة تبرز عند ابي دؤاد . حينما جمع في فرسه من صفات الشدة ما احكم قوة فرسه ومنحه القدرة على هذه الشدة فقال[5] :

ولقد اغتدى يدافع ركني أجولي ذو ميعة اضريج
مخلط مزيل معنّ مفنّ مطرح مضرح جموح خروج[6]

ولا بد ان تكون السرعة ذات اثر بالنسبة للفرسان في صحرائهم الفسيحة . ولا بد أن تكون هذه السرعة أيضاً مثار اعجاب الشعراء الذين وجدوا فيها متنفساً لابراز صفات هذه الخيول التي تحملهم الى اعدائهم بهذه السرعة . فيطاردون من انهزم من خصومهم . ويفرون بها من المعركة . اذا شعروا بأن بقاءهم في المعركة لا يجدي ، ويقيدون بها الاوابد ، ويصطادون ما يعن لهم في هذه المفاوز المقفرة ليتخذوه طعاماً يسدّون به غائلة الجوع : كل هذه المنافع التي شعروا بها ، وأحسوا بأن هذا الحيوان يؤديها . اثارت اعجابهم به . فوصفوه بما تمكنوا من اوصاف ، فهو سبوح طويل — واكثر الشعراء من هذه الصفة

---

(١) انظر ديوان عنترة/٣٩١ . (٢) انظر ديوان أبي دؤاد/٣١٧ وديوان الأعشى/٢١ .
(٣) امرؤ القيس . الديوان/٥٤ وانظر/٨٧ وديوان الطفيل/١٢ وديوان الأعشى/٣٣٥ والمفضليات ٢/٩٧، ١٦٧ . (٤) امرؤ القيس . الديوان/١٩ . (٥) أبو دؤاد . الديوان/٢٩٩ .
(٦) الأجولي . الفرس الجوال السريع . الأضريج . الجواد الكثير العرق أو الشديد العدو .

في احاديثهم عن سرعة خيلهم[١] — . سريع رفع القوائم ووضعها ، سريع الركض والجري[٢] واكثروا من اوصاف السرعة وهم يتحدثون عنها فقالوا : (المسح)[٣] و (المشرحف)[٤] والسبوح ، وكأنهم وجدوا في الطول عاملاً مساعداً لهذه السرعة ، فكان تأكيدهم لهذه الصفة كثيراً فقالوا : (السلهب)[٥] و (الشرجب)[٦] و (السلجم)[٧] و (الطمّرة)[٨] و (الشقاء)[٩] و (الشيظم) و (الصلهب) و (الشوقب) و (الشوذب) وغير ذلك من الاوصاف التي تدل على السرعة ، وتحمل الجري بقوة ، وتساعـد على قطع المسافات الطويلة [١٠] .

وكما كان الشعراء يسلون همهم على نوق سريعة، كان الفرسان يستأنسون بخيول سريعة ، ذوات أعراف طويلة ، وأحساب كريمة قال ابو دؤاد[١١] :

أرعى اجمّته وحدي ويؤنسني   نهد المراكل صلت الخد منسوب
يعلو بفارسه منه الى سنـد   عال وفيه اذا ما جدّ تصويب

وتتوالى صور المشبه به الذي يقرنون به صور خيلهم وافراسهم ، فهي الذئب في السرعة والخفة والنشاط والاندفاع ، قال ابو دؤاد ينعت فرسه[١٢] :

كالسيد ما استقبلته واذا   ولّى تقول ململم ضـرب

---

(١) انظر ديوان عبيد/١١٧ وديوان امرىء القيس/١٨٧ وديوان عنترة / ٣٧٦و٤٠٨ (الأعلم) وديوان الطفيل الغنوي/٢٩ وديوان الأعشى /١٣٣ و ١٤٧ و ١٥٩ وديوان عامر بن الطفيل /٥٧،٨٢ . (٢) انظر ديوان امرىء القيس/٨٦ . (٣) المسح . المنصب في جريه .
(٤) المشرحف . السريع . (٥) السلهب . العظيم الطول من الخيل (٦) الشرجب . الطويل القوائم . (٧) السلجم . الطويل . (٨) الطمرة . الطويلة المشرفة . (٩) كل هذه الصفات تعني الطويلة . (١٠) انظر ديوان امرىء القيس/١٨٧ وديوان عبيد/١١٧ وديوان علقمة/٤٢٢ (الأعلم) وديوان أبي دؤاد/٢٨٨،٢٩٩ و ٣٣٥، وساعدة بن جؤية في شرح أشعار الهذليين٣/١١١٦، وديوان الطفيل الغنوي/١٢،٢٤،٢٩،٤٦، وديوان عامر بن الطفيل/٤٠،٥٧، وديوان لبيد/٢١ . (١١) أبو دؤاد . الديوان/٢٩٥ . (١٢) أبو دؤاد . الديوان/٢٨٤، وانظر ديوان امرىء القيس/٦٧ وديوان عبيد/٥ ، وديوان الطفيل الغنوي/٥،٢١،٢٣،٣٣، وديوان طرفة/٥١ والأصمعيات/١١٥ .

وكانوا يشبهون خيلهم بالجرادة[1]، والعقاب والباز والصقر والحدأ[2] والنعامة[3] وكان الشاعر الجاهلي يلح على ذكر لون الفرس التي يصفها[4]، ويتحدث عن لمعان جلدها، وبريقه وصفائه ونصاعته[5]، وهو يشرق بالعرق المتصبب من جوانبه[6]، ويتلون بألوان الدماء القانئة التي تشبه شقائق النعمان[7]، او الدماء الغزيرة التي تبدو كالشيب المرجل بالحناء[8] او الصرف[9]. او السندس الأخضر[10]، وكانت الخيل الشقر هي المفضلة عندهم[11].

وكانوا يحرصون على ابراز الصورة الكاملة الدقيقة لهذا الحيوان ليظهروا عظمة فائدته، وشدة حاجتهم اليه، ولم يقفوا عند هذه الأوصاف الخاصة. وانما حاولوا أن يصوروا لنا الجوانب الداخلية لهذا الحيوان، لأنها كانت وثيقة الصلة بالحاجة التي يريدونها منه، فكانت السرعة تقتضي عملاً آخر، او عملين آخرين تلازمهما وتقترن بهما، فنبضات القلب سريعة. والقلب لا يكاد يسكن من خفته[12]. أما ارتفاع نفسه بعد الجري، فكان يستوقف الشاعر الجاهلي ايضاً[13].

وشبه نفسه من منخره عندما يشتد عدْوه، فشبه بكير حداد، استعاره

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/١٢١، ١٦٣، ١٦٦، ١٩٣، وديوان الطفيل الغنوي/٢٢، ٣٣، وديوان بشر/٧٤، وديوان طرفة/٨٥، وديوان النابغة/١٥٢. (٢) انظر ديوان امرىء القيس/٣٨، ١٧٣، وديوان بشر/١٨٩، وديوان الأعشى/٢٩، وديوان لبيد/١٨٨، والمفضليات ١/٣٥، ٢/٥٦ والاصمعيات/١٥٨، والأغاني ١٠/٣٩ (دار الكتب).
(٣) انظر ديوان امرىء القيس/٢٣٣، وديوان أبي دؤاد/٢٨٤، ٣٢٢ ٣٤٢، والأعشى/٣٤٩، والمفضليات/٢٠٧ «وانظر الدراسة الفنية في الرسالة». (٤) ديوان امرىء القيس/٢٠، وديوان الطفيل/٧، ٢٢، وديوان الأعشى/٥٣، ١٨٧، ٢٨٥، والمفضليات ٢/٢١٤.
(٥) انظر ديوان أبي دؤاد/٢٨٩، والمفضليات ١/٣٨، ٢/٤٢. (٦) انظر ديوان امرىءالقيس/٦٧، وديوان الطفيل/٨. (٧) انظر ديوان طرفة/٧٨. (٨) انظر ديوان امرىء القيس/٢٣. (٩) انظر المفضليات ٢/٤٣. (١٠) انظر المفضليات ٢/٩٧.
(١١) الجاحظ. القول في البغال/١٠٨. (١٢) انظر ديوان أبي دؤاد/٣٤٣.
(١٣) انظر ديوان أبي دؤاد/٢٩٣، والمفضليات ٢/٢١٤.

مستعير، لأنّ الذي يستعير الكير يحرص على رده الى صاحبه فور انتهائه منه، ولهذا فهو ينفخ فيه بشدة، ليقضي حاجته قبل إرجاعه الى صاحبه، وهي صورة طريفة حرص الشاعر الجاهلي على اظهارها، قال بشر بن ابي خازم[1] :

كأنّ حفيف منخره اذا ما   كتمن الربو كير مستعار

أما في مجال الصيد فقد تحدثوا عنها، لأنهم كانوا يغدون بها اليه، فهي صافية اللون[2]، ضامرة البطن، ملساء الجسم ناعمة جميلة الخلق، ليس فيها ما يعاب، وكان الشاعر يحرص على وصف فرسه بهذه الصفات حتى يتمكن من اصطياد أشق انواع الحيوان، ويقيد بها الأوابد[3]، ويدرك بواسطتها ما يبتغي، لا يخاتل الصيد، ولكن يجاهر به، ثقة منهم بهذه الأفراس، قال زهير[4] :

اذا ما غدونا نبتغي الصيد مرة   متى نره فاننا لا نخاتله.

وقال علقمة[5] :

اذا ما اقتنصنا لم نخاتل بجنة   ولكن ننادي من بعيد الا اركب

وكانوا يشبهونها، وهي تهوي على صيدها بالعقاب، او الصقر وتنقض على فريستها انقضاضاً لا يترك لها مجالاً للهرب[6] وكثيراً ما كانوا يقرنون بين ذهابها للصيد، وبين الدم الذي يعلو صدرها، ويشبهون ذلك بالمداك، قال سلامة بن جندل[7] :

يرقى الدسيع الى هاد له بتع   في جؤجؤ كمداك الطيب مخضوب[8]

وقال عبيد بن الابرص[9] :

---

(١) بشر بن أبي خازم. الديوان/٧٨.   (٢) انظر ديوان زهير/٢٥٥، والمفضليات ١/٣٨، ١٠٤.   (٣) انظر ديوان امرىء القيس/١٩ والمفضليات ٢/١٩.   (٤) زهير. الديوان/١٣٠.
(٥) علقمة. الديوان/٤٣٨.   (٦) انظر هامش تشبيه الفرس بهذه الحيوانات في الدراسة الفنية.
(٧) المفضل. المفضليات ١/١٢١.   (٨) الدسيع. مغرز العنق في الكاهل. الهادي. العنق. البتع. الطويل.   (٩) عبيد. الديوان/٧٠.

وإذا اقتنصنا لا يجف خضابها وكأن بركتها مداك عروس [١]

او يشبهونه بحمرة الخضاب في الشيب[٢] واذا علا الدم اعناقها شبهوها بالحجارة التي كانوا يذبحون عليها . قال سلامة بن جندل[٣] :

والعاديات أسابي الدماء بها كأن اعناقها أنصاب ترجيب

وكان الفرس اذا استخدموه في الصيد خضبوه بدمه . ليعلم انه قد صادوا به .

ومن خلال هذا العرض نجد اهمية هذا الحيوان بالنسبة للحياة العربية وندرك الحاجة القصوى التي كانت تلح على العربي للاهتمام به حتى بلغت مظاهر الاعتزاز به ، وتقريبه والاعتناء بتربيته درجة لم نجدها عند غير العرب من الأمم . فهو يريده وسيلة للحرب . يطارد به خصومه . ويريده حصناً يتحصن به . وسبيلاً إلى الصيد والقنص ليقع على الحيوان الذى يسد بلحمه حاجة تلح عليه ، او فسحة رغب في قضائها مع اصحابه . وهو بالتالي زينة لهو وفروسية . واداة للطلب والهرب[٤] .

الكــلاب

يشغل ذكر الكلب في الادب الجاهلي والعربي صفحات عدة . فهو الحيوان الذي اعتمدوه في صيدهم . ولقبوه القاباً مشهورة[٥] . وشغلوا انفسهم في تدريبه ، للانتفاع به في الحراسة . ومرافقة قطعان الماشية لحمايتها من الذئاب والضواري[٦] الى جانب مهمة هدايته بنباحه للضيوف التائهين في الفلوات ، والتي اعتبرها العرب مفخرة من مفاخرهم . وكانوا يستعملونها في اقتفاء آثار اعدائهم . فعند ما قتل الشنفري من بني سلامان بن مفرج تسعة وتسعين

---

(١) البركة . الصدر . (٢) انظر ديوان امرىء القيس/٢٣ ، وديوان أبي دؤاد/٣٠٥،٣٥٢ .
(٣) المفضل . المفضليات ١١٩/١ (٤) الجاحظ . القول في البغال/٢٠ . (٥) الجاحظ . الحيوان٢/١٧ . (٦) الجاحظ . الحيوان ١/٣٠٢،٣٧٧ و ٢/١٧٨ .

رجلاً في غاراته عليهم ، وأقعدت بنو سلامان له رجالاً من بني الرّمد من غامد ، يرصدونه ، جاءهم للغارة فطلبوه ، فأفلتهم فأغروا به كلباً[1] .

وكان اهتمامهم بها يدفعهم الى سقائها اللبن[2] ووضع الديّة لها[3] وزعمت العلماء ان ايام هراميت انما سببه كلب[4] كل هذه الامور دفعتهم الى الاعتزاز بها فوسموها وصنفوها ونسبوها وسموها ، كما كان اعتزازهم بخيلهم وابلهم واسلحتهم .

والكلاب – كما يقول الجاحظ[5] – اصناف ، واشهر اصنافها السلوقية[6] ومن طباعها انها اذا عاينت الظباء قريبة كانت او بعيدة عرفت المقبل من المدبر ، ومشي الذكر من مشي الانثى ، والميت من الناس من المتماوت ، حتى قيل ان الروم كانت لا تدفن ميتاً حتى تعرضه على الكلاب[7] .

ويعد مجال الصيد من اوسع المجالات التي ورد فيها ذكر الكلب في الشعر الجاهلي ، لانهم كانوا يذكرونها في حديثهم عن الرواحل بعد تشبيهها بالثيران الوحشية ، او البقر الوحشي ، حتى اصبح من عادة الشعراء ان يذكروها في مجال المراثي والمواعظ والمدائح ، ولكن الصور كانت تختلف بالنسبة لكل غرض ، كما يذكر الجاحظ وابن قتيبة[8] .

ويعد الاعشى من ابرز الشعراء الذين حفلت دواوينهم بهذه الصور المتحركة ، ففي مدحه لأياس بن قبيصة الطائي[9] يبدأ بوصف ناقته السريعة الجريئة التي تراقب السوط ، ثم يشبهها بالثور الذي اكبّ على

---

(١) محمد بن حبيب . أسماء المغتالين/ ٢٣١ . (٢) طرفة الديوان/ ١٩٥ . (٣) الجاحظ . الحيوان ١/ ٢١٧ ، ٢٩٣ . (٤) الجاحظ الحيوان ١/ ٣١٦ . (٥) الجاحظ . الحيوان ١/ ٣١١
(٦) سلوق . أرض اليمن وقيل قرية باليمن ، والكلاب السلوقية منسوبة اليها وكذلك الدروع ، وقيل السيوف أيضاً . والسلوقي من الكلاب والدروع أجودها . (٧) الصيد والطرد/ ٧٣ .
(٨) الجاحظ . الحيوان ٢/ ٢٠ وابن قتيبة . المعاني الكبير ١/ ٢٢٤ . (٩) الأعشى . الديوان ٢٩٣ .

اصل شجرة بقرنيه يحفر فيهما بيتاً يؤويه ، فصبحته كلاب (عوف بن ارقم) ، الصائد المعروف عند شروق الشمس ، فانبعثت تتبعه ، وظلت تطارده منذ الصباح المبكر ، حتّى اقبل الليل ، فلم يجد بداً من الثبات والاعتماد على يده اليسرى ، فراح يذودها عن نفسه بقرن محدّد ، واقبل عليها يهز قرنه حين يدفعه في صدرها ، كما يشك الجراد صائده ، وقد نظمه في العود فانقلب بعد ان قتلها ، وقد اشرق وجهه فكأنه الكوكب المضيء[1] .

كأني ورحلي والفتان ونُمرقي	على ظهر طاوٍ اسفعِ الخد اخثما
يلوذ الى أرطاةِ حقف تلفّه	خريقُ شمال تترك الوجهَ اقتما
مكبّاً على رَوقيةَ يحفرُ عرقهـا	على ظهر عُريان الطريقة أهيما
فصبّحه عند الشروق غديّـة	كِلابُ الفتى البكري عوف بن أرقما
فأطلق عن مجنوبها فأتبعنه	كما هيّج الشارى المعسّل خشرما
لدُنْ غُدوةً حتّى اتى الليل دونـه	وجشّم صبراً روقه فتجشّما
وانحى على شؤمي يديه فذادها	باظمأ من فرع الذؤابة أسحما
وانحى لها اذ هزّ في الصدر روقـه	كما شك ذو العود الجراد المخزما
فشكّ لها صفحاتِها صدرُ روقِـه	كما شكّ ذو العود الجرادَ المنظّما
وادبر كالشعرى وضوحاً ونقبةً	يُـواعِـنُ من وحش الصريمة معظما
فذلك بعد الجهد شبهت ناقتي	اذا الشاة يوماً في الكناس تجرثما[2]

وتكاد صورة لبيد التي قدمها — وهو يتحدث عن راحلته — تكون مشابهة لهذه الصورة ، فهو يشبهها بالثور الذي بات الى احدى شجر الأرطى بعد أن بعد ان الجأته الريح الشآمية التي تسوق المطر اليها ، وكا همه ان يحصل على

(١) الأعشى . الديوان / ٢٩٥ — ٢٩٧ . (٢) الفتان . غشاء للرجل من الجلد . الخثم . عرض الأنف وغلظه . أهيم . منهار لا يتماسك . السامي . الذي يسمو في الجبل . المعسل الذي يجمع العسل . الخشرم . جماعة النحل والزنابير . يواعن . يدخل في الوعان (بكسر الواو) وهي الأرض الصلبة أو بياض في الأرض الصلبة أو بياض لا ينبت شيئاً . الصريمة . الأرض السوداء لا تنبت شيئاً .

ملجأ يقضي فيه الليلة ، فما طلع عليه الصبح . وتقشعت الغيوم حتى اثاره الصائد من موطنه ، بكلاب كالنشاب في اندفاعها واصابتها الهدف ، فكانت المعركة الفاصلة التي بدأت فيها الكلاب تهاجم الثور من حيث لا يستطيع ان يدفع عن نفسه ، فيواجهها بقرنيه ، ويضربها في لباتها ، ويختم الصورة بقوله[1] :

قتــال كَمِيٍّ غابَ انصارُ ظهره ولاقَى الوجوهَ المنكراتِ البَواسلا
يَسُرنَ الى عــوراته فكأنما للباتها ينحي سِنانا وعــاملا
فغادرها صرعى لدى كل مَزْحفٍ ترى القَدَّ في اعناقِهِن قوافلا

ومثلهما النابغة[2] ، وتكرر هذه الصورة عند الاعشى كما اسلفنا[3] ، وبصورة اوجز عند بشر بن ابي خازم[4] ، واوس بن حجر[5] ، وامرىء القيس[6] .

وكان الصائد يغري الكلاب بالثور الوحشي فتطارده ، وتنبعث نحوه مهاجمة وهو مجد في العدو ، مسرع كالشهاب ، يجاهدها وهي تلاحقه ، ولا تقصر في طلبه ، حتى اذا نال منه التعب ، وادركه الكلال ، ثاب إلى نفسه ، وجمع قواه ، وصمم على الصمود للقتال ، سدد الطعن بقرنه فلا يخطىء هدفه ، وبالتالي يترك الكلاب صرعى او مكلومة او منهزمة . وفي كل هذه الصور تبرز اسماء الكلاب التي كانوا يستعملونها للصيد ، والاشخاص الذين كانوا يشرفون على تدريبها ، والصائدون المشهورون في قبائلهم ، والقبائل المعروفة بالصيد ، فهــذا صياد من بني ثعل يغري كلابه الخمسة (عطافا) و (مجدولا) و (سلهبة) و (محصوفا) و (كسابا) وخلف وراءه صبية صغارا حالفوا الفقر والضنك زمانا ، فهم ينتظرون ما يعود به من صيد فيقول[7] :

---

(١) انظر القصيدة في ديوان لبيد / ٢٣٨ - ٢٤١ . (٢) انظر ديوان النابغــة / ١٥٠ .
(٣) انظر ديوان الأعشى / ١٤-٢٨-٧٣-٢٤٥-٢٩٧-٣٦٣ . (٤) انظر ديوان بشر ٥١/٥٦.
(٥) انظر ديوان أوس/٤٣ . (٦) امرؤ القيس. الديوان/١٠١ . (٧) الأعشى .الديوان/٣٦٣.

حتى اذا ذَرَّ قَرنُ الشمس أوكَرَبَتْ   احَسَّ من ثُعَلٍ بالفجر كَلاَّبا
يُشْلي عِطافاً ومجدُولا وسلهبــة   وذا القِلادةِ محصُوفاً وكســابا

وقال لبيد[1] :

فتقصدت منها كساب فضرجت   بدم وغودر في المكر سخامها[2]

وقال[3] :

فأصبحَ وانشقَّ الضبابُ وهاجَهُ   أخُو قَفْرَةٍ يُشْلي رَكَاحاً وسائلا[4]

وقال المزرد يذكر صياداً من بني صباح ، ويعدد اسماء كلابه[5] :

لنعتِ صُباحيٍّ طويل شقاؤه   له رقميات وصفراء ذألــل
بقين له مما يبرى وأكلُب   تقلقل في اعناقهن السلاســل
سحام ومقلاء القنيص وسلهب   وجدلاء والسرحان والمتناول
بنات سلوقيين كانا حياتــه   فماتا فأودى شخصه فهو خــامل

وقال امرؤ القيس يذكر صائدين من طي ، معروفين بالصيد[6] :

فصبّحه عند الشروق غدية   كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنبس

ووردت اشارات لأسماء صيادين آخرين واسماء كلاب اخرى مشهورة يمكن الرجوع اليها[7] .

والذي يبدو ان الصائدين كانوا يرسلون الكلاب بعد يأسهم من الرمي قال لبيد يصف يأس الرماة من اصابة بقرة وحشية بالنبال[8] :

حتى اذا يئس الرماة وأرسلوا   غضفاً دواجن قافلا اعصامهــا

---

(١) لبيد . الديوان/٣١٢ .   (٢) كساب وسخام : اسمان لكلبين .   (٣) لبيد . الديوان/٢٣٩.
(٤) يشلي : يؤسد ويغري . وركاح وسائل : اسمان لكلبين .   (٥) المزرد : الديوان/٤٧ وانظر حيوان الجاحظ ٢/٢٠ – ٢١ .   (٦) امرؤ القيس. الديوان /١٠٣ .   (٧) انظر ديوان بشر ابن أبي خازم/٥١ وديوان النابغة/١٥١ وديوان الأعشى /٢١٣ و ٢٩٥ وانظر حيوان الجاحظ ٢/١٧ و ٢١ والمخصص ٨/٨٣ .   (٨) لبيد . الديوان /٣١١ .

فلحقن واعتكرت لها مدرية كالسمهرية حدها وتمامها

وكان الشعراء يعرضون لأوصاف هذه الكلاب ، وهي ترصد وترقب وتنطلق ، فشبهوا عيونها وهي تحمر من شدة الغضب والترقب بالعضرس[1] والافواه بالمناشير[2] . وانطلاقها بالنشاب[3] وهجومها وهي تحيط بفريستها بالنحل[4] . واستحبوا فيها استرخاء الآذان ، ودقة الرؤوس ، وقلة اللحم ، وضمور البطن[5] . وتكاد تكون الاوصاف المستحسنة في الكلاب مشابهة لها في الخيل[6] وكانت لهم فيها اوصاف ، يستدلون بها على فراهيتها وشياتها وسياستها[7] وكزمها وصبرها واحتمالها ، اما وفاؤها فكانت لهم فيه احاديث كثيرة[8] . الى جانب هذا فقد كانت للكلاب خبرة عجيبة ، ومهارة حاذقة في الصيد وطرقه والاحتيال له[9] . وكانت لهم معرفة دقيقة بغذائها ، فكانوا يجيعونها ، لتحرص على الصيد ، وتضرى عليه[10] .

وادرك العرب دلالة اصواته –كما يذكر الجاحظ[11] – لأن فيها ضروباً من النغم ، واشكالاً من الاصوات ، وله نوح وتقريب ، ودعاء وخوار ، وهرير وعواء وبصبصة ، وشيء يصنعه عند الفرح ، وله صوت شبيه بالأنين اذا كان يغشى الصيد ، وله اذا لاعب اشكاله في عدوات الصيف شيء بين العواء والأنين .

اما الناحية التي استأثرت بذكر الكلب في الشعر الجاهلي ، فهي اقترانه بذكر الدلالة على الكرم ، والفخر بجبنه، قال حاتم[12] :

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/١٠٣ وحيوان الحافظ ٢/٢٠١ . (٢) انظر ديوان النابغة / ٢١٩ و ديوان أوس/٤٣ . (٣) انظر ديوان الأعشى /٣٦٣ وديوان لبيد /٢٤٠ . (٤) انظر ديوان أوس/٤٣ وديوان الأعشى /٢٨٣ و ٢٩٥ . (٥) انظر ديوان بشر/٥١ و٥٦ وديوان أوس/٤٣ وديوان الأعشى /٢١٣ و ٢٧٩ . (٦) الجاحظ الحيوان ٢/٣٦٣ . (٧) الجاحظ . الحيوان ٢/٤٥ . (٨) الجاحظ . الحيوان ٢/١٢٢، ١٢٨، ١٧٣، ١٧٥ . (٩) الجاحظ . الحيوان ٢/١١٧–١١٨ . (١٠) نفس المصدر ٢/٤٨–٤٩. (١١) الجاحظ. الحيوان ٢/١٩٤ . (١٢) حاتم الطائي . الديوان/٦٢ (صادر) .

اذا ما بخيلُ الناسِ هرَّت كلابه ... وشقّ على الضيف الضعيف عقورُها
فأني جبانُ الكلبِ بيــتي موطأ ... أجودُ اذا ما النفس شح ضميرهــا
وإنّ كلابي قد أهرت وعودت ... قليــل على من يعتريني هريرهــا

وقال جابر بن حنى[1] :

وكان مُعادينا تهرُّ كلابَــه ... مخافةَ جيشٍ ذي زُهاءٍ عرمرم

وكان حجره في الشتاء مجالاً للحديث عن القحط ، فيه يجد الكرماء مجالاً لاظهار كرمهم ، قال امية بن ابي الصلت ان صح أن هذا له[2] :

تبارى الــريح مكرمة ومجدا ... اذا ما الكلب اجحره الشتاء

وقال اعشى باهلة[3] :

وأجحر الكلبَ موضوعُ الصَّقيع به ... وألجأ الحيَّ من تَنفاحه الحُجَرُ[4]
عليه أولُ زادِ القومِ إن نــزَلوا ... ثم المطيُّ اذا ما أرملوا جَــزَروا

وكان اسكات الكلب مدعاة للذم ، لأن منعه من النباح يعني خوف صاحبه من الضيف وهذا ما كان يخشاه العربي ، فمالك بن جريم الهمداني عندما اراد ان يفخر بآبائه وكرمه وتعداد مناقبه يقول[5] :

فواحدةٌ ألا أبيت بِغِــرَّة ... اذا ما سَوام الحيّ حَولي تَضَوَّعــا
وثانية ألا أُصمِتَ كلبَنَــا ... اذا نزل الأضيافُ حِرصاً لنُودعــا

ومن عادات العرب ان الرجل منهم كان اذا ضل ليلاً ، وكان باغياً ، أو زائراً ، أو ممن يلتمس القرى ، ولم يرَ بالليل ناراً ، عوى ونبح ، لتجيبه الكلاب ، فيهتدي بذلك الى موضع الناس ، يقول عمرو بن الأهتم[6] :

ومُستنبحٍ بعدَ الهُدوءِ دعوتُه ... وقد خانَ من نجم الشتاء خُفُوقُ

(١) المفضل . المفضليات ٢/ ١٢ . (٢) لويس شيخو . شعراء النصرانية ١/ ٢٢ .
(٣) الأصمعي . الأصمعيات/ ٩٠ . (٤) تنفاحه : من النفح وهوشدة الدفع ، ويريد من تنفاح الصقيع . (٥) الأصمعي : الأصمعيات/ ٥٨ . (٦) المفضل : المفضليات ١/ ١٢٤ .

ويقول المزرد[1] :

نشأت غلاماً أتّقي الذمّ بالقرى   اذا خاف صنف من قرارة راغب
فأن آب سارٍ اسمعَ الكلب صوته   اتى دون نبح الكلب والكلب دائب

وكان الشعراء يأتون على ذكر نباح الكلب في احاديثهم عن الحرب ، ولبسهم عدتّها من الدرع والمغفر والبيضة ، لأنهم اذا تكفروا بالسلاح انكرتهم الكلاب . وفي هذه الحالة ، تنبح اربابها كما تنبح سرعان الخيل اليهم ، لأنها لا تعرفهم من عدوهم[2] ، قال الطفيل الغنوي[3] :

اناسٌ اذا ما انكر الكلبُ أهلَهُ   حموا جارهم من كل شنعاء مضلع

وقال الآخر[4] :

فلا ترفعي صوتاً وكوني قصيـــة   اذا صوّتَ الداعي وانكرني كلبي

وكان يهجى بالكلاب الملتوية الأذناب للؤمها ، والتي في اعناقها الاطواق لاذلالها ، قال الاعشى يهجو بني قميئة[5] :

إن بَني قَميئةَ بنِ سَعْدِ
كلهُم لِملْصَقٍ وَعَبْدِ
ادنى لِشرٍ من كِلابٍ عُقُدِ
وهم أذَلّ من كلابٍ عقُدِ

وهجي بكلاب الصيد التي لا تصلح ، لأن الصيادين يشتمونها ويقبحونها[6] وشبه من يعامل الناس بالسوء ، ويعتدي عليهم ، ويتعمد أذاهم بالكلاب التي تهر[7] . فعندما اراد عبد الله بن عبد المدان ان يجيب دريد بن الصمة على تهديده ، ويسخر من وعيده ، شبهه بالكلب الذي يعوي في بيـــداء

(١) المزرد . الديوان/٧٥ . (٢) الجاحظ . الحيوان ٢/٧٠-٧١ . (٣) الطفيل الغنوي . الديوان/٢٨ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٢/٧٠ . (٥) الأعشى . الديوان/٢٧٣ . (٦) ثعلب . المجالس ٢/٤٨٤ . (٧) طرفة . الديوان/١٨٣ .

مقفرة[1] :

نبئت أنَّ دريداً ظل معترضــاً يهدي الوعيدَ الى نجران من حضن
كالكلب يعوي لدى بيداء مقفرةٍ من ذا يواعدنا بالحرب لم يخن

والظاهر ان كثيراً من هجاء الكلب لا يراد به الكلب ، وانما يراد به هجاء الرجل ، فيجعل الكلب وصلة في الكلام ، ليبلغ ما يريد من شتمه[2] .

والكلب اذا الحت عليه السحائب بالأمطار في ايام الشتاء ، لقي جنة . فمتى بصر غيماً نبحه ، لأنه قد عرف ما يلقى من مثله ، ومما قيل في ذلك ان كلباً الحت عليه السماء بالمطر اياماً ، ثم طلعت الشمس ، فذهب يتشرق . فلم يشعر الا بسحابة قد اظلته ففزع . ورفع رأسه وجعل ينبح[3] . وقد انعكست هذه الصوز في الشعر الجاهلي ، واشار اليها الشعراء . قال الافوه الأودي[4] :

له هَيدبُ دانٍ ورعد ولجــةٍ وبرقٌ تراه ساطعاً يتبلّــجُ
فباتت كلابُ الحيِّ ينبحنَ مزْنــةً واضحت بناتُ الماء فيها تَمَعَّــجِ

وكانت تنتشر بينهم كثير من الخرافات . منها ايمانهم بأن دماء الملوك شفاء من داء الكلب ، وشفاء من الجنون ايضاً[5] . واكثرت العرب من ذلك في اشعارها[6] .

قال عاصم بن القرية وهو جاهلي[7] :

وداويته مما بــه من مجنة دم ابن كهال والنطاسي واقف
وقلدته دهراً تميمة جــده وليس لشيء كاده الله صارف

(١) ابن الشجري . الحماسة/١٤ . (٢) انظر حيوان الجاحظ ١/٣٨٣ . (٣) انظر حيوان الجاحظ ٢/٧٣ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/٢٣٢ . (٤) الأفوه الأودي . الديوان (الطرائف الأدبية) /٩ . (٥) الجاحظ . الحيوان ٢/٧ . (٦) انظر ديوان زهير/١٠٢ وديوان الأعشى /١١٧ والأصمعيات /٦٠ وحيوان الجاحظ ٢/٥-٩ و ٣١٠ والمعاني الكبير ١ / ٢٤٣ . (٧) الجاحظ . الحيوان ٢/٧ .

وعرف العرب داء الكلَب ، وتحدثوا عن اعراضه[1] ، وكانت بعض الأسر تتوارث علاجه[2] . وكانوا يوقدون نار السليم للملدوغ والمجروح ، ومن عضه الكلب ، حتى لا يناموا فيشتد بهم الألم ، ويدب السم فيهم ، ولهذا كانوا يجعلون الحلي والخلاخل في يد الملدوغ[3] .

وقد حفل حيوان الجاحظ بشتى صور هذا الحيوان ، اما بالنسبة لنماذج الشعراء التي عرضوا فيها له ، فكانت تبرز قدرتهم في مواضع الصيد التي حاولوا فيها ابراز صورته وهو يخوض المعارك الحاسمة .

الغنم (الضأن والماعز)

قل تعرض الشعراء الجاهليين للغنم الا انهم تحدثوا عن حكايتها وتقليدها[4] والفها[5] . وتخاذلها[6] ، وعجزها وجبنها[7] ، وهي تبدو في معظم هذه النماذج ضعيفة تستحق الرحمة . اما ذكرها في الأمثال فهي نماذج اخرى لهذا الضعف والهوان والذل . فقالوا : اذل من البذج[8] ، واذل من النقد[9] وقد انعكست هذه الصورة في الشعر الجاهلي فكانت النماذج الشعرية التي وجدناها عند الجاهليين تحمل امثال هذه الدلالات ، فطرفة بن العبد عندما اراد أن يهجو عمرو بن هند لم يجد صورة احط من صورة النعجة ، فتمنى ان لو كان لهم مكان الملك عمرو نعجة تصيح بجوار قبتهم ، وتدر عليهم اللبن ، لكان اجدى لهم من هذا الملك[10] :

فليت لنا مكان الملك عمـــرو   رغوثاً حول قبتنا تخـــور

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٢/١٣ . (٢) نفس المصدر ٢/١٠ . (٣) النابغة . الديوان/١٥٦ (مختار الأعلم) . (٤) انظر حيوان الجاحظ ٢/١٧٩ و ٥/٢٨٧ و ٦/٣١٦ و ٧/١٠٤ . (٥) الجاحظ الحيوان ٢/٣٣٠ . (٦) الجاحظ . الحيوان ٦/٣٧٧ . (٧) الجاحظ . الحيوان ٧/٦٤ . (٨) الميداني مجمع الأمثال ١/٢٨٥ والبذج : الحمل . (٩) الميداني . مجمع الأمثال ١/٢٨٤ والنقد : جنس من الغنم قصار الأرجل ، قباح الوجوه . (١٠) طرفة . الديوان ٩٢ والرخلان : واحدهما رخل : الأنثى من أولاد الضأن . تنور : تنفر .

من الزمرات اسبل قادماها وضرتها . مركنة درور
يشاركنا لنا رخلان فيهـا وتعلوها الكباش فما تنـور

وكانوا يشيرون اليها في احاديثهم عن الكرم ، مقللين من قيمة من يملكها[1] وكان الخصوم يشبهون بالغنم التي عاث بها الذئب ، يقول عامر بن الطفيل[2] :

لقينا جمعهم صبحاً فكانوا كمثل الضأن عاداهن سـيد

وقد وجدت احاديث الشاة والغنم مجالاً عند الشعراء ، فقد رثى اعرابي شاة له تسمى وردة ، وكنيتها ام الورد بقوله[3] :

أودى بوردة أم الورد ذو عسل من الذئاب اذا ما راح او بكـرا
لولا ابنها وسليلات لها غـرر ما انفكت العين تذري دمعها دررا
كأنما الذئب اذ يعدو على غنمـي في الصبح طالب وتر كان فاتـأرا
اعتامها اعتامـه شن بـراثنه من الضوارى اللواتي تقصم القصرا

ويقال ان اكثر ما يعرض الذئب للغنم مع الصبح ، عند فتور الكلب عن النباح وكلاله ، لأنه يبيت ليلته كلها دائباً يقظان ، يحرس[4]..

واذا عض الذئب شاة فأفلتت منه بضرب من الضروب ، فإن عادة الغنم اذا وجدت ريح الدم ، ان تشم موضع انياب الذئب ، وليس عندها بعد ذلك الا ان ينضم بعضها الى بعض[5] .

وقد وردت في الغنم احاديث كثيرة . تدعو الى الاعتناء بها ، وتوصي بتنقية مرابضها من الحجارة والشوك ، وغسل رعامها[6] ، وتصف اهلها بالسكينة والهدوء ، وتنعت قلوب رعاتها واربابها بالرقة وبعدها عن الفظاظة والغلظة[7] .

---

(١) انظر المفضليات ٢/٦٠ . (٢) عامر بن الطفيل . الديوان/ ٥٠ . (٣) الجاحظ . الحيوان ٢/٢٠٣ و ٢٧٧ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٢/٢٠٣ و ٢٧٧ . (٥) نفس المصدر ٧/٦٣ .
(٦) الرعام ما يسيل من أنوفها . (٧) الجاحظ . الحيوان ٥/٥٠٣ وما بعدها .

وفضل العرب الضأن على المعز لأن صوفه اغلى واثمن واكثر قدراً من الشعر ولبنه اطيب وأخثر وادسم[1] ، واحمل للبرد والجمد وللريح والمطر[2] وقيل اذا ارتعت الضائنة (الشاة من الغنم) والماعزة في قصيل ، نبت ما تأكله الضائنة ، ولا ينبت ما تأكله الماعزة ، لأن الضائنة تقرض بأسنانها وتقطع ، والماعزة تقبض عليه فتثيره وتجذبه[3] .

ومع فضل الضأن على المعز فقد وردت في المعز أشعار كثيرة في صفاياها وحوها ، وفي تيوسها وفي عنوقها وجدائها[4] قال اوس بن حجر يمدح الحو من المعز[5] :

وجاءت خلعة دبس صفايا يصور عنوقها أحوى زنيم
يفرق بينها صدع ربـــاع له ظأب كما ظأب الغـــريم

وقال مخارق بن شهاب المازني يصف تيس غنمه[6] :

وراحت أصَيلانا كأن ضروعها دِلاءٌ وفيها واتِدُ القَرنِ لبلَبُ
له رعثات كالشُّنوف وغرَّة شَديخ ولونٌ كالوذِيلة مُذهب
وعينا أحمَّ المقلتين وعُصمَةٌ ثُنِيٌّ واصلها دانٍ من الظلف مُكثب
اذا دَوحةٌ من مُخلفِ الظالِ أربلت
عطاها كما يعطو ذُرى الظال قَرْهَب
تِلادُ رقيق الخد إن عُدَّ نَجرُه فصِردان نعم النَّجْر منه واشعَب
ابو الغُرِّ والحوِّ اللواتي كأنها من الحسن في الأعناق جَزْع مثقَّب
اذا طاف فيها الحالبان تقابلت عقائلُ في الأعناق منها تحلَّب
ترى ضيفها فيها يَبيت بغبطةٍ وضيفُ ابنِ قيس جائعٌ يتحوَّب

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٥/٤٥٦-٤٥٧ . (٢) نفس المصدر ٥/٤٧٢ . (٣) نفس المصدر ٥/٤٧٠ . (٤) نفس المصدر ٥/٤٨٩ . (٥) أوس بن حجر . ملحق الديوان/١٤٠ (صادر) ، وروي البيتان روايات مختلفة . (٦) الجاحظ . الحيوان ٥/٤٨٩ .

وقال جبيهاء الاشجعي في عنز كان منحها رجلاً من بني تيم بن معاوية ابن سليم والعنز تسمى صعدة ويقال غمرة[1] :

أمولى بني تـيم ألستَ مؤدياً منيحتَنا فيما تُؤَدَّى المنائح[2]
فإنك ان ادَّيتَ غَمرةَ لم تزل بعلياءَعندي مابَغَى الرمحَرابح[3]
لها شعر ضاف وجيد مُقلّص وجسمزُخاريوضِرسمَجالِـح[4]
ولو أُشليت في لَيلة رَجَبيّة بأرواقها هطلَ من الماء سافح[5]
لجاءت أمامَ الحالبينَ وضَرعها أمامَ صِفاقيها مبد مكـاوح[6]
وويلمها كانت غَبوقة طـارق ترامَى بِبيد الأكامَ القـراوح[7]
لجاءت كأنَّ القَسورَ الجَوْنَ بَجَّها عساليجهُ والثامر المتنـاوح[8]
ترى تحتها عسَّ النضار مُنيفـاً سما فوقه من بارد الغزر طامح[9]
سديساً من الشَّعْر العراب كأنَّها موكَّرة من دُهْمحَوران َصافح[10]
رعت عُشْبَ الجولان ثم تصيَّفت وضيعةَجَلْس فهي بَدَّاء راجح[11]

---

(١) المفضل . المفضليات ١/١٦٥ . (٢) أصل المنيحة : الناقة يمنحها الرجل صاحبه ليحتلبها ثم يردها ، ثم كثر ذلك حتى قيل للهبة منيحة (٣) غمرة : اسم الشاة التي منحها إياه . العلياء الرفعة ، أي لا تزال على رفعة مني وإكرام لأدائك الأمانة . (٤) الضافي : الطويل . المقلص : المرتفع . الزخارف : الكثير اللحم . والمجالح : الذي يجتلح الشجر ، أي يقشره وإذا فعل ذلك البعير أو الشاة كان أكثر للبنه في الشتاء . (٥) شليت : دعيت . الاشلاء : الدعاء : أي دعيت هذه الشاة لتحلب . وليلة رجبية : أي ليلة من ليالي الشتاء ذات مطر . الأرواق : السحاب لأن الألبان تقل فيه فأراد ان لبنها مما يبقى على شدة البرد وإنها غزيرته . (٦) المبد : الواسع ما بين الرجلين . قوله لجاءت أمام الحالبين يريد سرعة إجابتها . والصفاقان : ما اكتنف الضرع عن يمين وشمال إلى السرة . المكاوح وهو أن تدفع فخذيها . (٧) وويلمها : العرب تقول للرجل ويلمه تمدحه بذلك أي ما أشجعه. والغبوق : التي تصلح لشرب العشي وما ولاه من الليل . القراوح جمع قرواح وهو منبسط من الأرض لا يستتر منه شيء ولا فيه شيء . (٨) عساليجه : نعمه . القسور شجر من شجر الخلة له خوص تغزر عليه الإبل والشاه وكل المال . التامر : ماله تمر من النبت والشجر . المتناوح : المقابل بعضه بعضاً . (٩) النضار : من أكرم الشجر وأصلبه ، يضرب به المثل في الصلابة وتتخذ منه الأقداح . المنيف : الممتلىء . (١٠) موكرة ممتلئة . الدهم : السود. حوران : كورة من أعمال دمشق . الصافح : التي فقدت ولدها فذهب لبنها وسمنت . (١١) الجولان : =

وقد عرفت الحجاز بكثرة المعز ، قال الأخنس بن شهاب يصف خيل قومه وهي تسرح حول بيوتهم ، ويشبهها بمعزى الحجاز التي لا تتخذ لها محابس ولا تقدر على زرب فهي ترعى حول البيوت[1] :

تَرَى رائداتِ الخيلِ حَوْلَ بُيُوتِنا ... كمِعزَى الحجاز أعجزتها الزرائبُ

ولا بد ان يأتي هذا الاهتمام بالماعز نتيجة للفائدة التي كانوا يفيدونها منها فمن جلودها تكون القرب والزقاق وآلة المشاعل ، وكل نحي[2] . وسعن[3] . ووطب وشكية[4] . وسقاء . ومزادة . ومنها يكون الخون والبطائن ، ومن الماعزة تكون انطاع البسط[5] وجلال الأثقال في الاسفار[6] وجلال قباب الملوك . وبقباب الأدم تتفاخر العرب[7] ، قال عبيد بن الابرص[8] :

اذهب اليك فأني من بني اسد ... أهل القباب واهل الجرد والنادى

وللقباب الحمر قالوا : مضر الحمراء[9] . ويدل قول امرىء القيس[10] :

لنا غنم نسوقها غزار ... كأن قرون جلتها العصي
فتوسع أهلها أقِطاً وسَمْناً ... وحَسبُك من غِنًى شِبَعٌ ورِي

على ان الأقط[11] يكون من المعز ، وكذلك كانوا ينتفعون

= من نواحي دمشق . تصيفت رعت في الصيف . الوضيعة : نبت . الجلس : الغليظ من الأرض . البداء : البعيدة ما بين الرجلين لسمنها . راجح : ثقيلة ممتلئة . (١) المفضل . المفضليات ٢/٦.
(٢) النحي : الزق ، وقيل ما كان للسمن خاصة . (٣) السعن : بالضم والفتح : قربة تقطع من أسفلها ويشد عنقها وتعلق إلى خشبة أو جذع نخلة ثم ينبذ فيها ، وهو شبيه بدلو السقائين يصبون فيه بالمزايد . (٤) الشكية تصغير الشكوة ، وهي بالفتح : وعاء كالدلو أو القربة الصغيرة .
(٥) النطع . بالكسر والفتح وبالتحريك : بسط من الأديم . (٦) جلال كل شيء غطاؤه .
(٧) الجاحظ . الحيوان ٥/٤٨٥-٤٨٦ . (٨) عبيد . الديوان/٤٩ . (٩) انظر حديث الوصية في بلوغ الأرب ٣ / ٢٦٤ - ٢٦٦ والمفضليات ، القصيدة / ٩٦ (طبع المعارف) .
(١٠) امرؤ القيس . الديوان / ١٣٦ (ويروى على غير هذه الرواية في بعض مصادر الأدب) .
(١١) الأقط : شيء يتخذ من اللبن المخيض ، يطبخ ثم يترك حتى يمصل .

بقرونها[1] ويتخذون النعال من جلودها[2] .

وكان الشعراء يشبهون خيولهم بالجلام ، لضمورها وقوتها وسرعتها ، قال الاعشى يمدح هوذة الحنفي[3] :

جِيادُكَ في الصيف في نِعمَـةٍ تُصَانُ الجِلالَ وتُعطى الشَّعيرا
سواهِمُ جُذعانُها كالجِـلاَ مِ أقرحَ منها القِيادُ النُّسُورا

اما الأمثال التي جاء فيها ذكر الماعز فهي امثال تدل على شدة الخلق والحزم والشهامة والمنعة . فقالوا : (فلان ماعز من الرجال) و (فلان امعز من فلان) و (العتاق معز الخيل والبراذين ضأنها)[4] .

وترد اشارات الى الشياه والنعاج في مجال الكناية عن النساء[5] . وكانوا يطلقون على البقر الوحشي أو المهاة او الضباع لفظة النعاج ويتردد هذا اللفظ كثيراً في الشعر الجاهلي ، قاصدين بذلك المرأة أيضاً[6] .

(1) الجاحظ . الحيوان ٥/٤٨١ . (2) الجاحظ . الحيوان ٥/٤٧٧ . (3) الأعشى . الديوان/٩٩ وانظر ديوان أبي دواد/٣٤٠ وديوان بشر /٢١١ . (4) الجاحظ الحيوان ٥/٤٧٩.
(5) انظر ديوان عنترة/٣٧٨ (الأعلم) . وديوان الأعشى /٢٧ وديوان لبيد/٣٠٠ والمفضليات ٢/٢٠٩ . (6) انظر ديوان امرىء القيس/٥٠ وديوان بشر/١٩٣ وديوان عنترة/٣٧٨ والمفضليات ٢/١٧٣ .

الحيوان الوحشي

١ **الثور** : ردد الشعراء الجاهليون في أشعارهم وصف الثيران الوحشية ، والبقر الوحشي . والحمر الوحشية . والذي يبدو من خلال أوصافهم لهـذه الحيوانات أن أكثر الصور التي ورد فيها ذكرها . جاء من خلال أوصافهم لرواحلهم . وهم في طريقهم الى ممدوحيهم . أو أحبتهم الذين تجشموا من أجلهم هول هذه الرحلة المتعبة . على رواحل نشيطة . تقطع الفلاة المقفرة ، وكذلك ذكروها في غزلهم الذي صوروا فيه مشاعرهم . وهم يرقبون آثار ديارهم ، وما حل فيها من صنوف هذه الحيوانات . وأغراض أخرى كانوا يلجأون إلى إقحامها فيها إقحاما . كما أسلفنا في حديثنا عن الكلاب . والنهاية التي ينتهي اليها مصيرها ، وهذا يعنى أن وصفهم لها لم يكن غاية مباشرة . بل كانوا يستطردون اليها استطراداً ، ليظهروا من خلال ذلك قوة هذه الرواحل وسرعتها . وكان الشعراء يقدمون ــ وهم يعرضون هذه الأوصاف ــ سلسلة من الصور الحية المتحركة ، فالثور تفزعه السحابة الحمراء المظللة ، الغزيرة المطر . فتقصفه رعودها ، وينهل مقدمها بالماء ، ويزيد بعضهم التماع البرق في السماء . ليكشف ضووْه اللماح عن هذا الثور الضامر . ويظل طول الليل ساهراً . يعاني المتاعب والآلام[1] حتى إذا اشرق الصباح ــ وكان بعض الشعراء

(١) انظر ديوان بشر/٨٢ و ٢٠٥ .

يحرص على استمرارية برودة الليل ، فيشبه ما يتساقط من الندى المتجمد باللؤلؤ[1] ـ فاجأه الصياد الذي اقترنت صورته بالعبوس[2] ، وافنى كلابه الضارية كثرة الملاحقة للصيد ، وطول الطراد ، فظل طول نهاره يتفاداها ، متواريا بالرمال العريضة وبصغار الكثبان ، تطارده الكلاب ولا هم لها الا اقتناصه ، وقد عضها الجوع ، وهذه الصورة مكررة ومعادة في الشعر الجاهلي قلما يتغير فيها الخيال او الالفاظ[3] .

والظاهرة التي تبدو في أوصاف هذا الحيوان هي أن الشعراء كانوا يكثرون من استعمال اللون الابيض او ما يوصف بالبياض في أوصافهم . قال امرؤ القيس[4] :

فأدبرَ يكسُوها الرَّغامَ كأنه على الصَّمْد والآكام جذوة مُقبسِ

ويشبهه لبيد بالثوب الابيض الذي لم يلبس فيقول[5] :

فأجتاز منقطع الكثيب كأنه نصع جلته الشمس بعد صوان

أو السيف الابيض الصقيل[6] . او الصحيفة البيضاء[7] ، أو الكفن[8] وصور أخرى تقرب من ذلك[9] .

اما وصف اعضائه فكانت تأتي من خلال أوصاف الشعراء العامة عنه ، ووردت اشارات الى ذكر الثور وجلده في حديث الشعراء عن الترس وصفته وقوته ومقاومته وصنعته[10] .

---

(١) انظر ديوان بشر/٨٣ . (٢) انظر ديوان بشر/٨٤ وديوان الأعشى/٢١٣ . (٣) انظر ديوان امرىء القيس/١٠١ وديوان بشر/٨٢ و ١٠١ و ٢٠٢ و ديوان النابغة/١٥٠ –١٥١ و ٢١٩ وديوان الأعشى/٣٢٥ و ٣٦١ وديوان لبيد/٧٦–٧٩ . (٤) امرؤ القيس الديوان/١٠٣ وانظر ديوان بشر/١٠٤ . (٥) لبيد . الديوان/١٤٦ . (٦) انظر ديوان النابغة/١٥٠ و ١٧٢ . (٧) انظر ديوان امرىء القيس/٥٢ . (٨) انظر ديوان عبيد/٣٤ . (٩) انظر ديوان بشر/٤٦ و ٥١ وديوان زهير/٣٧٩ والمفضليات ١/١٩٤ . (١٠) انظر شرح أشعار الهذليين ٢/٥٦٩ .

البقر الوحشي :كان تعرض الشعراء للبقر من خلال اوصافهم لرواحلهم، وربما جاء ذكرها في مواضع الغزل ، وعند تشبيه الشعراء لأحبتهم وفي حديثهم عن الديار وإقفارها وخلوها من الأحبة . وهي تنعم بالحياة والحرية في ديار كان ينعم فيها قوم احبهم الشاعر واحبوه .

وتعد صورتها في الصيد من اكثر الصور معالجة عند الشعراء وتعتبر قصائد لبيد والاعشى وزهير وطرفة والنابغة من ابرز القصائد التي قيلت فيها واطولها وان كانت الملامح متشابهة . فلبيد في وصفه يثير قصة تملوها الحياة والعاطفة والصراع . فالبقرة عنده بائسة ، عدت على طفلها العوادي ، فأكله السبع وهي تحاول البحث عنه ، وتلتمس الطريق اليه ، وتجد في البحث ، وتلح في الالتماس وتصيح بأعلى ما تستطيع ، وتظل حالها طول النهار ، ولكن الليل يدنو فيحمل معه الظلام والمطر والبرد والعاصفة ، ولم يجد اليأس الى قلبها سبيلا فهي تلتمس لنفسها مأمناً ومأوى في أصول الشجر ، حتى اذا انجلى الليل وذهب الظلام . وهدأت العاصفة والمطر ، واسفر الصبح ، اندفعت تصيح وتنادى وتدعو ابنها ، ولكن الجواب على ذلك كان اشلاء قد طرحت على رمل الصحراء، وانها لكذلك مرتاعة وملتاعة في هيام وصياح ،وإذا هي تحس من ظهر الغيب نبأة لا تتبين اصلها ، وصوتا خفيفاً لا تعرف مصدره ، واذا غريزة الدفاع عن النفس تغلب غريزة الأمومة ، والحرص على الحياة تنتصر على عاطفة الإحساس بالطفل الفقيد، واذا هذه الأم الحزينة صيد يطلبه القناص. ومن اجل هذا تحاول النجاة ، فهي تعدو لا تلوي على شيء قد ملأها الخوف وملكها الرعب ، تنتظر الخطر من امام ، وتنتظر الخطر من وراء ، وهي تسلم نفسها لقوائمها النحاف ، كأنهن القداح ، حتى أيأست الرماة ، وفاتت النبل ، ولكن العجز والقصور لم يؤمنا هذه البائسة ، فكلاب الصيد حاضرة ، وما اسرع ما ارسلها القناص ، فأخذت تعدو ، وأخذت البقرة تعدو ايضاً ، فلما استيأست من العدو ، وعرفت الا نجاة لها الا باستقبال الخطب، عطفت على هذه الكلاب

فكانت بينها وبينهن حرب اسفرت عن قتيلين[1] :

أفتلك أم وحشية مسبوعة — خذلت وهادية الصوار قوامها
خنساء ضيعت الفرير[2] فلم يرم — عرض الشقائق طوفها وبغامها
لمُعفّر قهْدٍ تنازَعَ شِلْوَهُ — غُبْسٌ كواسبُ لا يُمَنّ طعامها[3]
صادفن منها غِرّةً فأصبْنها — إنّ المنايا لا تطيشُ سهامُها
باتت وأسبلَ واكفٌ من ديمة — يُروي الخمائلَ دائماً تَسْجامُها
يعلو طريقةَ متنها مُتواترٌ — في ليلةٍ كفر النجومَ غمامُها
تجتافُ أصلا قالصاً مُتنبّذاً — بعُجُوبِ أنقاءٍ يميل هُيامها[4]
وتضيءُ في وجه الظلام مُنيرةً — كجمانةِ البحريِّ سُلّ نظامها
حتى اذا انحسر الظلام واسفرت — بكرتْ تزلّ عن الثرى أزلامها[5]
علِهت تردّدُ في نهاءِ صعائدٍ — سبعا تُؤاما كاملاً ايامها[6]
حتى اذا يئست واسحقَ حالقٌ — لم يُبْلِه إرضاعُها وفطامها[7]
وتوجسّتْ رِزّ الأنيس فراعها — عن ظهر غيبٍ والأنيسُ سقامُها[8]
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه — مولى المخافة خلفها وأمامُها[9]
حتى اذا يئس الرماة وارسلوا — غُضُفاً دواجنَ قافلا اعصامها[10]
فلحقنَ واعتكرتْ لها مَدَرّيةٌ — كالسهمرية حدّها وتمامها
لتذَودَهن وأيقنت ان لم تذُد — أن قد أحمّ من الحُتُوفِ حمامها
فتقصّدتْ منها كسابِ فضُرّجت — بدم وغودر في المكرّ سُخامها

(١) طه حسين . حديث الأربعاء ١/٢٣-٢٤ . (٢) انظر ديوان لبيد/٣٠٧ - ٣١٢ . والفرير : ولد البقرة . الشقائق : الأرض الغليظة بين رملتين . (٣) قهد : أبيض . الغبس : الذئاب أو الكلاب ذات اللون الأغبر . (٤) تجتاف : تدخل في جوفه . قالص . مرتفع الفروع ، أو انتحى ناحية . العجوب : أطراف الرمال . الهيام : الرمل اللين الذي يتناثر بسهولة .
(٥) أزلامها : قوائمها ، شبهها بالقداح . أي لم تعد تثبت قوائمها على الثرى ، لأن الطين زلق .
(٦) علهت : جزعت . (٧) اسحق : أخلق وذهب ما فيه من اللبن . حالق : الضرع الذي كاد يمتلىء . (٨) الرز : الصوت الخفي . (٩) الفرج : الواسع من الأرض أو الثغر .
(١٠) الدواجن : المعودة للصيد . قافل : يابس . أعصامها قلائدها .

ونجد الصورة نفسها عند زهير ، فهي خنساء سفعاء ، كريمة عتيقة مذعورة تتقي العدو بقرنين يؤمنان خوفها ، ويخففان من توقد الفزع الذي اعتراها ، لها اذنان ، حادتا السمع ، تميز فيهما الاصوات ، وعينان قويتا النظر ، كأنهما من حسنهما وسوادهما مكحولتان ، وهذه البقرة المرتاعة المحزونة الهائمة تركت ولدها وغفلت عنه في موضع عهدته فيه حتى اذا عادت اليه لم تجده فيه، وانما وجدت بقية الجسد الذي اكل الذئب منه ماأكل ، وبقي شيء تحجل الطير حوله ، فجالت ونظرت في كل موضع ، وكانت تخشى الرماة حتى وقع نظرها عليهم وقد قعدوا ليرموها فلما ادركوا رؤيتها لهم ثاروا بها من كل جانب ، فاستدارت حتى رأتهم مقبلين عليها وكانت تسبق الكلاب اللواتي يأتينها من ورائها ، فتصيبهن بقرنيها ، حتى تتمكن من الفرار من نبل الرماة فتثير غباراً يحجبها عن انظار هذه الكلاب ، تساعدها في ذلك قوائم سريعة وقوية ، وصدر مرتفع ، مسند الى ظهر قوي، وكانت طرائق الدم بنحرها مثل السيور المصبوغة في الجلد الأبيض[١]

أما طرفة ، فكانت ناقته في رواحها وبكورها بقرة وحشية ، خنساء لها ولد صغير ، امضى ليلة ممطرة ، تصب الماء صبا ، فاضطرت الى ان تستكن الى ظل شجرة ، وتأوي لأصولها . وقد فاجأها قانص مشهور ، فأرسل عليها كلاب صيده ، هذه البقرة الخائفة الهاربة بين يدي القناص، العاطفة على الكلاب للحرب ، تعلم انها ان لم تصدها الكلاب اول مرة ، فسوف تصاد اذا كرت عليها ثانية[٢] .

من هذه الصور الثلاث ندرك الخطوط العامة ، التي اتفق عليها الشعراء في اوصافهم لهذا الحيوان ، وتكاد صورتها تكون متقاربة عند لبيد وزهير ، أو كأن لبيدا هو الذي حاكى زهيرا ، وتكاد المراحل التي حددوها لأوصافهم تكون متشابهة ، حتى في الغفلة التي صادفتها الكلاب لاختطاف الابن ، وحاول

---

(١) انظر ديوان زهير/٢٥٥–٢٣١ . (٢) انظر ديوان طرفة/١٨٥ .

لبيد ان يظهر القلق الذي أصابها والفزع الذي انتابها بصورة ادق ، وحاول ان يبسط في تصويرها عاطفة لم نجدها عند غيره من الشعراء . والذي يبدو من النماذج ان البقرة تبدي من الشجاعة إذا كانت بحضرة ولدها ، ضروبا مستميتة ، حتى لا تضيع ولدها ، وتمنع السباع عنه فهي تقاتل دونه بقرونها اشد القتال لتنجيه او تعطب[1] . ولعل النماذج التي اشرنا اليها تغنينا عن التفاصيل .

اما الموضوع الآخر الذي وجد فيه الشعراء مجالا لذكر البقر الوحشي ، فهو الديار التي اقفرت من اهلها . فصارت مألفا لها ، ولغيرها من الحيوان قال زهير[2] :

بها العِينُ والآرامُ يمشين خِلفَــةً ... واطلاؤها ينهضنَ من كلِّ مَجْثَمِ

وقال الحارث بن حلزة اليشكري ، يصف ديار احبته ، وما سكنها من وحش بعد عفائها[3] :

لمن الديارُ عفونَ بالحبس ... آياتُها كمهارِقِ الفُــرس
لا شيء فيها غــيرُ أصورةٍ ... سُفعِ الخدود يلُحنَ كالشمس

اما النساء : فقد جعلهن الشعراء شبيهات بقطيع من بقر الوحش ، قال طفيل الغنوي يصف سبايا قومه[4] :

عذارى يسحّبن الذيول كأنهــا ... مع القوم ينصفن العضاريط ربــرب

وقال لبيد[5] :

زُجَلٌ ورفّعَ في ظلالِ حُدوجها ... بيضُ الخُدود حديثُهُــنّ رخــيم
بقرٌ مساكنُها مساربُ عازب ... وارتبهُنّ شقــائق وصريم

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٢/١٩٩ . (٢) زهير . الديوان / ٥ . (٣) المفضل . المفضليات ١ / ١٣٠ وانظر ديــوان امرىء القيس / ٨ وديــوان بشر / ١٥٣ والمفضليات ٢ / ٢٠٥ .
(٤) الطفيل الغنوي . الديوان/ ٢٤ . (٥) لبيد . الديوان/ ١٢١ وانظر ديوان الأعشى / ١٧١ .

وكما شبه الشعراء النساء ببقر الوحش فقد شبه امرؤ القيس بقر الوحش في مشيتها وبياضها وبريقها بالعذارى، وهن يرفلن في الملاحف الطويلة،[1]:

فعنّ لنا سربٌ كأن نعاجــه عذارى دوار في المُلاء المُذيّــل
فأدبرن كالجزع المفصَّل بينــه بجيدٍ مُعمٍّ في العشيرة مُخْــوَل

ووقف الشعراء عند عيون هذا الحيوان وكشحه وقرونه ، وقلما وقفَ الشعراء عند الاعضاء الاخرى له ، وربما يجمع الشعراء في تأكيدهم على اللون الابيض او البياض المشوب بالسواد في حديثهم عنه .

الحمار الوحشي : وتكاد صورة الحمار الوحشي تكون مشابهة لصورة الثور الوحشي ، أو البقرة الوحشية ، من حيث تعرض الشعراء لأوصافــه ، لأنها تخضع في هذه الأوصاف الى العوامل التي خضع لها الثور الوحشي أو البقرة الوحشية ، فالشعراء تحدثوا عن هذا الحيوان في مجال اوصافهم لنياقهم وغلظتها وصلابتها ، وقوة عدوها وشدته ، الا ان ادخال بعض العناصر الجديدة على الصورة ، جعل الاطار العام للوحة التي اعتبرنا رؤيتها مغايرة بعض الشيء لما وجدناه في صورة الحمار الوحشي . فقد حاول لبيد ان يطمع في تشبيهات اخرى ابلغ من التشبيهات التي وقف عندها غيره من الشعراء ، لما فيها من جوانب الحياة القريبة ، والتي تجعلها اكثر وضوحا وتجسيدا ، وكأنه وجد في قصة البقرة الوحشية التي تملؤها الحياة والعاطفة والصراع مجالا لإظهار قصة اخرى ، تتتابع فيها المناظر ، وتتنوع فيها الأحداث ، وتثار العواطف المتمثلة في الغيرة والحرص والمنافسة .

فناقة لبيد تعودت الاسفار ، واحتملت منها غير قليل ،ولذلك فهي متعبة براها الجهد . والح عليها الهزال ولكن ذلك لم يقعد بها عن السرعة ، فكأنها اتان تنافست فيها الفحول ، وازدحمت عليها ، ثم استطاع واحد منهــا ان

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/٢٢ .

يستأثر بها من دون اصحابه ، وملكت عليه الغيرة امره ، ففضل حياة العزلة ، وزاده حرصاً على هذه العزلة ، وتأثرا بالغيرة ، ما كان يراه من تمنع صاحبته وتجنبها ، وهذا ما حمله على ان يدفعها امامه ، وحملها على ان تمضي بسرعة وكانت تود لو تفوته ، وتتمنى لو كانت قادرة على الهروب منه ، ولكنه يعدو في اثرها فلا يزيدها هذا العدو الا الحاحا في الاسراع ، وما تزال مسرعة وما يزال هو عاديا في أثرها ، حتى تم لهما العزلة في مكان كثر فيه النبت وغطاه العشب . ثم يقبل الحر ويجف النبت ، ويشتد الظمأ ، فهما بحاجة الى الماء ، واخيرا يصممان على ورود الماء ، ويقرران السير نحوه ، وما يزالان يعدوان في طلبه حتى يبلغاه[1] يصور لبيد كل ذلك فيقول[2] :

فلها هباب في الزمـــام كأنهـــا   صهباء خف مع الجنوب جهامهـــا
أو ملمع وسقت لأحقب لاحه   طرد الفحول وضربهـــا وكدامهـــا
يعلو بها حُدْبَ الأكام مُسحّج   قد رابـــه عصيانُها ووحامُهـــا
بأحزة الثلبوت يَرْبأ فوقهـــا   قفـــر المراقب خوفها آرامهـــا
حتى اذا سلخـــا جُمادى ستة   جزْءاً فطال صيامُـــه وصيامهـــا
رجعا بأمرهما إلى ذي مِرّةٍ   حصد ونجـــح صريمةٍ ابرامها
ورمى دوابرها السّفا وتهيّجتْ   ريح المصايف سوْمُها وسهامهـــا
فتنازعـــا سبطا يطير ظـــلاله   كدخان مشعلـــة يُشبّ ضرامهـــا
مشمولة غُلثت بنابت عرفج   كدخـــان نـــار ساطع اسنامهـــا
فمضى وقدمها وكانت عـــادة   منـــه إذا هي عرّدَت اقدامهـــا
فتوسطا عُرض السري وصدّعا   مسجورةً متجـــاوزاً قلاّمُهـــا
محفوفـــة وسط إليراع يُظلّها   منه مُصرَّعُ غابـــة وقيامها[3]

(١) طه حسين . حديث الأربعاء ١ / ٢١ – ٢٢ .   (٢) لبيد . الديوان / ٣٠٤ – ٣٠٧ وانظر الصفحات/ ١٢٥ و ٢٣٥ و ٢٣٧ من الديوان نفسه .   (٣) المرة : القوة ، وذو مرة يعني رأياً وعزماً . حصد : محكم . الصريمة : العزيمة . الدوابر : مآخير الحوافر . السفا : شوك . السهام : الرياح الحارة . سبطا : غباراً ممتداً ، مشمولة : أصابتها الشمال . غلثت : خلط حطبها . أسنامها : أعاليها . عردت : حادت عن الطريق . السري : نهر صغير . القلام : نبت وقيل هو القصب .

ويقدم الاعشى صورة لناقته[1] ، وصورته شبيهة بصورة لبيد ، تملؤها الحركة ، وتكثر فيها الاحداث ، وتتوالى فيها الصور ، وتختلف المناظر ، فالحمار يتبع اتانه ويدفعها الى عين غزيرة بالمياه ، وحولها اوكار يكمن فيها الصيادون ، بناها رجل ماهر ، واعدها لقتل هذه الوحوش ، وفرح الصياد عند مشاهدته لهذا الصيد ، فهيأ له سهما محددا ، يدفعه وتر قوي ، يمضي مصوتا مترنما فيمر تحت صدر الحمار فينثني على جنبه ، ويمضي في غير ابطاء ، ويظل يجري ، والجحش تجري معه ، والتراب يثار تحتهما ، وقد انتشر في الفضاء أغبر قاتما . ويكرر الاعشى هذه الصورة في قصيدة أخرى مع تغيير بسيط[2] .

ومثل ما وصف لبيد والأعشى الحمار الوحشي وأتانه ، وصفه امرؤ القيس[3] ، وأوس بن حجر[4] ، وبشر بن أبي خازم[5] ، والنابغة[6] وزهير[7] . ويتفق الشعراء في أغلب هذه الصور على اقتران الحمار بالأتان ، ومحاولة التودد اليها ، والتعشق لها ، وتكاد تكون الصورة من الصور الرئيسية التي بدأ بها الشعراء اوصافهم قال بشر[8] :

ينوي وسيقتها وقد وسقت له ماءَ الوسيقة في وعـــاء معجب
فتصك محجره اذا مـــا استافها وجبينه بحوافـــر لم تنكب

وقال لبيد[9] :

ظلت تخالجه وظلّ يحوطُها طوراً ويَربأ فوقها ويَحوم
يُوفي ويرتقب النجاد كأنه ذو إربة كل المرام يـــروم
حتى تهجّر في الرواح وهاجَه طلبُ المعقّب حقه المظلوم

(١) انظر ديوان الأعشى /١١٩–١٢١ . (٢) انظر ديوان الأعشى /٣٢٥ . (٣) انظر ديوان امرىء القيس/ ١٨٠ و ٣٠٤ . (٤) انظر ديوان أوس/٦٧ . (٥) انظر ديوان بشر/٣٦ و ١٨٧ . (٦) انظر ديوان النابغة/١٩٦. (٧) انظر ديوان زهير/١٣٢ . (٨) بشر . الديوان / ٣٦ وانظر ١٨٧ من الديوان نفسه . (٩) لبيد . الديوان / ١٢٧ – ١٢٨ وانظر/٢٣٧ من الديوان نفسه وانظر ديوان امرىء القيس/٣٠٥ .

وكان الشعراء يلحون في اوصافهم للحمار على صفات الغلظة والقسوة والفظاظة وقبح الوجه[1] ويبرزون آثار العض والندوب التي تترك على وجهه، ممثلين تلك الآثار بما وجدوه ملائماً مما يقع امامهم، قال اوس بن حجر[2]:

يُصرّف للأصوات والريح هادياً   تميم النضيّ كدّحته المناسفُ

وقال النابغة[3]:

اقبُّ كعقد الاندريِّ مُسحَّج   حزُابية قد كدَّمته المساحِلُ

وكان الشعراء يعقبون سوق الحمار لهذه الأتن، بعد الجهد الطويل، والعناء المضني بالانعطاف بها نحو المورد العذب، والمنهل الصافي قال اوس ابن حجر[4]:

تذكر عيناً من غَمازةَ ماؤها   له حَبَب تَستَنُّ فيه الزخارفُ

وقال امرؤ القيس[5]:

جأبٌ اضرّ به التعداء صيفتُه   حتى دعته عيــونٌ ماؤها شُعَبُ

وعند هذا الموضوع يظهر الصياد الماهر الذي يحمل القوس المعمولة من النبع والسهام ذوات النصال المحددة، وعلى الرغم من كل هذه المقــدرة والترصد والترقب فان الصياد يفشل في اصابة هذا الحمار. قال أوس[6]:

فأرسله مستيقن الظن أنــه   مُخالِط ما تحت الشراسيف جائف
فمر النضي للذراع ونحــره   وللحين احياناً عن النفس صارف
فعضّ بإبهام اليمين ندامـــة   ولهف سراً امه وهو لاهف[7]

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس / ٣٠٤ وديوان بشر / ٣٥ و ١٧٩ و ١٨٧ وديوان زهير / ٦٥ وديوان لبيد/ ٢٣٥ و ٢٦٩ .   (٢) أوس بن حجر/٧٣ .   (٣) النابغة . الديوان/٨٨ وانظر ديوان زهير /٣٧٣ وديوان الأعشى /١١٩ و ٢١٣ وديوان لبيد/ ١٢٥ .   (٤) أوس . الديوان/ ٦٩ .   (٥) امرؤ القيس . الديوان/٣٠٤ وانظر ديوان الأعشى /٧ و ١٢١ وديوان لبيد/ ١٣٠ و ٢٣٦ .   (٦) أوس بن حجر . الديوان/ ٧٢ .   (٧) جائف : يصير السهم إلى الجوف . الشراسيف : أطراف الأضلاع . لهف : أي قال يا لهف أماه .

وقال امرؤ القيس[1] :

وأدعج العين فيها لاطيء طمر   ما ان له غير ما يصطاد مكتسب
في كفه نبعة صفراء صافيــة   ومرهفات على اسناخها العقب
أهوى لهـا حين ولاّه مياسره   سهماً فأخطأه في مشيه الذنب[2]

ومما يلاحظ في حديث الشعراء عن الصيد ، انهم كانوا يذكرون استعمال النبال والسهام بالنسبة للحمر ، ويتجنبون ذكر الكلاب في هذا الوصف .

وهناك صور اخرى حاول الشعراء ادخالها في اطار صورة الصيد والمطاردة هذه ، منها مباراة الحمار لأتناه ، ورفسها له حين يدنو منها ، وتساقط شعره وارتفاع متنه وطوله وضمره وتشبيه الخط الذي على ظهره بالجعاب المذهبة . قال امرؤ القيس[3] :

أذلك أم جَوْن يُطارد آتُنــا   حملن فأربي حملهن درُوص
طواه اضطمار الشد والبطن شازب   معالى على المتنين فهو خميص
بحاجبه كدح من الضرب جالبٌ   وحاركهُ من الكــدام حصيص
كأن سراته وجُدَّةَ ظهــره   كنائنُ يجري بينهن دليص[4]

وقال أوس[5] :

كأني كسوت الرحل احقب قارباً   له بجنوب الشيطين مســاوف
يقلّب قيدوداً كأن سراتهـــا   صفا مُدهُن قد زحلفته الزحالف
يُقلِّب حقباء العجيزة سمحجا   بها نَدَبٌ من زَرّه ومناسف

ومن هذه الصور شدته وصلابته التي تكسر الصفيح ، قال لبيد[6] :

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/٣٠٥ وانظر ديوان الأعشى /١٢١ .   (٢) اسناخها : نصولها .
(٣) امرؤ القيس . الديوان/١٨٠ .   (٤) الدروص : الصغار . الشد : العدو. الكدح : الأثر. الحارك : المنسج وأكثر ما يقال للبعير . الحصيص أي الذي قد انحص شعره أي ذهب . الدليص : الذهب الذي له بريق .   (٥) أوس . الديوان/٦٧ وانظر ديوان زهير/٦٥ وديوان النابغة/١٩٦ .
(٦) لبيد . الديوان/٢٣٨ وانظر صفحة/٢٩ من الديوان نفسه .

يفل الصفيح الصم تحت ظلالــه   من الوقع لا ضحلا ولا متضائلا

وكبر رأسه الذي يشبه بالدن[1] ، وصوته الذي نعتوه بالتغريد والتطريب والدعاء[2] .

ومن هذه الصور نستطيع ان نؤكد ان الشعراء كانوا يقلدون في اوصافهم نماذج شعرية سابقة ، ويسلكون في تتبعهم لحركات هذه الصورة والوانهــا طرقاً عرفوها وسمعوها ، وحاولوا ان يترسموا خطوات من سبقهم من الشعراء في هذا المضمار ، ولم يستطيعوا ان يخرجوا عن هذه الحدود ، الا بما سمحت لهم قدرتهم على التعبير ، ومهارتهم في استخدام الصور التي اهتدوا الى رسمها ، وحذقهم في اختيار الالفاظ والمعاني الملائمة للجو الشعري الذي يريدون التعبير عنه . فكانت هذه الاختلافات المتباينة التي تبدو لنا في كل صورة من الصور ، ولكنها لم تبدل من هيكلها العام الذي قامت عليه الوحدة الموضوعية للقصيدة .

الظباء : اكثر الجاهليون من ذكر الظباء[3] ، واوصافها ، والتشبيه بها في طول العنق ، ونصاعة اللون ، وراقهم فيها تناسق الاعضاء ورشاقتها ، فشبهوا بها كل ما وجدوه رائقاً في نظرهم ، جميلاً في نفوسهم . ورددوا في تشبيهاتهم هذه جوانب معينة من هذا الحيوان . اما ذكرها مقرونة بالأطلال فقد وقف الشعراء عنده وقفات طويلة ، وهم يستذكرون ايام لهوهم وصباهم ، لوداعتها وجمال صورتها ، وتناسبها مع ما يحملون لهذه الديار من مكانة

(١) انظر ديوان أوس /٧٣ .   (٢) انظر ديوان زهير/٦٩ و ٧٠ وانظر ديوان لبيد/٩٦ .

(٣) يقال للذكر الظبي والتيس واليعفور ، وللأنثى ظبية ، ومن الظباء العفر ، وهي البيض التي تعلو بياضها حمرة ، والأدم ، وهي التي يخالف لون ظهرها لون بطنهــا ، والآرام : الخالصة البياض ، ومن الظباء المشدن ، وهي التي معها ولد قد (شدن) أي قوي وتحرك . والمغزل : هي التي معها غزال . ومن أسماء أولادها الخشف والغزال والشادن ، ويقال لولد الظبي : الرشأ .

رفيعة ، قال امرؤ القيس[1] :

ترى بعر الآرام في عرَصاتهـا وقيعانها كأنه حَبُّ فلفـل

وقال المرقش الاكبر[2] :

هل تعرف الدار عفا رسمها الا الاثافي ومبنى الخـيم
أمست خلاءً بعد سكانهـا مُقفرةً مـا إن بها من أرم
الا من العيـن ترعى بهـا كالفارسيين مشـوا في الكمم

وعرض لها شعراء آخرون ، ولكنهم لم يخرجوا عما وجدناه في هذه الصور ، ووجد الشعراء في الظبي نموذجاً محبوباً لتشبيه المرأة به . قال طرفة[3] :

وفي الحي احوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطي لؤلؤ وزبـرجد

وقال الاعشى يصف صاحبته[4] :

ظبية من ظباء وجـرة أدما ء تَسفُّ الكباث تحت الهَـدال

وكان الشعراء يعمدون الى تصويرها ، وهي متأخرة عن الأصحاب لتكون منعزلة وفي هذه الحالة تتبين محاسنها ، لأنها لو كانت في القطيع لم يستبن ذلك منها وكانوا يطلقون عليها الخذول[5] :

وما مُغزل ادماء اصبح خشفها بأسفل وادٍ سيلُهُ متصـوِّبُ
خذول من البيض الخدود دنا لها اراك بروضات الخزامى وحُلّب

وقال طرفة[6] :

خذول تراعي ربربـاً بخميلة تناول اطراف البرير وترتـدي

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/٨ . (٢) المفضل . المفضليات ٢/٢٩ وانظر ديوان عبيد/٢٢ وامرىء القيس/٢٨ و ١١٤ وديوان بشر/٨ وديوان أوس/٦٣ والمفضليات ٢/٤١ و ٢٠٥ .
(٣) طرفة . الديوان/ ٣١ . (٤) الأعشى . الديوان/٣ وانظر/ ٣٧٣ من الديوان نفسه .
(٥) بشر الديوان/٨ . (٦) طرفة . الديوان/٣٢ ، وانظر ديوان بشر/٢٠٣ وديوان الأعشى /٢٠٩ .

وحاولوا ان يشبهوها بالظبية التي صيد غزالها ، لأن ذلك اشد لشوقها ، وأمد لعنقها ، وهذا ما كانوا يرغبون في وصفه منها ، قال طرفة[1] :

واذْ هي مثل الرئم صيد غزالهـا   لها نظر ساج اليك تواغلـه

ولم تبتعد عن اذهانهم صورة النساء اللائي صغرت عنهن هوادجهن فوصفوهن بالظباء التي صغرت عنها مكانسها ، فخرج بعض اجسادهن منها . قال بشر يصف ظعان احبته [2] :

كأن ظباء اسنمة عليهـا   كوانسَ قالصاً عنها المُغـارُ

وشبهت النساء اللواتي تطلع من بين الهوادج بالظباء الموشقات [3] ، واستحسنوا فيها طول العنق ، فشبهوا به عنق المرأة [4] ، وراقهم فيها صفاء اللون ونصاعته وبياضه ، فأضفوه على النساء اللواتي اعجبوا بهن ، وتغزلوا بمفاتنهن قال عبيد [5] :

وسبتك ناعمة صفيٌّ نواغـمٍ   بيض غرائر كالظباء العيـس

وقال بشر [6] :

كأن الأتحميّة قام فيهـا   لحسن دلالها رشأ موافـي
من البيض الخدود بذى سُدير   ينُشّنَ الغصن من ضال قضاف
أو الأدم الموشحة العـواطي   بأيديهن من سَلَم النعـاف

ولمسوا فيها السرعة ، فشبهوا بها خيلهم ، قال المزرد[7] :

اذا ضمرت صارت جداية حلب   أمر أعاليها وخف الأسافل

---

(١) طرفة . الديوان/١٢٣ . (٢) بشر . الديوان/٦٣ . (٣) انظر ديوان أبي دؤاد/٣٣٨ وديوان بشر/١١٩ و ديوان الأعشى /٣٢٣ . (٤) انظر ديوان امرىء القيس/١٦ و ٢٨ وديوان الأعشى /١٥٣، ٣٥٣، ٣٦١، ٣٦٧ . (٥) عبيد . الديوان/٦٨ وانظر/٢٦ و ٤٣ من الديوان نفسه . (٦) بشر . الديوان/١٤٣ . (٧) المزرد . الديوان/٤٢ .

وقال سلامة بن جندل [1] :

ومستوعب في الجري فضل عنانه   كمرّ الغزال الشادن المُنطلق

ووجدوا في ذكورها (التيوس) السرعة والضمور ، وكانوا يضيفونها الى نبات الربل والحلب الذي يرعاه هذا التيس ، لأنه يضمر البطن ويشدها [2] وهذا ما دعاهم الى تشبيه خيولهم وافراسهم بهذا الحيوان الذي رعى هذه النباتات قال معاوية بن مالك[3] :

بكل مُقلّص عبل شَـواه   اذا وُضعَتْ أعنّتهنَّ ثابـا
ودافعة الحزام بمرفقيهـا   كشاة الربل آنست الكلابا

وقال ابو دؤاد[4] :

ولقد اغتدى يدافع ركني   تَيْسُ رَبْل مُحنّبٌ طيّـارُ

وجاء ذكر الظباء في حديث الشعراء الصعاليك العدائين ، وسرعة عدوهم التي تفوق سرعة الظبي الهارب من مطاردة طائر جارح ، أو حين يخرج الصيادون لصيده ، وقد بثوا حبالهم في مسارحه ، ليعلق فيها . ولكنه ينجو منها ، فلا يجد الصيادون مفراً من رميه بساهمهم ، واطلاق كلابهم خلفه ، وما يصاب به هذا الظبي من ذعر ، فينطلق كالسهم ، قال ابو خراش : [5]

فوالله ما رَبْداءُ أو علج عانـةٍ   أقبُّ وما أن تَيسُ رَبل مصَمّمُ
وبثت حِبال في مَرَادٍ يروده   فأخطأه منها كفاف مخـزّمِ
بأجود مني يوم كفتَ عادياً   وأخطأني خلف الثنيّة أسهم[6]

---

(١) الأصمعي . الأصمعيات/ ١٥٠ وانظرْ ديوان زهير / ٢٠٤ والمفضليات ٢/ ٨٢ . (٢) تتفطر هذه النباتات في آخر الصيف فتصبح صالحة لترعاها هذه الحيوانات فيتصل لها الربيع والصيف ، وعند ذلك يكون أنشط من غيره ، لما اتصل له من المرعى . (٣) المفضل. المفضليات ٢/ ١٥٩.
(٤) أبو دؤاد . الديوان ٣١٧ وانظر ديوان الطفيل/ ١٢ وديـوان الأعشى / ٣٣٥ والمفضليات ٢/ ٩٧ والأغاني ١٠/ ٣٩ (دار الكتب). (٥) أبو خراش . شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢١٨ .
(٦) العلج : الحمار الغليظ . الأقب : الخميص البطن . كفاف : يعني كفت الحابل ، وهي شيء =

ودخل حديث الظبــاء في معتقدات الجاهليين ، وكانت لهم احاديث كثيرة في السانح والبارح[1] ، قال زهير يصف بعد الأحبة عنه[2] :

فلما أن تحمل أهل ليــلى   جرَتْ بيني وبينهم الظبــاء
جرت سُنحا فقلت لها اجيزي   نوى مشمولة فمتى اللقــاء

وقال عبيد يصف قوماً جرى لهم التيس الأعضب — وكانوا يتشاءمون منه — فلم يتشائموا[3] :

ولقد جرى لهم فلم يتعيفوا   تيس قعيد كالوليــة اعضب

من هذه الأمثلة التي مرت نجد الشعراء يرددون ذكر جمال هذا الحيوان ، او جمال بعض اعضائه بصورة خاصة ، وكأنهم وجدوا في هذا الجمال والتناسق مجالاً خصباً للتعبير عن رغباتهم تجاه احبتهم ، فكانت هذه الصور اللطيفة التي إبرزوها في حديثهم عن احبتهم ، وفي حديثهم عن فراقهن وتطلعهنَّ من الهوادج وفي كل صورة من هذه الصور كان الشاعر الجاهلي يظهر قدرة جديدة من قدراته التي يحاول فيها تغيير الصورة المألوفة . ويبدع لفتة بارعة تدفع القارىء الى الوقوف والتأمل كما وجدنا في تشبيه طرفة لحبيبته بالظبية التي فقدت ابنها فتتطلع الى مكانه حائرة .

اما نباح الظبي ، فقد ذكروا انه اذا اسن ونبتت لقرونه شعب نبح[4] قال ابو دؤاد ينعت فرسه[5] :

وقُصرَى شنِج الأنسا   ء نبّاح من الشُّعْب[6]

= يعمل مثل غلاف القارورة ثم يجعل فيه خرق ثم يجعل عليها خيط بأنشوطة ويغطى بالتراب فإذا دخلت يد الظبي فيها نفضها فنشبت . الكفت : الانقباض والسرعة .   (١) اختلف في السانح والبارح ، واختلف في الجهات التي يأتي منها ، فقالوا في البارح يجيء من شمالك إلى يمينك . والسانح يجيء من يمينك إلى شمالك . وقيل غير هذا .   (٢) زهير . الديوان/٥٩ .   (٣) عبيد . الديوان/٣ وانظر ديوان الأعشى /٢٣٧ .   (٤) الجاحظ . الحيوان ١ /٣٤٩ و ٤ /٢٧٠ ٢٤٨/٧ .   (٥) أبو دؤاد : الديوان/٢٨٨ .   (٦) القصرى : أسفل الأضلاع . شنج : =

وذكروا بيانه اذا هزل[١] ، اما عن طرق صيده ، فكانوا يستعملون النار التي كانوا يوقدونها لصيده ، ويطلقون على هذه النار اسم نار الصيد والبيض لأن الظباء تعشى اذا ادامت النظر إليها[٢] . قال طفيل الغنوي [٣] :

عوازبُ لم تَسْمَعْ نُبُوحَ مُقامةٍ ولم ترَ نـاراً تمَّ حول مجرَّم
سوى نار بيض أو غزال بقفرة أغنَّ من الخنس المناخر تـوأم

وحاول الشعراء اظهار الالوان ونصاعتها مما يشعر بتمكن دلالتها في نفوسهم واذهانهم ، واخيراً السرعة التي امتاز بها هذا الحيوان ، والتي وجدت عند الشعراء الصعاليك تجاوباً — وهم المعروفون بعدوهم وفرارهم — فشبهوا به انفسهم ، مؤكدين صفة الذعر والهلع ، حتى يمنحوا الصورة تعبيراً أدق ، وشكلاً اوضح ، وباعثاً محفزاً من بواعث السرعة واستثارتها .

النعـام : يحتل النعام مكاناً واسعاً في الأدب الجاهلي ، لأن الشعراء كانوا يستقصون في اوصافه ، ويقفون عند بعض عاداته وقوفاً طويلاً . وكانوا يزعمون في خلقه مزاعم غريبة[٤] واعاجيب مذهلة ، فمن اعاجيب النعام انها مع عظيم عظامها ، وشدة عدوها لا مخ فيها[٥] ، وفي ذلك يقول الأعلم[٦] :

كأن مُلاءتي على هِـزَفٍّ يعن مع العشيّة للرئـال
على حتٍّ البراية زمخريِّ السواعد ظلَّ في شرى طوال[٧]

وقد وجد الشعراء في هذا الحيوان مجالاً واسعاً لتشبيه مراكبهم اذا

= متقبض . الشعب : الظباء التي طالت قرونها وتشعبت ، أي لحصانه قصرى ظبـي مسن ، متقبض النسا وهو ينبح إذا أسن . (١) الجاحظ . الحيوان ١/٣٤٩ . (٢) الجاحظ . الحيوان ٤/٤٨٤
(٣) الطفيل الغنوي . الديوان/٤٥ . (٤) انظر حيوان الجاحظ ١/١٤٢ و ٤/٣٢١ و ٧/٢٠٣ .
(٥) الجاحظ . الحيوان ٤/٣٢٦ . (٦) الأعلم الهذلي . شرح أشعار الهذليين ١/٣١٩–٣٢٠ .
(٧) الهزف : الجافي . الحت : السريع . الزمخرى : أجوف مجاري المخ . الشرى : شجر تتخذ منه القسي .

ارادوا ان ينعتوها بالسرعة والنجاء . الى جانب ذلك فقد ضربوا به المثل فقالوا : اجبن من نعامة[1] واحمق من نعامة[2] وأموق من نعامة[3] وأعدى من ظليم[4] ، واستعملت بعض هذه الأمثال في الشعر ، فقال أوس بن غلفاء ، يهجو خصومه[5] :

وهم تركوك اسلح من حبارى رأت صقرا وأشرد من نعـــام

وهم في كل هذه الأمثال يؤكدون معاني الخوف والذعر والهزيمة والموق والحمق والحذر والسرعة . وقد استمدوا هـــذه الأوصاف من طبيعة هذا الحيوان ، فهو اذا عدا مد جناحيه ، فكأنـــه بذلك يجمع بين العدو والطيران ، ولا سيما اذا نفر من شيء فخافه ، ومن خفته وسرعة هربه وطيرانـــه على وجهه وذهابه ، قالوا في المثـــل : شالت نعامتهم ، مكنين بذلك عن تفرق الأمر والكلمة واختلافها ، وذهاب العز . واستعمل الشعراء هذه الكناية في اشعارهم قال ذو الأصبع العدواني يصف ما وقع من يأس بين قومه فتفانوا[6] :

أزرى بنا اننا شالت نعامتنا فخالني دونه وخلته دوني

وقال امية بن أبي الصلت يمدح سيف بن ذي يزن لما استنجد بكسرى[7] :

اتى هرقلاً وقد شالت نعامتهم فلم يجد عنده بعض الذي ســألا

ولا بد ان تتبادر الى اذهان الشعراء صور الذين ينهزمون من المعركة ، أو يفرون منها وعندها يجد الشعراء الصورة صالحة للمقارنة بين هؤلاء الفارين ، وبين النعام الذي عرف بينهم بالجبن والهزيمة ، واغلب ما كانت تأتي هذه

---

(١) الميداني . الأمثال / ١٩٥ وانظر المستقصى للزمخشري ١/ ٣٩٧ . (٢) الميداني . الأمثال/ ٢٣٤ وانظر المستقصى ١/ ٨٥ . (٣) الميداني . الأمثال/ ٢٨٠ . (٤) الميداني . الأمثال/ ٥٠٦ وانظر المستقصى ١/ ٢٣٨ . (٥) المفضل . المفضليات ٢/ ١٨٨ . (٦) المفضل . المفضليات ١/ ١٥٨ . (٧) شيخو . شعراء النصرانية ١/ ٢٣١ .

المقارنات في حالات الهجو ، فبشر بن ابي خازم يشبه خصوم قومه بالنعام النافر حين يهربون مسرعين يقول [1] :

واما بنو عامر بالنسـار غداةَ لَقونا فكانوا نَعاما
نعاما بخطمة صُعْر الخدو د لا تطعُم الماء الا صياما[2]

وقال عامر بن الطفيل يفخر بانتصارات قومه [3] :

قتلنا كبشهم فنجوا شلالاً كما نَفَّرتَ بالطرد النعامـا

وشبه الحارث بن وعلة نفسه — وهو يفر من المعركة — بنعام يخاف فارساً يتبعه فقال [4] :

كأنا وقد حالت حُذنّةُ دُوننا نعامُ تلاه فارسٌ متواتـر

ووردت اشارات لذكر الظليم عند الشعراء الصعاليك ، فعرضوا له في مجال السرعة كما عرضوا للظبـاء ، وكانوا يقارنون عدوهم بعدوه ، بعد ان يمنحوا هذا الحيوان صفات الذعر والخوف ، لأنها من دواعي السرعة — وتكاد تكون الصورة مشابهة لصورة الظبي عندما وصفوه بالذعر ، وقارنوا انفسهم به — أو كانوا يشبهون انفسهم بالنعام حين يريدون مقارنة انفسهم بالخيول السريعة . قال تأبط شرا[5] :

وحثحثت مشعوف النجاء كأنني هِجَفٌّ رأى قصراً سمالا دواخنا
من الحص هُزروف كأنّ عفاءه اذا استدرج الفيفا ومدّ المغابنـا
أزجّ زَلوج هذرفيّ زفـازف هزف يبذ الناجيات الصوافنا[6]

---

(١) بشر . الديوان/ ١٩٠ . (٢) صياماً : قياماً ، وأحدهم صائم ، وهو الفرس القائم على قوائمه الأربع من غير علف ؛ والنعام كلها — كما يعتقدون — لا تسمع ولا تشرب ، وأراد بشر بهذا أنها لا تشرب الماء ولكنها قائمة . (٣) عامر بن الطفيل . الديوان/ ١١٠ وانظر ديوان الأفوه الأودي / ٨ وديوان النابغة / ٢٠٠ وديوان عنترة / ٤٠١ وديوان أوس / ٤٥ . (٤) المفضل . المفضليات ١ / ١٦٤ . (٥) الأصفهاني . الأغاني ١٨/ ٢١٣ . (٦) الهجف : الطويل الشعر من الظلمان . الهزروف : السريع الخفيف . الأزج : الأسرع . الزلوج : السرعة =

ويحرص الشاعر على ذكر هذه الألفاظ المترادفة التي تدل على السرعة ، وتوحي بالحركة والصوت ، وكأن الشعراء وجدوا في بعض هذه الألفاظ تعبيراً موفقاً لاستعمالها في حديثهم عن النعام . والحارث بن حلزة يستعين على الهم بناقة مسرعة خفيفة ، يقول [1] :

بزفوف كأنها هِقلة أمُّ رِئالٍ دويّة سقفاءُ

ويشبه الأعلم الهذلي نفسه ، وهو يتحدث عن شدة عدوه ، بالظليم المذعور الذي اشتاق للرئال وخشي على بيضه ان يبادره برد الشمال ، فانطلق بأقصى سرعته ، فكأن جناحيه خفقان ريح جنوبية ، بثياب جديدة غير ممزقة [2] .

فالسرعة هي الظاهرة العامة التي عرف بها هذا الحيوان ، وقد علمنا فائدة هذه السرعة بالنسبة للعربي في باديته مما جعل الصورة تنعقد في ذهنه ، وجعل التشبيه يلتئم في تصويره ، ووجد الطرف الثاني من الصورة كاملاً في هذا الحيوان ، فشبه به راحلته ، وسرعة سيرها في الأرض الصلبة ، وكانوا يذكرون الظليم او النعام الذي احمر ساقاه واطراف ريشه ، لأنه يكون اسرع في هذه الحالة وانشط ، فلا تتمكن الخيل من طلبه قال بشر يصف راحلته [3] :

هوجاء ناجية كأن جدّيلهـــا في جيد خاضبة اذا ما اوجفوا

وقال قيس بن الخطيم [4] :

كأن قتودي على نقنق أزجَّ يبارى بجَوّ نعامـــا

ــ في المشي . الزفازف : من الزفيف ، وهو سرعة المشي أو هو الحيوان السريع الذي يحرك جناحيه ، ويقترن بالصوت في أغلب الأحيان ، الهزف : مثل الهجف .

(١) ابن الأنباري . شرح القصائد السبع الطوال/٤٤١ وانظر شرح أشعار الهذليين ٣/١١٥٥ .

(٢) الأعلم الهذلي . شرح أشعار الهذليين ١/٣١٩-٣٢١ .

(٣) بشر . الديوان/١٥٤ وانظر ديوان زهير/٣١٦ .

(٤) قيس بن الخطيم الديوان/٦٩ وانظر ديوان عبيد/٢٧ وديوان علقمة/٤٢٧ وديوان عنترة/٣٧٣.

وحاول الشعراء ان يجدوا المبررات الموجبة لهـذه السرعة ، لتكون الصورة اكمل ، واوضح في الذهن ، وليكون التشبيه اتم ، فقالوا انه يعدو ليدرك بيضه ، وافراخه ، ولا يسأم الزفيف[1] . وهو يزج برجليه زجاً شديداً ويخفض عنقه ويمدها في عدوه فيكاد ظفره يصيب مقلته فيشقها ، باذلاً في سبيل ذلك اقصى جهده ، معتمداً في هذه السرعة على جناحين قويين يشبهان بيتاً من الشعر هبت عليه الريح من كل جانب[2] ، والريش يتساقط منهما كالليف[3] أو يتساقط على هيئة خلقان خرق تتناثر عـلى الأغصان[4] .

ان تعداد مثل هذه الصفات وتصويرها بهذا الشكل ، وابرازها على هذه الهيأة تدل على الأثر الذي كانت تتركه سرعة هذا الحيوان في نفوس الشعراء ، حتى اضفوا عليه هذه الصفات ، ونعتوه بهذه النعوت وصوروا هيئته وهو يشق هذه القفار ، في الصور التي وجدوا فيها تعبيراً مجسداً لما كانت تثيره هذه القدرة في نفوسهم .

وشأن النعام ، شأن الحيوانات الوديعة التي عرض الشعراء لذكرها في حديثهم عن ديار الأحبة ، وخلوها من اهلها ، عندما تزهر فيها النباتات وتنتشر في جوانبها الوحوش ، ولا بد ان تكثر هذه الحيوانات في مثل هذه الاماكن ، لتوفر الأمن والاطمئنان الذي تنشده ، ولم يجد الشعراء حيوانات اكثر وداعة من الظباء والآرام والنعام ، ترود مثل هذه الاماكن التي يحفظون لها احسن الذكريات لتكون متناسبة مع عظم منزلة الديار في نفوسهم قال عبيد[5] :

تحاول رسماً من سُليمى دكادكاً خلاءً تُعفّيه الريـاح سواهكا

---

(١) انظر ديوان علقمة/٤٢٧ (الأعلم) . (٢) نفس المصدر/٤٢٧-٤٢٨ . (٣) انظر ثعلبة بن صعير في المفضليات ١/١٢٧ . (٤) انظر ديوان لبيد/١٤٧ . (٥) عبيد/٩١ وانظر ديوان بشر/١٣٨ وديوان لبيد/٢٩٨ والمفضليات ٢/٤ و٧٤ .

تبدّل بعدي من سليمى واهلها　　نعاماً ترعّاه وأدماً تــرائكا

ولم يترك الشعراء الالوان التي ميزوا بها هذا الحيوان ، وهم يعرضون للحديث عنه ، فكان اللون الأسود او الرمادي هما اللونين اللذين لون بهما الشعراء صورة هذا النعام ، واهداب ريشه ، وهذا ما حملهم على تشبيهه برجال الهند لسواده ، قال لبيد[1] :

ورقاقٍ عُصَبٍ ظلمانُـه　　كخريق الحبشيين الزّجــل[2]

ويشبه بشر بن ابي خازم الظليم واهداب ريشه المتدلية على جوانبه برجل اسود عليه كساء من قطيفة فيقول[3] :

اكّال تنوم النقاع كأنــه　　حَبَشيّ حازقة عليه القرطف

وشبه طرفة الحوامل من الأبل ، المطلية بالقطران، بالظلمان فيقول[4] :

وبلادٍ زَعِلٍ ظلمانُهــا　　كالمخاض الجُرب في اليوم الخَدَرْ

وكان اللون الأحمر يتردد في حديث الشعراء عن النعام الخاضب من اجل الحمرة التي تعتري ساقيه في الربيع ، ووجدوا في حوصلة الرأل صورة لها قال الأعشى[5] :

كحوصلة الرأل في دنهــا　　اذا صُوّبت بعد اقعــادها

اما اللون الابيض (وهو لون البيضة) فاقتصروا على تشبيه المرأة بها ، ليؤكدوا هذا اللون فيها[6] ، والتزم الشعراء في حديثهم عن النعام النواحي العاطفية وهي ظاهرة جديدة ، فهياجه وحنينه عندما يتذكر بيضاته وهو في

---

(١) لبيد . الديوان/١٧٤ وانظر ديوان عنترة/٣٧٣ وديوان طرفة/ ٣٤ وديوان زهـير/ ٦٣ وديوان الأعشى /٢٢٩ .　(٢) الرقاق : الصحراء المتسعة اللينة . والزجل : جمع زجلة وهي الجماعة من الناس . الحزيق : الجماعة أيضاً من الناس والطير والنحل .　(٣) بشر . الديوان/١٥٤
(٤) طرفة الديوان/ ٧٥ .　(٥) الأعشى . الديوان/ ٧١ وانظر ديوان علقمة/٤٢٧ (الأعلم) .
(٦) انظر ديوان امرىء القيس/١٦ وديوان الأعشى /١٣٩ .

مرعاه ، فينسيه كل ما يخطر بباله ، فيرجع قافلاً ، لا يلويَ على شيء حتى يصل اليه فيحتضنه في يوم البرد لئلا يفسد ويتغير[1] . ووصفوا سرعته في عدوه الى هذه الافراخ التي لا زيش لقوادمها ، وارتبــاطه بالاماكن التي باض فيها[2] . وهذه الصورة مغايرة للصورة التي رسمها لنا المثل القائل : (أموق من نعامة) والمثل الآخر (احمق من نعامة) لما فسروا به هذه الأمثال من تركها لبيضها واحتضانها بيضاً آخر .

ومن الأعاجيب التي ذكرها الشعراء في احاديثهم عن بيض النعام انها مع عظم بيضها تكثر عدد البيض ثم تضع بيضها طولاً وفي وصفها هذا قال الشعراء شعراً كثيراً [3] :

وكانوا يقرنون البيض بالنعام في كثير من احاديثهم ، فلبيد عندما يتحدث عن ظليم ونعامة ، يتحدث عنهما وهما يبكران على بيض باضاه في اول الربيع ، فقدم عهده وغيرته الامطار ، يقول [4] :

حتى اذا افد العشيّ تروحا لمبيت ربعيّ النتاج هجان
طالت اقامته وغيّر عهده رهم الربيــع ببرقة الكبوان

وقال امرؤ القيس [5] :

كأني ورحلي والقراب ونمرقي اذا شُبَّ للمرو الصغار وبيص
على نقنق هيق لــه ولعرسه بمنعرج الوعساء بيض رصيص
اذا راح للأدحيِّ أوباً يفنهــا تحاذر من ادراكه وتحيــص [6]

وشبه جناحيه وهو يحتضن البيض بالخباء ، قال ثعلبة بن صعير ناعتاً راحلته

---

(1) انظر ديوان علقمة / ٤٢٧ . (2) انظر ديوان علقمة / ٤٢٧ وديوان زهير / ٢٤٩ .
(3) الجاحظ . الحيوان ٤/٣٢٨-٣٢٩ . (4) لبيد . الديوان/١٤٩ . (5) امرؤ القيس . الديوان/١٧٩ . وانظر المفضليات ١/٣٧ . (6) المرو : الحجارة . والوبيص : البريق . النقنق الذكر من النعام والهيق من أسمائه . والوعساء : أرض ذات رمل . الأدحي : الموضع الذي فيه بيض النعام .

بعد ان شبهها بالنعامة التي جثمت على البيض[1] :

فبنت عليه مع الظلام خباءها   كالأحمسيّة في النصيف الحاسر[2]

واضفى علقمة على الظليم صفة الانسان وجعله يتكلم ، فهو يكلم نعامته بما لا يفهمه غيرهما كما تتكلم العجم بما لا يفهمه عنها العرب قال[3] :

يوحي اليها بأنقاض ونقنقة   كما تَراطنَ في افدانِها الـروم[4]

وجعل اجابة النعامة لهذا الظليم اجابة فيها تطريب وتنغيم فقال[5] :

تحفة هِقلةٌ سطعاء خاضعة   تجيبه بزمار فيه تـرنيم

وكان صوت هذا الحيوان يلفت انتباه الشعراء ، وهم يسمعونه في هذه القفار الشاسعة[6] .

اما اوصافه ، فقد عرض لها الشعراء في حديثهم عنه فكانوا يشبهون القدر الضخمة التي تكون بمنزل العظيم واشباهه من الأجواد بالنعامة[7] ، واكثروا من وصف رأسه ، فنعتوه بالصغر ، وقرنوا ذلك بدقة العنق واطلقوا عليه في هذه الحالة (الصعل) قال زهير[8] :

صَعْل يعود بذي العشيرة بَيضَهُ   كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم

ووصفوا فمه بالصغر والضيق والدقة ، وشبهه بشق العصا ووصفوه بصغر الاذنين حتى كأنه لا آذان له ، قال علقمة[9] :

فوهُ كشقّ العصا لأياً تبيّنه   اسكُّ ما يَسمعُ الأصوات مصلوم

---

(١) المفضل . المفضليات ١٢٨/١ .(٢) الأحمسية : المرأة من الحمس ، وهم قريش وخزاعة وبنو عامر وكنانة . والحاسر التي تكشف رأسها ووجهها إدلالا بحسنها . (٣) علقمة . الديوان /٤٢٨ . (٤) الأفدان جمع فدن . وهو القصر العالي . (٥) علقمة . الديوان /٤٢٨ . (٦) انظر ديوان لبيد/١٨ و ٧٢ . (٧) الجاحظ الحيوان ٣٣١/٤ . (٨) زهير . الديوان /٦٣ وانظر/٢٥٦ من الديوان نفسه وديوان لبيد/ ١٣٤ و ١٤٧ و ١٤٨ . (٩) علقمة . الديوان/٤٢٧ .

وقال بشر[١] :

يبرى لها خَـرِبُ المشاشِ مُصلّم   صَعْلٌ هِبلٌ ذو مناسَف اسقف[٢]

وقال زهير[٣] :

أصكُّ مصلّم الأذنين أجنى   له بالسيِّ تَنوّم وآه

وتزعم العرب ان الظليم اصلم ، وانه عوض عن السمع بالشم فهو يعرف بأنفه ما لا يحتاج معه الى سمع ، فهو يشم ريح القانصين من اكثر من غلوة[٤] ، ويبعد عن رئاله فيشم ريحها من مكان بعيد[٥] . واعتد من ادعى للنعام الصمم بقول علقمة[٦] :

فوه كشق العصا لأيا تبيّنــه   اسكُّ ما يسمع الأصوات مصلوم

واحتج من زعم انها تسمع بقول لبيد[٧] :

وصُحْم صيام بين صَمْد ورَجْلة   وبيض تُؤام بين ميث ومذنب

متى ما أشأ اسمع عراراً بقفرةٍ   تجيب زماراً كاليراع المثقــب

وقول الحارث بن حلزة[٨] :

آنست نبأةُ وافزعها القنّاصُ عَصراً وقد دنا الأمســاء

فترى خلفها من الرجــع والوقع منينا كأنه الاهبــاء[٩]

وقال طرفة[١٠] :

---

(١) بشر . الديوان/١٥٤ . (٢) يبرى لها : يعرض لها . خرب المشاش : يقصد بذلك ظليما وهو ذكر النعام . والخرب : الذي لا مخ له . والمشاش : عظام المفاصل ويقال: ان ألنعام جوف العظام ، لا مخ بها . الأسقف الطويل . (٣) زهير . الديوان/٦٤ . (٤) غلوة : المراهنة في السباق مقدار مضي السهم عند الرمي . (٥) الجاحظ . الحيوان ١٣٣/٤ . (٦) علقمة . الديوان/٤٢٧ . (٧) لبيد . الديوان ١٨/١٢ . (٨) ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال/٤٢٢-٤٤٣ . (٩) المنين : الغبار الدقيق الذي تثيره بقوائمها . والاهباء : اثارتها الهباء وهو الغبار الذي كأنه الدخان . (١٠) انظر حيوان الجاحظ ٤١١/٤ (والأبيات لم تذكر في ديوان طرفة) .

هل بالديار الغداةِ من خَرَس   أم هل بربع الجميع من أنسِ
سوى مهاة تقرو اسرته   وجوءذر يرتعي على كنس
أو خاضب يرتعي بهقلتــه   متى تَرُعْه الأصوات يهتجس

وذكروا اخباراً اخرى في اعاجيب هذا الحيوان[1] : ومثلما شبهوا الجبان بالنعام في فراره ، فقد شبهوا رباطة الجأش — حين يفزع الناس — وثبات القوم في اماكنهم بأن نعام الصحراء المجفل النفور قد باض عليهم . قال سلامة بن جندل[2] :

من الحمس اذ جاؤوا الينا بجمعهم   غداة لقيناهم بجأواء فيلــق
كأن النعام باض فــوق رؤوسهم   بنهى القذاف او بنهى مخفق

وقال الاعشى يمدح المنذر ويصف ثبات جيشه[3] :

بملمومة لا يَنفضُ الطرف عَرضها   وخيلٍ وارماحٍ وجند مؤيّد
كأن نعام الدوِّ باض عليهم   اذا ريع شيٌّ للصريخ المندّد

من هذه النماذج ندرك توفيق الشاعر الجاهلي الى الصور التي تتفق مع الانفعال الذي يحس به وتصلح لأن يستمد منها التشبيهات والصور المجازية التي اراد ان يخلعها على ما يتحدث عنه . الى جانب قدرته على نقل هــذه الصور نقلاً اميناً وصادقاً الى الحد الذي تمكن منه .

الوعــول : يبدو من خلال احاديث الشعراء عن الوعل انهم اتخذوه مثالاً للعجز عن ادراك الخلود في هذه الحياة ، والبقاء فيها ، فآمنوا — بعد ان لمسوا حقيقة الموت — بأن الانسان لا بد ان يقع في قبضته مهما كانت قوته وقدرته وكان هذا التعليل — كما يبدو — كافياً لتخفيف هول الصدمة التي كانت تنتاب الشعراء عند وقوع مصيبة الموت . وكانوا يذكرون الوعول

---

(١) انظر حيوان الجاحظ ٤/٣٨٩–٤٢٠ .   (٢) الأصمعي . الأصمعيات/١٤٩ .
(٣) الأعشى . الديوان/١٩١ .

في حديثهم عن المطر ، وكيف يضطرها للنزول قال لبيد[1] :

فحدر العصم من عماية للسهل وقضى بصاحة الأربا
فالماء يجلو متونهن كما يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشبا

وهي صورة قريبة من الصور الأولى ، لأنها مستمدة من معنى القوة فالسيل كان يخيفهم ، ويبعث في نفوسهم الرعب والفزع ، لما يحمل لهم من الخراب والدمار . وكان خرابه غير مقتصر على الناس وحدهم ، وانما هو يخيف حتى هذه الوعول المستوطنة في الجبال . والتي كانت اقل تعرضاً للموت منهم حسبما كانوا يعتقدون ، فينزلها من اماكنها . وحتى المصائب التي كانت تنزل على البشر وتصيب الناس على حد سواء ، فإنها تنزل هذا الأعصم القوي من حماه الذي احتمى فيه ، وكأنه آخر من تدركه هذه المصائب ، ويقع تحت قدرتها . والى ذلك اشار الاعشى بقوله[2] :

قد يترك الدهر في حلقاء راسية وهيا وينزل منها الأعصم الصدعا

ووجد الشنفري في انثى الوعل الفاً ، لطول تشرده ، وانيساً يسكن اليه ، فهي تذهب وتجيء حوله كالعذارى لا تنفر منه ولم تعد تنكره لكثرة ما خالطها حتى اصبح واحداً منها . قال[3] :

ترود الأراوى الصحم حولي كأنها عذارى عليهن الملاء المذيّلُ
ويركدن بالآصال حولي كأنني من العُصْم ادفى ينتحي الكِيحَ اعقلُ[4]

وعرف هذا الحديث عند الشعراء الصعاليك ، فتحدثوا عن تشردهم في ارجاء الصحراء الموحشة ، ووديانها المخيفة ، وافتخروا باهتدائهم فيها

---

(١) لبيد . الديوان/ ٣١ وانظر صفحة / ٩١ من الديوان أيضاً . (٢) الأعشى . الديوان / ١٠١ .
(٣) الزمخشري . أعجب العجب/٦٧-٦٩ . (٤) الصحم : الوعول السود التي يضرب لونها إلى الصفرة . الملاء : ضرب من الثياب . الادفى من الوعول : الذي طال قرنه وذهب قبل أذنيه . الكيح : عرض الجبل وسنده .

دون دليل واتخذوا من هذا مادة للفخر بأنفسهم[1] .

ويعكس لنا اختيار الشنفرى لهذا الحيوان صورة التشرد التي ارتبطت بها حياة هؤلاء الصعاليك ، وحياة هذا الحيوان ، والقسوة التي يلاقيها كل منهما ، والتعود على حياة الشعاب والجبال . ووجدوا في مشية الوعول مجالاً لتشبيه مشية الخيل بها في السرعة قال الجُميح[2] :

ينعون نضلة بالرماح على جرد تكدس مشية العصم

وقال المهلهل[3] :

وخيل تكردس بالدارعين كمشي وعول على الظاهرة

ووصف النابغة منزلته ، ورفعتها بين قومه ، بساكن الجبل الشامخ الذي تزل عنه الوعول على الرغم من قدرتها وقابليتها على سكناها[4] :

تزل الوعول العصم عن قذفاته وتضحى ذراه بالسحاب كوافرا

ومن الأمور الغريبة التي ذكرها الجاحظ عن هذا الحيوان ما يتعلق بنصول قرنه فقال[5] : وليس شيء من ذوات القرون ينصل قرنه في كل عام إلا الوعل ، فاذا علم انه غير ذي قرن ، وانه عديم السلاح ، لم يظهر من مخافة السباع . فاذا اطال مكثه في موضعه سمن ، فاذا سمن علم ان حركته تفقد وتبطىء فزاد ذلك في استخفائه وقلة تعرضه واحتال بألا يكون ابداً على علاوة الريح فاذا نجم قرنه لم يجد بداً من ان يمظعه[6] ، ويعرضه للشمس والريح حتى اذا ايقن انه قد اشتد اكثر المجيء والذهاب التماساً ان يذهب شحمه ، ويشتد لحمه وعند ذلك يحتال في البعد من السباع ، حتى اذا امكنه استعمال قرنيه في النزال والاعتماد عليهما ، والوثوب من جهتهما

(١) يوسف خليف . الشعراء الصعاليك / ٢٣٨ . (٢) المفضل . المفضليات ٢ / ١٦٧ .
(٣) الجاحظ . الحيوان ٦/ ٣٠٠ . (٤) النابغة . الديوان/ ١٧٤ (الأعلم) . (٥) الجاحظ . الحيوان ٧/ ٣٠-٣١ . (٦) نفس المصدر .

رجع الى حاله من مراعيه وعادته .

ويتضح لنا من الأمثلة المتقدمة ان القوة والخلود هما الرمزان اللذان ميزا هذا الحيوان ومنهما استمدت الصور الشعرية .

الذئب : من الصور البارزة التي تطالعنا في اوصاف الشعراء للخيل تشبيهها بالذئب ، وقد استحسن العرب هذا التشبيه واعتبروا امرأ القيس اول من عمد الى ذلك من الشعراء ، وعده العلماء مثلاً يقاس عليه ، ويحتكم إليه في السبق والتخلف حيث قال[1] :

له ايطلا ظبي وساقا نعامة   وارخاء سرحان وتقريب تتفـــل

واعقبه الشعراء فقال طفيل الغنوي[2] :

كأنه بعد ما صَدَّرن من عرق   سيد بمطّر جنح الليل مبلولُ

وقال الأسعر الجعفي يصف فرسه[3] :

واذا هو استعرضته متمطرا   فتقول هذا مثل سرحان الغضا

وشبه عبد المسيح بن عسلة اعتدال فرسه ، وانتصابه من النشاط بالذئب قال[4] :

صبحته صاحباً كالسيد معتدلاً   كأن جوء جؤه مداك اصداف

ويطرق الشعراء المعنى الذي اولعوا به ، وهو المبالغة في كرم الضيافة ، وكانوا يجعلون من الذئب الجائع ضيفاً يقرونه ويأنسون به ، وتجاوز البعض ذلك الى الزعم بأن الذئب كلمه ، وما قصة ذئب اهبان بن أوس إلا دليل من أدلة ذلك[5] .

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/٢١ .   (٢) الطفيل الغنوي . الديوان/٣٣ وانظر/٥ من الديوان .
(٣) الأصمعي . الأصمعيات / ١٥٨ وانظر ديوان عبيد / ٥ وديوان طرفة/٥١ وديوان زهير/٢٥٥ وديوان عامر بن الطفيل/١٣٠ وشعراء النصرانية ١/١٧٤ .   (٤) المفضل المفضليات ٢/٨٠ .
(٥) الجاحظ . الحيوان ١/٢٩٨ و ٣/٥١٣ و ٤/٨٠ و ٧/٥٠و٢١٧.

وتعد الصورة التي قدمها الشنفري من اروع الصور التي رسمها لنا الشعراء الجاهليون لما جاء به من اوصاف دقيقة وتصوير موفق لعادات هذا الحيوان ، ومن الطبيعي ان نجد هذه الصورة واضحة عند الشنفري وهو من الصعاليك الذين حفلت حياتهم بالتشرد ، ولم يعرف الشعر العربي قصيدة تماثلها في وصف الذئب[1] :

واغدو على القوت الزهيد كما غدا ازلُّ تهاداه التنائف اطحل
غدا طاوياً يعارضُ الريحَ هافيــا يخوت بأذناب الشعاب يُعسِلُ
فلما لواه القوتُ من حيث امــه دعا فأجابته نظائرُ نُحَّــل
مهلهلة شيب الوجوه كأنها قِداح بكفيّ ياسر تتقلقل
أو الخشرمُ المبعوث حثحث دبره محابيضُ إرداهن سام مُعَسَّل
مُهرّتةٌ فــوه كأن شدوقها شقوق العِصيِّ كالحات وبسَّل
فضج وضجت بالبراح كأنها واياه نوح فوق عليــاء ثكل
واغضى واغضت واتّسى واتست به مراميلَ عزاها وعزته مرمــل
شكا وشكت ثم ارعوى بعدُ وارعوت
وللصبر ان لم ينفع الشكو اجمــل

فالشاعر في هذه الصورة يلح على صفات الجوع ، ويؤكدها اكثر من مرة ويحاول رسمها بما كان يحسه هو ليمنح الصورة قدرة اكثر على التعبير فصور الجوع بصور مختلفة توحي بشدة التلهف الى الطعام والسرعة للانقضاض ولم يقتصر على ذئب واحد في رسم هذه الصورة ، وانما جعل الصفة عامة في الذئاب ، وهذا انعكاس لما يحسه بقية الصعاليك من الجوع فهو يطلب القوت عند غيره بعد ان عز ولكنه يجد حاله كحالها في الهزال ، فهي قليلة اللحم ، تمشي مضطربة ومهلهلة واسعة الاشداق مفتوحة الافواه ، تكشر

---

(١) الزمخشري . أعجب العجب/٣٧-٥٠ .

في عبوس ، كريهة الوجه ، تسمع لها جلبة من الجوع ، وعندما اقتربت من بعضها وعلمت ان الحالة واحدة ، وان الزاد قد نفد ، شكا هذا الذئب حاله ثم ارعوى بعد الشكوى – لاقتناعه بالحال التي هم عليها – فكف وصبر ، لأن الصبر اجمل ، وهو يقدم لنا بهذه الالوان الصورة المشتركة التي يحسها هذا الشاعر ، والصورة التي كان يعانيها اصحابه .

ومن الطبيعي ان يكون حديث الصعاليك عن الذئب حديث المطلع العارف بكل ما يحيط به ، لتقارب السبيل الذي يسلكه كل منهما في البقاء والاستمرار . ولا غرابة بعد ذلك اذا سمعنا عن الشنفري بأنه يؤثر صداقة الذئب ، وغيره من الحيوان ، لأنها احرص على القيم ، وارهف احساساً يقول[1] :

لعمرك ما في الارض ضيق على امرىء سرى راغباً او راهباً وهو يعقل
ولي دونكم اهلون سيد عملس وارقطُ زُهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

ويقدم المرقش الأكبر صورة اخرى للذئب الذي عراه مستضيفاً فأكرمه كما يكرم الضيف ويصور لنا فكرة الكرم الاصيل ، الذي يقدم للضيف مهما كان شكله ، لا يفرق بين تقديمه بين انسان وحيوان[2] :

ولما اضأنا النار عند شوائنا عرّانا عليها اطلسُ اللون بائس
نبذت اليه حُزّةً من شوائنا حياءً وما مُخشي على من اجالس
فآض بها جذلان ينفض رأسه كما آب بالنهب الكمي المُحالس[3]

والصورة كما وجدناها تختلف عن الصورة التي قدمها الشنفري ، فهي تتعرض لموضوع الجوع ، والحالة التي كان عليها الذئب ، ولكنها لم تصل

---

(١) الزمخشري . أعجب العجب/١٦–١٨ . (٢) المفضل . المفضليات ٢/٢٦.
(٣) الحزة : القطعة . المحالس: الشديد الذي لا يبرح مكانه في الحرب .

الى ما وصلت اليه قصيدة الشنفري من حيث استكمال الالوان والخطوط .

ويتعرض امرؤ القيس للذئب فيصور لنا مقابلته له وقد اضر به الجوع ، فبدأ يعوي ثم يرسم لنا بعض الصور العاطفية المتبادلة بينه وبين هذا الذئب[1] .

وتعد قصيدتا المرقش الاكبر وامرىء القيس من اوائل القصائد التي وصلت الينا وقد ذكر فيهما الذئب في مجال المقابلة ، وان كان الخيال يشوب هاتين القصيدتين الى حد ما .

ويشارك الذئب الضباع والنسور في نهش لحوم القتلى . واعتبر الشعراء ترك قتلى الخصوم طعاماً لطلاب الرزق من هذه الحيوانات ، مفخرة يفخرون بها ، قال عبد المسيح يفخر بقومه ويصف بلاءهم[2] :

لعمري لأشبعنا ضباع عنــيزة   الى الحول منها والنسور القشاعما
ومستلب من درعه وسلاحـه   تركنا عليه الذئب ينهش قائما

وقال بشر بن أبي خازم يشير الى يوم النسار[3] :

وهم تركوا غداة بني نمــير   شريحاً بين ضبعانٍ وذيــب

واستعمل الشعراء لفظ الذئب على سبيل المجاز ، وقصدوا به السفهاء من الناس[4] او العدو المتمكن[5] ، وشبه امرؤ القيس الربيء – الذي يربأ للقوم – بتستره وتخفيه بذئب الغضا ، لأنه اخبث الذئاب فقال[6] :

بعثنا ربيئاً قبل ذلك مُخمــلا   كذئب الغضا يمشي الضراء ويتقي

وهجي بجلسة الذئب ، فهذا ساعدة بن جؤية يهجو امرأة من بني الديل

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/٣٦٣-٣٦٤ . (٢) المفضل . المفضليات ٢/١٠٤ .
(٣) بشر . الديوان /٢٢ وانظر الأصمعيات/١١٩ وأغاني دار الكتب ٢٧/١٠ . (٤) انظر ديوان الطفيل الغنوي/٥٤ . (٥) انظر المفضليات٢/١٦٥ . (٦) امرؤ القيس. الديوان/١٧٢ .

ابن بكر يقول [1] :

اذا جلست في الدار يوما تأبضت ـ تأبض ذئب القلعة المتصوب

وكان لصوت الذئب وقع في نفوس الشعراء ، فاذا ارادوا ان يذكروا الفزع والرعب ، ذكروا عواءه ، قال الاعشى [2] :

وعين وحشية اغفت فأرقها صوت الذئاب فأوفت نحوه دأبا

واذا اراد الرجل ان يدلل على شجاعته ، دلل بعدم فزعه من الذئب وصوته لأن الذئب لا يصوت – في اغلب الاحيان – الا في حالات الجوع [3] . وتعد ذئاب الخمر من اخبث الذئاب [4] . وكذلك ذئاب الغضا التي ضرب بها المثل في الخبث .

ومما كانوا يعتقدونه ، انهم كانوا يتداوون ويتعوذون بكعب الأرنب حذر الموت والعطب ، وكانوا يشدون في اوساطهم عظام الضبع والذئب [5] .

هذه هي الصور التي صور فيها الشعراء الذئب ، وهي كما تبدو لم تكن اوصافاً دقيقة لأعضائه ، او صفاته الداخلية ، وانما هي اوصاف عامة تتعلق بالمظهر الخارجي .

الضبـــاع : يعد الشعراء الهذليون والصعاليك من اكثر الشعراء حديثاً عن الضبع للتقارب بين الطرق التي سلكها كل منهما ، والتشرد الذي اصبح طابعاً لهما ، ولأن اكثر الصعاليك والهذليين ، كانوا يموتون في العراء فتصبح

---

(١) ساعدة بن جؤية . شرح أشعار الهذليين ٣/١١٥٠ . (٢) الأعشى الديوان/٣٦١ .

(٣) انظر ديوان امرىء القيس/٣٦٣–٣٦٤ وحيوان الجاحظ ١/٣٧٨ . (٤) انظر حيوان الجاحظ ١/٢٢٠ و ٤/١٣٣ و ١٣٤ و ٦/١٢٣ و ١٧١ و ٧/١٤٣ . (٥) الف الحسن ابن محمد بن الحسن الصغاني كتاباً في أسامي الذئب وكناه ، ومما قاله في مقدمته : أن الذي حمله على جمعه تذاؤب بعض أهل زمانه ، ومن بمصميات رواشقه رماه ، ويقع في أربع صفحات وقد طبع ضمن كتاب مقامات الحنفي وابن ناقيا وغيرهما في استانبول/١٣٣٠ .

جثثهم نهباً لهذا الحيوان ولغيره من الحيوانات التي اعتادت اكل الأشلاء، والضبع من الحيوانات التي عرفت بولعها بجيف الموتى ، واشتهرت برغبتها بنبش القبور . ولهذا أقترنت صورة هذا الحيوان بصورة الفزع من الموت الذي لا يعرف مصير الجسد بعده . وقد صور الاعلم وهو يصف فراره مع صاحب له من مغامرة يطاردونه وما ستفعل الضباع بجسده[1] :

وخشيت وقع ضريبـة قد جرّبت كل التجارب
فأكون صيدهم بها للذئب والضبع السواغب
جزراً وللطير المربّـة والذئاب وللثعالب
وتجر مُجرية لها لحمي الى أُجر حواشب
سودٍ سحاليل كأن جلـودهن كتاب راهب
اذ انهن اذا احتضـرن فريسة مثل المذانب
ينْزعن جلد المرء نـز ع القين اخلاق المذاهب

وقال ساعدة بن جؤية يصف ضبعاً وقد زار قبر شخصٍ مات[2] :

وغودر ثاوياً وتأوّبتـه مُذرّعةٌ اميمَ لها فليـلُ
لها خُفّان قد ثُلبا ورأسٌ كرأس العور شهبرة نؤول
تبيت الليل لا يخفى عليها حمار حيثُ جُرَّ ولا قتيل
كمشي الاقبل الساري عليها عفاءٌ كالعبـاءة عفشليل
فذاقت بالوتائر ثم بَدّت يديها عند جانبـه تهيل[3]

وقال تأبط شرا وقد خرج غازياً ، واحاط به القوم ، وضيقوا عليه وعلى

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٣١٤ وانظر ٤٦٤ . (٢) ساعدة بن جؤية . شرح أشعار الهذليين ٣/١١٤٦ . (٣) مذرعة : يعني ضبعاً بذراعيها آثار . الفليل : الشعر والوبر. الشهبرة الكبيرة المسنة . النؤول : ان تمشى كأنها منقلة . الأقبل : الذي في عينه قبلٌ وهو شبيه بالحول . العفشليل : الثقيل . ذاحت مرت مرا سريعاً سهلا . الوتائر : طرائق مرتفعة من الأرض

صاحبه الخناق فقال لصاحبه: اشتد فاني سأمنعك ما دام في يدي سهم ، فاشتد الرجل[1] ولقيهم تأبط شرا ، وجعل يرميهم حتى نفدت نبله ، ثم انه اشتد فمر بصاحبه ، فلم يطق شده[2] ، فقتل صاحبه فيروي لنا الشاعر صورة الموت من خلال وصفه للمعركة ، وكأنه كان يستمد الشجاعة والمقاومة من صورة الضبع ، التي توحي له بالموت ، وهي تمكن انيابها وبراثنها في جسده قال[3] :

فزحزحت عنهم او تجئني منيّتي   بغبراء او عرفاء تفري الدفائنـــا
كأني اراها الموت لادر درها   اذا امكنت انيابها والبراثنـــا

ويبدو ان الخوف كان يلازمهم من الضباع ، لعبثها بجثث الموتى ، ولهذا كانت وقفة الشعراء عندها طويلة ، وكان لها النصيب الأوفى من الكلام ، حتى اصبح مصير الفتى ومرجعه — في اعتقادهم — لا يخرج عن ثلاثة امور ، اولاها نبش الضباع لجسده ، وهي احساس عميق ينتاب تفكير هذه الفئة من الشعراء بالميتة المفزعة التي ينتهي اليها الناس قال الأعلم[4] :

هل أَلحقُ الطعنَ والضربة الحَدْباء بالمُطَّرِدِ المقصَّل
مما أُقضّي ومحارُ الفتى   للضبع والشيبة والمقتـــل

وتنعكس صورة التمرد الكامنة في نفس الشنفري ، على ميتته التي اختارها ، فهو يفضل ان يقتل ويترك في العراء ، لا يبكي عليه شفيق ولا يرثيه صاحب ، فتأتيه عوافي السباع والطير ، لتأكل لحمه ، وتتباشر ام عامر (كنية الضبع) بهذا الصيد ويوصي اتباعه بعدم دفنه لأن ذلك محرم عليهم ، وكأنه يريد ان يقول بأنه مستغن عنهم حياً وميتاً ، وهي صورة تحمل مرارة اليأس التي

(١) اشتد الرجل : عدا وأسرع .   (٢) لم يطق شده : لم يطق نجدته.   (٣) الأصفهاني . الأغاني ٢١٣/١٨ (ساسي) وانظر ، شرح أشعار الهذليين ٤٦٨/١ .   (٤) الأعلم . شرح أشعار الهذليين ١٢٦١/٣ .

انتهى اليها هذا الشاعر [1] :

ولا تقبروني ان قبري محـــرَّم   عليكم ولكن ابشري ام عامـــر
اذا احتملوا رأسي وفي الرأس اكثري   وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا ارجو حياة تسرني   سجيس الليالي مبسلاً بالجـــرائر

ومن الطبيعي ان يجد هذا المعنى قبولاً لدى الشعراء الآخرين الذين يريدون ان يشبعوا الضباع بجثث الاعداء ويتركوهم نهباً لهذه العوافي من الحيوانات وهي في الوقت نفسه مفخرة لهم ومجال لذكر بطولاتهم ، قال عامر بن الطفيل [2] :

وقتلنا سراتهم جهـــاراً   واشبعنا الضباع خصىً عظاما

وقال الاعشى يذكر قيس بن مسعود بالقتلى الذين بعثرت جثثهم في الصحراء فعبثت فيها الضباع والذئاب [3] :

كأنك لم تشهد قرابينَ جمـــةً   تعيث ضباع فيهم وعواسلُ

وقال عنترة يفخر ببلائه بالحرب [4] :

وعمراً وحيّانا تركنا بقفـــرة   تَعُودها منها الضباع الكوالحُ
يُجرّرن هامـــاً فلّقتها رماحنا   تزيّل منهن اللحى والمسائح

واتخذ بعض الشعراء من فكرة الموت وعبث الضبع بجسده بعده اساساً لمبادىء آمن بها فأخذ يحث نفسه على اغتنام متاع الدنيا قبل فواته ، ويبيح لها لذات الحياة قال رجل من بني عامر يقال له مشعث [5] :

بأصر يتركني الحي يومـــاً   رهينة دارهم وهم ســـراع

---

(١) الشنفري . الطرائف الأدبية /٣٦ .   (٢) عامر بن الطفيل . الديوان /١١٠ .
(٣) الأعشى . الديوان/١٨٣ .   (٤) عنترة . الديوان ٤٠٧ وانظر ديوان أبي دؤاد/٣٢٣ وديوان عروة/١٧٨ وديوان بشر/١١١ والأصمعيات /٢٣٤ والمفضليات /٢٢ و ٥٢ والأغاني ١٠/١٠ (دار الكتب) .   (٥) الأصمعي .الأصمعيات /١٦٥ .

تمتع يا مشعث ان شيئاً سبقتَ به الوفاةَ هو المتاع
وجاءت جيأل وابو بنيها احمُ المأقيين به خماع
فظلا ينبشان الترب عني وما انا ويب غيرك والسباع [1]

وكانوا يكنون عن الاعداء بالثعالب او الضباع قال عدي بن زيد [2] :

ألا تلك الثعالب قد توالت علي وحالفت عرجاً ضباعا
لتمضغني العداة فمر لحمي وافرق من حذارى او اتاعا

اما الاعلم الهذلي فعندما اراد ان يهجو شخصاً هدده ووعده بالموت ونعته بالضبع [3] . وللضبع الى جانب هذه العادة عادة اخرى عرض لها الشعراء في مجال فخرهم وبها ضرب المثل في الفساد والى ذلك يشير دريد بن الصمة بعد غارته على غطفان [4] :

تجر الضباع بأوصالهم ويلقحن منهم ولم يقبروا

الثعلب : يشترك الثعلب مع غيره من الحيوانات في نبش القبور ، وولعه بالقتلى ولهذا جاء اقترانه بهذه الحيوانات في احاديث الشعراء ، ووجدنا في احديث الاعلم عنه صورة واضحة شأنهـا في ذلك شأن الضباع والذئاب والجوارح . وقد ضربوا المثل به في الدناءة والخبث والمكر ، كما ضربوا به المثل في الروغان والميل عن الحق ، والابتعاد عن جادة الصواب . قال طرفة لعمرو بن هند ويلوم اصحابه لخذلانهم اياه [5] :

---

(١) بأصر . أصل الأصر العهد الثقيل وهذه الصيغة من صيغ القسم . المأقي : لغة في الموق وهو طرف العين مما يلي الأنف والأحم : الأسود. الخماع العرج. الويب : الويل والهلاك. (٢) عدي بن زيد الديوان/ ٣٥ . (٣) انظر شرح أشعار الهذليين ١/ ٣٢٢ . (٤) الأصفهاني الأغاني ١٠/ ١٢ (دار الكتب) وحيوان الجاحظ ٥/ ١١٧ و ٦/ ٤٦ و ٤٥٠. (٥) طرفة . الديوان/ ٢٦.

كل خليل كنت خاللتــه   لا ترك الله له واضحــة
كلهم اروغ من ثعلب   ما اشبه الليلة بالبارحــة

وقال دريد بن الصمة [1] :

ولست بثعلب ان كان كون   يُدس برأسه في كل حُجْــر

ووصف عروة قومه عند اشتداد الحرب بالثعالب في مراوغتها حتى اذا انطفأت نارها اصبحوا كالاسود . قال[2] :

ثعالب في الحرب العوان فأن تبُخ   وتنفرج الجُلَّى فأنهم الأســدُ

اما قرواش بن حوط فعندما اراد ان يعدد مخازي خصومه لم يجد وصفاً يصفهم به الا ان يقول انهم عند المكاشفة والملاقاة يخبثون ويحمقون خبث الضبع وحماقته ويراوغون الناس مراوغة الثعلب[3] .

واذا ارادوا ان يصفوا الفلاة ، وانخراق الرياح فيها ، عرضوا لذكر الثعالب والاصداء والبوم ، ليدللوا على خلوها من الانسان ومن ثم جرأتهم في اقتحامها وقدرتهم على السير فيها ، قال الاسود بن يعفر يفخر بنفسه وهو يقطع الفيافي المجاهيل التي لا أنيس بها الا الثعالب والبوم[4] :

وسمحة ِ المشي شملال ٍ قطعتُ بها   أرضاً يَحارُ بها الهادُون َ دَيْمُوما
مهامها وَخرُوقاً لا انيس َ بهـــا   الا الضوابح والاصداء والبُومـــا

وعندما اراد زهير ان يصف نفسه بالجرأة ، لم يجد دليلاً لذلك غير الارض التي يسمع فيها عزيف الجن ، تصيح الثعالب في اطرافها من الخوف قال[5] :

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٦/٣٠٣ و ٣٠٤ والأصمعيــات/١٨٨ .   (٢) عروة . الديوان/١٥٧ .
(٣) انظر حماسة أبي تمام (المرزوقي) ٣/١٤٦٠ وانظر حيوان الجاحظ ١/٢١٣ و ٢/٢٩٠ و٢٩٥ و ٣٥٤ .   (٤) المفضل . المفضليــات ٢/٢١٩ .   (٥) زهير . الديوان/٢٦٥ .

وبَلدة لا تُرامُ خائفــةٍ زوراءَ مُغبَّرة جوانبهــا
تسمع للجن عازفين بهــاً تضبحُ من رهبةٍ ثعالبهــا
كلفتها عِرمساً عذافــرة ذات هباب فعماً مناكبها

اما الاعشى فقد جاء على ذكرها في حديثه عن الخرائب ، والديار التي يهجرها اهلها ولم تعد الا ملجأ لهذه الحيوانات تعيث فيها فساداً(1) :

يا من يرى ريمان امسى خاوياً خــرباً كعابُه
امسى الثعالب اهلــه بعد الذين هُمُو مآبُــه

وكذلك فعل عدي بن زيد في حديثه عن مدينة الحضر ورثائه لها(2) . وكنى بها وبالضباع عن الاعداء(3) .

ومن خلال الصور التي استعمل الشعراء فيها هذا الحيوان نجد صورته تقترن بالموت والخبث والروغان والفزع والدمار ، وكلها صور غير محببة توحي بالرعب والخوف ولهذا كان حديثهم عن هذا الحيوان وغيره من الحيوانات التي اقتصروا على نعتها بهذه النعوت قليلاً ، وقصيراً ، ولم تصل الينا قصيدة كاملة تتعرض لاوصافه وتقف عند مظاهره ، كمــا شاهدنا ذلك في حديثنا عن الحيوانات الاخرى التي مرت .

الضب : اما حديث الشعراء عن الضب فقليل ، فهم يعرضون له في بعض مواضع الهجاء كما ذكر علقمة(4) :

ترى الشر قد افنى دوائر وجهه كضب الكدى افنى انامله الحفــر

وكان ذكر الاظفار والبراثن يقرن بأوصاف الشعراء لهذا الحيوان ، لأن الذي عرف به هو انه لا يحتفر الا في مكان صلب حتى لا ينهدم عليه(5)

---

(1) الأعشى . الديوان /289 وانظر/251 . (2) انظر ديــوان عدي بن زيد/48 .
(3) نفس المصدر/35 . (4) علقمة . الديوان/444 . (5) انظر حيوان الجاحظ 4/150 و 172 و 6/ 39 و42 و 56 و 57 .

ويعمق حفرته ، ويطيل فيها ، حتى تفنى براثنه ، ويتوخى به الارتفاع عن مجاري السيل والمياه ، وعن مدق الحوافر ، لكيلا ينهار عليه ، ولذلك كانت براثنه ناقصة قليلة وهذه الصورة هي التي اوحت اليهم بأغلب المعاني التي استشهدوا بها في احاديثهم قال دريد بن الصمة[1] :

وجدنا ابا الجبار ضباً مورّشاً   له في الصفاة بُرثُنٌ ومَعاول
له كُديةٌ أعيت على كل قانص   ولو كان منهم حارشان وحابل
ظللت اراعي الشمس لولا ملالتي   تزلّع جلدي عنده وهو قائل[2]

وقال اوس بن حجر ينعت أكل الصخور لأظفار ضب من كثرة حفره[3] :

فأشرط فيها نفسه وهو مُعصم   وألقى بأسباب له وتوكلا
وقد اكلت اظفاره الصخر كلما   تعايا عليه طول مرقى توصّلا

ووجد الشعراء في مكمنه الذي يجهد نفسه في حفره ، ويحرص على اتخاذه في المواضع المرتفعة ، صورة لرسم السيل الكبير الذي يعم الارض ويغمرها فيضطر هذا الحيوان الى الخروج . قال امرؤ القيس يصف غيثاً[4] :

وترى الضب خفيفاً ماهراً   ثانياً برثنه ما ينعفر

واشار الشعراء الى عقوقه ، لأنه يأكل حسوله ولذلك قيل في المثل : اعق من ضب[5] . قال خداش بن زهير[6] :

فأن سمعتم بجيش سالكاً سرفاً   أو بطن قو فأخفوا الجرس واكتتموا

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٦/٤٠ و ٤١ .   (٢) المورش : بصيغة المفعول : من التوريش وهو التحريش والإغراء . والصفاة : الصخرة الملساء وعنى بالمعاول الأظفار . الحارش الذي يحرش الضب ، وحرشه أن يحك المكان الذي هو فيه فإذا أحسه الضب حسبه ثعباناً فأخرج اليه ذنبه فيصاد حينئذ والحابل الذي يصاد بالحبالة . تزلع : تشقق . والقائل : الذي يسكن في بيته عند القائلة (الظهيرة) .   (٣) أوس . الديوان / ٨٧ .   (٤) امرؤ القيس . الديوان / ١٤٥ وانظر ديوان طرفة/٢٨ .   (٥) انظر أمثال الميداني ١/٥٠٩ والمستقصى للزمخشري ١/٢٥٠ .
(٦) الجاحظ . الحيوان ٦/٥٠ .

ثم ارجعوا فأكبوا في بيوتكم كما اكب على ذي بطنه الهرم

ووجه أكل الضب لأولاده على شدة البغض لها ، وليس ينجو منه شيء منها الا بشغله بأكل اخوته عنه[1] .

وضربوا المثل به في سوء الهداية ، فقالوا : أضل من ضب[2] . وقيل : ان سوء هدايته حمله على حفر وجاره عند الآكام او الصخور او الاشجار ليكون متى تباعد من جحره لطلب الطعم ، او لبعض الخوف فالتفت ورآه احسن الهداية الى جحره[3] ، وقيلت فيه امثال كثيرة[4] .

وذكر الجاحظ من اعاجيب هذا الحيوان اموراً غريبة ، منها طول عمره ، وانه لا يموت حتف انفه ، وانه يعيش حتى وان قطع من ثلث جسمه[5] ، واذا هرم تنسم النسيم فاكتفى به[6] ، وانه لا يحتاج الى شرب الماء ، وتقول العرب في ذلك اروى من ضب[7] . واستطاب بعض الناس لحمه[8] .

الأسد : من الحيوانات التي تحدث عنها الشعراء كثيراً الأسد[9] ، وكان حديثهم عنه في مجالات عدة . وحفلت مصادر الادب والتاريخ والجغرافية بأسماء كثير من المناطق التي كانت تنتشر فيها الأسود في جزيرة العرب ، وأضيفت الى الأسد فقالوا : أسد خفان وأسد الشرى من بلاد لخم واسد عثر وأسد حاملة وأسد الملاحيظ وأسد المقيضا وأسد الكطا وأسد تعشر

---

(١) الجاحظ . الحيوان/١٩٧ وانظر ٤/١٧٢ و ٥/ ٣٢٨ و ٦/٤٩ و ٥٢ و٥٨ و ٧/٦٨ .
(٢) الجاحظ . الحيوان ٦/١٣٥ . (٣) الجاحظ . الحيوان ٦/٤٢ . (٤) انظر حيوان الجاحظ ٦/١٣٦–١٣٧. (٥) انظر حيوان الجاحظ ٦/٥٤ و١١٦ و٧/١٨٤. (٦) الجاحظ. الحيوان ٤/١٢٨ و ١٧٢ . (٧) الجاحظ . الحيوان ذ/١٢٨ و ٢٨٢ . (٨) الجاحظ . الحيوان ٤/٤٤ و ٩٦ و ٥/٢٥٣ و٦/٧٧ و ١٤٣ و ٣٨٥ . (٩) لم يصف أحد من الشعراء الجاهليين الأسد وصف أبي زبيد الطائي ولكن الذي حملني على عدم الاستشهاد بشعره هو أن الشاعر مخضرم ، ولذلك فهو يخرج عن نطاق هذه الرسالة المقصورة على الشعر الجاهلي وحده .

وأسد ليه وأسد حلية وأسد السحول وأسد تباله وأسد ترج وبيشة وأسد عتود[1] .

وعلى الرغم من هذه الكثرة الا انني لم اعثر على نص يذكر الأسد او يتحدث عن رؤيا حقيقية له ، الا ابيات عروة بن الورد التي وصفه فيها فكان وصفاً مباشراً ومغايراً لكل الأوصاف والنعوت التي وجدناها عند غيره من الشعراء والتي كانت تذكر في اغلب الأحيان في حالات تشبيه الفتيان او الفرسان الشجعان او في احاديث الشعراء عن مفاخرهم ، ومفاخر قبائلهم ، وانتصاراتها أو في ذكر مناقبهم ، ومناقب ممدوحيهم ، او في مراثيهم التي اطلقوا فيها على قتلاهم وموتاهم نعوت الأسد ، قال عروة[2] :

تبغّاني الاعداء إمـــا الى دم   واما عراض الساعدين مصـــدّرا
يظل الاباء ساقطاً فوق متنه   له العَدوة الأولى اذا القِرن اصحرا
كأن خوات الرعد زِرٌ زئيره   من اللاء يسكنّ الغريف بعثّرا

وكان الشعراء من خلال صورهم التي يرسمونها للأسد ، يشبهون انفسهم او من يريدون مدحه من اعزة قومهم بالليث او الضيغم أو ابي الأشبال او غير ذلك وتكاد صورة تشبيه الفتيان او الفرسان او الشجعان بالاسد تكون من اكثر الصور استعمالاً في قصائد الشعراء لأنهم كانوا ينفذون من خلالها الى الفخر والشجاعة والاشادة بالماضي المتمثل في صورة هؤلاء ، فأبو داؤد يفخر بقومه يقول[3] :

وشباب كأنهم اسدُ غيل   خالطت فَرْطَ حدهم احلام

وكذلك يفعل زهير في حديثه عن فتيان قومه[4] :

---

(١) انظر صفة جزيرة العرب للهمداني (ليدن/ ١٨٨٤)/ ١٢٧ والعمدة٢/ ٢٣٠ و (بيشة) و (ترج) و (حلية) و (خفان) و (خفية) و (عتود) في معجم مااستعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت
(٢)عروة بن الورد . الديوان/ ٥٥—٥٦. (٣) أبودؤاد.الديوان ٣٣٩. (٤)زهير . الديوان/١٠٣.

عليها اسود ضاربات لبوسهم سوابغُ بيضٌ لا يُخرّقها النبـــل

ومثلهما يسلك الشعراء الآخرون[1] وغالباً ما يأتون على ذكرها في بيان المفاخرة في المعركة والتباهي في البطولة وترك الأعداء جزر السباع . قال عنترة[2] :

فتركته جزر السباع ينشنه ما بين قلّة رأسه والمعصم

اما في المديح فحاول الشعراء اسباغ صفة الأسد المخدر او الليث او الأغلب على ممدوحيهم ليضفوا عليهم طابع القوة والهيبة . قال المسيب بن علس يمدح القعقاع[3] :

ولأنت اشجع في الاعادي كلّها من مُخدِر لَيث مُعيدِ وقاع

وقال بشر يمدح عمرو بن ام أياس[4] :

ولأنت احيا من فتاة غالهـــا حَذَرٌ وأشجعُ من هَمُوس اغلب

وكذلك فعلوا في الرثاء فكان المرثي اسداً بين اشبال أو ليفاً تساقط عليه البردى قال أوس يرثي فضال بن كلدة[5] :

يوماً بأجود منه حين تسأله ولا مُغبٌّ بترح بين اشبـــال
ليث عليه من البرديّ هبريّة كالمرزبان عيّال بآصـــال

---

(١) انظر ديوان عبيد/٨٢ و ١٣١ وديوان امرىء القيس / ١١٩ وديوان طرفة/٧٧ وديوان الشنفري (الطرائف الأدبية)/ ٣٤ و ديوان النابغة/٢٠١ وديوان عامر بن الطفيل/١٢٠ وديوان قيس بن الخطيم/١٦ و٢٩و٣٥و٤٩و٥٠ و٦٣ والأصمعيات /٧٩ والمفضليات ١/٧٧و٢ /١٢ و٨٥و٢١٦ وحماسة أبي تمام(المرزوقي)١/٣٦و١٧١و٣٦٤ و٤/١٦٣٤ وحماسة بن الشجري/١٤.

(٢) عنترة . الديوان / ٣٧٧ وانظر ديوان عبيد / ١٣٨ وديوان عامر بن الطفيل/ ١٦ .

(٣) المفضل . المفضليات ١/٦١ . (٤) بشر . الديوان /٣٨ وانظر ديوان زهير/٥٤ و٩٤و٢٣٢ وديوان طرفة/١٣٧ وديوان النابغة /١٥٤ و١٧٦ وديوان أوس/٦ وديوان الأعشى /٦٧ و ١٠٧ وشرح أشعار الهذليين ١/٢٧٣ والأغاني ١٠/٣٤ (دار الكتب) وحماسة أبي تمام ٢/٨٣٢ . (٥) أوس الديوان/١٠٥ .

وقال بشر يرثي اخاه سميرا[1] :

اريحي امضى على الهول من ليث هموس السرى ابي اشبال

وجاء ذكر الاسد مجازاً في اقوال الشعراء فعندما اراد زهير ان يصف ممدوحه بالشجاعة نعته بأسد شاكي السلاح ، غليظ اللحم ، لم تقلم اظفاره فقال[2] :

لدى اسد شاكي السلاح مقذف له لبد اظفاره لم تقلم[3]

وعندما اراد الاعشى ان يذم الحارث بن وعلة ويذم بخله ليتخذ منه وسيلة لمقارنته بكرم هوذة ومن ضيافته، وصفه بأنه اذا رأى ضيفاً في بيته فكأنه يرى اسداً او ثعباناً ، وهي صورة غريبة قال[4] :

اذا زاره يوماً صديق كأنما يرى اسداً في بيته واساودا

وشبه المثقب العبدي من يغتب الناس ويتحدث عنهم بما يكرهون بالسبع الذي ينهش لحمهم فقال[5] :

لا تراني راتعاً في مجلس في لحوم الناس كالسبع الضرم

النمر : ووقف بعض الشعراء عند النمر ، ونعتوا به من تخلق بأخلاقه ، لأن فيه حدة نفس ، وتجهم وجه ، وشدة غيظ ، ولهذا قالوا في الرجل اذا اشتد غضبه ، وكثر غيظه على عدوه ، لبس جلد النمر ، والى ذلك اشار عوف بن عطية حين فخر بشدة بأس قومه في الحروب حين قال[6] :

---

(١) بشر . الديوان/١٧٢ . (٢) زهير . الديوان/٢٣ . (٣) شاكي السلاح : أي سلاحه ذو شوكة ، يريد شائك . والمقذف : الغليظ اللحم . وأظفاره لم تقلم : أي هو تام السلاح حديده . (٤) الأعشى . الديوان / ٦٥ . (٥) المثقب . الديوان/٤٦ . (٦) المفضل . المفضليات ١/١٢٨ .

ونلبس للعدو جلود اسد اذا نلقاهم وجلود نمـــر

وقال ابو جندب الهذلي[1] :

وتقطع بيننا رحم اذا ما لبسنا للكماة جلود نمـــر

وشبه قيس بن الخطيم رجال قبيلته بالنمور[2] ، وكذلك خداش بن زهير[3] وزعم البعض مرافقة النمر ، وانه كان يطاعمه ويؤاكله[4] .

اما الشنفري فقد وجد في النمر الاملس اهلاً له ، يستعيض به عن أهله من البشر ، لأنه يجد عنده الأمن والطمأنينة . قال[5] :

ولي دونكم اهلون سيد عملس وارقط زهلول وعرفاء جيـــأل

هذه بعض الصور التي عرض لها الشعراء لهذين الحيوانين اللذين اقترن ذكرهما في احاديث الشعراء وتلازماً في اوصافهم ، وكما يبدو من النماذج ان الاسد اكثر ذكراً في الشعر الجاهلي ولا بد ان تدل هذه الكثرة على كثرة انتشاره في الجزيرة ، وكثرة الاماكن التي كان يعيش فيها فأصبحت مآسد . ولكن الذي يبدو لنا من هذه الصور انها لا تصف لنا اعضاء هذا الحيوان ولا تتعرض لذكر جزئياتها ولهذا اقتصر الشعراء على التشبيه به ، والوصف بشجاعته وشدته حتى ذكر انهم كانوا يوقدون من اجله ناراً يسمونها نار التهويل لأن الأسد – كما يعتقدون – اذا عاين النار حدق اليها ، وتأملهـــا وهذا ما يشغله عن السابلة .

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٣٦٩ . (٢) انظر ديوان قيس بن الخطيم . (٣) انظر حيوان الجاحظ ٦/٢٥٢ . . (٤) انظر الأغاني ١٩/٧٨. (٥) انظر لامية الشنفري في مختار الشعر الجاهلي ٢/٥٩٨ .

الطيـــور

تتمثل الصور التي رسمها شعراء العرب للطيور في كثير من جوانب الأدب العربي ، لأن بعضها الهم الشعراء مشاعر القوة والسيطرة ، وأثار بعضها الآخر فيهم الحنين والعطف ، وحرك البعض الثالث فيهم هواجس التشاؤم والقلق فعبروا عن هذه المعاني بما وجدوه في بيئتهم .

والحق ان هذه الصلة المتينة التي بين الشعراء وهذه الحيوانات تدل على اكثر من مجرد مشاعر واحاسيس وعواطف ، لأنهم استخدموها في مجالات حياتهم ، ووصفوها في المواضع التي وجدوها مناسبة لها ، مستفيدين من بعض مظاهرها التي عرفت بها ، لابراز صورهم التي ارادوا التعبير عنها ، ولا بد لي من ان اميز بين اقسامها وانواعها ، لانها كثيرة الانواع ، مختلفة الطباع والعادات ، لكل فصيلة طابع يميزها ، واسلوب من اساليب كسب الرزق الذي تقتات عليه ، وقد وجدت ان تقسيمها الى فصيلتين يمكنني من وضع حدود مميزة لها ، فأقمت التقسيم على الطيور الجارحة والطيور غير الجوارح .

الطيور الجارحة

العقاب : تعد العقاب من جوارح الطير ، والمعمرة منها ، ان شاءت كانت فوق كل شيء ، وان شاءت تقرب كل شيء ، وريشها الذي عليها هو فروها في الشتاء ، وخيشها[1] في الصيف[2] ، وهي اسمع الحيوانات، لذلك قالوا في المثل ، اسمع من عقاب[3] . وليس بعد النسر طائر اعظم منها ، وهي تستعمل كفها اليمنى اذا أصعدت بالارانب والثعالب في الهواء واذا اضربت بمخالبها في بطون الظباء والذئاب ، فاذا اشتكت كبدها احست بذلك ، فلا تزال اذا اصطادت شيئاً تأكل من كبده حتى تبرأ . وان لم تعاين فريسة ، فربما جلت[4] على الحمار الوحشي ، فتنقض عليه انقصاض الصخرة فتقد بدابرتها[5] ما بين عجب ذنبه الى منسجه[6] ، وهذا ما حمل الطيور على الخوف منها ، فاذا ابصرتها في اوكارها ، بلغها حتفها ، فتيبس قلوبها الرطبة ، لكثرة ما تصيد منها ، وهذا ما حمل الشعراء على تضمين هذا

---

(١) الخيش : ثياب رقاق النسج غلاظ الخيوط . (٢) الجاحظ . الحيوان٧/٣٧ . (٣) الجاحظ . الحيوان ٥/٥٣٥ و ٦/٤٣٩ . (٤) جل ببصره تجلية : أغمض عينيه ثم فتحهما ليكون أبصر له . (٥) الدابرة : الأصبع التي من وراء رجله وبها يضرب الصيد . (٦) المنسج : ما شخص من فروع الكتفين إلى أصل العنق وانظر حيوان الجاحظ ٥/٥١٢ .

المعنى في اشعارهم قال امرؤ القيس[1] :

كأن قُلُوبَ الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العُنَّابُ والحشفُ البالي

والعقاب تتبع العساكر طمعاً في لحوم القتلى[2] وقد يعتريها من الثقل عند شبعها من لحم الصيد ما يمنعها عن الطيران[3] . اما طريقة الصيد التي تسلكها فلا تعاني فيها جهداً ولا تراوغ صيداً لأنها لا تزال تكون على المرقب العالي . فاذا اصطاد بعض سباع الطير شيئاً انقضت عليه ، فإذا ابصرها ذلك الطير لم يكن همه إلا الهرب وترك صيده في يدها . ولكنها اذا جاعت فلم تجد كافياً لم يمتنع عليها الذئب فما دونه[4] .

وشأن الشعراء في اوصافهم لها شأنهم في اوصاف غيرها من الحيوانات فهم يذكرونها في اغلب اوصافهم من خلال حديثهم عن خيولهم ، ثم ينتقلون الى وصفها وتصوير ما يريدون تصويره منها ، ملونين الصورة بألوانهم الخاصة ، ومبرزين قدرة هذا الحيوان وقوته وشدة بطشه : مطابقين هذه الصورة مع صورتها المرسومة في اذهانهم . قال عبيد[5] :

كأنها لِقوةٌ طَلُوبُ تَحِنُّ في وكرِها القُلُوبُ
باتَتْ على إرمٍ رابِئَةً كأنها شيخَةٌ رَقُوبُ
فأصبحَتْ في غَدَاةِ قِرَّةٍ يَسقُطُ عن رِيشِها الضَّرِيبُ
فأبصَرَتْ ثعلباً من ساعَةٍ ودُونَهُ سَبْسَبٌ جَدِيبُ
فنفضَتْ رِيشَها وانتفَضَتْ وهي من نهضة قَرِيب
فاشتالَ وارتاعَ مِن حسيسها وفِعلُهُ يَفْعَلُ المَذْؤوبُ
فنهضَت نحوَه حَثيثَةً وحَرَدَتْ حَردةً تَسيب

---

(1) امرؤ القيس . الديوان/٣٨ . (2) الجاحظ . الحيوان ٣٢٢/٦ . (3) الجاحظ . الحيوان ٣٣٨/٦ . (4) الجاحظ . الحيوان ذ /٤٠٧ وانظره/ ٥٥٠ .
(5) عبيد . الديوان / ١٨ – ٢٠ .

فدبَّ من رأيها دَبيباً والعينُ حملاقُها مقلوب
فأدركَتْه فطرَّحَتْهُ والصيدُ من تحتها مكروب
فرنَّحَتْهُ ووضعتـه فكدَّحتْ وجهَهُ الجَبُوبُ
فعاودتهُ فرفَّعتـه فأرسلَتَه وهو مكروب
يَضغو ومِخْلَبُها في دَفِّه لا بُدَّ حيزومُه منقوبُ

وقال امرؤ القيس ينعت فرسه[1] :

كأنّها حين فاض الماءُ واحْتَفَلَتْ صقعاء لاحَ لها بالسَّرحَةِ الذّيب
فأبصَرَتْ شخصَهُ من رأس مرقبة ودُونَ موقِعِها منه شناخيبُ
صُبَّتْ عليه وما تَنْصَبُّ من أمَمٍ ان الشّقاء على الأشقين مَصبوبُ
كالدلو بُتّتْ عُراها وهي مُثقلَةٌ وخانَها وذَمٌ منها وتَكريـب
وَيلْمُها من هَواء الجَوِّ طالبة ولا كهذا الذي في الأرضِ مطلُوب
كالبرقِ والرّيح شَدّا منهما عَجبا ما في اجتهادِ عن الإسراع تَغبيب
فأدركته فنالتَهُ مَخالبُها فانسَلَّ من تَحتِها والدفُ منقوب
يلوذُ بالصخر منها بَعْدَ ما فَتَرت منها ومنه على العَقْبِ الشآبيب
ثم استغاث بدحلٍ وهي تعفرُهُ وباللسانِ وبالشدقينِ تتريبُ
ما أخطأته المنايا قِيسَ أنمُلَةٍ ولا تَحَرَّزَ الا وهو مكروب
فظلَّ مُنجحِراً منها يُراقِبُها ويَرْقُبُ العيشَ ان العيش محبوب

وفي الصورتين المتقدمتين نجد التشابه الواضح والتقارب البين في الملامح وحتى في روى القصيدة وبعض كلماتها التي ينتهي اليها هذا الروى . فالشاعران يتحدثان عن الفرس ثم ينتقلان الى تشبيهها بالعقاب التي رأت ثعلباً عند عبيد وذئباً عند امرىء القيس فانقضت على فريستها تعمل فيها ما تعمل وتنشب فيها اظفارها ثم تتمكن هذه الفريسة من الهرب بعد ان تركت مخالبها ثقوباً في جسد الفريسة .

---

(١) امرؤ القيس : الديوان/ ٢٢٦ — ٢٢٩ .

والصورتان تنتهيان هذه النهاية . ولم نجد اثراً للحديث عن الفرس بعد ذلك ، وكأن الشاعر نسي الحديث الذي بدأ به او هكذا كانت القاعدة المتبعة في الوصف على اقل تقدير ، وبالتالي فان كلا النموذجين يختتمان القصيدة .

ومثل هذه الملاحظات التي تتشابه بها القصيدتان كثيرة ، يمكن استخلاصها منهما . والأرجح انهما كانا يعيشان معاً في ديار بني اسد . وانهما كانا يسلكان منهجاً واحداً في النظم لخضوعهما لعوامل واحدة . ولدريد بن الصمة ستة أبيات يسلك فيها مسلك عبيد الا ان النهاية تختلف لأن العقاب تقتل الثعلب[1] ثم يأتي الشعراء الآخرون فيسلكون هذا الطريق ولكن بصورة موجزة فيشبهون خيولهم بالعقاب، محاولين اضفاء بعض الألوان على صورهم لتبدو مغايرة لما هو معهود عند غيرهم وكل منهم يحاول ان يثبت مهارته وقدرته . فسلمة بن الخرشب يشبه فرسه وهي تطلب الصيد بالعقاب في قصدها الارنب . يقول[2] :

ونمكننا اذا نحن اقتنصنا ... من الشحاج اسعله الجميم
هوى عقاب عردة اشأزتها ... بذي الضمران عكرشة دروم[3]

ويصف سلمة فرس خصومه الذين هربوا فيشبهها بالعقاب التي في جناحها استرخاء لأن ذلك اسرع لطيرانها ، ليعظم شأنها ، فيكون ذلك اعذر لخيله اذا لم تلحقها ، مانحاً الصورة بعض الدوافع لهذه السرعة . فالعقاب اصابها المطر وهذا داع آخر من دواعي السرعة لأنها في هذه الحالة تبذل اقصى ما تستطيع لتبادر الى وكرها . يقول[4] :

فلو انها تجري على الأرض أدركت ... ولكنّها تَهفُو بتمثال طائر
خُداريّةٍ فتخاء الثقَ ريشَها ... سحابةُ يوم ذي اهاضيب ماطر

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٦/٣٨٨ (٢) المفضل . المفضليات ١/٣٨ . (٣) الشحاج : الحمار الوحشي يشحج بصوته لا يفصح به . اسعله : انشطه وصيره كالسعلاة . عردة: اسم هضبة ، نسب العقاب اليها . اشأزتها : اقلقتها واستخفتها (٤) المفضل . المفضليات ١/ ٣٥ وانظر ديوان بشر/٢٣ و ٤٧ و ١١٠

ويشبه الحارث بن وعلة فراره من المعركة بالعقاب التي لبد ريشها المطر العظيم قال[1] :

نجوتُ نَجَاءً لم يَرَ الناسُ مثلَهُ ... كأني عُقَابٌ عند تَيْمَنَ كاسرُ
خُدارِيةٌ سفعاءُ لبّدَ ريشَها ... من الطلِّ يومٌ ذو اهاضيب ماطرُ

ويستعمل لفظ العقاب بمعنى الراية . ويقرنون ذلك بظل الطائر الذي يتقلب في الجو قال عنترة[2] :

كتائب تزجي فوق كل كتيبة ... لواءٌ كظل الطائر المتقلّب

وقال عبيد يصف جيش قومه[3] :

بمعضّل لجب كأنّ عُقابَه ... في رأس خُرْصٍ طائرٌ يتقلّبُ

وشبهت الكتيبة بالعقبان التي تخفق اجنحتها[4] وكذلك شبهوا بها الفرسان[5] ويقال للعقاب صومعة لأنها ابداً مرتفعة على اشرف مكان تقدر عليه ولا تراها ابداً الا منتصبة ولا تكاد تراوغ صيداً ولا تزال على مرقب عال فاذا رأت بعض سباع الطير صاد شيئاً انقضت عليه فحين يبصرها يهرب ويخلي لها الصيد فان جاعت لم يمتنع عليها الذئب[6] ولهذا كان مسكنها مضرباً للمثل في العلو والاشراف قال امرؤ القيس[7] :

ومرقب تسكن العقبان قلّته ... اشرفته مسفِراً والنفس مهتابه
عمداً لارقب ما بالجو من نعمٍ ... فناظر رائحاً منه وعَزّابه

وكان مدعاة للفخر ان يترك الفرسان جثث اعدائهم في ميدان المعركة

---

(١) المفضل . المفضليات/١٦٣ (٢) عنترة . الديوان/٣٩٨ . (٣) عبيد. الديوان /٦ وانظر ديوان الاعشى/٢٥٩ و ٢٦١ . (٤) انظر ديوان المثقب/٢٤ (٥) انظر ديوان الطفيل/٤ . (٦) كشاجم . المصايد والمطارد/٩٦ - ٩٧ وانظر ابيات امرىء القيس في ديوانه/٢٢٦ (٧) امرؤ القيس . الديوان/٣٤٦

غذاء تغتذي عليه الوحوش وتحجل حوله الطير وتعكف عليه السباع قال طرفة[1] :

تذر الابطال صرعى بينها ... تعكف العقبان فيها والرخم

اما معتقدهم في العقاب فالظاهر انهم كانوا يتشاءمون منها ولكن طرفة عندما رآها لم يتشاءم منها لانها –كما يعتقد– لا تستطيع ان تمنع الرزق عن انسان يطلبه ولن يكون التشاؤم سبباً للموت[2] واكد الشعراء لونها في حديثهم عنها .

النسر : يعد النسر من سباع الطير[3] التي اشار اليها الشعراء كثيراً وليس من جوارحها ، فهو لا يصيد الا في الندر ، ولا مخالب له بل له اظفار ولا يقوى على جمع اظفاره وحمل فريسته كما تفعل العقاب بمخالبها [4] وليس له سلاح سوى مناقيره واظفاره . وانما يقوى بقوة بدنه[5] . وألحق دريد بن الصمة النسر بأحرار الطير وكرامها فقال[6] :

فاني على رغم العذول لنازل ... بحيث التقى عيط وبيض بنى بدر
ايا حكمَ السوءات لاَتهجُ واضطجعْ ... فهل انت ان هاجيت الا من الحُضرِ
وهل انت إلا بيضة مات فرخها ... ثوت في سلوخ الطير في بلد قفر
حوَاها بغاثٌ : شرُّ طير علمتها ... وسُلاّء ليست من عُقابٍ ولا نسر

وتكاد تكون صورة تعقبه للجيش وتتبعه للعساكر بانتظار القتلى ليقع عليهم من ابرز هذه الاشارات . واعتقد البعض ان الجيش الذي لم تحم عليه النسور لا يدخل معركة ولا يشترك في قتال . على ان هذا التتبع لم يقتصر على النسر وحده وانما يشاركه العقبان والرخم .وغير ذلك من الجوارح التي

---

(١) طرفة . الديوان/١٣٨ . (٢) انظر ديوان طرفة/٢١٤ (٣) الجاحظ. الحيوان ١/٢٩ و ٢/٣٣١ (٤) انظر حيوان الجاحظ ٦/٣٣٤ ومعجم المعلوف/٢٦٠
(٥) الجاحظ . الحيوان ٦/٣٣٤ و ٤٠٢ (٦) الجاحظ . الحيوان٤/٣٥٨

اعتادت على مثل هذا الرزق .

وتعد ابيات النابغة التي مدح فيها عمرو بن الحارث الغساني بوصف جيشه من اكثر الابيات شيوعاً في المعنى الذي ذكرناه . لأنه فصل الصورة وكشف عن جوانبها كشفاً دقيقاً . فالنسور تسير خلف جيش الممدوح ، موقنة بأنها لا بد ان تجد زادها من اعدائهم وانها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد[1] :

إذا ماغزوا في الجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب
يصاحبنهم حتى يُغرن مغارهم من الضاريات بالدمار الدوارب
تراهن خلف القوم خزُراً عُيونها جُلوسَ الشيوخ في ثياب المرانب
جوانح قد ايقنّ أن قبيلـةً اذا ما التقى الجمعان اول غالب
لهن عليهم عادة قد عرفنهـا اذا عُرِضَ الخطيّ فوق الكواثب

وذكر وقوع الذئاب وغيرها والنسور وما سواها من الطير على القتلى معنى متداول ومعروف . عرفه العرب وذكروه في اشعارهم وكانوا يطلقون على النسور عافيات الطير ، قال النابغة يصف وقعة عمرو بن الحارث الأصغر الغساني ببني مرة بن عوف[2] :

ترى عافيات الطير قد ونِقت لها بشبع من السخل العتاق الأكائل

وقال عنترة ينعت بطولته وبلاءه في الحروب[3] :

وقرن قد تركت لدى مكـرٍ عليه سبائب كالارجـوان
تركت الطير عاكفة عليه كما تردى الى العُرس البواني

ولا تقترب هذه الحيوانات من القتلى حتى تتوقف اعضاؤهم كلها عن الحركة قال عنترة[4] :

---

(١) النابغة . الديوان/١٦٠ (٢) النابغة .. الديوان/٢١١ (٣) عنترة/٤٠٥ وانظر المفضليات٢/١٢٦ والا صمعيات/١٧٤ وديوان عامر بن الطفيل/١٦ (٤) عنترة . الديوان/٤٠٥

ويمنعُهنَّ ان يأكلن منـــه   حياةُ يدٍ ورجل تركضانِ

والنسر طير ثقيل عظيم ، شره رغيب نهم ، فإذا سقط على الجيفة وتملأ لم يستطع الطيران حتى يثب وثبات ثم يدور حول مسقطه مراراً ويسقط في ذلك ، فلا يزال يرفع نفسه طبقة طبقة في الهواء حتى يدخل تحته الريح فكل من صادفه وقد بطن وتملأ ضربه ان شاء بعصا وان شاء بحجر ، حتى ربما اصطاده الضعيف من الناس(١) . ويوصف النسر بشدة الارتفاع حتى الحقوه بالانوق قال عدي بن زيد(٢) :

فوق علياء ما يُرام ذُراها   يلغبُ النسرُ فوقها والأنوقُ

وكان الشعراء يؤكدون عكوفها على القتلى كما مر(٣) ووجدوا في الضباع رفيقاً للنسر تشاركه في هذه الجثث وتتقاسم معه هذه الغنائم قال عبد المسيح ابن عسلة يمدح قومه ويفخر بانتصارهم(٤) :

غدونا اليهم والسيوف عصيُّنا   بأيماننا نَفْلي بهنَّ الجماجما
لعمري لأشبعنا ضباعَ عنيزة   الى الحول منها والنسور القشاعما

وقال بشر بن أبي خازم يهجو اوس بن حارثة ويعدد مفاخر قومه(٥) :

فلو عاينتنا وبني كـــلاب   سمعت لنا بعقوتهم زئـــيرا
وكم من جمع قوم قد تركنا   ضباعَ الجو فيهم والنسورا

ولم تقتصر النسور في افتراسها على الرجال وحدهم وانما تأتي على البادن من الدواب فتأكل لحمها(٦) . وضربوا المثل في طول العمر بالنسور واكثر ذلك قالوا في لبد(٧) .

---

(١) الجاحظ . الحيوان٦/٣٣٣   (٢) عدي بن زيد . الديوان/٧٩   (٣) انظر ديوان امرىء القيس/٢٠٠   (٤) المفضل . المفضليات ٢/١٠٤   (٥) بشر . الديوان/٩٣ وانظر ديوان عنترة/٣٨٠ والاغانى ١٠/٤٠ (دار الكتب)   (٦) انظر ديوان امرىء القيس/٩٣
(٧) انظر حيوان الجاحظ ٣/٤٢٣ و ٥٣٢ و ٤/١٥٧و ٦/٣٢٥ و ٣٣٣ و ٧/٥١ و ١٨٤ =

قال النابغة[1] :

أمست خلاءً وامسى اهلها احتملوا   أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد

فضربه مثلاً في طول السلامة ، وقال طرفة يصف شخصاً تمنى خلود العمر[2] :

الم ترَ لقمان بن عادٍ تتابعت   عليه النسور ثم غابت كواكبه

وقال لبيد[3] :

ولقد جرى لبد فأدرك جَرْيَهُ   رَيْبُ الزمان وكان غيرُ مُثقَّل
لما رأى لبـــد النسور تطايرت   رفع القوادم كالفقير الاعزل
من تحته لقمان يرجو نهضه   ولقد رأى لقمان ان لا يأتلي

وشبهوا صياح الخيل بصياح النسر[4] وارتبط سنان الرمح في حدته بمنقار النسر في اذهانهم وانتفعوا من ريشه لاستعماله في سهامهم . ولم اجد مجالات اخرى استعملوا فيها هذا الحيوان بالكثرة التي تستحق الاشارة[5] .

الصقر : واما الصقر فهو النوع الثالث من الجوارح ، وعده الجاحظ من جوارح الملوك ، وهو من الحيوان الذي يدرب فيستجيب[6] . وتسمي العرب كل طائر يصيد صقراً خلا النسر والعقاب وتسميه الأكدر والأجدل ؛

= وترتبط هذه الحكاية بمعتقد الجاهليين في حكاية لقمان بن عاد وهو غير لقمان الحكيم الذي ذكر في القرآن الكريم ، والذي كان على عهد داود عليه السلام ، ولقمان هذا من قوم عاد وقد طال عمره حتى بلغ سبعة نسور كلما هلك نسر خلف بعده نسر وكان آخر هذه النسور نسرا يسمى لبدا ، وانظر قصته وما قيل فيه من الشعر في كتاب التيجان في ملوك حمير/٧٥ وما بعدها و ٣٥٦ — ٣٦٧

(١) النابغة . الديوان/١٤٩ (٢) طرفة.الديوان/١٦٤

(٣) لبيد . الديوان/٢٧٤ (٤) شرح اشعار الهذليين ٣ /١١٣٦ وحماسة ابي تمام (المرزوقي) ٢/٧٧٤

(٥) انظر ديوان الشنفري في الطرائف/٣٤ والمفضليات١/٦٩.

(٦) الجاحظ . الحيوان ٦/٤٧٨

ولهذا كثر تشبيه الفرسان به لأنهم يصطادون خصومهم قال المنخل اليشكري ينعت فوارس قومه[١] : :

وعلى الجياد المضمرا ت فوارسٌ مثل الصقور

وقال عنترة يصف انقضاضه على اعدائه[٢] :

فعليه اقتحم الهياج تقحمـــاً فيها وانقضُ انقضاض الأجدل

ووجد الشعراء في الاجدل صورة موفقة في تشبيه خيولهم وهي تكر على الخصوم وتهوي على الفارين منهم قال عامر بن الطفيل يشبه سرعة فرس عنترة بسرعة إنقضاض النسر[٣] :

ونجا بعنترةَ الأغر من الـــردى يهوي على عَجَل هُويَّ الأجدل

وشبه المثقب العبدي ناقته بالصقر فقال[٤] :

كالأجدل الطالب رهوَ القطـــا مستنشطاً في العُنق الأصيد
يجمع في الوكر وزيما كمـــا يجمع ذو الوفضة في المزود[٥]

اما استعماله في الصيد واشارة الشعراء لذلك فسوف نعرض له في حديثنا عن الصيد . وتعد الصورة التي قدمها زهير من القصائد الطوال التي عرضت لذكر الصقر ومطاردته لقطاة كانت آمنة مطمئنة ولكنها تتمكن من النجاة. وفي هذه الصورة يعرض زهير لبعض أوصاف الصقر[٦] .

الرخم والحبارى : الرخم والنسور والعقبان ــ كما اسلفنـــا ــ تتبع الجيوش لتوقع القتال وما يكون لها من الجيف وتتبع ايضاً الجيوش والحجاج

---

(١) الاصمعي . الاصمعيات/٥٤ (٢) عنترة . الديوان /٣٩٢ وانظر المفضليات ٢/٣٩ وشرح اشعار الهذليين ١٠٧٤/٣ (٣) عامر بن الطفيل.الديوان /٩٣ وانظر ديوان الاعشى/٢١ والأصمعيات/١٥٨ والمفضليات ٥٦/٢ (٤) المثقب العبدى . الديوان / ١٤ (٥) الرهو : السير السهل . الصيد : المرتفع . الوزيم : قطع اللحم. الوفضة : الكنانة للنبل مثل الجعبة للنشاب . (٦) زهير . الديوان/١٧١ وما بعدها .

لما يسقط من كسير الدواب[١] وتتبعها ايضاً في الازمنة التي تكون فيها الانعام والحجور حوامل ، لما تؤمل من الاجهاض والاخداج[٢] وقد اشار النابغة الى ذلك في بائيته[٣] وكذلك اشار زهير في قوله[٤] :

قد عوليت فهي مرفوع جواشنها . على قوائم عوجٍ لحمُها زَيِمُ
تنبذ افلاءها في كل منزلة تنقر اعينها العقبان والرخم
فهي تَبلّغُ الاعناق يتبعُها خَلَجُ الاعنّة في اشداقها ضجم

وقال طرفة يصف فرسان قومه ، وهم يقتلون الابطال من الاعداء ، ويتركون جثثهم في ميدان المعركة غذاء للوحوش[٥] :

تَذَرُ الابطال صرعى بينها تعكف العقبان فيها والرخم

وقال دريد بعد غاراته على بني ثعلب ، مخاطباً عياضاً الثعلب بعد افلاته وهو جريح[٦] :

فان تَنْجُ يَدْمي عارضاك فاننا تركنا بنيك للضِّباع وللرُّخم

والرخم لا ترضى من الجبال إلا بالوحشي منها ، ومن البعيد الا في اسحقها[٧] . وابعدها عن مواضع اعدائها ثم من الجبال الا في رؤوس هضابها ، ثم من الهضاب الا في صدوع صخورها ، ولذلك يضرب بامتناع بيضها المثل[٨] وتختار من المساكن ما لا يطوره سبع طائر[٩] ، ولا ذو أربع[١٠] ، لتضع البيض فيها وهذا ما حمل ابا دؤاد على ربط هذه الصورة بصورة ركوبه جواده الذي اسرع به ، فتطايرت ثيابه ، حتى كأنها معلقة حيث تبيض الرخمة في الاعالي فقال[١١] :

---

(١) الكسير : المكسور (٢) الجاحظ . الحيوان ٢١/٧ . الاخداج : ان تجيء بولدها ناقص الخلق . (٣) انظر ديوان النابغة/١٦٠ (٤) زهير الديوان/١٥٤ (٥) طرفة. الديوان/١٣٨ (٦) الاصفهاني الاغاني ٢٠/١٠ (دار الكتب) (٧) اسحقها : اشدها بعدا (٨) الجاحظ . الحيوان ٦٦/٧ وانظر ٣٤٢/٦ (٩) يطوره : يقرب ويدنو منه (١٠) الجاحظ . الحيوان ١٩/٧ (١١) أبو دؤاد . الديوان/٣٢٨ .

كأني اذا عاليت جوزة متنـــه   تعلق بزى عند بيض انـــوق

وكانت تعرف بلؤمها وقذارتها وموقها ولذلك هجي بها[١] وذكر الجاحظ سبب تسميتها بالانوق فقال : وهم يسمون بالانوق كل شيء يقتات النجو[٢] والزبل وكذلك هجي بالحبارى التي عرفت بسلحها ، لأنها متى ما الح عليها الصقر سلحت عليه وذلك من احد سلاحها[٣] . وقد ضرب المثل بها في الموق[٤] . وقالوا مات فلان كمد الحبارى ، لأنها اذا نتفت او تحسرت ابطأ نبات ريشها ، فاذا طار صويحباتها ماتت كمداً[٥] . واغلت النماذج الشعرية التي وردت على لسان الشعراء اشارت اليها في مواضع الهجاء حيث يشبهون المهجو بها في الهرب والسلح . فزهير بن أبي سلمى عندما اراد ان يهجو رجلاً من بني عبد الله بن غطفان شبهه بالحبارى فقال[٦] :

متى تتحزّم بالمناطق ظالمـــاً   لتجري الى شأوٍ بعيد وتسبح
تكن كالحبارى ان اصيبت فمثلها   اصيب وان تفلت من الصقر تسلح

وكذلك فعل اوس بن غلفاء عندما هجا ابن الصعق[٧] :

وهم تركوك اسلح من حبارى   رأت صقراً واشرد من نعـــام

والحبارى من اشد الطير طيراناً وابعدها مسقطاً واطولها شوطاً واقلها عرجة[٨] .

ووقف الشعراء عند الحدأ وشبهوا بها الخيل وهي تعدو راجمة الأرض بحوافرها ، تحمل الكماة الشجعان ، قال عامر بن الطفيل[٩] :

والخيل تردى بالكماة كأنهـــا   حدأ تتابعُ في الطريق الاقصد

---

(١) انظر ديوان الاعشى/٢٦٥   (٢) النجو : العذرة . انظر حيوان الجاحظ ٣/٥٠٤ .
(٣) الجاحظ . الحيوان ١/٢٩،٢٤٨،٣٠٦،٥/٤٤٥،٦/٣١٢،٣٧٣،٧/٦٠
(٤) الجاحظ الحيوان ٥/٤٤٦   (٥) الجاحظ . الحيوان ٥/٤٤٦ .   (٦) زهير . الديوان /٣٤٤   (٧) المفضل. المفضليات ٢/١٨٨ والاغاني١٠/٢١ (دار الكتب) .   (٨) الجاحظ الحيوان ٥/٤٥٢ .   (٩) عامر بن الطفيل . الديوان/٥٦ وانظر ديوان النابغة/٢٠٤ .

وبين الحدأة والغداف قتال ، لأن الحدأة تخطف بيض الغداف لشدة مخالبها وسرعة طيرانها[1] .

الطيور غير الجارحة : وكما شغلت الطيور الجارحة مجالاً في الشعر الجاهلي شغلت الطيور غير الجارحة مجالاً آخر في هذا الشعر ، فعرض لها الشعراء في كثير من اوصافهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، ولأن بعضها كان يثير في نفوسهم احاسيس ومشاعر معينة كالبوم والغراب ، وبعضها الآخر يكتسب جانباً عاطفياً خاصاً كالحمام الذي هام به الشعراء وابدعوا في تصوير غنائه .

والحق ان هذه الصلة المتينة التي شدت الشعراء بهذا الحيوان لها اكثر من دلالة ، فهي لم تكن مجرد عاطفة خاصة يبديها الشاعر تجاه حيوان وديع وضعيف . فنحن نعلم ان قسماً من هذه الحيوانات لها رحلات تقوم بها في مواسم معينة ، وتشد فيها الرحال من وقت الى وقت . وهي تعاني من اجل ذلك الم الرحلة ، ومرارة الغربة ، وصعوبة الانتقال ، وتقاسي من اجل هذا ما تقاسيه ولا بد ان تقترن هذه الصورة بصورة الحياة التي يعيشها الشاعر نفسه ، وهو يقوم برحلته الطويلة . ليتحمل المشاق نفسها ، ويتجرع المرارة عينها . ومن البديهي ان يحصل التعاطف الذي تثيره هذه الحيوانات في نفسه ، ويكون التجاوب الذي عبر عنه ببعض ما يستطيعه فكان هذا العناء الذي تمثل في نوح الحمام وبكائه وسوف نعرض في حديثنا لبعض اصناف هذه الحيوانات التي وقف عندها الشعراء لنتبين الصور التي رسموها لها ، والاغراض التي كانت ترمز اليها ، والمواضع التي استخدموها فيها ، موضحين ما نصل اليه من نتائج من خلال النصوص التي تمكنا من جمعها .

الغراب : الحديث عن الغراب في الشعر الجاهلي حديث طويل اشار إليه الشعراء كثيراً ، واستخدموه في مواضع عدة ولكن معظم الحديث عنه في

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٢/٥١ .

باب التشاؤم ، لأنه اشأم الطيور عند الجاهليين . وليس في الأرض شيء يتشاءم به الا والغراب اشأم منه وانكد . حتى اصبحوا يذكرونه مصاحباً لكل ما يتطيرون منه ، فهو المقدم في الشؤم ، ومن اجل هذا أصبح كل جزء منه مدعاة للتطير ، فاشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب ، وتشاءموا من صياحه واعتبروا هذا الصياح نذير البعد ، ودليل الفرقة قال عنترة[1] :

ظعن الذين فراقهم اتوقــع ... وجرى ببينهم الغراب الابقع
خرق الجناح كأن لحيي رأســه ... جلمان بالاخبار هشّ مولع

وقال عبيد[2] :

زعم الاحبة أنّ رحلتنا غــدا ... وبذاك خبّرنا الغُداف الأسود

وسموه حاتماً ، لأنه — فيما يعتقدون — يؤذن بالفراق المحتّم اذا نعب[3] ولأنه لا يوجد في موضع خيامهم يتقمم ، الا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم[4] . وظلت هذه الصورة مرتسمة للغراب في اشعارهم ، ومن هذه المعاني ارتسمت صورة الغراب القاتمة في الشعر وبرزت ألوانه المعتمة في معاني الشعراء[5] . وهو عندهم عار لافراط بغضهم له ، يتعايرون بأكل لحمه قال وعلة الجرمي[6] :

لهان العام ما عيرتمونـــا ... شواء الناهضات مع الخبيص
فما لحم الغراب لنـــا بزاد ... ولا سرطان انهار البريص

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن التشاؤم ، ومدى وضوحه في جوانب الحياة الجاهلية ان نقول : ان هذا الايحاء قد تولد بسبب اعمال معينة أوحتها طبيعة

---

(١) عنترة . الديوان/٣٩٢ (٢) عبيد . الديوان/٤٣ ، وللنابغة بيت يماثله/١٨٣ وانظر ديوان بشر/٤٩ (٣) انظر الاصمعيات/١٩٣ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٣/٤٣٨ — ٤٣٩ (٥) انظر ديوان عنترة/٣٩٣ و ديوان ابي دؤاد/٣٠١ وديوان عامر بن الطفيل /٢١ وديوان الاعشى/٢٥٣ وشرح اشعار الهذليين ١/٢٤٨ (٦) ابن قتيبة . المعاني الكبير ١/٢٦٧

البشر وقررتها في نفوسهم حتى أصبحت عادة يسلكها الناس في بقاعهم واصقاعهم ، والانسان قادر على تغيير هذه المعتقدات وتبديلها اذا حاول النظر الى هذه الامور بمنظار آخر ، تتخلله البهجة والغبطة والسعادة ، وعندها تكون الصورة التي رسمها في مخيلته قد تبدلت وتكون المفاهيم التي رسختها بعض الأعمال قد تغيرت . وليس من السهل ان تتبدل هذه المقاييس بمثل هذه السرعة التي نتصورها ، لأن هذه الأحكام عمقتها المعتقدات القديمة ، وزادت في رسوخها بعض المصادفات التي وجدت في خيال الناس صدى وقبولا . على ان ذلك لم يمنع بعض الناس من مخالفة هؤلاء فيما يعتقدون[1]

ووجدت احاديث الغراب مجالاً آخر في الأمثال فقالوا : ابصر من غراب وابكر من غراب واحذر من غراب وابطأ من غراب نوح واغرب من غراب[2] واصفى من عين الغراب ، يريدون حدتها ونفاذ البصر[3] واصفى عيناً من غراب[4] واصح بدناً من غراب . وقالوا : ارض لا يطير غرابها ، للأرض التي تبلغ من خصبها انه اذا دخلهاالغراب لا يخرج منها ، لأن كل شيء يريده فيها[5] قال النابغة[6] :

ولرهطِ حَرّابٍ وقَدٍّ سورةٌ ‏ ‏ ‏ في المجد ليس غرابهم بمطار[7]

وقالوا اشد سواداً من غراب[8] .

ولا بد ان تعكس هذه الكثرة من الامثال معرفة العرب الدقيقة بهذا الحيوان ومتابعتهم لعاداته وطبائعه . والى جانب تشاؤمهم من الغراب نراهم يذكرونه وهو يريغ في سواد عيون الموتى ويعكف عليها شأنه في

---

(١) علقمة . الديوان/٤٢٩ (٢) انظر حيوان الجاحظ ٤٢٣/٣ و ٤٥٩ وامثال الميداني ١٢١/١ و ١٢٥ و ١٤٢ و ٢٣٦ (٣) الجاحظ . الحيوان ٣٤٩/٢ (٤) الجاحظ . الحيوان ٤٢١/٣ (٥) الجاحظ . الحيوان ٤٢٤/٣ (٦) النابغة . الديوان/١٦٦ (الاعلم) (٧) حراب وقد : رجلان من بني اسد . السورة : المنزلة الرفيعة . وليس غرابهم بمطار : كناية عن خصب عيشتهم وكثرة خيرهم لأن الغراب اذا وقع في مكان يجد فيه مايشبعه لا يحتاج ان يتحول عنه . (٨) الجاحظ . الحيوان ٤٢٥/٣

ذلك شأن بقية الحيوانات التي اعتادت الرزق على امثال هذه الفضلات قال عبيد يرد على امرىء القيس[1] :

اتوعد اسرتي وتركت حجراً يُريغ سواد عينيه الغرابُ

وقال المفضل النكري[2] :

تركنا العرج عاكفة عليهم وللغربان من شبع نغيـق

واذا كان العرب قد تشاءموا من الغراب حقيقة ووجدوا في نعيبه دليلاً من ادلة الفرقة والبين ، فان ذلك لم يمنعهم من الاستعانة بسواده في باب المجاز ليدللوا على الشباب ويكنوا عن سواد الشعر بجناح الغراب الاسود او بالغراب نفسه قال المرقش الأكبر[3] :

فان يُظعن الشيب الشباب فقد تُرى به لمتي لم يُرمَ عنها غرابهـا

وقال الأعشى[4] :

واذ لمتي كجناح الغداف ترنو الكعاب لإعجابها

ومدحوا سواد الغراب قال عنترة[5] :

فيها اثنتان واربعون حلُوبة سُوداً كحافية الغُراب الاسحم

وقال ابو دؤاد[6] :

تنفي الحصى صُعُداً شرقيّ منسمها نفيَ الغُراب بأعلى نفسه الغردا

وضربوا المثل بمشيبه في استحالة الاشياء التي لا تكون ابداً قال النابغة يهجو عامر بن الطفيل[7] :

فانك سوف تحلم او تنـاهى اذا ما شبت أو شاب الغراب

---

(١) عبيد . الديوان/١ (٢) الاصمعي . الأصمعيات/ ٢٣٤ . (٣) المفضل . المفضليات ٢/ ٣٦ (٤) الاعشى . الديوان/ ١٧١ وانظر ١٠١ من الديوان نفسه .
(٥) عنترة . الديوان/ ٣٧١ (٦) ابو دؤاد . الديوان/ ٢٠٨ (٧) النابغة.الديوان/ ١٩٢

وقال ساعدة بن جؤية[1] :

شاب الغُرابُ ولا فؤادُك تاركٌ ذِكْرَ الغضُوب ولا عتابُك يعتَبُ

ومنقار الغراب معول وهو شديد النقر وانه ليصل الى الكمأة المندفنة في الأرض بنقرة واحدة حتى يشخصها ، ولهو ابصر بمواضع الكمأة من اعرابي يطلبها في منبت الاجرد والقصيص[2] ، وان الاعرابي ليحتاج الى ان يرى ما فوقها من الارض فيه بعض الانتفاخ والانصداع وما يحتاج الغراب الى دليل[3] . ويقترن ذكر الغراب بحوادث دينية واسطورية قديمة تعرضت لذكرها الكتب السماوية والملاحم واقترن حديثه فيها باخبار الخيانة والغدر والشؤم .

البـــوم : والبوم من الحيوانات التي يتشاءم منها بعض الناس لأنهم يعتقدون ان رؤيتها تجلب المصائب وتجر النوائب ، ولعل ذلك بسبب منظرها الكئيب وصوتها الحزين ، ولظهورها في الليل او بسبب اماكن السكن التي تختارها لأنها ترتاد الأماكن المهجورة وتنزل المنازل الخربة .

والبوم من الطيور التي لا تلتمس ارزاقها الا بالليل[4] لأنها ذليلة بالنهار رديئة النظر واذا كان الليل، لم يقوَ عليها شيء من الطير[5] والطير كلها تعرف البومة بذلك وصنيعها بالليل فهي تطير حول البومة وتضربها وتنتف ريشها ومن اجل ذلك صار الصيادون ينصبونها للطير[6] .

واعتقد العرب بأنها من جنس الصدى والهامة وهما من ادلة الموت ولهذا كان يأتي ذكرها في الحديث عن الصحاري الموحشة التي يخاف الرحالة

---

(١) ساعدة بن جؤية . شرح اشعار الهذليين ١٠٩٨/٣ (٢) الاجرد : نبت يدل على الكمأة . والقصيص شجر ينبت في اصل الكمأة قالوا : سمي بذلك لدلالته على الكمأة كما يقتص الاثر (٣) الجاحظ . الحيوان ٤٥٤/٣ وانظر ديوان ابي دواد/٣٠٨ .
(٤) الجاحظ . الحيوان ٤٠٢/٥ (٥) الجاحظ . الحيوان ٥٠/٢ (٦) نفس المصدر .

السير فيها فيجعلون البوم وما شاكله من الحيوانات انيساً لسالكها ، وقد اتخذ البعض الآخر من الشعراء ذلك دليلاً من ادلة الفخر والبطولة لقدرته على ارتياد هذه الاماكن التي يخشاها كثير من الناس ، قال المرقش يصف رحلته وهو يقطع هذه الفلاة وحده لا يؤنسه الا الوحش[1] :

وتسمع تزقاء من البوم حولنا   كما ضُربت بعد الهدوء النواقس

وقال الاسود بن يعفر[2] :

وسمحة المشي شملال قطعت بها   ارضاً يحار بها الهادون ديموما
مهامها وخروقاً لا انيس بهـــا   الا الضوابح والاصداء والبوما

وضربوا المثل بها للرجل الذي لا خير فيه ولا عقل له[3] .

الحمـــام : يقترن ذكر الحمام في الشعر الجاهلي — في كثير من الاحيان — بحديث البكاء والنواح ، فهي تثير في بكائها او نواحها شجونهم وتهيج فيهم لوعة البعد والفراق ، وربما كانت هذه الاثارة بسبب ما اسلفناه من ذكر التعاطف الذي كان يحس به الشاعر تجاه هذا الحيوان الذي كتبت عليه الرحلة فتحملها كما كتب على هذا الشاعر الذي ارتبط بالغيث والكلأ فكان يتعقبه في كل موقع ، ويسعى اليه بكل مكان ، ووجدوا في وقوفهم على الاطلال سبباً من اسباب البكاء ، ووجدوا في هذا الحيوان النائح اثارة للواعجهم ، قال عنترة[4] :

طال النواء على رسوم المنزل   بين اللّكيك وبين ذات الحرمل
افمن بكاء حمامة في ايكـــة   ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل

---

(١) المفضل . المفضليات ٢/٢٥   (٢) المفضل . المفضليات ٢/٢١٩ وانظر ديوان بشر /٢٢١ وديوان الاعشى/٧٣ و ١٠٣ و شعراء النصرانية ٤/٥٠٨   (٣) انظر ديوان امرىء القيس/١٢٨ .   (٤) عنترة . الديوان/٣٨٧ (الاعلم)

وقال عبيد[1] :

تَبدّل بعدي من سُليمى وأهلها نعاماً تَرعّاه وادمـاً ترائكا
وقفت به ابكي بكاء حمامة اراكيّة تدعو الحمام الآواركا
اذا ذكرت يوماً من الدهر شجوّها على فرع ساقٍ اذرت الدمع سافكا

وقال صخر الغي يرثي ابنه تليدا[2] :

وذكرني بُكاي على تليـد حَمامةَ مَرّ جاوبت الحماما
ترجّع منطقاً عجباً واوفت كنائحة اتت نوحاً قيامـا
تنادى ساق حر وظلت ادعو تليداً لا تُبين به الكلامـا

ومن مناقب الحمام حبه للناس وانس الناس به[3] . وقد استمد الشعراء من وقوفهم على الاطلال صور هذه الحمائم التي تبعث في النفس الحزن ، فوصفوا الاثافي بها ، وان الريح تكشف عن هذه الاثافي فتظهرها سوداء كلون هذا الحمام، قال امية بن ابي الصلت ، ان صح هذا له[4] :

وسافرت الرياح بهن عصـرا بأذيال يرحن ويغتدينـا
فأبقين الطلول مخبيات ثلاثاً كالحمائم قد بلينـا

وقال عدي بن زيد[5] :

وثلاث كالحمامات بهـا بين مجناهن توشيم الحمم

وهم يصفون الرماد الذي بين الاثافي بالحمامة ، ويجعلون الاثافي أظآراً لها للانحناء الذي في أعالي تلك الأحجار ولأنها كانت معطفات عليها ، وحانيات

---

(١) عبيد . الديوان/٩٢ وانظر ديوان النابغة/١٩٩ (٢) صخر الغي . شرح اشعار الهذليين ١/٢٩٢ وانظر الاغاني ١٨/٢١٨ (ساسي) (٣)الجاحظ . الحيوان ٣/١٤٧ . (٤) ابو زيد القرشي . جمهرة اشعار العرب/١٨٥ (صادر) (٥) عدي بن زيد . الديوان/٧٣ وانظر ديوان ابي دؤاد/٣٠٩ وشرح اشعار الهذليين ١١٥٧/٣ .

على اولادها[1] . وربما تكون دواعي التشبيه التعاطف الذي يجمع هذه الحجارة وهي قريبة من بعضها . فأثار في نفوسهم هـذا المنظر منظر الحمام وهـو قريب من بعضه يلتقط من الأرض ما يسد به جوعه .

ووقف بعض الشعراء عند ذكره مباشرة او بصورة غير مباشرة[2] . وكان للحمام نصيب في الامثال فقالوا : تقلدها طوق الحمامة ، مكنين بذلك عن الخصلة القبيحة التي لا تزايل صاحبها ولا تفارقه حتى يفارق طوق الحمامة الحمامة[3] وقيل : تقلدها طوق الحمامة أي تقلد النعمة تقلدا لازما باقيا[4] ، قال بشر ابن أبي خازم[5] :

حباك بها مولاك عن ظهر بِغْضةٍ   وقلّدها طوقَ الحمامـة جعفر

وقالوا : اخرق من حمامة[6] معللين ذلك بأنها لا تحكم بناء عشهـا فهي ربما جاءت الى الغصن البارز للريح من الشجرة فبنت عليه عشها فيتكسر من بيضها اكثر مما يسلم ، وورد مـا يشابه هذا المعنى في حديث عبيـد عن بني اسد ، مستعطفاً بذلك حجرا ومعتذرا لـه . وهي صورة تدل على تتبع واستقصاء مستفيض لسلوك هذا الحيوان[7] .

بَرِمَت بنو اسد كمـا   بَرِمت ببيضتها الحمامـة
حفلت لها عُودين مـن   نشم وآخر مـن ثمامـة

ويبدو ان الحمام وغيره من الحيوانات الوديعة الأليفة كانت تكثر في المناطق الخصبة التي يكثر فيها الزرع والنخيل ، قال الاعشى[8] :

---

(١) الحيوان . الجاحظ ٣/٢٣٩ (٢) انظر ديوان عدي بن زيد/٦٥ و ٨٨ وديوان الاعشى /١٢٩ و ١٥٣ و ١٩٥ وديوان عامر بن الطفيل/٣٦ (٣) الميداني . مجمع الامثال/١٥٣ (٤) الزمخشري . المستقصى ٢/٣٠ . (٥) بشر. الديوان/٨٩ (٦) الميداني . مجمع الامثال/٢٦٥ (٧) عبيد . الديوان/١٢٦ (٨) الأعشى . الديوان/١٥١

الم تر ان العَرْضَ اصبح بطنها نخيلاً وزرعا نابتا وفصائصا
وذا شرفات يقصر الطير دونه ترى للحمام الورق فيه قرامصا

واشار عدي بن زيد اليها ايضا[1] ، ووجد الحمام في الاماكن المقدسة مواضع يأمن اليها ويلوذ بها[2]

والناس يقولون آمن من حمام مكة وهذا شائع على جميع الالسنة لا يرد ذلك احد ممن يعرف الامثال والشواهد[3] وربما سكن الحمام اجواف الركايا ولا يكون ذلك الا للوحشي منها وفي البئر التي لا تورد قال الشاعر[4] :

بدلو غير مكربة أصابت حَمَاماً في مساكنه فَطارا

وعرفت بعض الجبال بكثرة حمامها[5] ، وللحمام من حسن الاهتداء وجودة الاستدلال ما جعله مضربا للمثل . والحمام اشد طيرانا من جميع سباع الطير الا في انقضاض وانحدار فإن تلك تنحط انحطاط الصخور[6] . ولن ترى جماعة طير اكثر طيرانا اذا كثرن من الحمام فإنهن كلما التففن وضاق موضعهن كان اشد لطيرانهن وقد ذكر ذلك النابغة في قوله[7] :

واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت الى حمام شِراع واردِ الثمد
يحفّه جانباً نِيق وتُتبِعُه مثلَ الزجاجة لم تكحل من الرمد
قالت الا ليتما هذا الحمامُ لنا الى حمامتنا ونصفَه فقد
فحسّبوه فألفوهُ كما حَسَبَت تِسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكملت مئة فيها حمامتها واسرعت حِسْبَةً في ذلك العَدد[8]

---

(١) انظر ديوان عدي بن زيد / ٨٨
(٢) انظر ديوان النابغة /١٥٣ .
(٣) الجاحظ . الحيوان ١٩٢/٣ وما بعدها
(٤) الجاحظ . الحيوان ٣ /٢٤١ .
(٥) انظر معجم ما استعجم ٨٨٩/٣ و ٩٤٦
(٦) الجاحظ . الحيوان ٣ /٢٢٠
(٧) النابغة . الديوان/١٥٣
(٨) فتاة الحي: قيل هي زرقاء اليمامة . شراع: مجتمع . الثمد: الماء القليل الذي يكون في الشتاء. انيق . الجبل . مثل الزجاجة: اي عينا صافية . قد : اي حسب . الحسبة : الحساب والمعنى انها اسرعت في اخذ حساب الطير في تلك الناحية .

والحمام يضرب بجناحه الحمام ويقاتله به ويدفع به عن نفسه، فقوادمه هي اصابعه وجناحه هو يده ورجله كالقدم وهي رجل وان سموها كفا حين وجدوها تكف به كما يصنع الانسان بكفه(١) . الى جانب كل هذا فقد دخل الحمام في الاساطير والمعتقدات وكانت له حكايات طويلة شأنه في ذلك شأن الغراب والديك .

القطا : ورد ذكر القطا في الشعر الجاهلي بكثرة وقد ذكر الجاحظ(٢) : أن القطا من الحيوان الذي اشتق له هذا الاسم من صوته ، لأنهم كانوا يشتقون لسائر الحيوان الذي يصوت ويصيح اسم الناطق به اذا قرنوه في الذكر الى الصامت ، ولهذا الفرق اعطوه هذه المشاكلة وهذا الاشتقاق . فاذا تهيأ من لسان بعضها من الحروف مقدار يفضل به على مقادير الاصناف الباقية ، كان اولى بهذا الاسم عندهم ، فلما تهيأ للقطاة ثلاثة احرف . قاف وطاء والف وكان ذلك هو صوتها ، سموها بصوتها ، ثم زعموا انها صادقة في تسميتها نفسها قطا . واكثر ذكرها ورودا في الشعر تشبيه الخيل بها ، وكان صور التشبيه متباينة عند الشعراء فهو قطا ظامىء يسعى الى الماء ، ويسرع نحو المورد بعد الاعياء عند عبيد اذ يقول(٣) :

القائدُ الخيلَ تَرْدي في أعنتها ... وِرْدَ القطا هَجَّرتْ ظماً الى الثَّمد

وربما يكون المنخل اليشكرى قصد هذا المعنى في قوله(٤) :

فدفعتها فتدافعت ... مشي القطاة الى الغدير

وهو قطا متسرب عند الطفيل(٥) . وقطا متبدد عند قيس بن الخطيم(٦) .

---

(١) الجاحظ الحيوان ٥/٢٢١ . (٢) الجاحظ . الحيوان ٥/٢٨٦ و ٥٧٩ و ٣/٥١٦
(٣) عبيد . الديوان /٥٩ وانظر صفحة /١١٧ من الديوان نفسه (٤) الاصمعي . الاصمعيات/٥٥ . (٥) انظر ديوان الطفيل الغنوي/٩ (٦) انظر ديوان قيس بن الخطيم/٤٥

اما امرؤ القيس ، فيشبه فرق الخيل بالقطا في سرعتها ، وبشدة طيرانها وربما يريد أن يقول : انها ترد القتال كما ترد العطاش الماء[1] :

اذْ هُنَّ اقساطٌ كرِجْل الدَّبَى او كقطا كاظِمةَ الناهلِ

وعرض الشنفري للقطا وصور عطشها بابلغ وصف ، وادق تصوير ، وقارن بين سرعته وسرعتها ومن خلال ذلك صور جوفها ، والاصوات التي كانت تتجاوب فيه بسبب هذا العطش . الى جانب تصويره للجلبة التي تحدثها اسراب هذا القطا وهي تنحدر الى موارد المياه ، ولعله اراد ان يجانس بين هذه الأصوات وتلك فقال[2] :

وتَشْربَ أسَارى القَطَا الكُدرُ بَعْدَما
سَرَتْ قَرَباً أحناؤها يتصلصل

هممتُ وهَمَّتْ وابتَدَرْنا واسدلت
وَشَمّر منّي فارِطٌ مُتَمَهِّل

فَوليتُ عنها وهي تكبو لِعقْره
يُباشِرُهُ مِنها ذُقُونٌ وحوصل

كأنَّ وَغَاها حَجْرَتيه وَحَوله
أضاميمُ من سَفْرِ القبائل نُزَّلُ

توافين من شتَّى اليها فضمها
كما ضَمَّ اذ وَادَ الاصاريم منهل

فَعَبَّتْ غشاشاً ثُم مَرّت كأنها
مَعَ الصُّبح ركبٌ من أحاظة مُجفل[3]

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/١٢١ (٢) الزمخشري . اعجب العجب /٥٠ - ٥٢

(٣) الجنو : واحد الاحناء ، وهي الجوانب . العقر : مقام الساقي من الحوض . وغاها : اصواتها . الاضاميم جمع اضمامة وهم القوم ينضم بعضهم الى بعض .

وكذلك يصور زهير فرسه ، فهي قطاة انقضّ عليهـا صقر وبدأت المطاردة ، وحينما تركت طيرانها ، اهوت اليها كف غلام ، يحاول ان يقتنصها ولكنها تتمكن من الفرار ويبقى في يده قطع مِن ريشها . يقول[1] :

أهوَى لها أسفعُ الخدَّين مُطَّرِقٌ ... ريشَ القوادِمِ لم تُنْصَبْ لها الشَّرك

دونَ السماء وفوق الارض قدرهما ... عند الذُّنابى فلا فَوْتٌ ولا درك

عند الذنابى لهـا صوت وأزملـة ... يكادُ يَخْطَفُهـا طورا وتهتلك

حتى اذا ما هَوَتْ كف الغلام لها ... طارت وفي كفه من ريشها بِتَك[2]

ويشبه مشي المرأة اذا كانت سمينة بمشي القطاة في القرمطة والدل[3] . وتقول العرب في الامثال : اصدق من قطاة[4] ، لأن لها صوتا واحدا لا تغيره ، واهدى من قطاة[5] ، لأنها تهتدي في المجاهل ، وتعرف مواضع الماء . وانسب من قطاة[6] لانها اذا صوتت عرفت .

ولا بد أن يعرض الشعراء للقطاة في حديثهم عن الناقة ، فاذا ارادوا ان يصفوها وهي تسرع الى الممدوح ، جعلوا المفازة واسعة يحار بها القطا ، ويضل مع انه اهدى الطير[7] . او عند وصفهم للأبل وهي تشق هذه الصحراء وقت الهاجرة ، وعندما يكون القطا جاثما او نائما على الارض اتقاء لحرارة الشمس اللافحة مؤكدين نشاط رواحلهم في هذا الوقت الذي يصعب فيه السير[8] .

---

(١) زهير . الديوان /١٧٢ – ١٧٥ (٢) عند الذنابى : اى قاربها الصقر فصار عند ذنبها . فلا فوت ولا درك : لا تفوته القطاة ، ولا هو يدركها فهو اشد لطيرانها . الازملة : اختلاط الصوت . بتك : قطع (٣) الجاحظ . الحيوان ٥/٥٧٦ وانظر ٢١٧ من الجزء نفسه (٤) انظر حيوان الجاحظ ٥/٥٧٣ وثمار القلوب /٣٨١ وأمثال الميداني ١/٤١٢ (٥) انظر حيوان الجاحظ ٥/٥٧٣ وثمار القلوب/٣٨٢ وامثال الميداني ٢/٤٠٩ (٦) انظر امثال الميداني ٢/٣٤٧ وثمار القلوب/٣٨٢ (٧) انظر ديوان بشر/٢٢١ وديوان النابغة /٢٤ (صادر) (٨) انظر ديوان عبيد/١٠١ وديوان الاعشى/٦٧ و ٣٥٣ و ٣٧٣

وتحدث عبيد عن القطا في معرض حديثه عن تبكيره في الخروج فقال انه يخرج قبل القطاة لأنها تبكر في غدوها [1].

الديك : واما الديك فمن بهائم الطير وبغاثها وليس من احرارها ولا من عتاقها وجوارحها[2] وهو طائر لا يطير[3] ، وقد وقف الشعراء عند الديك وكانوا يكنون به عن الفجر ، لأن صوته ينغص على الندامى مجلسهم ، قال الأعشى[4] :

أَرَحنا نباكر جِــدَّ الصَّبُو ... حِ قَبْلَ النفوس وحسّادِهــا
فقُمنا ولما يَصِيــحْ دِيكُنَا ... الى جَوْنَــةٍ عند حَدّادِها

وقال :[5]

ولم يَنْطق الديك حتى مَلأْتُ كوبَ الرَّبابِ له فاستَدارا

ومن خصال الديك المَحمودة قولهم في الشراب اصفى من عين الديك واذا وصفوا عين الحمام بالحمرة ، او عين الجراد ، قالوا : كأنها عين الديك[6] وفيها يقول الاعشى[7] :

وكأس كعين الديك باكرتُ حَدَّها ... بفتيان صِدقٍ والنواقيصُ تضربُ[8]

ويقول عدي بن زيد :[9]

قَدَّمْتُه على سُلافٍ كعين الديك صَفّى سُلافَها الرَّاووقُ

ويقول :[10]

ثلاثة أحوالٍ وشهر تجرمــا ... يضيء كعين العُتْرفان المُحارب

(١) انظر ديوان عبيد /٣١ (٢) الجاحظ . الحيوان ١/١٩٤ (٣) نفس المصدر
(٤) الاعشى . الديوان/٦٩ (٥) الا عشى . الديوان/٤٧ وانظر ديوان لبيد/٨ و ٢٦ و ٣١
(٦) الجاحظ الحيوان٢/٣٤٩ (٧) الاعشى . الديوان/٢٠٣ (٨) الاعشى . الديوان/٨٣
(٩) عدي بن زيد . الديوان/٧٨ (١٠) عدي بن زيد . الديوان ١١٨ وروي البيت في الديوان خطأ . انظر نثار الازهار لابن منظور/٩٦

ويقال لصوت الديكة الدعاء والزقاء والهتاف والصراخ والصقاع وهو يهتف ويصقع ويزقو ويصرخ قال لبيد :[١]

لَدُنْ أنْ دعا ديكُ الصباحِ بسُحْرةٍ
الى قدْرِ ورْدِ الخامِس المُتأوِّبِ

وفي الديك الجولان ، وهو ضرب من الروغان وجنس من تدبير الحرب وذلك انه يقدر ايقاع صيصته[٢] بعين الديك الآخر ويتقرب الى المذبح فلا يخطىء[٣] ومن الحوادث التي يذكرها الجاحظ معرفة الديك بالليل وساعاته ثم يقسط اصواته على مقادير الأوقات تقسيطا موزونا لا يغادر منه شيئا[٤] .

الحجل : وعرض الشعراء لذكر الحجل في اوصافهم لنياقهم[٥] واوصافهم للنساء القصار اللواتي شبهوهن بهيئته ، قال امرؤ القيس حين نزل في بني عدوان[٦] :

قوم يحاحون بالبهام ونسوان قصار كهيئة الحجل

واشار سلامة بن جندل الى الحجل في وصفه للشباب وسرعة زواله[٧] :

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب   اودى وذلك شأو غير مطلوب
ولّى حثيثاً وهذا الشيب يطلبُهُ   لو كان يُدركه ركض اليعاقيب

والذي يبدو ان لهذا الحيوان اوقات يكثر فيها ومناطق يرتادها في مواسم معينة يصطادونه فيها[٨] .

وتحدثوا عن السمام[٩] ، فشبهوا به الناقة السريعة قال عنترة[١٠] :

---

(١) لبيد . الديوان/٨ (٢) الصيصة : شوكة في رجل الديك (٣) الجاحظ . الحيوان ٢/٢٣٤ (٤) الجاحظ . الحيوان ٢/٢٤١ و ٢٩٣ و ٦/٣١٤ (٥) انظر ديوان امرىء القيس/١٩٧ (٦) امرؤ القيس. الديوان/٣٤٨ (٧) المفضل . المفضليات ١/١١٧ (٨) انظر ديوان طرفة/١١٢ (٩) السمام : طائر دون القطا في الخلق (١٠) عنترة . الديوان/٣٨٦

وقفت وصحبتي بأرينبات على اقتاء عُوجٍ كالسمـــام

وقال النابغة : [1]

سماماً تباري الريح خوصاً عيونها لهُنّ رذايـا بالطريق ودائــع

وشبهوا الجياد به قال الافوه الاودى[2] :

كأن الجيادَ الشعث تحت رحالهم سمام دعاها للمزاحف ناجر[3]

وشبه الشنفرى نعاله الممزقة بأشلاء هـــذا الحيوان .

العصافير : اما العصافير ، فكانوا يضربون بأحلامها مثلا لأحلام السفهاء، قال دريد بن الصمة[4] :

يا آل سفيان ما بالي وبـــالكُمُ انتم كثير وفي أحـــلام عصفور

وادرك القدامى حقيقة ضعف الانسان ، فقرنوا ذلك الضعف بضعف هذا الحيوان ، فشبهوا به انفسهم من باب المجاز ، لغرض التصغير والتحقير وعدم القدرة ، قال امرؤ القيس[5] :

ارانا موضعين لأمر غيب ونُسحرُ بالطعام وبالشراب

عصافير وذبـــان ودود واجرأ من مُجلحة الذئـــاب

وقال لبيد[6] :

فان تسألينا فيم نحـــن فاننا عصافير من هذا الانام المُسَحَّر

وذكروا الخفاش[7] : ومن اعاجيبه تركه ذرى الجبال وبسيط الفيافي واعالي الاغصان ومجيئه يطلب مساكن الناس وقربهم ، ثم إذا صار الى بيوتهم وقربهم قصد الى ارفع مكان واحصنه والى ابعد المواضع من مواضع الاجتياز

---

(١) النابغة . الديوان/١٥٨ (٢) الافوه الديوان (الطرائف)/١٤ (٣) ناجر : من اشهر الحر . (٤) الجاحظ . الحيوان ٥/٢٢٩ (٥) امرؤ القيس . الديوان/٩٧ وانظر حيوان الجاحظ ٥/٢٤٠ والمعاني الكبير ٢/٧٥٣ (٦) لبيد . الديوان/٥٦ . المسحر : المعلل بالطعام والشراب (٧) انظر ديوان بشر/٢٣٠

واعراض الحوائج[1] . وذكروا ساق حر .[2] والكركي[3] . الذي لا يجد بدا ولا مصلحة لشأنه الا في اتخاذ رئيس ورقيب[4] وقد عرف بحذره وحراسته[5] وقالوا ان الكراكي لا تنام ابدا الا في ابعد المواضع من الناس واحرزها من سباع الطير[6] . وذكروا طير الماء[7] والهدهد[8] . الذي ضرب به المثل في قوة البصر حيث قالوا : ابصر من هدهد[9] ، وزعموا في قنزعته التي على رأسه مزاعم غريبة[10] . وقد دخل الهدهد في الاساطير والحكايات كما دخل الغراب والحمام .

اما البط ، فقد شبهت به الاباريق[11] . والظاهر ان بعض الطيور دخلت في مجال الاساطير فكما تحدثوا عن الهامة والصدى ، تحدثوا عن الزماح[12] ، وكان لهم فيه معتقد خاص[13] وكذلك القوارى[14] التي كانوا يستبشرون بالمطر اذا رأوها[15] .

هذه اهم الطيور التي تحدث عنها الشعراء الجاهليون ، وهناك انواع أخرى لم يحددها الشعراء وانما كانوا يطلقون عليها لفظ الطير مشبهين بها خيولهم تصويرا للسرعة[16] .

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٣/٥٩٢ و ٧/٦٦ (٢) انظر ديوان الشنفري/٣٥ (٣) انظر ديوان طرفة/٩٠ وديوان زهير/٢٠٤ (٤) الجاحظ . الحيوان ٥/١٤١٩ (٥) الجاحظ . الحيوان ٢/٢٥٤ و ٧/٩ (٦) الجاحظ . الحيوان ٥/٤٠٦ (٧) انظر ديوان اوس/٦٧ (٨) انظر ابن قتيبة في الشعر والشعراء/٣٧٠ (بيروت) (٩) انظر حيوان الجاحظ ٧/١٦ (١٠) الجاحظ الحيوان ه/٥١٠ . (١١) انظر ديوان لبيد/٢٤٤
(١٢) الزماح : طائر قيل انه كان يقف بالمدينة في الجاهلية على اطم فيقول شيئاً ،وقيل : كان يسقط على بعض مرابد المدينة فيأكل تمره فرموه فقتلوه ، فلم يأكل احد من لحمه الا مات ، وقيل انه كان يأخذ الصبي من مهده (انظر التاج مادة زمح) (١٣) انظر ديوان قيس ابن الخطيم/١٦٤ (١٤) القواري : مفردها قارية ، وهو طائر قصير الرجل طويل المنقار ، اصفره ، اخضر الظهر تحبه الاعراب ، وتتيمن به ، ويشبهون الرجل السخي به وقيل كان اذا رأوه استبشروا بالمطر كأنه رسول الغيث او مقدمـة السحاب (انظر التاج مادة قري)
(١٥) انظر ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/٤٢ (١٦) انظر الاغاني ١٨/ ٢١٨ (تأبطشرا) .

الزواحف والحشرات

تعد جزيرة العرب من المناطق الصالحة لمعيشة الافاعي ، لملائمة المنـــاخ والظروف الطبيعية التي يجد فيها هذا الحيوان قدرة على الحياة ، وقابلية على المعيشة ، وقد ارتبط مفهوم الأفاعي بالجن ، واعتبر القدماء الحية بنت الجن وهي من اكثر الحيوانات ورودا في القصص الذي يرويه الاخباريون عن الجن[1] .

وتحدث هيرودوت في تاريخه عن جزيرة العرب ، فذكر الأفاعي المجنحة الطائرة التي تكثر ببلاد العرب ، والتي لا شبيه لها في بلد آخر[2] . وظلت هذه الاساطير تدور في اذهان الناس حتى العصر الجاهلي ، فوجدنا صدى هذه المعتقدات ينعكس في الشعر والاخبار . اما اعتقاد القدماء بانها تنطق ، فقد ورد في ابيات للنابغة[3] وعدي بن زيد[4] وأمية بن ابي الصلت[5] وزعموا ان في بطن الانسان حية يقال لها الصفر ، وانها تؤذيه اذا جاع .[6]

ان انتشار هذه الأفاعي في جزيرة العرب ، هو الذي جعـــل الشعراء

---

(١) جواد علي . تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٤٧ (٢) جواد علي . تاريخ العرب قبل الاسلام ٢/١٣/٤ (٣) انظر ديوان النابغة/٢١٦ (٤) انظر ديوان عدي بن زيد/١٥٩ (٥) الجاحظ . الحيوان ٤/١٩٦ – ٢٠٥ (٦) انظر الاصمعيات/٩١ وثمار القلوب/٣٣٦

يمنحونها هذه الأهمية ، ويذكرونها في قصائدهم ، ويستعملونها في الصور التي دارت في اذهانهم حتى تعددت اسماؤها ، واكثر ما يذكرونه منها : الافعى والاسود والشجاع والارقم .[1]

والحيات مختلفات الجهات ، وهي من الحيوانات التي يكثر اختـــلاف اجناسها في الضرر والسم ، وفي الصغر والعظم ، وفي التعرض للناس وفي الهرب منه .[2] وكني عنها بابنة الرمل ، وحملت الينا الاخبار اسماء كثير من الهذليين والصعاليك وغيرهم من الذين ماتوا نتيجة لسع الحيات لهم[3]. او شوهت اجسامهم كما وقع لذي الاصبع العدواني الشاعر المعروف الذي نهشته حية في اصبعه فقطعها .[4]

والعرب تضرب المثل في الظلم بالحية فيقولون : اظلم من حية لأنها لا تتخذ بنفسها بيتا ، وكل بيت قصدت نحوه هرب اهله منه ، واخلوه لها ، قال مضرس بن لقيط يشكو من ظلم قومه له[5] :

لعُمرك إني لو أخاصِمُ حيةً   إلى فَقْعَسٍ مـــا أنصفتني فقعس
إذا قلتُ مات الداء بيني وبينهـــم   سَعَى حاطب منهم لآخرَ يقبِسُ

وكان شكل الافعى ، وما تحمله من السم الزعاف الى فريستها يبعث الهلع والرعب في نفوسهم ولهذا كانت صورتها تقترن بصورة القوة . وكانوا يقولون للرجل المنيع الجانب والداهية ، حية الأرض ، قال ذو الاصبع العدواني يصف ما وقع بين قومه من بأس فتفانوا[6] :

عَذِيرَ الحَيِّ مِن عَدْوَا   نَ كانوا حَيَّـــةَ الأرض

---

(١) انظر حيوان الجاحظ ٢٤٣/٤ و ٢٤٧ والسفر الثامن من المخصص/١٠٦ – ١١٢
(٢) الجاحظ . الحيوان ٢١٢/٤ (٣) انظر اخبار الشعراء الهذليين في شرح اشعارهم (فراج) (٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء/٥٩٧ (بيروت) . (٥) الجاحظ . الحيوان ١٥١/٤ (٦) الاصمعي . الاصمعيات/٦٨ .

بَغَى بعضُهم بعضا فلم يُبقُوا على بَعض

وقال أوس بن حجر يفخر بقومه[1] :

يرى الناسُ منا جلدَ اسودَ سالخٍ وفَروةَ ضِرغامٍ من الأسد ضيغمِ

وليس في الأرض شيء جسمه مثل جسم الحية الا والحية أقوى بدنا منه اضعافا ومن قوتها انها اذا ادخلت رأسها في جحرها او في صدع الى صدرها ، لم يستطع اقوى الناس ، وهو قابض على ذنبها بكلتا يديه ان يخرجها ، لشدة اعتمادها وتعاون اجزائها[2] . ومن اعاجيبها انها وان كانت موصوفة بالشره والنهم وسرعة الابتلاع فلها في الصبر في ايام الشتاء ما ليس للزهيد ، ثم هي بعد مما يصير بها الحال الى ان تستغني عن الطعم[3]

وكنوا عن التهيؤ للحرب والاستبسال فيها بلباس الاساود وجلود النمور يقول قيس بن الخطيم[4] :

متى تلقوا رجال الاوس تلقوا لباس اساود وجلود نمر

وقال خداش بن زهير[5] :

ونحن اذا ما الخيل ادرك ركضها لبست لها جلد الاساود والنمر

اما لونها ، فقد اشار اليه بشر في حديثه عن تشبيه آثار الديار فقال[6] :

لِمَن الديارَ غشيتها بالأنعُمِ تبدو مَعَالِمها كلونِ الارقمِ

واشار النابغة الى لونها ايضا في حديثه عن قلقه الذي صوره بلدغة ملدوغ من افعى رقشاء اللون فقال[7] :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في انيابها السم ناقع

---

(١) اوس بن حجر . الديوان/١٢٤ (٢) الجاحظ . الحيوان ١١١/٤ (٣) الجاحظ . الحيوان ١٢٠/٤ (٤) قيس بن الخطيم . الديوان/٦٠ (٥) خداش بن زهير . (٦) بشر . الديوان/١٧٧ (٧) النابغة . الديوان/١٥٦

وللنابغة مقطوعتان يصور فيهما الأفعى بصورة مفزعة ومرعبة[١] . واعتبر وصفه لها من احسن ما قيل[٢] . ولعنترة مقطوعة كاملة يتحدث فيهـــا عن الثعبان ويتطرق الى عاداته واوصافه[٣] :

وللعرب فيها مزاعم كثيرة وغريبة[٤]،وكان اهل البادية يصيدون الحيات ويشوونها ثم يأكلونها[٥] وان كانوا يتهاجون بأكلها في بعض الاحيان[٦] . قال الشاعر[٧] :

فاياكُم والرِّيفَ لا تَقرُبنَّـــهُ فان لديه الموتَ والحم قاضيا

همُ طردوكم عن بلادِ ابيكمُ وانتم حُلولٌ تشتَوون الافاعيا

ومن خلال هذه النصوص نستطيع ان نحكم على الصور التي قدمهـــا الشعراء ، ويمكن اعتبار النابغة الذبياني من اكثر الشعراء اهتماما ، واطولهم ذكرا لهذا الحيوان والظاهر ان اهتمام الشعراء يرتبط بطريقة الحياة التي كانوا يعيشونها ، فالشاعر الذي عاش في اواسط الصحراء احس بأوصافها الدقيقة ، فكان وصفه لها وصفا حسيا . اما الشعراء الآخرون فكان تعرضهم لذكرها تعرضا يعتمد على الوصف العام بعيدا عن الصور التي توحي بالدقة ، وفي الغالب كان تصويرهم لها مرتبطا بالمعنى الذهني ومن هنا جاءت اوصافهم لها واستعمالهم لمعانيها .

وكنوا للأذى والمنة والشرور والمكائد بالعقارب او دبيبها قال عروة بن الورد[٨]

فللموت خيرٌ للفتى من حياتـــه فقيراً ومن مولى تَدِبُّ عقاربُه

---

(١) انظر ديوان النابغة/١٥٦ (٢) ابن الشجري . الحماسة/٢٧٣ (٣) ابن قتيبة . المعاني الكبير ٢/٦٦٧ (٤) انظر حيوان الجاحظ ٤/١٧٩ و ١٨٧ و ١٨٩ (٥) الجاحظ. الحيوان ٤/٣٠٢ (٦) الجاحظ . الحيوان ٤/٢٦٤ (٧) الجاحظ . الحيوان ٤/٢٦٤
(٨) عروة . الديوان/١٥١ .

وقال طرفة ينعت الكامل في الناس ، وكيف يصبح هدفا لاحقادهم وشرورهم[1]

من تَمَّ في الناس لم تُؤمن عقاربُه
على الصديقِ ولم تُؤمنْ أفاعيه

وقال الاعشى[2] :

ارى الناسَ هَرّوني وشُهِّرَ مدخلي
وفي كُلِّ ممشى أرصَدَ الناسُ عقربا

الحرباء : اما الحرباء فدويبة اذا بدت الشمس لجأ بظهره الى اصول الشجر وشماريخ النخل ، فإن رمضت الارض ، ارتفع ، ثم هو يقلب بوجهه ابدا مع الشمس حيث دارت حتى تغرب ، وكلما حميت عليه الشمس رأيت جلده يخضر وكانت اشارات الشعراء اليه قليلة[3] . فكانوا يكنون بها عن شدة الحر ، قال عبيد ينعت قوة راحلته وهي تقطع الفلاة الواسعة البعيدة الأطراف[4]

ارمي بها عرض الدوى ضامزة في ساعة تبعث الحرباء مسمومة[5]

وقال بشر يصف الفلاة التي اقفرت من الانيس[6] .

ومُقفرة يَحارُ الطرفُ فيها على سَنَنٍ بمُندَفَعِ الصُّدَاح
تَجاوَبُ هامُها في غَوْرتَيها إذا الحِرْبَاءُ أوفى بالَمراحِ

الجراد : عرفت شعوب الشرق الجراد من أقدم العصور كما عرفت احواله واطواره وغزواته وما يحمله للزرع من فناء ودمار ، وسميت الارض

---

(١) طرفة . الديوان/٢٣٦ (٢) الاعشى . الديوان/١١٣ وانظر ديوان عروة/١٥٣ وديوان النابغة/١٦٠ (٣) انظر ديوان ابي دواد/٣٢٦ وديوان علي بن زيد/١٤٦ وحيوان الجاحظ ٦/٣٦٤ وما بعدها (٤) عبيد . الديوان/١٢٩ (٥) ضامزة : لا رغاء لها ، او تمسك جرتها في فيها ، ولا تجتر من الفزع . مسمومة : من ريح السموم الحارة (٦) بشر . الديوان/٤٥ وانظر /١٩٨ من الديوان نفسه .

التي لا نبات فيها مجرودة كأنها اصبحت عرضة للجراد كما قال لبيد[1] :

ولقد قطعتُ وصيلة مجرودةً   يبكي الصدى فيها لشجوِ البوم

وكان الجراد يأتي على هيئة اسراب عظيمة ترى كالسحاب الذي يسد الافق ولهذا شبه الشعراء الجيش الكثير به قال الافوه الاودي[2] :

بمناقب بيض كأن وجوههم   زهر قبيل ترجل الشمس

دبــوا كمنتشر الجراد هوت   بالبطن في درع وفي ترس

وقال لقيط الايادي[3] :

الا تخافون قوما لا أبــا لكم   أمسـوا اليكم كأمثال الدبا سرعا

واكثر الشعراء من تشبيه جماعات الخيول بالجراد ، ووجدت هذه الصورة في نفوسهم رضى واستحسانا قال اوس ينعت فرسا[4] :

تَقَبَّلَ من خَيفانةٍ جُرشُعية

سليلةِ مَعرُوقِ الاباجل جُرْشُعِ

وقال بشر[5] :

مُهارِشَةِ العِنانِ كأنَّ فيــه   جَرادةَ هَيْوَةٍ فيها اصفرار

وشبه المفضل النكري كثرة النبل ومروره وسرعته بالجراد قال[6] :

كأنَّ النبلَ بينهمُ جَراد   تُكفّيه شآميةٌ خـــريــق

وتعرض الشعراء في حديثهم عن الجراد للونين منها ، الاسود والاصفر

---

(١) لبيد . الديوان/١١٤ (٢) الافوه الاودي الديوان/١٦ (٣) ابن الشجري . المختارات /٢٤ وانظر ديوان اوس/٧٩ وديوان الاعشى/١٧٥ وشرح اشعار الهذليين ٣/١١٦٠

(٤) اوس . الديوان/٦١ (٥) بشر . الديوان/٧٤ وانظر ١٨٩ من الديوان وديوان امرىء القيس/١٢١ و ١٦٣ وديوان الطفيل/٩ و ٢٢ وديوان الأعشى/١٧٥ وشرح اشعار الهذليين ٣٥٣/١

فالجراد الاسود يترك اثرا على الأرض وهو يدب عليها كما يقول اوس[1] والجندب بالاسود يصر في الصحراء المقفرة التي لا يهتدي فيها السالك كما يذكر الاعشى[2] اما بشر فيصف الجرادة بالصفرة لأن الذكور فيها صفر والجرادة انما تصفر حين تتم وينبت جناحاها وتبلغ مداها[3] .

وتطير النابغة الذبياني من الجرادة عندما تجهز مع زبان بن سيار الفزاري للغزو فلما أراد الرحيل نظر الى جرادة قد سقطت عليه فقال : جراد تجرد ، وذات لونين غيرى من خرج في هذا الوجه ، ولم يلتفت زبان الى طيرته وزجره ، ونفذ لوجهه فلما رجع الى موضعه الذي كان النابغة فارقه فيه وذكر ما نال من السلامة والغنيمة انشأ يذكر شأن النابغة فقال :[4]

تَخيّر طيرَهُ فيها زيادٌ لتُخبره وما فيها خبَير
أقام كأن لُقمانَ بنَ عادٍ أشارَ له بحكمته مُشيرُ
تعلَّمْ انه لا طير إلاّ على متَطيِّر وهو الثَّبور
بلى شيءٌ يوافقُ بعضَ شيء أحايينـاً وباطله كثيرُ

وروى الجاحظ اخباراً كثيرة عن اكله وطيب لحمه فقال : والجراد الاعرابي لا يتقدمه في الطيب شيء ، وما احصي كم سمعت من الاعراب من يقول : ما شبعت فيه قط . وما ادعه الا خوفا من عاقبته او لأني اعيا فأتركه[5] ثم يقول : والجراد يطيب حارا وباردا ومشويا ومطبوخا ومنظوما في خيط ومجعولا في الملة ، والجراد المأكول ضروب فمنه الاهوازي ومنه المذنب واطيبه الاعرابي واهل خراسان لا يأكلونه .[6]

النحل : للنحل في احاديث الشعراء ولا سيما الهذليين حديث طويل ،

---

(١) اوس . الديوان/٩٥ (٢) انظر ديوان الاعشى/٩٧ . (٣) بشر . الديوان /٧٤ وانظر حيوان الجاحظ ٤/١٧٤ و ٥/٥٥٩ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٥/٥٥٥ (٥) الجاحظ . الحيوان ٥/٥٦٥ (٦) نفس المصدر ٥/٥٦٥ — ٥٦٦

لكثرة انتشاره في مناطقهم واستفادتهم من عسله الذي كان يعد بضاعة رائجة من بضائعهم ، وغذاء طبيعيا تقتات عليه جموع غفيرة منهم وكان يحمل من بلاد هذيل الى مكة[1] ، وعرفت بعض المناطق بشهرتها به ، لوجودالنباتات التي ترتشفها ، وتعسل عليها ، كمنطقة حداب بني شبابة التي تعد من اكثر ارض العرب عسلا[2] . ولهذا كثرت صوره في شعرهم فتحدث الشعراء عن الطرق التي يصلون بها الى خلاياه لجنيه والوسائل التي يستخدمها مشتارو العسل في هذه العملية من سقاء واوعية وادوات واعواد وحبال وما يجلب لهم ذلك من المشاق وقد صور ساعدة بن جؤية هذا العمل في قوله [3] :

أرى الجوارس في ذُؤَابةِ مُشْرفٍ ... فيه النُّسُور كما تَحَبَّى الموكب
من كلِّ مُعنقةٍ وكُلِّ عِطافَةٍ ... مما يُصدِّقُها ثَوابٌ يَزْعَبُ
منها جوارِس للسَّراة وتأتري ... كَربَاتِ أمسلةٍ اذا تَتَصوَّبُ
فتكشَّفتْ عن ذي مُتُونٍ نيِّرٍ ... كالرِّيطِ لاهفٌ ولا هو مُخرَب
وكأن ما جَرَسَتْ على أعضادِها ... حينَ استقلَّ بها الشرائعُ مَحلبُ
حتى أشبَّ لها وطالَ ايابُها ... ذُو رُجلةٍ شَثْنُ البراثنِ جَحْنَب
مَعَهُ سقاء لا يُفرِّط حَمْلَهُ ... صُفْنٌ وأخراضٌ يلُحْنَ ومسأب
صَبَّ اللهيفُ لها السُّبوبَ بطغيةٍ ... تُنبي العُقابَ كما يُلَطّ المجْنَب
وكأنَّهُ حينَ استقلَّ بريدها ... من دون وَقْبتها لَقا يتذبذب
فقَضَى مَشارتَه وحَطَّ كأنه ... خَلَقٌ ولم يَنْشَبْ بها يتسبسب

(١) ياقوت . البلدان ٤/٧٩٥ (٢) البكري . معجم ما استعجم ٢/٤٢٨ — ٤٢٩

(٣) ساعدة بن جؤية . شرح اشعار الهذليين ٣/١١٠٨ وانظر ٣/١١٣٨ — ١١٤١ وللمسيب بن علس ابيات طويلة يتحدث فيها عن النحل واوصافه واعماله واصواته . انظر ديوانه ضمن ديوان الاعشى (جاير)/٣٥٢ — ٣٥٣ .

فأزالَ ناصحَها بأبيضَ مُفْــرطٍ   من ماءِ الهابِ عليه التألب[1]

وكان الصعاليك يجدون في اشتيار العسل وسيلة من وسائل الرزق وطريقة من طرق الحصول على ما يسدون به رمقهم ومن اجل هذا كانوا يعرضون انفسهم لأشد المخاطر ويحدثنا تأبط شرا في قصيدة من قصائده عن مغامرة له خرج فيها قاصدا بلاد هذيل ليشتار عسلا ، وكان بينه وبين بني هذيل عداء مستحكم وعندما علموا بخبره وجدوا الفرصة مواتية للانتقام منه وهو في داخل الغار ، وعندما علم تأبط شرا بذلك مضى في المراوغة ، وكان قبل ذلك قد نقب في الغار ثقبا اعده للهرب وجعل يسيل العسل من الغار ويهريقه ثم عمد الى الزق فشده على صدره ثم لصق بالعسل ولم يزل يزلق حتى خرج سليما الى اسفل الجبل فنهض وفاتهم[2] .

وربما كانت المقايضة بالعسل معروفة ، فعندما اراد اوس بن حجر ان يتحدث عن قيمة قوسه والمساومة التي جرت عليه ذكر ان احد المساومين دفع له ثلاثة ابراد جياد وزقا من العسل فقال[3] :

ثلاثةُ أبرادٍ جيادٍ وجُرْجَةٌ   وأدْكنُ من أرْيِ الدَّبورِ مُعَسَّلُ

والنحل حيوان غريب ذكره الله عز وجل في القرآن وذكر ايحاءه له والهامه وتعليمه في اتخاذ الجبال بيوتا تتعسل فيها ، واتخاذ الشجر طعاما تجرسه وتعتاد اكله[4] . وتحدث الجاحظ عن النحل في سياق حديثه عن مقياس قدر الحيوان فقال : « وكذا خلق النحلة مع ما فيها من غريب الحكم وعجيب التدبير ومن التقدم فيما يعيشها ، والادخار ليوم العجز عن كسبها ، وشمها ما لا

---

(١) الارى : العسل ويقال : تأرى : تجمع العسل . الجرس : العمل ، وهو اخذها من الشجر واكلها . يزعب : يتدافع . ذو رجلة : صبور على المشي . جحنب : قصير قليل . السبوب : الاسباب : وهي الحبال التي يرقى فيهـا فينزل بها. (٢) الاصفهاني . الأغاني (ساسي) ١٨/٢١٥ (٣) اوس . الديوان/٩٨ (٤) سورةالنحل . الآية ٦٨ : واوحى ربك الى النحل ...

يشم ، ورؤيتها لما لا يرى ، وحسن هدايتها والتدبير في التأمير عليها واطاعة ساداتها وتقسيط اجناس الاعمال بينها على اقدار معارفها وقوة ابدانها ، فهذه النحلة وان كانت ذبابة فانظر قبل كل شيء في ضروب انتفاع ضروب الناس فيها فأنك تجدها اكبر من الجبل الشامخ والفضاء الواسع »(١) .

والنحل تجتمع فتقسم الاعمال بينها فبعضها يعمل الشمع وبعضها يعمل العسل ، وبعضها يبني البيوت ، وبعضها يستقي الماء ويصبه في الثقب ويلطخه بالعسل ومنه ما يبكر إلى العمل ومن النحل ما يكفه حتى اذا نهضت واحدة طارت كلها(٢) . ومنها ما ينقل العسل من اطراف الشجر ومنها ما ينقـــل الشمع الذي تبني به فلا تزال في عملها حتى اذا كان الليل آبت الى مآبها (٣) . واستخدم الشعراء النحل في صورتين ، صورة تعتمد على الصوت اخذت جانبا واسعا من اوصافهم ، وصورة تعتمد على الهيئة . اما الاولى فهي صورة النساء اللواتي اسر رجالهن وتركن وحيدات ، لا يرين الا التطير ولا يسمعن الا الرياح المسرعة المدوية التي تشبه جماعات من النحل تدوي كما يرى الافوه الاودي(٤) . والزجل الذي تثيره اصواتها كما يحسب المسيب بن علس(٥) ، وحفيف النبل حين ينطلق من القوس كما يسمعه الشنفري(٦) . واما الاخرى ، فهي صورة الجماعات الكثيرة المتزاحمة من الخيل في قول الطفيل(٧) :

فباتوا يسنّون الزجاج كأنهـــم اذا ما تنادوا خشرم متحـــدّبُ

وقول المثقب العبدي(٨) :

وامكن اطراف الاسنة والقنـــا يعاسيب قود ما تُثنى قتودهـــا

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٦/١٠ (٢) الجاحظ . الحيوان ٥/٤١٧ (٣) الجاحظ . الحيوان ٥/٤١٨ . (٤) انظر ديوان الافوه الاودي /١٨ (٥) انظر ديوان الاعشى (جاير) /٣٥٢ (٦) الاصفهاني . الاغاني ٢١/١٤١ (٧) الطفيل . الديوان/٢١ (٨) المثقب العبدي. الديوان/٢٤

وجماعات الكلاب المطلقة كما نعتها الاعشى (١) :

فصبّحه عنـــد الشروق غُديّة كلاب الفتى البكري عوف بن ارقما
فأطلق من مجنوبهـــا فأتبعنـــه كما هيج السامي المعسل خشرمـــا

واعداء تأبط شرا الذين يطاردونه كما وصفهم في قوله(٢) :

ولم انتظر ان يدهموني كأنهم ورائي نحل في الخليّـــة واكنـــا

الى جانب الصور الاخرى التي لمسها الشعراء في هذا الحيوان . فالنبل في سرعة اهتدائه الى اهدافه كالنحل(٣) ، ولسعه كلدغ النبال(٤) واستساغة الشّم والاستلذاذ به كالعسل الممزوج بماء السحاب (٥) وكانت اشارات الشعراء الى الالوان في حديثهم عن النحل او عسله قليلة . فالمسيب بن علس يشير الى اللون الاسود وهو يصف رؤوسها فيقول(٦) :

سود الرؤوس لصوتها زجل محفوفـــة بمسارب خضـــر

ويذكر ساعدة بن جؤية اللون الابيض في حديثه عن العسل الشديد الصلب (٧) وفي حديثه عن الماء الخالص الذي يمزجه . (٨) ومن الجدير بالذكر ان اشير الى ان اغلب حديث الشعراء عن العسل والنحل كان يأتي في معرض اوصافهم لثغور الاحبة وعذوبة ريق افواههن (٩) . وعد المسيب بن علس سابقا لغيره من الشعراء في اوصافه لثغر المرأة(١٠) في قصيدته التي اشار فيها الى النحل .

الذباب : كان وجود الذباب بالنسبة للشاعر الجاهلي يعني الحياة ويقظتها

---

(١) الاعشى . الديوان/ ٢٩٥ . (٢) الاصفهاني . الاغاني ١٨/ ٢١٣ وانظر ديوان الطفيل / ٢١ (٣) انظر ديوان الاعشى / ٢٥ وانظر شرح إشعار الهذليين ٣/ ١٢٧٤ (٤) انظر شرح اشعار الهذليين ٣/ ١١٨٣ (٥) انظر ديوان طرفة/ ١٤٣ (٦) المسيب . ديوان الاعشى / ٣٥٢ (٧) انظر شرح اشعار الهذليين ٣/ ١١٣٨ (٨) نفس المصدر ٣/ ١١١٢ (٩) انظر ديوان عبيد/ ٤٠ وديـــوان امرىء القيس/ ٢٠٤ وديوان ابي دواد / ٣٠٦ وشرح اشعار الهذليين ٣/ ١١٠٧ و ١١٣٨ (١٠) ابن قتيبة . الشعر والشعراء

اذ يعد وجوده دليلا على الخضرة والربيع ، لأن الذباب لا يغني الا في الرياض ولا يهزج الا في الخضرة ، والخضرة والرياض كانت تعني بالنسبة للشعراء الجاهليين الذين الهبت وجوههم لفحات السموم اللاذعة ، الحياة الزاهية المتفتحة ، المليئة بالشذى العاطر ، المفعمة بأسباب البقاء والاستقرار ، ولهذا اقترن ذكره بالغناء والرياض والزهور ، وسموا طنينه غناء قال عنترة يصف روضة[1] :

جادت عليها كلُّ عين ثـرَّة   فتركن كُلَّ حديقة كالدرهم

سَحّاً وتسكاباً فكل عشية   يجري عليها الماء لم يتصرم

فترى الذباب بها يغني وحده   هَزِجاً كفعل الشارب المترنم

غرداً يسن ذراعه بذراعه   فعل المكب على الزناد الاجذم[2]

وشبه المثقب العبدي صوته بتغريد الحمام قال[3] :

وتسمع للذباب اذا تغنى   كتغريد الحمام على الوكون

اما زهير ، فيشبه صوته وطنينه بترنم السكران اذا غنى[4] . وذكر الذباب في موضع الذم والهجاء فقالوا في المثل : ما هم الا فراش نار وذبان طمع[5] واذا ارادوا التصغير والتقليل ضربوا المثل بالذبان[6] وسموا الذباب الذي يهلك الابل ، الازرق وقيل إنه اخضر اللون قال المتلمس[7] :

وذاك اوان العرض حيّ ذبابه   زنابيره والازرق المتلمس

---

(١) عنترة . الديوان/٣٧٢ وانظر حيوان الجاحظ ٣١٥/٣ (٢) السح : الصب الشديد . يسن : يحد . المكب : المقبل على الشيء . الاجذم : المقطوع الكف يقول : يصوت الذباب ، وهو يحك احدى يديه بالاخرى فيحكي قدح رجل ناقص اليد النار من الزندين وهذا من التشبيهات التي لا نظير لها في الشعر الجاهلي (٣) المثقب العبدي . الديوان/٣٧ وانظر حيوان الجاحظ ٣٨٨/٣ (٤) زهير . الديوان/٢٦٣ (٥) الجاحظ . الحيوان ٣٠٤/٣ (٦) الجاحظ الحيوان ٣١٧/٣ (٧) ابن قتيبة . المعاني الكبير ٦٠٤/١ وانظر حيوان الجاحظ ٣٩٠/٣

ويذكر زهير الذباب الذي خالط لونه حمرة في وصفه لناقته[١]. ومن الذباب ما كان يدخل في انف البعير او يقع على رؤوس الدواب فيؤذيها كالقمع[٢]. والشذا[٣] ومنها ما كان يطير فوق الماء كالزخارف[٤].

اما الوانه فذبان الشعراء حمر، والذباب التي تهلك الابل زرق والذبان الذي يسقط على الدواب صفر[٥]، وكان يطلق لفظ الذباب على النحل في كثير من الأحيان ومن هنا كان التمييز في بعض الاحيان بين المقصود منهما صعباً[٦].

وفي المعنى المجازي استعمل الذباب بمعنى الأذى لما يثيره، وعندما اراد الحارث بن ظالم ان يمدح قريشاً كنى عن اعدائهم بالذباب فقال[٧]:

فلو اني اشاء لكنت منهم وما سيرت اتبع السحابا
ولا قظت الشربة كل يوم أعدى عن مياههم الذبابا

وعد الذباب من الحيوان اللجوج[٨]، واورد الجاحظ في ذلك قصصاً كثيرة[٩] ورمز له بالعناد حتى قيل اجرأ من الذباب[١٠]، وازهى من ذباب[١١] لأنه يسقط على انف الملك الجبار وعلى موق عينيه ليأكله، ثم يطرده فلا ينطرد[١٢] وهو يقع على جفن الأسد ويذاد وهو مع ذلك يعود.

---

(١) انظر ديوان زهير/٣٧٣ (٢) انظر ديوان اوس/٥٧ . (٣) انظر الأصمعيات /١٥٩ و ١٨٩ (٤) انظر ديوان اوس/٦٩ . (٥) الجاحظ . الحيوان٨/٣٩٠ – ٣٩١ (٦) انظر اللسان والتاج (ذبب) (٧) المفضل . المفضليات ٢/١١٦ (٨) الجاحظ . الحيوان ٣/٣٤٠ (٩) الجاحظ . الحيوان ٣/٣٤٦ (١٠) الميداني . مجمع الامثال /١٩٠ (١١) الجاحظ . الحيوان ٣/٣٠٥ (١٢) نفس المصدر.

الباب الثاني

الدراسة الفنيّة

الفصل الأول

تصوير الطبيعة في الشعر الجاهلي

١ ـ فن الشعر الجاهلي وتطوره
٢ ـ تصوير الطبيعة الصامتة
٣ ـ الأطلال
٤ ـ تصوير الطبيعة الحية
٥ ـ الصيد

فـن الشعر الجاهلي وتطوره

من العبث حقاً ان نحاول تحديد البداية الأولية للشعر العربي ، وتثبيت المراحل الأولية التي مر بها ، حتى استوى في صورته التي وجدناه عليها ، لأنها محاولة لا يمكن بأي حال من الأحوال ان تتيسر لنا اسبابها ، ولكن الذي يبدو من قصائد الشعراء التي وصلت الينا ان الشعر العربي الموجود بين ايدينا قد سبق بمحاولات كثيرة ، وتجارب متعاقبة ارست دعائمه ، وحققت له مقوماته وتقاليده الفنية التي استقرت وأصبحت معالم ثابتة ، واصطلاحات معروفة . وليس بين ايدينا من قصائد تلك المراحل التي قطعها هذا الشعر ما يبين لنا الصورة التي كانت عليها .

ان صورة القصائد التي بين ايدينا تامة ، وتكاد تكون متكاملة الى حد بعيد لأن تقاليدها الفنية معقدة ، وصياغتها محكمة ، ومعانيها تدل على الجودة والاختيار والانتقاء . اما الاوزان والقوافي والموضوعات ، فهي تقاليد اخرى تنبيء عن مرحلة ناضجة من مراحل تطور هذا الشعر . وقد حاول القدامى الوقوف عند اولئك الشعراء الجاهليين الأوائل ، ولكننا نجد ابن قتيبة يذكر ثلاثة منهم ويقول : لم يكن لأوائل الشعراء الا الابيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة[1] . وقد غلب على القصيدة الجاهلية

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء/٤٨ .

النظام الذي يطالعنا في معانيها وموضوعاتها ، والطريقة التي نظمت عليها ، فهي تبدأ ـ في غالب الاحيان ـ بوصف الاطلال والوقوف عندها ، والبكاء بين آثارها المتبقية ، ثم ينتقل الشاعر الى الحديث عن رحلته وما يركبه في هذه الرحلة ، وما يقطعه من مفاوز ، وما يلاقيه من صعوبات وهو يشبه راحلته ببعض الحيوانات الوحشية المعروفة بسرعتها ، ثم يخرج بعد ذلك الى الغرض المقصود من القصيدة . وقد اخذ شكل القصيدة نظاماً ثابتاً لا يتغير مهما طالت ابياتها ، او تعددت اغراضها . فهي مجموعة من الابيات يجمعها وزن واحد وقافية واحدة .

ان صناعة هذا الشعر قد توفر لها من الخصائص والعناصر ما جعلنا نعتقد ان الشعراء كانوا يبذلون في سبيل الوصول الى صناعة قصائدهم ومقطعاتهم جهداً شاقاً وعناء كبيراً . فلم يكونوا يقبلون كل ما يرد على خواطرهم ، وانما كانوا ينقحون ويجودون ويعاودون النظر ، ليصونوا كلامهم عما قد يفسده ، ويحققوا له الشكل الفني المتعارف عليه بينهم . الى جانب الجهد الآخر الذي كانوا يبذلونه في سبيل المحافظة على موسيقى هذا الشعر . لأن الشعر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالموسيقى فهو صورة رفيعة من صور الغناء وألحانه وانغامه . واذا حاولنا دراسة موسيقى الشعر الجاهلي وجدنا ظاهرة الغناء والموسيقى واضحة فيه وضوحاً بيناً تدلنا على الجهود التي كانت تبذل في سبيل المحافظة عليها . فالقصيدة تتألف من وحدات موسيقية سميت الابيات ، يلتزم الشاعر فيها وزناً واحداً ، وكل بيت منها يمسك بالبيت الآخر في توازن موسيقي يطرد إلى نهاية يستقر فيها النغم ، تسمى الروي . وهذا التوافق الصوتي في الوزن ، والتوازن الموسيقي في النهايات يشكلان الموسيقى الخارجية التي تنتظم القصيدة فيجعلانها تدور في محور واحد . وتحمل نغماً موسيقياً واحداً . ومثلها التصريع في مطالع القصائد . فقد صرع

أبو دواد ثلاث مرات في قصيدته الدالية ، صرع في قوله[1] :

أمِنْ رسم يُعفّى أو رمادِ وَسُفْعٍ كالحماماتِ الفــرّادِ[2]

وصرع بعد ذلك ببيت واحد فقال[3] :

مضيف الهم يمنعني رقـادي اليَّ فقد تجافى بي وِســادي
لفقدِ الأريَحيِّ ابي بجَــادِ ابي الأضياف في السنةِ الجَمادِ

وصرع أوس ثلاث مرات في حائيته ، صرع في قوله[4] :

وَدِّعْ لميسَ وداعَ الصَّارم اللاحي إذْ فَتكتْ في فَسادٍ بعد إصــلاح

وصرع بعد ذلك بقليل فقال[5] :

هبّتْ تلومُ وليستْ ساعةَ اللاحي هلاّ انتظرتِ بهذا اللّومِ إصباحي

ثم صرع ثالثة فقال[6] :

إنّي ارِقتُ ولم تأرقْ معي صَاحي لمستكفٍ بُعيدَ النَومِ لــوّاح

وفي ديوانه مواضع اخرى يصرع فيها اكثر من مرة[7] .

وصرع امرؤ القيس ثلاث مرات في معلقته[8] . وصرع في غير معلقته في ابيات كثيرة[9] ، ومثله زهير[10] ، والاعشى[11] ، ولبيد[12] .

---

(١) ابو دواد . الديوان/٣٠٩ (٢) السفع : الأثاثي لاسودادها . الفراد : المنفردة
(٣) ابو دواد . الديوان/٣٠٩ وانظر الصفحات ٣١٠ — ٣١١ و ٣٣٧ — ٣٣٩ من الديوان
(٤) اوس . الديوان/١٣ . (٥) اوس . الديوان/١٤ (٦) نفس المصدر/١٥
(٧) انظر ديوان اوس/٨٢ و ٩٠ و ١١٧ و ١٢٤ . (٨) انظر ديوان امرىء القيس/٨ و ١٢ و ١٨ (٩) انظر ديوان امرىء القيس/٢٧ و ٥٦ و ٦١ و ٦٩ و ٧٨ و ٨٥ و ٨٧ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٥٤ و ١٦٨ و ١٧٠ (١٠) انظر ديوان زهير /١١٦ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٦ (١١) انظر ديوان الاعشى/٢٧ و ٢٩ و ٥٥ و ٥٧ و ٦٥ و ٨٣ و ٨٥ و ١٧١ و ٢٣٣ و ٢٣٥ و ٢٦٣ (١٢) انظر ديوان لبيد /٥٤ و ٢٥٦ و ٢٩٧ — ٢٩٨

وتأثرت موسيقى الشعر بالغناء ، فكانت هـذه الأوزان المجزوءة والخفيفة ، وقد خضع الرجز لكثير من هذه التأثيرات باعتباره وزناً شعبياً ينشد في أثناء حدائهم للإبل ، وفي كل ما يتصل بهم من حركة وعمل وحرب . لأنهم كانوا يجدون لغنائهم راحة من عناء ، وتسلية عن هم ، وعوناً على ان يمضوا فيما اعتادوا عليه من شؤون الحياة ، ولعل هذا الانتشار والاستخدام الواسع للرجز ، جعله عرضة للحذف والتحريف والتعديل حتى اصبحت نماذجه وامثلته بعيدة عن الضبط .

اما تلك الانحرافات التي نلمسها في بعض الاوزان الشعرية ، وبعض القصائد وقوافيها ، فهي انحرافات نادرة وقليلة ، لا تشكل في الواقع الا جزءاً يسيراً من التراث الضخم الذي وصل الينا . فقصيدة عبيد[1] :

أقفرَ من أهلهِ مَلْحَوبُ فالقطّبيّاتُ فالذّنُوبُ

التي عدها ابن قتيبة اجود شعره[2] ، وادخلها التبريزي في القصائد العشر وصدر بها ابو زيد القرشي المجمهرات ، من مخلع البسيط وهو بحر نادر غير مألوف لا نراه الا في قصيدة لامرىء القيس[3] . ويبدو ان غرابة هذا البحر وقدم عهد عبيد ، وحداثة سن الشعر العربي في عصره ، اثرت تأثيراً كبيراً في القصيدة فكثرت زحافاتها وعللها ، واضطرب وزنها حتى قيل عنها ، لكثرة ما دخلها من الزحاف والقطع ، كادت ألا تكون شعراً . ومثلها قصيدة المرقش التي مطلعها[4] :

هلْ بالديار أنْ تُجيبَ صَمَمْ لو كانَ رَسْمٌ ناطقاً كلَّمْ

والتي يخرج شطور بعض ابياتها على الوزن الذي نظمت عليه القصيدة ومثلهما مقطوعة سلم بن ربيعة التي اعتبرها المرزوقي خارجة عن البحور

---

(١) عبيد . الديوان /١٠ (٢) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ١٨٨/١ (٣) انظر ديوان امرىء القيس/١٨٩ (٤) المفضل . المفضليات٢/٣٧

التي وضعها الخليل بن احمد وقال انها اقرب ما يقال فيها انها تجيء على السادس من البسيط (مخلع البسيط)[1] .

ولا بد ان تعد هذه الاضطرابات العروضية رواسب وبقايا تصور فترة زمنية لم يكن النظام العروضي فيها قد اكتمل ، لأن قسماً من الشعراء الذين رويت عنهم هذه القصائد المضطربة رويت عنهم قصائد كثيرة مستقيمة في وزنها وقافيتها[2] واعتبر الدكتور شوقي ضيف اضطراب هذه القصائد في اوزانها دلالة على صحتها وان ايدي الرواة لم تعبث بها .

ولم تكن الجهود التي بذلها الشاعر في سبيل الحرص على الاصول الصوتية والعروضية كل شيء في صناعة الشعر وبناء القصيدة ، وانما حاول ان يعقد نماذج من التشبيهات المفصلة والصور المحكمة والخيالات الفنية لإثارة الانفعالات الوجدانية وتغذية الخيال بالصور المتحركة حتى اصبحت هذه اللوازم اصلاً من اصول صناعتهم ، وكثيراً ما كان الشاعر يلقى عناء وجهداً في اختيار الالفاظ والمعاني التي يريد ان يوفرها لهذه الصنعة ، وهذا ما حمل امرأ القيس على ان يقول[3] :

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

ودفع عنترة على مشاركة امرىء القيس هذا الرأي اذ يقول[4] :

هل غادر الشعراء من متردم ام هل عرفت الدار بعد توهم

وذهب كعب بن زهير هذا المذهب فقال[5] :

ما ارانا نقول الا رجيعا او معاداً من قولنا مكرورا

---

(1) ابو تمام . الحماسة شرح المرزوقي ٣/١١٣٧ (2) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف/١٨ والفصل السادس من القسم الأول من كتاب الدكتور شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ومقالة الدكتور يوسف خليف في مجلة المجلة المصرية العدد/٩٨ (شباط ١٩٦٥) (3) امرؤ القيس . الديوان/١١٤ (4) عنترة . الديوان/٣٦٩
(5) كعب بن زهير . الديوان/١٥٤ .

وتتضح اصول هذه الصناعة كذلك في نماذج القصائد التي كان الشعراء يحرصون في مطولاتهم عليها ، فهي تبدأ غالباً بوصف الاطلال ، وبكاء الدمن ثم ينتقل الى وصف رحلات الشاعر في الصحراء ، وحينئذ يصف ناقته التي تملأ حسه وصفاً دقيقاً فيه حذق ومهارة ، ثم يخرج من ذلك الى الموضوع المعين من مدح او هجاء أو غيرهما . وقد استقرت تلك الطريقة التقليدية في الشعر العربي وثبتت أصولها في مطولاته الكبرى على مر العصور. [1]

وهذا التقليد يفسر لنا اتحاد المعاني والصور والتشبيهات ، ومعالجة الموضوعات عند الشعراء الجاهليين ، حتى اذا استطاع شاعر ان يبدع في اخراج صورة من الصور ، او تشبيه من التشبيهات اخذه الشعراء الآخرون ، فاستخدموه وتداولوه ، ونسجوا على منواله . الا ان الصورة العامة لتطور الشعر الجاهلي صورة طبيعية غير معقدة كما تبدو عند امرىء القيس او عند غيره من المعاصرين له ، لأنهم حاولوا في قصائدهم تسجيل الظواهر الطبيعية بصورة مباشرة ، ليس فيها تكلف ولا بعد بحيث يجعلون العبارات قريبة المنال ، لا يشوبها عسر ولا صعوبة . فاذا اراد امرؤ القيس ان يصور الليل ، يصوره بسواده وهمومه فهو امواج لا تنتهي ، يصوره وقد طال ، واسرف في الطول ، حتى يظن ان نجومه شدت بأسباب وامراس من الجنادل والجبال ، فهي ثابتة لا تتحرك واقفة لا تزول[2] .

واذا اراد ان يصور فرسه جعله قيداً لأوابد الوحش اذا انطلقت في الصحراء وهو لشدة حركته وسرعته كأنه جلمود صخر حطه السيل من عل[3] . واذا احس بقوة جريان جواده وقد ابتل جانبه من العرق ، قرنه بهزيز الريح اذا مرت بشجر الثأب ، المعروف باشتداد صوت الريح فيه[4] . واذا اراد ان يصف وميض البرق وتألقه ، شبه هذا التألق واللمعان بحركة

---

(١) شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في الشعر العربي/٢١ - ٢٢ (٢) امرؤ القيس . الديوان /١٩ (٣) انظر ديوان امرىء القيس/١٩ (٤) انظر ديوان امرىء القيس/٤٩ .

اليدين[1] واذا تراءت له صورة الحياة والفناء ، التي تزخر بها الطبيعة ، تمثلت له هذه الصورة في وصف قلوب الطير ، وهي مكدسة في وكسر العقاب ، فيصور الرطب واليابس منها ، ووجد في العناب صورة حية لتشبيه القلوب الرطبة ، ولمس في الحشف البالي نموذجاً واضحاً لتشبيه القلوب اليابسة[2] .

وكذلك نجد اسلوب عبيد ، فهو طبيعي وسهل ، ولا يتجلى فيه التكلف الذي اغرم فيه الشعراء فيما بعد ، لأنه حريص – كمعاصريه – على نقل الصور نقلاً اميناً وصادقاً ، وتبدو هذه الظاهرة بصورة جلية وواضحة في قصائده . وهي ميزة تميز شعراء هذه الفترة عن الشعراء الذين اعقبوهم ، حتى اصبح الشاعر يعاني بعد هذه المرحلة معاناة واضحة تظهر في الصور الشعرية والمقاييس الدقيقة والتشبيهات المعقدة التي بدأنا نلمسها عند اوس ابن حجر ومن جاء بعده من الشعراء الذين سلكوا مسلكه . فعبيد يذكر الاطلال كما يراها ، ويصورها كما تبدو له ويستخدم لها من الصور ما يتهيأ له من المحسوسات فيقول[3] :

لمن الـــدار أقْفَرَتْ بالجنـــابِ   غيرِ نُؤى ودِمنة كالكـتاب
غَيَّرتْها الصبـــا ونفحُ جَنُوبٍ   وشمالٍ تذرو دُقَاقَ التراب

ويكرر عبيد هذه الصورة في قصيدة أخرى فيقول[4] :

لمن دِمنةٌ أقوتْ بجُوَّةِ ضَرْغَدِ   تَلوحُ كعُنوان الكتاب المُجَدَّدِ

وتعود الذكريات الى نفس الشاعر ، فيرى ديار الاحبة المندرسة ، وقد تناثر فوق رمالها النعام ، وانتشرت الظباء ، فاتخذت من ساحاتها ومرابعها مراتع فيقول[5] :

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/٢٤ (٢) انظر ديوان امرىء القيس/٣٨ (٣) عبيد . الديوان/٢١ (٤) عبيد . الديوان/٥٢ وانظر صفحة١٠١ من الديوان نفسه .
(٥) عبيد . الديوان/١٠٥ – ١٠٦

دارُ حَيّ اصابَتهُمْ سالفُ الدهرِ فأضحت ديارُهُمْ كالخِلال
مُقفراتٍ إلا رمادا غبِيّاً وبقايا من دمنة الأطلال
وأوارى قد عفَوْنَ ونُؤياً ورسُوماً عُرّينَ مُذْ احوال
بُدّلتْ منهمُ الديار نَعاماً خاصباتٍ يُزجين خيط الرئال
وظباءً كأنهُنّ اباريق لجينٍ تحنو على الاطفال

وهكذا يمضي عبيد على هذا النمط في رسم الصورة الواقعية البسيطة ، التي تستمد بساطتها من رسمها للواقع رسماً مباشراً ، دون مبالغة فيه ، أو تزييف له .

واذا انتقلنا في اواخر العصر الجاهلي الى زهير وأوس ومدرستهما لاحظنا اتساع التكلف ، حتى اصبح الشاعر الجاهلي لا يصور في شعره عواطف فياضة وانما كان يعمل شعره عملاً ، وينشؤه انشاء ، وكانت عنايته تنصب على الفن نفسه ؛ فكثر عند شعراء هذه الفترة التشبيه والمجاز والاستعارة وكثر الافتنان بها واشتدت عنايتهم باختيار ألفاظهم وتنقيح عباراتهم ، محاولين بذلك مقاومة الطبع ، وعدم الاندفاع في قول الشعر مع السجية التي ترسل ارسالاً ، فتفيض بالشعر كما يفيض الينبوع بالماء[1] . وعندها بدأنا نحس بتطور جديد للشعر الجاهلي ، وبدأنا نلمس اسساً جديدة لهذا التطور ، لأن القصيدة بدأت تأخذ صورة غير صورتها البسيطة التي كانت عليها . ومن الطبيعي ان تكون الصورة الجديدة مغايرة للصورة القديمة التي درج عليها شعراء المرحلة الاولى من بعض الجوانب ، لأن هذه الصورة لم تتهيأ لأصحابها بشكل طبيعي ، وانما هي نتيجة جهد وعناء ومهارة وحذق ، وقد استطاع شعراء هذه المرحلة ان يستخدموا مهارتهم استخداماً واسعاً في شعرهم ، فتمكنوا من الخروج بالشعر ـ كما يقول الدكتور يوسف

---

(١) طه حسين . في الأدب الجاهلي /٢٨٨

خليف[1] ــ من نطاق التعبير المباشر والتسجيل السريع الى نطاق الروية والاناة ، والتمهل من اجل التجويد والتهذيب والصقل والإحكام .

لقد فرضت هذه القيود والمقاييس والالتزامات على الشاعر الجاهلي نمطاً شعرياً جديداً ، خضع له ، والتزم به ، وفرض عليه طريقاً معيناً في التعبير والتصوير . وقد اشار الجاحظ الى ذلك في قوله: « ومن شعراء العرب من يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً[2] ، وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله ذماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، اشفاقاً على أدبه ، واحرازاً لما خوله الله من نعمته . وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً ، وشاعراً مفلقاً »[3] .

ونقل في موضع آخر قولاً للحطيئة فقال : « خير الشعر الحولي المحكك»[4] ثم قال ايضاً : « وكان الأصمعي يقول : زهير بن ابي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر . وكذلك كل من يجود في جميع شعره ، ويقف عند كل بيت قاله واعاد فيه النظر ، حتى يخرج ابيات القصيدة كلها مستوية في الجودة ، وكان يقال : « لولا ان الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم ، حتى ادخلهم في باب التكلف ، واصحاب الصنعة ، ومن يلتمس قعر الكلام ، واعتصاب الألفاظ لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهوا ورهوا ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا »[5] .

واختلف الشعراء في سلوكهم هذا ، وجهدهم وتعبهم ، فكانت قصائد بعضهم تأخذ شكلاً بسيطاً ، وتتعقد تعقداً واضحاً عند آخرين ، توفرت لهم اسباب المهارة ، فحذقوا ضروب التهذيب ، واتقنوا فن الصياغة .

---

(١) يوسف خليف. مقال في مجلة المجلة المصرية العدد/١٠٠ السنة التاسعة/١٩٦٥ (٢) حولا كريتا : حولا كاملا (٣) الجاحظ . البيان والتبيين ٢/٧ . (٤) الجاحظ . البيان والتبيين ١٢/٢ (٥) نفس المصدر ١٢/٢ – ١٣

وقد التفت النقاد القدامى الى هذه الظاهرة ، فلقبوا الشعراء القاباً تدل على مدى احسانهم وتجويدهم فكان طفيل الغنوي يسمى المحبر لحسن شعره[1] . ويسمى النمر بن تولب الكيس للسبب نفسه[2] وقيل ان ربيعة بن سعد كان يسمى المرقش لتحسينه شعره وتنميقه[3] . ولا بد ان يعكس لنا هذا الاهتمام بالمعاني ، والتنقيح بالألفاظ ، طبيعة الحياة الأدبية التي كانت تسود العصر الجاهلي والتعقيد الذي كان يعتورها . وقد لمسنا ذلك في التكلف الذي كان الشعراء يبذلونه ، والتعب الذي كانوا يحملون أنفسهم عليه ، والروية في نظم الشعر ، والابتعاد عن الاندفاع في قوله مع السجية ، واتكائهم في وصفهم على التصوير المادي ، واخذهم انفسهم بالتجويد والتصفية والتنقيح ثم التأليف[4] وكان الشعراء يجدون — وهم يتحملون هذا العناء ، ويبذلون هذا الجهد — تشجيعاً على الإجادة ، وقبولا لدى الناس للتنقيح[5] .

وكان ذلك يحملهم على المحافظة على هذا المسلك ، والسير فيه ويدفعهم الى الافاضة في ذلك ، وقد نبه الجاحظ الى ذلك في قوله : « ومتى كان اللفظ كريماً في نفسه ، متخيراً في جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب الى النفوس واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت إليه الأسماع وارتاحت له القلوب ، وخف على السن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريض »[6]. وقال في موضع آخر : وهم يمدحون الحذق والرفق ، والتخلص الى حبات القلوب والى اصابة عيون المعاني ، ويقولون : اصاب الهدف اذا اصاب الحق في الجملة ويقولون : قرطس فلان ، واصاب القرطاس ، اذا كان اجود اصابة من الأول ، فاذا قالوا : رمى فأصاب

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ١/٢٦٤ (٢) نفس المصدر ١/٢٢٧ (٣) المفضل . المفضليات ١/٤١٠ (٤) طه حسين . في الأدب الجاهلي /٢٧٢ و ٢٨٤ (٥) انظر الاغاني ٩/٣٤٠ (دار الكتب) و ٢١/١١٢ (ساسي). (٦) الجاحظ . البيان والتبيين ٢/٦

الغرة ، واصاب عين القرطاس ، فهو الذي ليس فوقه احد ، ومن ذلك قولهم : فلان يفل المحز ويصيب المفصل ، ويضع الهناء مواضع النقب[1]

ولعل هذه الدوافع كانت سبباً من اسباب انتشار هذا الاتجاه بين عامة الشعراء ، ويمكن اعتبار زهير بن ابي سلمى ، الذي استطاع ان يرسي تقاليد هذه المدرسة الفنية وتقاليدها ، وان ينهض بها نهضة رائعة بعد ان مهد لها استاذان كبيران هما : طفيل الغنوي وأوس بن حجر ، خير شاعر يمثل ذلك ، ويصور جوانبه ويلتزم قواعده التي لا تتهيأ الا بعد جهد بالغ وعناء كبير .

لقد ازدهر هذا الاتجاه على مسرح الحياة الأدبية في عصر زهير ، واصبح له من الانصار والاعوان ما ثبت اقدامه ، وحفظ اصوله لالتزام هؤلاء الانصار والأعوان بالخطوط الواضحة واعتمادهم على الاناة والروية في النظم وبذلك اخذ هذا الاتجاه مكانه للنهوض بفن الشعر وصناعته ، وخرج به من مرحلة الانطلاق الطبيعي الحر الى مرحلة التقيد بالقوانين الفنية الدقيقة واصبحت الصورة الشعرية عند اصحاب هذا الاتجاه تأليفاً يجهد فيه العقل ويقاوم فيه الطبع وتبذل في اعداده المشقة .. ولا بد ان يصاحب ذلك اهتمام بصور التشبيه والاستعارة والمجاز . ولعل حائية أوس التي اعجب بها القدماء اعجاباً شديداً ، ووجدوا أنها أجود ما قيل في وصف المطر[2] ، ولاميته المشهورة التي وصف فيها سلاحه ، وقافيته التي نعت بها ناقته ، اثبت أدلة على هذه الظاهرة .

لأن الشاعر اكثر في هذه القصائد من ألوان التشبيه المادي كثرة مفرطة يمكن الاهتداء اليها بسهولة ، وسلك فيها طريق التصوير الدقيق الذي يحس حيناً بالبصر وحيناً بالسمع . واعتمد على فنون البيان المختلفة .

---

(١) نفس المصدر ٢/١٦٠ - ١٦١ الهناء : القطران. النقب: قروح الجرب. (٢) انظر ديوان اوس/١٣ (٣) انظر ديوان اوس/٨٢ (٤) انظر ديوان اوس/٧٧ .

وعلى هذا النحو سار زهير ، فذهب مذهب استاذه فاعتمد على التشبيه والتصوير والتروي ، واتخذ الشعر فناً وصناعة يعرض فيه صوره ، فيملأ فيها العين ويحرص على تنوع الصور وسعتها ، ويعمد الى تفصيلها وتمثيلها ، متخيراً لها المعنى المراد واللفظ المنتقى ، جانحاً الى الهدوء والتمهل حين تدعوه الحاجة الى ذلك ، والى العنف حين يدعوالأمر الى الحركة والسرعة . وقد جمع كثيراً من هذه الصور والأوصاف في معلقته ، فاذا أراد ان يذكر سفر الأحبة اتبع الصور بعضها بعضاً في هدوء واتزان ، وانتقل معها من موضع الى آخر ، وتابعها بكل ما يقدر عليه من سبل المتابعة فوصف ظعن أحبته وقد رفعن فوقهن الانماط العتاق ، والكلل الوردية الحواشي ، والرحال القشيبة ، وفتات العهن الأحمر قال[1] :

تبصر خليلي هَل تَرى من ظَعَائن تَحمَّلْن بالعلياء من فوق جُرْثُم
علون بأنمــاط عتاقٍ وكِلَّــةٍ ورَادٍ حواشيها مُشاكهة الــدَّمِ
كأن فُتاتَ العِهْنِ في كلِّ مَــنزلٍ نزلنَ به حب الفنا لم يُحَطَّم

فزهير يحدد مواضع الصورة واماكنها وازمانها وألوانها ، ويدقق أجزاءها ويحرص على استكمالها ببراعة فائقة ، تتمثل فيها قدرته الفنية ، وفهمــه الواعي لطبيعة عمله والتزامه بالمقاييس الدقيقة التي اخضع لها عمله ، وبهذه الأوصاف يسمو فن الشعر عند زهير الى مستوىً لم نجده عند غيره من الشعراء . ولم تكن هذه الملاحظات التي التفت اليها القدماء والمحدثون غريبة ازاء الأعمال الفنية التي قدمها لنا هؤلاء الشعراء ، والتي أصبحت حقاً نماذج رفيعة في جودتها وصياغتها وتهذيبها .

لقد استقر في هذه المرحلة نظام القصيدة واتضحت أسس العمل الفني في أذهان الشعراء ، وبرزت لهم السمات المميزة لأن الشعراء وقفوا على

---

(١) زهير . الديوان/ ٩ – ١٢

تراث زاخر من النماذج والأشكال التي مرت بها القصيدة العربية ، وتهيأ لهم حشد وفير من الصور والقوالب التي بذل في اعدادها الشعراء جهداً وعناء .

وهنا بدأت القصيدة عند شعراء هذه الفترة تأخذ شكلاً تقليدياً واضحاً لأنهم بدأوا يسلكون في اعدادها مسلك التقليد والمحاكاة ، فوقوفهم على الاطلال لا يشعرنا بأنه يصدر عن تجربة ، ووصفهم لما تناثر فوق ديار الأحبة من حيوان لا يحمل مشاعر الصدق الحقيقية ، وتصويرهم للحيوان في هذه الصحراء الفسيحة لا يمثل الدلالات الأصيلة التي كنا نلمسها عند غيرهم من الشعراء ، وهكذا بدأنا نحس بعدم استطاعة الشاعر نقل الانفعال الصادق ، او العاطفة الحقيقية التي تشعرنا بصدق التجربة التي كان الشعراء يعيشونها وهم ينظمون هذه القصائد . ومن هنا كانت الصور متشابهة ، والأساليب متقاربة ، ومعالجة الموضوع تكاد تكون واحدة ، ويعد لبيد بن ربيعة النموذج الواضح لهذا الاتجاه ، لأنه كان يسير في نفس الطريق الذي سلكه الشعراء من قبله ، وتتمثل له الصور التي حاولوا رسمها تمثلاً كلياً ، فكان ينحت أبياته على غرار أبياتهم ، ويلون زوايا صوره بنفس الألوان التي استعملوها ، ويحدد ابعادها بالأبعاد التي انتهى اليها الشعراء الأوائل . فهو يبدأ كما يبدأ زهير ، ويصف كما يصف زهير ويعدد الأماكن التي قطعتها قوافل الأحبة كما عدد زهير ويكفي للتدليل على ذلك قراءة هذه الابيات[1] :

ألم تُلمم على الدِّمن الحَوالي لسلمى بالمذانب فالقفال
فجنبي صوأر فنِعاف قَـو حوالدَ ما تَحَدَّثُ بالزَّوال
تحمل أهلُها الا عراراً وعَزْفاً بعد أحياءِ حلال
تحمَّل اهلها وأجَدَّ فيها نِعاجُ الصيف أخبيةَ الظلال
وقفتُ بهن حتى قال صحبي : جَزِعت وليس ذلك بالرحيل

(١) لبيد . الديوان/٧٢ .

فهذه الصورة تذكرنا بمعلقة زهير ، لأن البداية واسلوبها شبيه بالمعلقة وتسلسل الكلام واحد وتحمل الاهل عند الاثنين واقع ، وصورة يوم الرحيل التي تحمل فيها الحي ، وشد الهوادج والخيام فوق ظهور الابل واحدة ، ثم الوقوف بعد ذلك والجزع الذي ينتاب الشاعر لهذه الرحلة المفجعة .

ولم تقف المحاكاة عند النماذج الواضحة ، وانما تعدتها الى جزئيات الصورة ، فكما شبه زهير عينه وهي تسكب الدموع سكباً بدلو عظيمة تملأ ثم تصب في جدول ثم عرض للأدوات التي تصحب هذا العمل نجد لبيداً يصنع هذا الصنيع ، فيشبه دموعه بماء الدلو ، لسرعة دفعه وتتابعه ، ثم يتابع الصورة ، فيذكر ارواء الزروع بهذه المياه المنصبة من الدلو ثم يذهب الى ان الساقي لما فرغ من سقي الزروع أمال السجال ليسقي النخل[1] :

كأن دموعه غرباً سناة يحيلون السجال على السجال
اذا ارووا بها زرعاً وقضبا امالوها على خور طـــوال

ويكرر لبيد هذه الصور في قصائد اخرى[2] .

ولا نريد ان نذهب اكثر من ذلك ، لأن ديوان لبيد يوضح هذا الاتجاه بصورة دقيقة ويكشف عن الاسلوب الذي اتبعه في النظم بشكل متميز .

---

(١) لبيد . الديوان/٧٤ . (٢) انظر الصفحات/١٢١ و ١٢٢ من ديوان لبيد .

تصوير الطبيعة الصامتة

١

كان الشاعر الجاهلي يعيش في عصر تنبعث فيه الآلهة والأرواح في كل شيء حوله ، فآمن بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات[1] والحيوانات ، ونسب اليها قدرة تفوق قدرة الناس ، وسلم بسيطرتها على قوى الطبيعة ، وباختفائها وراء كل حركة أو ظاهرة تعرض له وحاول التقرب منها ، واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق ، واستمالتها اليه بما يقدمه لها من الذبائح والقرابين .

وكانت الصحراء أمامه تفيض بكائنات روحية ، لا أول لها ولا آخر ، وكان يرى في صورها هذه القوى الخفية ، مما دفعه الى ان يقيم بين الأشياء علاقات التشبيه ، فاذا هو يرى في بعض الأشياء صورة أشياء أخرى ، فيستعيرها لها وكان كل شيء يقع تحت بصره مهما كان صامتاً او جامداً يحس فيه الحياة والحركة ، فظن أنه لا فرق بينه وبين الموجودات وظن ان للجماد حياة حقيقية تحل فيه احياناً . ولا بد ان يكون هذا الظن مبعثاً لتفاؤلهم ببعض الحيوانات وتشاؤمهم من البعض الآخر ولا بد ان يكون هذا الظن

---

(١) يشير ابن الكلبي الى ان الرجل اذا سافر ونزل منزلا اخذ اربعة احجار فنظر الى احسنها فاتخذه ربا (الاصنام)/٣٣ وانظر اخبار مكة للأزرقي/٦٦ .

نفسه سبباً من أسباب تقديس الاشجار والإعراض عن قطعها او إلحاق الأذى بها ، خوفاً من انتقام الروح الحالّة فيها[1] وقد عملت البيئة العربية ، والخيال العربي عملهما في تخيل حكايات الجن وتصور الأرواح ، لتوحدهم في القفار وتفردهم في الاودية وسلوكهم المهامه الموحشة .

وقد وهب الشعراء حساً دقيقاً بوحدات الصحراء المسموعة وأصوات الفلوات واصوات اصدائها التي تتجاوب فيها اذا جن الليل ، وذهبوا مع الاوهام في تصور مصادرها فاعتقدوا انها من الجن تارة وانها من غير الجن تارة اخرى وذكر الجاحظ عن ابي اسحاق قوله[2] : ويكون في النهار ساعات ترى الشخص الصغير في تلك المهامه عظيماً ، ويوجـــد الصوت الخافض رفيعا ، ويسمع الصوت الذي ليس بالرفيع مع انبساط الشمس غدوة من المكان البعيد ، ويوجد لأوساط الفيافي والقفار والرمال والحرار ، في انصاف النهار ، مثل الدوي ، من طبع ذلك الوقت وذلك المكان عندما يعرض له وفي تعليل ما يتخيله الاعراب من عزيف الجنان ، قال الجاحظ : [3] « اصل هذا الأمر وابتداؤه ، ان القوم لما نزلوا بلاد الوحش ، عملت فيهم الوحشة . ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء ، والبعد من الأنس استوحش . والانسان اذا صار في مثل هذه الاماكن تفكر ، وداخلته الظنون الكاذبة ، والاوهام المؤذية ، فصورت له الاصوات ، ومثلت له الاشخاص ، واوهمه المحال » .

وقد ادرك الجاحظ هذه الحقيقة ايضاً فأشار إليهـــا بقوله[4] : « واذا استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت اخلاطه ، فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع وتوهم على الشيء اليسير الحقير انه عظيم جليل ، ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً

(١) انظر الاساطير العربية قبل الاسلام لمحمد عبد المعيد خان/١ه وما بعدها (٢) الجاحظ . الحيوان ٢٤٨/٦ . (٣) الجاحظ . الحيوان/٢٤٩. (٤) الجاحظ. الحيوان ٢٥٠/٦ – ٢٥١

تناشدوه ، واحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك ايماناً ، ونشأ عليه الناشيء ، وربي به الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي ، وتشتمل عليه الغيظان في الليالي الحنادس ، فعند أول وحشة وفزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ، وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور ، وربما كان في اصل الخلق والطبيعة كذاباً نفاجاً ، وصاحب تشنيع وتهويل فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة ، فعند ذلك يقول رأيت الغيلان وكلمت السعلاة ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها » .

وعرض الجاحظ الى تصور الجن وطعامهم وشرابهم وذبائحهم واستضافتهم الناس .[1] ومن خنقته الجن وقتلته واستهوته ورؤيتهم ومكالمتهم وسماع أصواتهم وعزيفهم ، والتحصن منهم والعزيمة عليهم ومطاياهم . واستشهد لذلك بالأشعار الكثيرة والاخبار الطويلة[2] .

وقد تخيل العرب للجن اشكالاً مختلفة تتمثل للناس في صورة حيوان كالقط او القنفذ او النعامة او الثعبان[3] . وتصوروا لها مساكن كانت تعد مواطن خطر ورعب كأجواف الصحراء ، وسفوح الجبال ، وموارد المياه ، وملتف الاشجار . وزعموا انها كانت تتراءى لهم في الليالي ، واوقات الخلوات فيتوهمون انها انسان فيتبعونها ، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها[4] وفي اساطيرهم أخبار كثيرة تدل على ايمانهم بالجن وتفسيرهم لكثير من المظاهر الطبيعية والمشكلات التي تواجههم تفسيرات تدل على ان للجن اثراً في حدوثها[5]. فكانوا اذا اوردوا البقر فلم تشرب ، اما لكدر الماء او لقلة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل

---

(١) انظر قصيدة تأبط شرا في الاغاني ١٨/٢١٠ (ساسي) والقصائد التي رواها المسعودي لعبيد بن ايوب ٢/١٥٧ (٢) الجاحظ الحيوان ٧/٢٨٩ (٣) انظر جمهرة اشعار العرب للقرشي /٤٩ (٤) المسعودي . مروج الذهب ٢/١٥٥ (٥) انظر الازرقي . اخبار مكة ٢/١١ وما بعدها والاغاني ١٨/٢٠٩ و ٢١٠وما بعدها .

وكما تتبع اتن الوحش الحمار وكانوا يزعمون ان الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب حتى تهلك[1] وقال في ذلك الأعشى[2] :

فأني وما كلفتموني – وربكم – ليعلم من أمسى أعق وأحربا
لكالثور والجني يضرب ظهره وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر وما ان تعاف الماء الا ليضربا

وقال نهشل بن حرى[3] :

اتترك عارض وبنو عدى وتغرم دارم وهم براء
كدأب الثور يضرب بالبراري إذا ما عافت البقر الضماء

ويزعمون ان مع كل فحل من الشعراء شيطاناً يقول ذلك الفحل على لسانه الشعر فزعم البهراني ان هذه الجنية بنت عمرو صاحب إلمخبل ، وان خالها مسحل شيطان الاعشى[4] . وقد ذكر الاعشى مسحلاً حين هجاه جهنام فقال[5] :

دعوتُ خليلي مِسحلاً ودعَوْا له جهنّام جَدْعاً الهجين المُذمّم

وذكره في موضع آخر فقال[6] :

وما كنتُ شاحِرْداً[7] ولكن حَسِبتُني إذا مِسحَلٌ سدّى لي القولَ أنطِق

وتحدث الثعالبي[8] والقرشي[9] عن شياطين الشعراء . وقد بلغ تأثير الجن في نفوس بعض العرب مبلغاً دفعهم الى عبادتها ، وفي القرآن الكريم اشارات صريحة الى ذلك . قال تعالى :

« قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم

---

(١) الجاحظ . الحيوان ١/١٨ – ١٩ (٢) الاعشى . الديوان/١١٥ (٣) الجاحظ . الحيوان ١/١٩ (٤) الجاحظ . الحيوان ٦/٢٢٥ – ٢٢٦ (٥) الاعشى : الديوان/١٢٥ (٦) الاعشى . الديوان/٢٢١ (٧) شاحردا : قالوا ان معناها متعلم . (٨) انظر ثمار القلوب /٥٥ (٩) انظر جمهرة اشعار العرب/٤٠ (صادر)

مؤمنون[1]» وقال تعالى: «وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون[2]».

واشار ابن الكلبي الى ان بني مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن[3].

لقد صور الشعر الجاهلي هذا الجانب من حياة العرب تصويرا دقيقا ورسم معتقدات الناس في هذه الارواح التي كانت تحل في ما حولهم من مظاهر الطبيعة رسماً بينا. وكان الشاعر الجاهلي يستقي اخيلته من العالم الحسي المترامي حوله، فيقارن بين المرئيات ويربط الصور بعضها ببعض، ويشيع الحركة في المعاني التي ينتقيها من هذا العالم ويبث في عناصرها المشاعر والحياة. وقد دفعته هذه الحسية الى ان يدقق النظر في وصف المرئيات حتى استطاع ان يترك لنا صورة قريبة من صور حياته التي كان يعيشها، وتفكيره الذي كان يضطلع به، واحسن تصوير ما كان يعايشه من حيوان، وما كان يقطعه من مفاوز ووهاد وصحار، ويتشوق اليه من مياه وآبار وانهار، ويتأمله من غيث او سحاب او رعد او مطر، وما كان يقف عنده من طلل. وكأنه كان يحرص على نقل هذه الصور الى قصائده ليبقي على صورها، ويحافظ على جوهرها. ولهذا كانت قصائده ومقطعاته وثائق دقيقة لحياته بكل ما تضمه هذه الحياة من جوانب وما تحفل به من مظاهر.

فالصورة المجسمة التي ولدتها صورة الجبل في نفس الشاعر هي الخلود الى جانب صور اخرى كانت دلالتها تأتي في أحاديثه بصورة غير مباشرة. وقد صاحبت فكرة البقاء والخلود التي ادركها نفر منهم، فكرة بقاء هذه الجبال. فكل شيء عندهم يزول وينتهي وله امد الا هذه الجبال التي يرونها

---

(١) سورة سبأ: الآية: ٤١ (٢) سورة الانعام. الآية: ١٠٠ (٣) ابن الكلبي. الاصنام/ ٣٤

صباح مساء والتي شاهدت موت آبائهم واجدادهم ، وهي لم تتغير احوالها ، ولم تتبدل اشكالها ، وسوف تكون شاهدة حتى على موتهم . يقول لبيد[1] :

ان يكن في الحياة خير فقـد أنـ ـظرت لو كان ينفع الإنظـار
عشت دهراً ولا يدوم عـلى الايام الا يلملم وتعـار[2]

ويدرك لبيد الفرق بينه وبين هذه الجبال ، فهو ليس من جنسها حتى يبقى بقاءها . بل هو من البشر ، يخضع لما يخضعون له من مصائب وحوادث يقول[3] :

فلست بركن من ابان وصاحة ولا الخالدات من سواج وغرب

وكانت فكرة الخلود التي توسمها في الجبل ، وفكرة الموت التي احسها في نفسه تدفعه الى ان يتحداها كما وجدنا ذلك في ابيات تأبط شرا والتي اسلفنا ذكرها وكانت تبعث في نفسه الالحاح المستمر الى اختراق الجبـل ، والوصول الى قمته التي كانت تمثل نهاية التحدي في نفسه . وكانت الجبال مأوى للوعول الممتنعة ، وكأنها كانت تحس ان ذلك يمنعها من الموت ، او يخفيها عن انظاره ، وكانت وكرا للعقبان الكاسرة والنسور الجارحة ، منهـا تنقض على فرائسها ، ولهذا اقترنت هذه الاصناف من الحيوانات بهـا. قال امرؤ القيس يصف غيثا[4] :

كتيس الظباءِ الاعفر انضرجتْ له عقابٌ تَدَلّت من شماريخ ثهلانِ

وقال يصف عقاب تنوفى[5] :

كأن دِثاراً حلّقت بلبُونهِ عُقابُ تنوفىَ لا عقابُ القَواعلِ[6]

ومن هنا كانت نظرتهم لما يحيط بهم من الصور ، لا لمجرد انها صور

---

(١) لبيد . الديوان/٤١ (٢) يلملم وتعار : جبلا ن : اسماء جبال تهامه وسكانها لعرام /٤٣٠ (٣) لبيد . الديوان/٥ . (٤) امرؤ القيس . الديوان/٩٢ (٥) انضرجت له : انقضت عليه (٦) امرؤ القيس. الديوان/٩٤. دثار : راعي إبل امرىء القيس . اللبون : التي لها ألبان . تنوفا : من جبال طي . والقواعل : أسماء جبال ليست بشوامخ .

فحسب وانما كانوا يحاولون ان يتخذوا منها وسيلة ـ في بعض الاحيان ـ يبسطون فيها رغبتهم ويفسرون في اطارها ما يدور في اذهانهم من الفكر ، مستخدمين في ذلك احوال هذه الصور واشكالها للتدليل على الغاية التي يهدفون اليهـــا .

وضخامة بعض الجبال وعظمها في نفوسهـــم ، ونباتها دفعتهم الى ان يضربوا بها المثل في الصبر على النوازل قال الحارث بن حلزة[1] :

فلو أن مـــا يـــأوي إلى اصاب من ثهلان فنـــدا
أو رأس رهوة أو رؤو س شمارخ لهددن هدا

ويتصور امرؤ القيس الليل ويحس اسرافه في الطول حتى ليظن ان نجومه شدت بيذبل ، فهي لا تتحرك ولا تزول ، ثابتة ثبات هذا الجبل .

يقول :[2]

فيا لك من ليل كأن نجومـــه بكل مغار الفتل شدت بيذبـــل

اما لبيد فقد اقترنت في نفسه صورة الجبل بصورة الكتيبة العظيمة فحينما اراد ان يرثي النعمان بن المنذر وصف كتيبته فقال[3] :

كأركانِ سلمى اذْ بَدَتْ وكأنّها ذُرَى أجأ إذْ لاح فيها مُواسل[4]

وقال سلامة بن جندل يصف كتائب قومه وسلاحها[5] :

له فَخمةٌ ذفراءُ تَنفي عَـــدُوَّه كمنكبِ ضاحٍ من عَمَايةِ مُشرق[6]

وبالغ بعضهم فجعلها اماكن مقدسة يقسم بها . قال اوس بن حجر[7] :

حلفتُ بربّ الداميات نحورُهـــا وما ضَمّ اجمادُ اللّبين وكبكبُ

(١) البكري : معجم ما استعجم ٣٤٧/١ (٢) امرؤ القيس. الديوان/١٩ (٣) لبيد . الديوان/٢٦٣ (٤) المواسل: الراغب . (٥) الاصمعي . الاصمعيات/١٥٢
(٦) الذفراء: الرائحة من الحديد والصدئة (٧) اوس بن حجر . الديوان/٧

على ان هـــذه الصور المتقدمة لم تمنعهم من تصوير بعض المعـــاني التي تعارفوا عليها ووصفوها بالجبال سمواً ومفاخرة . كالحلم والرزانـــة قال بشر [1] :

لو يوزنون كِيالاً أو مُعـــايرةً مالوا بِرضوى ولم يَعْدِلهُمُ أُحُدُ

وقال لبيد يفخر بقومه [2] :

قومي أُولئـــك ان سألتِ بخيمهـــمْ ولكلّ قوم في النوائب خـــيمُ
وهُم حلومٌ كالجبـــالِ وسادةٌ نُجُبٌ وفَرعٌ ماجدٌ وأَرومَ

هذه بعض الصور التي وجدناها ممثلة في الشعر الجاهلي للجبل وقد وجدنا ان الجانب الحسي من هذه الاوصاف يشغل جانبا كبيرا من اوصافهم وان نظرتهم الى الجبل لم تكن نظرة مجردة وانما حاولوا ان يمنحوه احساسا ويضفوا عليه شعورا من الانسانية ، مستمدين منه صور العظمة والقوة والصبر والثبات. وهي نفس الاوصاف التي ظلت متداولة في الشعر لفترات طويلة .

وفي احاديث الشعراء عن الكثبان كانت صورة تشبيه بعض اعضاء المرأة بالكثيب والدعص والنقا من اوضح الصور وابرزها في توضيح قدرتهم على الوصف وبراعتهم في تتبع الشكل الذي كانوا يريدون التعبير عنه قال عبيد يصف صاحبته ويشبه عجزها بالرمل المجتمع لضخامته [3] :

صَعْـــدةُ ما علَا الحقيبةَ منها وكثيبٌ ما كان تحتَ الحِقاب [4]

وكانوا يحرصون على ان يضفوا على هذه الصورة ، الحركة التي تمـــلأ جوانبها فاذا قامت المرأة وتحركت ، فاهتزاز ردفها رمل ينهار من اعـــلى كثيب ، ضعيف الأصل . قال طرفة [5] :

---

(١) بشر بن أبي خـــازم . الديوان /٥٧ . (٢) لبيـــد . الديوان /١٣٦ — ١٣٧
(٣) عبيد . الديوان/٢٢ (٤) الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك والحقيبة : العجيزة . الحقاب : شيء تعلق به المرأة الحلي وتشده في وسطها (٥) طرفة . الديوان/٧٣

وإذا قامتْ تداعــى قــاصفٌ   مال من اعلى كثيب منقعر [1]

اما امرؤ القيس ، فيشبه عجيزتها بالنقا في لينه وامتلائه وهو مع لينه ليس بمنهال متناثر ، والوليدان يلعبان عليه ، وقد اكتفيا بلين مسه وسهولته ، وخص الوليدين لأنه لا يلعب اقل من اثنين ، ولم يجعلهما اكثر ، لأنهم اذا كثروا افسدوا الحقف فاضطربت الصورة فيقول :[2]

كحِقف النّقا يمشي الوليدان فَوقَه
بما احتَسَبا من لين مَسٍّ وتَسْهال

ويشبه الاعشى ارداف صاحبته وتثني الرداء فوقها بكثيب الرمل الذي يكاد ينهار فيقول[3] :

روادِفَهُ تثني الرّداء تساندَت   الى مثل دِعْصِ الرّملةِ المُتهيّل

ولعل هذه الصور هي التي دفعت الآمدي الى ان يقول : والعرب اذا شبهت اعجاز النساء بكثيب الرمل شرطت فيها ان تكون ندية وان تكون منطورة ، والشعراء اذا شبهوا اعجاز النساء بكثبان الرمل وصفوها بالانهيال فانما يقصدون الى تحرك اعجازهن عند المشي [4].

اما احاديث السراب وذكره فكانت تأتي من خلال اوصافهم لسرعة رواحلهم وهي تقطع المفاوز المقفرة . فبشربن أبي خازم مثلا يكني عن سرعة راحلته بالنتوء لان النتوء في رجع مرفق الناقة يكون من شدة السير فيقول [5] :

وقد أُمضي الهُمُومَ إذا اعترتني   بحرفٍ كالمُولّعــة الشّنَاع [6]
تَرَى في رجعِ مِرفقها نُتُوءاً   إذا ما الآل خَفَّق لارتفــاع

---

(١) القاصف : المرتفع من الرمل .   (٢) امرؤ القيس . الديوان/٣٠   (٣) الاعشى . الديوان/٣٥٣   (٤) الآمدي الموازنــة ١ /٣٢٣   (٥) بشر . الديوان/١١٠
(٦) الحرف من الابل : الناقة النجيبة الماضية التي انضتها الاسفار : شبهت بحرف السيف في مضائها ونجائها ودقتها، وقيل : هي الضامرة الصلبة شبهت بحرف الجبل في شدتها وصلابتها .

ويصف زهير قطعة للبيداء وقت الضحى فيشبه الآل اذا اضطرب بسيوف تنفرج ثم تلتقي فيقول[1] :

قطعتُ اذا ما الآل آضَ كأنــه سُيُوفٌ تَنَحّى نَسْفَةً ثم تلتقي[2]

اما الاعشى فيقدم لنا صورة اكثر وضوحا للسراب ، وهو يتماوج فوق الارض وبذلك يمنح الصورة احساسا وارهافا لم يتهيأ لغيره من الشعراء ويشبهه وهو في هذه الحركة المضطربة بالثوب الابيض المخطط. يقول[3]

وبيداء تيه يلعب الآل فوقهـا اذا ما جرى كالرازقي المعضد

ويشبه المثقب العبدي السراب في تقلبه عند اشتداد الحر بثياب تطوى فيقول[4] :

وآمت صواديج النهار وأعرضت لوامع يطوى ريطها وبرودها[5]

ومعظم الصور التي تحدث عنها الشعراء كانت في مجال الحديث عن سرعة نياقهم وإبلهم ، وكانوا يتفقون في تصوير اللون والحركة ، فبريق الآل يذهب ثم يعود وبياضه يلوح للناظر ثم يختفي . اما صورة ارتداء الآكـام لأردية الآل ومنظر السراب المترقرق فوق الرمال في حركته الوهمية الخداعة التي تتراءى من بعيد فهي جانب آخر من الجوانب التي ابرزها لنا الشعراء القدامى وقد تمثلت فيها الصورة الحسية الجميلة وبرزت قدرتهم على استعمال الاستعارة في المكان الملائم فأكسبتها هذه الصورة ومنحتها هذا التشخيص المحسوس ، قال لبيد يصف راحلته[6] :

فَبتلكَ إذ رقصَ اللوامعُ بالضّحى واجتابَ أرديةَ السّرابِ أكامُهـا

اقضي اللبانـةَ لا أفرّطُ ريبـةً أو ان يلومَ بحاجـة لُوّامهـا

---

(١) زهير . الديوان / ٢٤٨ (٢) نسفـة : خطوة (٣) الاعشى . الديوان /١٨٩ . (٤) المثقب العبدي . الديوان/٢٠ (٥) آمت : اشتد حرها . والاوام والاوار : شدة الحر . والصواديح : الطيور (٦) لبيد . الديوان/٣١٢ – ٣١٣

وقال بشر يصف فلاة واسعة[1] :

وخرق تَعزِفُ الجنّانُ فيـه فيافيـه يَطيرُ بهـا السّهـامُ
ذعرتُ ظبـاءَهُ مُتغوّراتٍ إذا ادّرعتْ لوامعَها الأكـام

واقترنت هذهالصور عند الشاعر بصور بطولته وهو يقطع هذه المفاوز ، ويصور ناقته التي تخترق هذه المتاهات اللاهبة ، ويصور حنينه الى الأحبة وهم يقطعون هذه الفلاة المقفرة ، فرسموا الصور المتحركة وهي تداعب عيونهم فيلاحقونها وهي تختفي بين منعطفات الرمال ثم تظهر فوق الكثبان المتناثرة . وكان مع كل لمحة من هذه اللمحات يرتسم في نفوسهم امـل ويحيا في قلوبهم حب .

وتناول الشعراء السحاب فتحدثوا عنه وعن اسمائه وانواعه وما ارتفع وتراكم منه وما علا بعضه فوق بعض مستخدمين الوانه التي تمثل الخصب والمحل وفق ما كانوا يجدونه فيها من الخصب والجدب فاذا كان السحاب بطيئا في سيره فذلك دليل على كثرة مائه قال صخر الغي[2] :

فأقبلَ منه طِوالُ الـذّرى كأن عليهنّ بيعـا جزيفاً
واقبل مَرا الى مِجْـدَلٍ سياقَ المقيّد يمشي رَسيفا

واذا كان شبيها بالهدب وبالحمل ، متدليا فذلك من علامات المطر ، قال اوس[3]

دان مسف فويق الأرض هيدبـه يكاد يدفعـه من قـام بالراح

واذا كان لونه اسود او اخضر يضرب الى السواد ، فهو المحمل بالماء قال الطفيل[4] :

---

(١) بشر . الديوان/٢٠٣-٢٠٤ (٢) صخر الغي . شرح اشعار الهذليين ١ /٢٩٥-٢٩٦ وانظر ديوان عدي بن زيد/٨٦ . (٣) اوس . الديوان/١٥ (٤) الطفيل . الديوان/٤٤

له هيدب دان كــأن فروجه   فريق الحصى والارض ارفاض حنتم

اما اذا كان السحاب اصهب او احمر فذلك دليل على الجدب قــال النابغة[1] :

صهب الظلال أتين التين عن عرض   يزجين غيما قليلا ماوْه شبمـا[2]

واعتمد الشعراء في معظم الصور التي مرت على اللون في ابراز الحقائق التي راموا التعبير عنها ، موضحين الاشكال التي ارتسمت في اذهانهـم ، مستمدين – كعادتهم في التشبيه – صورهم من البيئة التي يعيشون فيها ، فالناقة السريعة خفيفة تشبه السحاب الذي هراق ماوْه . قال الاخنس[3] :

تطاير عن اعجاز حوش كأنهـا   جهـام اراق ماءه فهو آئب

واستعاروا للسحاب المملوء بالماء ، الروايا من الابل قال علقمة مـن قصيدة يمدح بها الحارث بن جبلة وكان اسر اخاه شاسا فرحل يطلب فكه[4] :

فلا تعدلي بيني وبـين معمر   سقتك روايا المزن حيث تصوب

اما شدة السحاب وقوته وتجمعه فقد شبهت بصور كثيرة ، من ذلك تشبيه السحاب المملوء بالماء ، المترامي بعضه في اثر بعض بالجبال . قــال المزرّد[5] :

من الدهم رجاف كأن ربابـه   جبال السرى يرمى اليه ويرتمي

وكانوا يستدلون بالبرق على المطر وذكرت كتب اللغة انواعا كثيرة له فمنه المستطير والوميض والخافق والخالب[6] .

---

(١) النابغة . الديوان/١٧٠ (٢) التين : جبل مستطيل (٣) المفضل . المفضليات ٢/٥ وانظر في تشبيه السحاب بالحيوان ديوان عبيد/٣٥ والاعشى/٢٨٩ وديوان لبيد /٨٩ والكامل ٨١٧/٣ . (٤) علقمة . الديوان/١٩ (٥) المزرد . الديوان/٢٤ (٦) المستطير : المتفرق . والوميض : الضعيف . الخافق : المضطرب . الخالب : الذي ليس فيه مطر ، كأنه يخلب من يشيمه ويخدعه

وكانوا يشيمون البرق ، فاذا لمع سبعين مرة ، انتقلوا ولم يبعثوا رائدا ، لثقتهم بالمطر ، واذا كان البرق عندهم وليفا ، وثقوا بالمطر ايضا[1] . قال صخر الغي[2] :

لشماء بعد شتـــات النوى   وقد بت اخيلت برقـــا وليفـــا
اجش زبحلا لـــه هيـــدب   يكشف للخال ربطا كشيفا[3]
ارقت لـــه مثل لمع البشير   يقلب بالكف فرضا خفيفـــا

والظاهر ان لمعان البرق واستنارته وتلألوه لقي في نفوس الشعراء هوى فأكثروا من ذكره في مواضع الاشتياق ، وذكر الاحبة وهذا ما دفعهم الى مراقبته وقد حرصوا على ان تكون مراقبتهم له منفردين ، مترقبين ، وهذا ادعى للتأمل وكانوا يكثرون من استعمال الفعلين (راقب) و (أرق) وهما فعلان يدلان على الحذر والقلق ، وفي استعمال الشعراء لهما دلالة على الحالة النفسية التي كانوا يرقبون بها هذه الظاهرة الطبيعية . قال امرؤ القيس[4] :

ارقت له وقام ابو شريح   اذا ما قلت قد هدأ استطارا

وقال الاعشى[5] :

يا من يرى عارضا قد بت ارقبه   كأنما البرق في حافاته الشعل

وقال لبيد[6] :

يا هل ترى البرق بت ارقبـــه   يزجي حبيـــا اذا خبا ثقبـــا

والبرق لم يهج الشاعر الجاهلي وحده ولم يستثر اشواقه فحسب ، وانما كان يهيج وميضه الابل كذلك قال عبيد[7] :

---

(١) ابن قتيبة . الانواء ١٧٧ والوليف : الذي يلمع لمعتين لمعتين   (٢) صخر الغي شرح اشعار الهذليين ١/٢٩٤ — ٢٩٥ .   (٣) الزبحل : الثقيل . الكشيف : المكشوف
(٤) امرؤ القيس . الديوان/١٤٧   (٥) الاعشى . الديوان/٥٧   (٦) لبيد . الديوان/٢٩ وانظر صفحة/٨٨ من الديوان .   (٧) عبيد . الديوان/٨٠

وحنت قلوصي بعد وهن وهاجها مع الشوق يوما بالحجاز وميض

ولامرىء القيس مقطوعة في الغيث والسيل يصور فيها المطر وهو ينهمر حتى يعم الارض ويصور فيها هذا المطر وهو يقلع . فتبدو الاوتاد من الارض ، ولا يلبث أن يعود فتكثر سيوله وتترع القيعان . فيخرج الضب من مكمنه ، ويعدو عدوا سريعا خوفا من هذا السيل الجارف ، وما تزال هذه السيول تتدفق حتى تغمر الاشجار فلا يبقى فيها الا اعاليها . فتتراءى كأنها رؤوس معممة قطعت في ساحات حرب عنيفة . وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء فقد القت السحب بوبلها واثقالها ، تستدرها ريح الصبا الشمالية ولم تلبث ريح الجنوب ان هبت ، فانهمرت الامطار ، وعلت السيول حتى ضاقت بها خيم وجفاف ويسر[1] .
قال امرؤ القيس[2] :

دِيمةٌ هَطلاءُ فيها وطفٌ طَبَقُ الارضِ تحرّى وتَدُرُ
تُخرجُ الود اذا ما اشجذَت وتُواريه اذا ما تشتكر
وترى الضبَّ خفيفاً ماهراً ثانياً برثنه ما ينعفر
وترى الشّجراءَ في ريقه كرؤوس قُطعت فيها الخُمر
ساعةً ثم انتحاها وابلٌ ساقطُ الاكناف واهٍ منهمر
راحَ تَمريه الصبا ثم انتحى فيه شُؤبُوبُ جَنوبٍ منفجر
ثجّ حتى ضاق عن آذيّه عَرضُ خَيم فجفافٌ فيسر

وقد استمد الشاعر الجاهلي من المطر وهطوله ودفعاته وتواليه وسيوله صورا كثيرة استخدمها لبث الحركة في كثير من صور الطبيعة ، وترى ملامحها بادية في تشبيهاته . فوصف السيل الجارف وتحدره وقوته وجبروته وهو يكتسح كل ما يقف امامه من الوحوش ويكب الاشجار الضخمة على

---

(١) شوقي ضيف . العصر الجاهلي/٢٥٧ (٢) امرؤ القيس الديوان/١٤٤

وجهها . ولم يترك بتيماء نخلا ولا بيتا الا ما شيد بالصخر وقد التف بطمية جبل المجيمر حتى لكأنه فلكة مغزل وغطى ابان فبدا كأنه شيخ ملتف بكساء مخطط ، وهم في كل هذه الصور يحاولون ان يمنحوا هذا المظهر الطبيعي قوة تتآنف مع قوته في نفوسهم[1] .

وقد استمد الشعراء من الشجر صورا متعددة ، واعتبر قول كعب بن الاشرف وهو يصف طلع النخيل من اجود ما قيل من الشعر القديم[2] :

ونخيل في تـــلاع حمـــة تخرج الطلع كأمثـــال الأكف

واستغل عنترة صورة انتشار دخان العلندى استغلالا موفقا فشبه به قصائد الهجاء التي نظمها ، ليقلل من شأن خصومه ، وليدلل على سرعة انتشارها بين القبائل بلا موانع او عوائق فقال[3] :

سيأتيكم عني وان كنت نائيـــا دخان العلندى دون بيتي مذود

والفقع ذات يضرب به المثل للذليل الضعيف الذي لا امتناع به على من يضيمه لأنه ينبت على وجه الارض فيوطأ بالاقدام . وقيل هو شحم الارض ، والعرب تسميه جدري الارض . وغالبا يذكر في مواضع الهجاء قال طرفة يهجو عبد عمرو بن بشر[4] :

فأصبحت فقعاً نابتا بقـــرارة تصوح عنه والذليل ذليـــل

لقد كانت هذه الصور تملأ عليه جوانب الحياة ، حتى اصبحت بضعة من نفسه فحاول تصويرها ، وبث المشاعر فيها ، ليتمكن من نقلها نقلا فنيا صادقا وكان الشاعر موفقا كل التوفيق في وصفه لها ، وتصويره للصامت منها وللحي حتى ابرزها لنا وهي متحركة في كل جزء من اجزائها ، ملونة في كل وجه من وجوهها .

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/٢٤ – ٢٥ و/١٤٤ – ١٤٥ وديوان لبيد/٣٠ – ٣١ و٣٢ و٣٣ (٢) ابو هلال العسكري . ديوان المعاني /٣١ . (٣) عنترة . الديوان/٣٩٩ (الاعلم) (٤) طرفة . الديوان/١٢٠ وانظر ديوان النابغة/٩٩ وشرح اشعار الهذليين ١/٣٥٨ وامثال الميداني ١/٢٩٥ والمستقصى ١/١٣٤ .

الأطلال

يعد الطلل من اهم الموضوعات التي ترددت في القصيدة الجاهلية ، لعلاقته الوثيقة بانسانية الشاعر الجاهلي ، وتنازعه مع ميوله وعواطفه وماضيه وحاضره ، وقد جرت محاولات عدة لتفسير ظاهرة الوقوف على الاطلال ، ولعل اول اشارة حاولت الوقوف عند تفسير هذه الظاهرة ، وتعليل الدواعي التي دفعت الشعراء الى سلوك هذا المسلك هي قول ابن قتيبة « ان مقصد القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر اهلها الظاعنين عنها ، اذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم من ماء الى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ، ويصرف اليه الوجوه ، وليستدعي به اصغاء الاسماع اليه لان التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، والف النساء . فليس يكاد احد يخلو من ان يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم ، حلال او حرام ، فاذا علم انه قد استوثق من الاصغاء اليه ، والاستماع له ، عقب بايجاب الحقوق فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل وحر الهجير ، وانضاء الراحلة والبعير ، فاذا علم انه قد اوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة

التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماع ، وفضله على الاشباه وصغر في قدره الجزيل .

فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحدا منها اغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع بالنفوس ظمأ الى المزيد(١) . »

ومثل ما حاول ابن قتيبة تفسيرها ، حاول بعض النقاد المحدثين تفسيرها فصورها البعض بانها الصرخة المتمردة البائسة امام حقيقة الموت والفناء ، التي فجرت الكثير من الفن الانساني(٢) .

وفسر المستشرق الالماني فالتر براونه(٣) الظاهرة من خلال التماسه لالوان من التفكير الوجودي لدى الشعراء الجاهليين ، واعتبر النسيب ظاهرة تحمل ملامح من التفكير الوجودي ، واعتقد ان موضوع اختيار القضاء والفناء والتناهي ، هو الذي حرك الانسان في كل زمان ، وهو الموضوع الذي يرده عن وعيه ، والذي ينساه الانسان من حين الى حين ، وهو الموضوع الذي يسترجع فيه انسان اليوم وزنه واهميته . واعتقد هذا المستشرق ان الشعراء صدروا في نسيبهم عن مشاعر صادقة كامنة في نفوسهم ، تمثل نوعا من القلق الوجودي ،وان الاحاديث التي ذكروا فيها ايامهم السعيدة ، ووصفوا ساعات اللهو والشرب والهزل والمداعبة ، كانوا يتكلمون عنها بصرخة من الالم ، لشعورهم بان الفرح انتهى ، وان اللهو مضى ، وان الشباب فني ، ثم يقرن هذا الموقف بموقف الانسان في التاريخ كله ويرجع ذلك الى ان الانسان يشعر دائما بتهديد القضاء ، وتوعد الفناء ، وهو ينظر الى الموت اليقين ، ويخلص من حديثه هذا فيقول : ان في الشعر القديم مسائل شبيهة بتلك التي تثيرها الفلسفة الوجودية .

---

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ١/ ٢٠ – ٢١ (بيروت) (٢) مجلة الكاتب المصرية . العدد الثاني – ١٩٦١ ص٣٤ (٣) مجلة المعرفة السورية . السنةالثانية . العدد الرابع/١٩٦٣

وحاول الدكتور يوسف خليف [1] ان يجعل فترات الفراغ التي كانت تطول في بعض الأحيان وخاصة في ايام الربيع، عندما تتحول البادية الى جنة خضراء، ينطلق البدو فوقها، يسيمون ابلهم وانعامهم وشاءهم، سببا من اسباب ملء اوقات الفراغ باي شيء، حتى لا تستحيل الحياة معها فراغا باردا لا احساس بالوجود فيه، وشعورا بالضياع في هذه الصحراء المترامية الاطراف التي يخيل للانسان فيها انه يعيش في عالم لا يعرف الحدود. ولا يدرك معنى النهاية. وحددت ظروف البيئة والحضارة في المجتمع الجاهلي وسائل حل هذه المشكلة، مشكلة الفراغ في ثلاثة اتجاهات اساسية، الخروج إلى الصحراء للرحلة او للصيد، والالتقاء بالرفاق لشرب الخمر ولعب الميسر، والسعي خلف المرأة طلبا للحب والغزل.

ومن هنا ارتبطت هذه المقدمة بهذه الدوافع التي حاولوا عن طريقها حل مشكلة الفراغ في حياتهم، وتحقيق وجودهم امامها. وهي مشكلة وجد العربي حلها في هذه المتع التي لم تجد مكانا للتعبير عنها في زحمة الالتزامات القبلية الا في مقدمات قصائده.

ووقف الدكتور يوسف عند بداية هذه المقدمة: ان هذه المقدمة بدأت بداية طبيعية عند شعراء المرحلة الفنية الاولى من حياة الشعر الجاهلي، وهي المرحلة التي عاصرت حرب البسوس، وقد استطاع شعراء هذه المرحلة ان يرسوا دعائم هذه المقدمة، وان يحققوا لها – بصورة تقريبية – اطارها الشكلي ومضمونها الموضوعي، وطائفة من مقوماتها وتقاليدها الفنية التي استقرت لها بعد ذلك، والتي اصبحت معالم ثابتة في طريق الشعر العربي القديم. ومن الطبيعي ان الصورة العامة لم تكن صورة ثابتة جامدة عند شعراء هذه المرحلة، وانما كانت صورة عامة تختلف من شاعر الى شاعر في التفاصيل والجزئيات، او في طريقة العرض، او في اختيار الالوان والزوايا او في توزيع الظلال والاضواء، ثم تحولت هذه المقدمة الى مقدمة تقليدية عند شعراء المرحلة

(١) يوسف خليف. مقدمة الاطلال في القصيدة الجاهلية . ثلاث مقالات نشرت في مجلة المجلة المصرية في الاعداد ٩٨ و ١٠٠ و ١٠٤ من سنة ١٩٦٥ .

الثانية من حياة هذا الشعر ، وهي المرحلة الّتي عاصرت حرب داحس والغبراء ، والّتي شهدت ازدهار مدرسة الصنعة الجاهلية ممثلة في ابرع شعرائها ، زهير بن أبي سلمى ، الذي استطاع ان يرسي تقاليد هذه المدرسة ومقوماتها الفنية ، وان ينهض بها نهضة رائعة ، وترجع مدرسة الصنعة في بدايتها الاولى ، الى استاذين كبيرين ، وضعا اسسها ودعائمها الفنية وهما طفيل الغنوي ثم أوس بن حجر من بعده واستطاع هذان الشاعران ان يطوِّرا القصيدة العربية من صورتها البسيطة الّتي كانت عليها في مرحلة النضج الطبيعي الى صورة لا تتأتى لصاحبها الا بعد جهد طويل ، وعناء شديد ، ومعاودة للنظر فيها من اجل تجويدها وتنقيحها وتهذيبها ، بل من اجل صنعها صنعا ، واخراجها وفقــا لمقاييس دقيقة وقوالب محكمة .

ويشير الدكتور يوسف الى صور اخرى للمقدمات تختلف في اتجاهاتها ، ولكنها تلتقي عند الفكرة الّتي تعد هذه المقدمات تعبيرا عن متع الحياة الجاهلية الّتي كان فتيان العرب يعيشون لها ، ويحرصون عليها ، وتدور جميعها حول محور واحد . وهو محاولة اثبات الوجود امام مشكلة الفراغ في حياتهم ، لما وجدوه في هذه المقدمات من فرص يفرغون فيها لانفسهم ، متخففين من زحمة الالتزامات القبلية الّتي كان يفرضها عليهم ما كان بينهم وبين قبائلهم من عقد اجتماعي ، طبع الشعر الجاهلي — في مجموعه — بطابع قبلي ، وجعل الاحساس بالقبيلة في نفس شاعرها اعمق من احساسه بنفسه ، فكانت المقدمات الغزلية الّتي تتحدث عن الحبيبة نفسها ، والمقدمات الخمرية ، ومقدمـــات الفروسية ، ومقدمات الشيب والشباب ، ومقدمات اخرى اقل ظهورا منها ما نراه في مقدمات الطيف الّتي تتحدث عن طيف الحبيبة الذي يخترق استار الظلام ، ويسري في ظلمات الليل ليزور الشاعر في احلامه .

وارى أن بكاء الاطلال ليس عاطفة خاصة ، ولا تجربة وجدانية ذاتية ، بل لحظة حزينة املاها على الشاعر شعور الجماعة الّتي ينتمي اليها بالحرمان من الوطن المكاني ، وبالحنين الى الاستقرار والمقام الثابت الذي يستطيع فيه

ان يقيم بيتا ، يخلد فيه ذكرياته ويسترجع ملاعب صباه وهو في الواقع لا يواجه ذكرى حبه فحسب ، وانما كانت تتداعى في ذاكرته صور شبابه الذاهب ، وهذان الدافعان يكفيان لخلق عاطفة تثير في نفسه جوا مناسبا يحمله على الحنين ، ويعد ذلك التمهيد الذي يخلق الجو الشعري المناسب لقول القصيدة . وقد اصبحت المقدمة الطللية – بكل صورها والوانها – تؤدي وظيفة خلق هذا الجو الشعري ، الذي يمنح الشاعر القدرة على القول ، لانه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة ، تمده بالمشاعر التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس في نفسه من الاحساسات ، ويدور في ذهنه من الافكار والحوادث وهو في نفس الوقت يهيء الجو المناسب للمستمع الذي يجد في هذه المعاناة شبها لما يحسه هو ، فينشيء الشاعر بهذه البداية لنفسه ولسامعه وقارئيه حالة شعورية مليئة بعواطف الحنين والشوق والاستعداد للانشاد او الاستماع او المتابعة ، يبتعد فيها الانسان عن كل ما يحيط به ، او يتصل بحياته القريبة ، وهذا ما دفع الشعراء الى التزامها ، والتقيد بمعانيها ، والمحافظة على اصولها . ولا شك في انها تمثل تجربة الرحلة التي قامت عليها الحياة الجاهلية . فالحنين الى الطلل يمثل الحنين للوطن لان الطلل وما يحيط به وما يتناثر حوله من الدمن يمثل مجموعة الذكريات التي عاشت في ذهنه فحفظ لها اجمل الاوقات واسعد الايام ، فلا غرابة اذا وجدنا الشاعر الجاهلي يبرز ذاتيته ويفرغ شخصيته ، محاولا بذلك اثبات وجوده المبعثر في هذه الصحراء التي لم يضمن فيها مسكنا يلم حياته الضائعة وسط رحلة لا تستقر وتنقل لا يقف ، وانعكست هذه الذاتية حتى في الشكل العام للقصيدة الجاهلية فهو عندما ينتهي من وقوفه القصير او الطويل عند الطلل الشاخص او الدارس ، ينتقل الى ما يتعلق بالطلل من ذكريات ، وليس ذكريات أعذب في نفسه من ذكريات الاحبة ، فيذكر حبيبته وذكرياته معها وطيفها ووصلها وهجرها ، وكل ما يتعلق بها ، ثم ينتقل الى فرسه ، او ناقته ، لانها وسيلته لاظهار بطولته وشجاعته وفروسيته ، وكل هذه الصور والمظاهر تقابل وتماثل مرحلة الشباب والفتوة عند الشاعر ،

وفيها يظهر قوته وجرأته في اختراق المفاوز ، ثم تدركه فترة التأمل والعبرة والتعقل ، فيختم القصيدة بابيات الحكمة التي تتمثل فيها تجربته في الحياة الطويلة ، وخبرته في مسالكها الوعرة ، وسأمه منها ، والنهاية الحتمية لطبيعة الحياة . وهكذا نجد الشكل العام للقصيدة يمثل تطورا طبيعيا لمراحل الحياة التي يمر بها الانسان وذلك لا يمنع من ان كثيرا من الشعراء كانوا مقلدين تابعين لمن سبقهم في وقوفهم وغزلهم وذكر بطولاتهم ونهايتهم ، لان هذه الظاهرة بدأت طبيعية عند اوائل الشعراء الذين وردت في شعرهم ، ثم تحولت الى ظاهرة تقليدية عند غير هذه الطبقة من الشعراء ، وربما جاز لنا ان نربط بين حياة التنقل وعدم الاستقرار ، وطبيعة الحياة المتنقلة ، القائمة على الترحال الدائم والتجوال المستديم ، والتي جعلت الشاعر يمكث في المنطقة ما دامت عميمة الخصب ، حتى اذا اجدبت الارض ، ونضبت العيون ، وشعر بالمحل يهدده ويهدد رواحله وانعامه رحل الى حيث يتوفر الخصب ، ويكثر الكلأ ، وتنتشر العيون ، اقول ربما جاز لنا ان نربط بين هذه الحياة وبين بناء القصيدة العربية التي كان ينتقل فيها بسرعة الى اغراض متعددة ، فكنا نرى الشاعر لا يكاد يقف عند معنى من المعاني التي تساوره حتى يتجاوزه ال معنى آخر ، يعن له ، ويخطر بذهنه ، وما يزال حاله على هذه الشاكلة الى ان ينتقل الى غرض آخر ، وهكذا نجد طبيعة هذه الحياة تطبع تفكير الشاعر ، وتدفعه الى ان يبني جميع أحكامه ، ويقرر كثيرا من حقائقه على ضوء هذه الظاهرة التي احاطت به .

والواقع ان وقوف الشاعر الجاهلي عند اطلال احبته ، او بكاء دياره التي هجرها ــ او اضطر الى هجرها ــ لم يكن غريبا ، لان الطلل عندهم قطعة من الحياة التي تهرم كلما مضى منها جزء لا يستطيع الانسان رده مهما حاول ، فكأن البكاء على الطلل اصبح يعني البكاء على الحياة نفسها ، وكأن البكاء على الحياة يمثل نقطة الانطلاق في تفكير الشاعر الجاهلي . فهو ينظر الى الطلل ، ويحس بعمق الحالة التي تصادفه ، فيربط بين فكرتي الحرمان

من الوطن وعمق حالة النزوح والارتحال. وعندها لا يجد شيئا يناجيه غير هذه المعالم الضئيلة التي صعب على الناس حملها ، فظل الزمن يجد في ازالتها ، والاحجار الصماء التي طال عليها الدهر ، والاثافي السفع المحترقة التي اختلفت عليها الخطوب والاحداث ، والدمن المتبقية ، والحيوانات الوديعة التي ترود ملاعب صباه . وكلما كان الاثر اكثر اندراسا ، كان التأثير اقوى في نفس الشاعر ، وابعث في استثارة عواطفه ، وكان قسم من الشعراء يحرص على ان يكون حديثه عن الطلل بصيغة التثنية ، لان اقل اعوان الرجل في ابله وماله اثنان واقل الرفقة ثلاث الى جانب طبيعة الرحلة التي كانت تفرض على الشخص ان لا يرحل وحده وانما يرحل مع رفيقين ، ويدل على ذلك من بعض الوجوه قوله تعالى لمالك خازن جهنم « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد »[1].

اما الظاهرة الاخرى التي نجدها ، فهي محاولة الشعراء. تحديد الفترة الزمنية التي مرت على ترك هذا الاثر ، والواقع ان هذه الفترة التي يحصرها الشاعر الجاهلي بهذه السنوات غالبا ما تكون من فترات حياته المملوءة بالنشاط والحيوية والقدرة على اظهار البطولة ، فعهد زهير بهذه الديار من بعد عشرين حجة كما يقول[2] . ولم يهتد اليها الا بعد الجهد والتعب ، او يجعلها حججا غير محدودة فيقول[3] :

لمن الديار بقنة الحجر اقوين من حجج ومن دهر

او يحصرها بثماني سنوات فيقول[4] :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو
واقفر من سلمى التعانيق والثقل

---

(1) سورة ق . الآية : ٢٤ وانظر ديوان عبيد/١١٥ ، ١٣٠ وديوان امرىء القيس ٨ و ٩ و ٨٩ و ١٠٥ و ١١٤ وديوان بشر بن ابي خازم/٢٠ و ١٠٩ و ١٣٨ . (٢) انظر ديوان زهير/٧ (٣) زهير . الديوان/٨٦ (٤) زهير . الديوان/٩٦

وقـــد كنت من سلمى سنينـــا ثمانيا
عـــلى صبر امر ما يمر وما يحـــلو

ويحدد امروْ القيس ثلاثين شهرا في قصيدة [١] ، وعامين في قصيـــدة اخرى [٢] ، وأزمانا غير محدودة في ثالثة [٣] . اما النابغة فيؤكد هذه السنوات فيجعلها سبعا كوامـلَ [٤] ، ومثل ذلك يصنع الشعراء الآخرون [٥] .

وكانوا يحرصون على تحديد المواضع وتسميتها وتعديدها ، لان وقوفهم على هذه المواقع يدخل الرضا الى نفوسهم ، ويجعلهم يطمئنون الى صحتها ، بسبب الرياح الشديدة التي تهيل التراب عليها فتغطيها ، وعند ذلك يصعب الاهتداء اليها مما يدفعهم الى تركها ، وقد حفل الشعر باسماء هذه الأماكن وقد ورد منها في شعر عبيد : المذانب وواهب [٦] وصاحة وحروس [٧] ولبنى وفيحان والقطبيات والدكادك والجمد والشقيق والامل [٨] . وورد منهـــا في شعر امرىء القيس : الدخول وحومل وتوضح والمقراة [٩] وسحام و عمايتـــان والهضب وذو اقدام [١٠] . وذكر طرفة [١١] وعنترة [١٢] وزهير [١٣] والنابغـــة [١٤] ولبيد [١٥] اماكن اخرى . وهذان الباعثان كانا من بواعث الاثارة والاستذكار ، فلا غرو اذا وقف الشعراء عندها هذه الوقفة ، وسكبوا بين بقاياها ارق العواطف ، وانعموا عليها بالسلام ، وذكروا ما تعفيه الرياح والامطار وصوروا

(١) انظر ديوان امرىء القيس/٢٧ (٢) انظر ديوان امرىء القيس/٣٠٠ (٣) نفس المصدر/٨٩ (٤) انظر ديوان النابغة/١٥٥ و ١٩٥ (٥) انظر ديوان بشر ١٨٦ وانظر المفضليات ٢/٥٨ و ٢٠٧ (٦) انظر ديوان عبيد/٨ (٧) نفس الديوان/٦٧ (٨) نفس الديوان/٩٦ و ٩٧ وانظر الصفحات ١٠٥ و ١٢١ و ١٣٢ (٩) انظر ديوان امرىء القيس /٨ (١٠) نفس الديوان / ١١٤ وانظر الصفحات ١١٨ و ٢٥٥ (١١) انظر ديوان طرفة/٣٠ و ١١١ و ١١٦ و ١٢٢ (١٢) انظر ديوان عنترة/٣٨٧ و ٣٩٤ (١٣) انظر ديوان زهير/٤ و ٥٦ و ٥٧ و ٨٦ و ٢٠٦ و ٢٠٨ و ٢١٩ و ٢٦٨ (١٤) انظر ديوان النابغة/١٤٩ و ١٥٥ و ١٦٩ و ١٩٩ و ٢٠٥ و ٢٠٨ و ٢١٢ (مختار الاعلم) (١٥) انظر ديوان لبيد /٧٢ و ٩٥ و ١١٨ و ١٣٨ و ٢٣٢ و ٢٨٨ و ٢٩٧ .

ما بقي من آثارها بابدع ما يستطيعونه من الصور ، فاعتذروا لسكوتها بعلة الصمم والخرس ، وعرضوا لما يخلفه الحيوان فيها وقد صوروا تلك الاطلال بشتى الصور ، وشبهوها باشكال مختلفة فشبهوها بالكتاب قال امرؤ القيس :[1]

قفا نبكِ من ذكرى حَبيبٍ وعرفان
ورسمٍ عفتْ آياته منذ ازمـــان
أتتْ حجج بعدي عليهـــا فاصبحت
كخط زبور في مصاحف رهبـــان

وقال عبيد [2] :

لمن دمنة اقوت بجوة ضرغـــد تلوح كعنوان الكتاب المجدد

ثم يشبه الديار بالكتاب في استوائه[3] :

لمن الدار اقفرت بالجنـــاب غير نؤى ودمنة كالكتاب

اما تشبيه آثار الديار بالصحف ، فهو معنى متداول بين الشعراء قـــال بشر [4] :

كأنها بعد عهد العاهدين بها بين الذنوب وحزمي واحق صحف

وقال عنترة[5] :

كوحي صحائف من عهد كسرى فاهداها لاعجم طنطميّ

ويحاول الشاعر ان لا يقف عنـــد الاثر الذي تركه الاحبة ، وانما يعمد الى ما بقي من هذا الاثر ، فيشبهه بآثار الكتابة على الاحجار، محاولا ان يعقد هذه المقارنة بين هاتين الصورتين اللتين ارتسمتا في ذهنه . يقول عبيد[6] :

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/٨٩ انظر ديوان ابي دوُاد/٢٩٣ (٢) عبيد . الديوان /٥٢
(٣) عبيد . الديوان/٢١ وانظر ديوان زهير/١٢٦ و ١٤٦ و ٢٦٨ (٤) بشر . الديوان /١٣٧ . (٥) عنترة . الديوان/٣٩٤ (مختار الشعر الجاهلي) (٦) عبيد . الديوان/ ٦٧

لمن الديـــارُ بصاحَة قحروس
دَرَستْ من الإقفار أنيَّ دُرُوس

إلاّ أواريّـــاً كأن رُسُومَهـــا
في مُهرَقٍ خلق الدّواة لبَيسِ

وقال لبيد [1]:

فمدافعُ الريّان عُرّي رسمُها خَلَقاً كما ضَمَنَ الوُحيَّ سلامها

ويشبه زهير رسوم الدار برق مكتوب ، قد اتى عليه الدهر فأذهب معالمه يقول[2] :

أمن آل ليلى عرفت الطلولا ندى حرض ماثلات مثولا
بكـــين وتحسب آياتهـــن . عن فرط حولين رقا محيلا

واخذت الصورة تستكمل ابعادها عند بعض الشعراء الجاهليين ، مما جعلها تأخذ شكلا جديدا ، مغايرا للصورة التي رسمها الشعراء الاوائل ، وفي هذا التصوير تكمن براعة هذا البعض من الشعراء ، وتظهر قدرتهم على هـــذا التحقق الدقيق ، قال سلامة بن جندل[3] :

لمن طلل مثل الكتاب المنمق خلا عهده بين الصليب فمطرق
أكب عليه كاتب بدواتـــه وحادثه في العين جدة مهرق

ويشبه بشر بن ابي خازم ما بقي من آثار الديار بالالواح المزخرفة يقول[4] :

فكأن اطلالا وبـــاقي دمنة بجدود الواح عليها الزخرف

ويقف الشاعر امام الاطلال متعجبا من بقاء آثارها ، مع ان العهد بها قديم ، وهو بالرغم من كل هذه القسوة التي تقسوها الطبيعة على ذكرياته ،

---

(١) لبيد . الديوان/٢٩٧ . (٢) زهير . الديوان / ١٩٣ – ١٩٤ (٣) الاصمعي . الاصمعيات / ١٤٦ (٤) بشر بن ابي خازم . الديوان /١٥٢

فانه يخفف من ذلك بما يضفيه عليها من النعوت فهي كتاب اكب عليه الكاتب بدواته ، يسوي سطوره مرة ، ويخالف اخرى ، لعدم مجيئها على استواء واحد ، وهي صورة حية لعبث الدهر وقضائه وحيرة الانسان منذ القديم ، وهي الصورة التي ظلت تعيش في ذهن البشرية آمادا طويلة . قال ثعلبة بن عمرو العبدي[1] .

لمن دِمَنٌ كأنهن صَحائف قِفارٌ خلا منها الكثيبُ فواحِفُ
فما احدثت فيها العُهُودُ كأنما تلعّب بالسَّمان فيها الزخارف
اكبّ عليها كاتبٌ بدواته يُقيمُ يديه تارة ويخالف

ويصورها الحارث بن حلزة اليشكري بصحف الفرس ، فيقول[2] :

لمن الديارُ عفونَ بالحُبْس آياتُها كمهارقِ الفُرس

اما مقابلة صورة الاثر بالوشم فلا بد ان تعكس لنا المعنى المراد من ثبات هذا الاثر الذي يشبه ثبات الوشم ، وقد تعاور الشعراء على هذه الصورة وتداولوها ، قال عنترة[3] :

الا يا دار عبلة بالطوى كرجع الوشم في كف الهدى

وقال طفيل الغنوي[4] :

لمن طلل بذي صيم قديم يلوح كأن باقيه وشوم

وزهير لا يكتفي بظهور ديار احبته كالوشم ، وانما يجعل الوشم مرجعا ، ويجعله في نواشر المعصم ، تثبيتا لفكرة الوضوح والبقاء والحركة التي يريد الشاعر ابرازها في صورته ، واظهارها في وصفه . فالوشم ثمرة صناعة وتحلية ، وهذا يخلص بنا الى الربط بين عواطف الشاعر التي تحمل صورة الوشم ،

---

(١) المفضل . المفضليات ٢/ ٨١ (٢) المفضل المفضليات ١/ ١٣٠ (٣) عنترة . الديوان / ١٩٠ (٤) طفيل الغنوي . الديوان/ ٦٤ وانظر ديوان طرفة/ ٣٠٨

وهي منقوشة على يد الحبيبة ، تزينها وتجملها ، وصورة آثار هذا الطلل التي تحلي هذا المكان وتجمله . ومن هنا كانت صورة زهير ، وصورة غيره من الشعراء تؤدي اكثر من وجودها ، وتتجاوز النطاق المحدد لها ، قال زهير (١) :

ديار لها بالرقمتـــين كأنها   مراجيع وشم في نواشر معصم

وهنالك صور اخرى ترددت في تضاعيف هذه الصور ، فيها شيء من الجدة بالنسبة لما عهدناه في اوصاف وتشبيهات الجاهليين . فتشبيه ما بقي من الديار نتيجة تلاعب الرياح ، وتقادم الايام ، بنقوش اجفان السيف او ببرد قطع ، فجعل لكل جفن سيف منه طائفة يبطن بها ، او بوشي غمد اجــد الصانع في نقشه . هذه الصور التي ابدع في رسمها الشاعر الجاهلي ، جديدة في مجال الصور التي الفناها ، قال عبيد : (٢)

كأن ما ابقتِ الزاومس منه   والسنون الذواهبُ الاولُ
فرعُ قَضيمٍ غَلا صوانِعهُ   في يمنيٍّ العياب او خلل (٣)

ويعيد عبيد الصورة بشكل آخر ، محاولا ان يجدد فيها فيقول (٤) :

دار حيّ اصابهم سالف الدهر   فأضحت ديــارهم كالخِلال
مقفِرات الا رَمــاداً غبيّــاً   وبقايا من دِمنــة الاطلال

وتبدو الصورة عند طرفة اكثر وضوحا ودقة في قوله (٥) :

اتعرف رسم الدار قفرا منازله   كجفن اليماني زخرف الوشي ماثله

ووردت صور اخرى لتشبيه آيات الديار وعلاماتها ورسومها ، فشبهت

---

(١) زهير . الديوان /٥ .   (٢) عبيد . الديوان/٩٦   (٣) القضيم : الصحيفة او الجلد الابيض . غلا : بالغ وتأنق. العياب : جمع عيبة ، وهي الحقيبة . الخلل جمع خلة بكسر الخاء وتشديد اللام المفتوحة وهي جفن السيف المغشى بالادم ، او بطانة يغشى بها جفن السيف   (٤) عبيد . الديوان/١٠٥ ، وانظر ديوان زهير/٢٩٣   (٥) طرفة . الديوان/٣٥٤

بالثوب اليماني الموشى والمزين[1] ، او الثوب البالي[2] .

ولا بد ان تعكس لنا هذه الصور الحالات النفسية التي كانت تدور في ذهن الشاعر وهو يصف لنا هذه الآثار ، فيضفي عليها من نفسه الوانا توضح الغرض الذي يريده منها ، وتجعلنا نقف عند هذه الحالات التي دارت في ذهنه ، والتي لم يجد لها حلا غير هذا الوقوف ، وهذه الصور والتشبيهات .

ان صور الذكريات التي كانت تعيش في وجدان الشاعر الجاهلي وحنينه الذي كان لا يفارقه ، كانا يلحان ، في نفسه ، فحاول التعبير عن هـذا الالحاح المتوالي بهذه الصور المحفورة ، او المكتوبة ، او الملونة . وهي في كل هذه الحالات ترسم لنا المعاناة الحقيقية التي يعانيها هذا الانسان ، وتصور الاثر الكبير الذي كانت تجدده هذه العوامل في نفسه ، فلم يجد وسيلة يبرزها بها غير هذه ، وكأنه كان يخشى نسيانها فعبر عن ذلك بالكتابة والزخرفـة والحفر والتوشية والتجميل ، لتكون اثبت وارسخ وادق وابهج ، ولتكون مناسبة للالحاح الذي يعتور تفكيره .

وطبيعي ان ينتقل الشاعر بعد اشارته الى آثار الديار واوصافها الى تغير معالمها فالرياح والأمطار والسيول وصروف الزمان والايام ، كلها عوامل مؤثرة في هذه الاطلال كانت تتعاون على تعفيتها ومحوها ، ويحاول الشاعر في بعض الاحيان ان يفسر كثيرا من ظواهر الطبيعة بما يلائم مزاجه وطبيعته ، ولعله يرى في هذه التفسيرات راحة نفسية ، تخفف من حدة ما يعانيه ، وقسوة ما يشعر به من الحسرة والكآبة . فالآثار تتغير لتقادم عهدها ، فلم يبق منها الا بقايا تدل على رسمها ، ويحول اختلاف الرياح دون زوالها ، فكلما مستها هذه ودفنتها — بما هالت عليها من الرمل — سفرت عنها الاخرى ، واظهرتها ، فهي ، وان تغير اثرها ، باقية ، تلهب عواطف الشاعر ، كلما نظر اليها . قال امرؤ القيس[3] :

(١)انظر ديوان طرفة ٣٢٧ (٢)انظر ديوان عبيد/١١٥ (٣) امرؤ القيس . الديوان/٨

فتُوضحَ فالمقراةِ لم يعف رسمُها   لما نسجتْهـــا من جنوب وشمأل

والنظرة التي ينظرها امرؤ القيس الى الرياح ، لا ينظرها بقية الشعراء ، فعبد الله بن سلمة يشبه مرور الرياح على ديار احبته بذيل العروس ، وهي صيغة غير التي عرفناها عند الشعراء المتقدمين ، وربما يكون هذا التشبيه غريباً على الشعراء الآخرين[1] :

وكأنما جر الروامس ذيلهـــا   في صحنها المعفو ذيل عروس

فصورة الرياح كما تبدو من تصوير الشاعر لها ، برغم تعفيتها للاثر ، ومحوها لمعالمه ، وحفرها لبقاياه محببة لنفسه ، لحبه هذا الاثر ، وتعلقه بــه فكان يمتزج فيها الحب بالاشفاق .

والرياح بانواعها لا تكون سببا كافيا في رأي الشاعر ، لابادة معــالم الديار ، من رماد واثافي ، ومرابط خيل ومراح ابل وغنم وانما كان الدهر عاملا آخر من عوامل اقفارها ، فلم يترك فيها غير البقر الرواتع والظبــاء الخالصة البياض ، قال عبيد[2] :

اقوت معاملهـــا وغير رسمها   هوج الرياح وحقبـــة الايام
دار بها عِينُ النعـــاج رواتعـــا   تقرو مساربها مـــع الآرام

ويضيف الشاعر عوامل اخرى لتغيير هذه المعالم ، كالمطر والسيول ، وهي في الواقع من ابرز العوامل ، لاثرها الكبير ، وقوتها في سرعة ازالـــة بقاياها ، قال النابغة[3] :

وقفت بربع الدار قد غير البلى   معارفها والساريات الهواطـــل
اسائل عن سعدى وقد مر بعدنا   على عرصات الدار سبع كوامل

---

(١) المفضل . المفضليات ١/١٠٤   (٢) عبيد . الديوان /١٢١ ، ١٣٠ (٣) النابغة . الديوان /١٩٥ ، وانظر الصفحات/١٩٩ ، ٢٠٥ من الديوان نفسه ، وانظر ديوان امرىء القيس/٢٧٠ وديوان عبيد/٩٧ ، وديوان ابي دواد/٢٩٨ ، والمفضليات ٢/٨١

ولعل الامطار عنـــد عبيد والاعشى اقوى في تعفية الاثر ، ويسلم عبيد بحكم الزمن في ابادة معالم الأثر ، ويؤمن بشأن تقلباته ، لانه لا يؤتمن . يقول[1] :

فان تلك غبراء الجنيبة اصبحت   خلت منهم واستبدلت غير ابدال
فقد ما ارى الحي الجميع بغبطة   بها والليالي لا تدوم على حـــال

ويعود الشاعر الجاهلي الى الديار بعد أن لفته تأثير هذه العوامل فيها ، متأملا احوالها . فالآثار تعفو ، ولا يبقى منها شيء ، وتكرار الزمن يمر ، وهو يمحو آثار هذه المواضع حتى لا تكاد تعرف لأول وهلة ، لتغير معالمها ولطول المسافة بينه وبينهـــا ولكن التفرس فيها والتأمل في احوالها ، يدلان المرء على حقيقتها قال النابغة :[2]

عفَا ذو حُسا من فَرْتَنى فالفوارِعُ   فجنبا أريكٍ فالتلاعُ الـــدوافعُ
فمجتَمع الاشراج غيّـــر رسمَها   مصايفُ مرّت بعدنـــا ومرابع
توهّمت آيـــاتٍ لهـــا فعرفتهـــا   لستة اعوام وذا العامُ سابـــع

وبعد كل هذه المشاعر لا يجد الشاعر الجاهلي تفسيرا لهذا الذهول الذي يحسه الا ان يشبه نفسه بشارب الخمر المعتقة يقول عبيد[3] :

أمن رسومٍ نؤيهـــا ناجِـــل   ومن ديـــارٍ دمعُك الهـــامل
قد جرت الريح بـــه ذيلهـــا   عاماً وجون مسبـــل هـــاطِل
ظلتُ بهـــا كأنني شـــاربُ   صهباءَ ممـــا عتّقتْ بـــابـــلُ

ولا بد أن تكون حقيقة ارتباط الديار بحياة الانسان قد لازمته منذ ان عرف الحياة فكان اقفار هذه الديار بالنسبة له يعني اقفار الحياة نفسها وهذا وحده يكفي لتفجير كثير من الاحاسيس . ومن خلال ذلك كان الشاعر

---

(١) عبيد . الديوان/١١٣ ، وانظر ديوان الاعشى/١٧٥   (٢) النابغة . الديوان/١٥٥
(٣) عبيد . الديوان/٩٧ – ٩٨ وانظر ديوان امرىء القيس /١١٥ والمفضليات ٢/٢١٣ .

يحاول ان يطابق بين هذه الصور ويربط بين موت الناس ومفارقة الديار ويعد الحالين واحدة قال لبيد(١) :

ما الناسُ الا كالديار واهلها   بها يوم حلّوها وغدْواً بلاقع

ولهذا كان وقوفهم عندها يثير المشاعر ويلهب العواطف قال امرؤ القيس(٢) :

لمن طَلَلٌ ابصرته فشجاني   كخط زبور في عَسيب يمانِ

وكما كانت صور المطر والسحاب والرياح وصروف الزمان تزيل الحنين والذكريات ولا تبقي منها الا آثارها التي تلوح من خلال تلك الاطلال ، كانت صور الحيوانات وهي تجوب هذه الآثار تبعث في نفسه الاسى واكثر ما يقع عليه نظره في حالته هذه ، النعام والظباء والبقر والنعاج ، وحاول الشاعر الجاهلي ان يقتصر على ذكر هذه الحيوانات لوداعتها وجمال صورتها عنده ، ولياقتها ومناسبتها للصورة التي تحتلها هذه الديار في نفسه ، والشاعر في كل لوحة يعرضها يمنح حيوانه صفة من الصفات . فحركة الاطلاء عند زهير وهي تسير مخالفة او تحاول النهوض من مجاثمها لتلحق بأمهاتها ، تضيف الى الصورة خطوطا والوانا وحركات تجعلها اكثر قدرة على التعبير(٣) :

بها العِين والآرام يمشين خلفة   واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

ويشبه الاخنس بن شهاب النعام وهي ترود هذه الديار بالحواطب اللائي يحملن الحطب وقت العشي ، وهن يرجعن به يقول(٤) :

ظَلِلْتُ بها أعرى وأشعرُ سُخنةً   كما اعتاد محموما بخيبر صالِبُ
فَظَلّ بها رُبْدُ النّعام كأنّها   إماءٌ تُزجّي بالعِشيّ حواطب

---

(١) لبيد . الديوان/١٦٩   (٢) امرؤ القيس . الديوان /٨٥ وانظر ديوان النابغة/٢٠٨
(٣) زهير . الديوان/٥   (٤) المفضل . المفضليات ٢/٤

ويتكرر المعنى عند طرفة[١] ، ويستذكر الشاعر ايامه التي قضاها في المربع الذي ارتبعوا فيه ، وحبيبته سلمى ، ولكن المربع تبدل الى قفر ، ترتاده اولاد الظباء ، وترعاه بيض النعام[٢] .

ان جماعات النعام وحدها لم تركز انتباه الشاعر ، وانما اصوات الرياح المتجاوبة — التي عبر عنها بالعوازف — وهي تحف بأطراف هذه الديار ، واصوات ذكر النعام ، كانت ترسم له صورة أخرى من صور الفزع والخوف والفراق فيسفح عبراته ، وقد ارتسمت هذه الصورة في ذهن عبيد ارتساما واضحا فأحسن التعبير عنها فقال[٣] :

أمِن مَنزِلٍ عافٍ ومن رَسْم أطلال
بكيتَ ؟ وهل يبكي من الشوق امثالي ؟
ديـــارهم اذ هم جميع فأصبحتْ
بَسابِسَ الا الوحشَ في البلد الخالي
قليـــلا بها الأصواتُ الا عَوازِفــاً
والا عراراً من غياهِبِ آجـــال

اما البقر فهي صورة اخرى من الصور التي تمر في ذهن الشاعر وهو يذكر احبته يقول امرؤ القيس[٤] :

ترى بعر الارام في عرصاتهـــا وقيعانها كأنه حب فلفـــل

وذكرها النابغة واوس وغيرهما من الشعراء[٥] .

وتشبه صورة البقر عند المرقش الفرس الذين يمشون في القلانس[٦] ولابد ان تحمل هذه الصورة مرارة الالم الذي احس به الشاعر وهو لم يهتد الى معالم

---

(١) انظر ديوان طرفة/٣٣٥ (٢) انظر ديوان امرىء القيس/٢٨ (٣) عبيد . الديوان/١١٢ (٤) امرؤ القيس . الديوان/٨ (٥) انظر ديوان النابغة/٢٠٦ وديوان اوس/٦٣ والمفضليات ٤١/٢ (٦) انظر المفضليات ٢٩/٢

احبته حتى كادت هذه الارض تقسم بأغلظ الايمان انها ما صادفت احدا ولم يقم عليها احد بنيانا ، ولم يشد دارا — وهذا ما اشرنا اليه في بداية حديثنا عن تحديد الاماكن — ولم تحفل هذه الارض بأحسن ذكرياته واطيب ايامه ، انها صورة مريرة للألم الذي يعانيه الشاعر الجاهلي ، وخيبة مفجعة له وهو يقف على ارض لم تحفل بأيامه ، ولم تأنس بشبابه وصباه .

ويجمع الشاعر احيانا بين النعام المخضر السيقان ، والظباء الطويلة الاعناق الحسنة البياض ، في صورة واحدة[1] ولا ينسى الشاعر النعاج في صورة هذه فيجعلها رفيقة للظباء[2] ، ويحاول ان يجعل النعاج تحل محل ليلى ، التي ابى رسم دارها ان يتحول على الرغم من مرور الزمن[3] ، وعلى الرغم من هذه الاحوال التي ترد في ذهن الشاعر ، باعتبارها مرحلة انفعالية حادة ، فقد كانت تثير في نفسه الأسى ، وقد صور بشامة بن الغدير ذلك فقال[4] :

فوقفت في دار الجميع وقد جالت شؤون الرأس بالدمع
كعروض فياض على فلج تجري جداوله على الزرع

ويشبه امرؤ القيس ما يجري من دمعه — لفقد اهل الدار — بما يسيل من عيون ناقف الحنظل ، لكثرة ما يسكبه من الدمع[5] .

وعلى الرغم من ضآلة الآثار المتبقية بسبب رحلة الأحبة يتعلق الشاعر بها ويذكرها بألم وفجيعة . فالرماد المتبقي كالكحل ، واثر ذيول الرياح الشديدة على هذه الديار حُصُرٌ زينتها اصابع فنية متقنة ، وهذا ما نجده واضحاعند قراءتنا لبعض المقدمات الطللية قال النابغة[6] :

رماد ككحل العين لأيا أبينُهُ ونوْى كجذم الحوض أثلم خاشع
كأن مجر الرامسات ذيولها عليه حصير نمقته الصوانع

(١) انظر ديوان عبيد/١٠٦ (٢) انظر ديوان امرىء القيس/١١٤ (٣) انظر المفضليات ٢٠٥/٢ (٤) المفضل . المفضليات ٢٠٧/٢ (٥) انظر ديوان امرىء القيس/٩
(٦) النابغة . الديوان/١٥٦

وغالبا ما تعاوده الصورة التي عاشت في ذهنه ، فيتذكرها عند وقفته هذه حين يجد المنازل قفرا لا انيس بها ، الا مواقد نار ونؤيا قديما لم تثلمه نوائب الايام ، وصروف الليالي ، لأنها حفرت في ارض صلبة مرتفعة ، وهو في وقفاته هذه وفي استذكاره لتلك الصور كان يعد ذلك قضاء حق للذكرى ، وواجبا تفرضه المحافظة على العهد وتقتضيه المروءة [1] . وهو لا يكتفي بأن يكون وحيدا في هذا الوقوف ، وانما يريد من صاحبيه ان يقفا معه فكان يحبس اصحابه وأخلاءه والركب المصاحب له [2] .

وبعد كل هذا البكاء نرى الشاعر يستنكره ، لأنه — في اعتقاده — لايجدي نفعا ، وفي هذه المواقف المتناقضة تكمن نفس هذا الانسان الذي اجبر على هذا السلوك ، بسبب قسوة الحياة وقسوة الظروف المعاشية التي عاش تحت وطأتها قال عبيد [3] :

بل ما بكاء الشيخ في دمنـــة وقد علاه الوضـــح الشامـــل
اقوت من اللائي هم أهلهـــا فما بها — اذ ظعنوا — آهل [4]

ويفسر امرؤ القيس استنكاره للبكاء بأنه لا يرد حبيبا ولا يجدي شيئا فلا ينبغي ان يعول عليه [5] . و لما لم يجد الشاعر ردا لندائه عند هذه الاطلال اجتازها بعد ان ادى هذا الحق ، معللا ذلك بخلوها من اهلها ، ولو كان بها احد لرد عليه واجاب دعوته [6] ، أو انه ينادي او يكلم اخرس [7] . ومـــا جدوى السؤال عند جنادل خرس [8] .

---

(١) انظر المفضليات ٢/ ٨٠ وديوان طرفة/٣٠٨ (٢) انظر ديوان عبيد/١٠١والمفضليات ١٣١/١ (٣) عبيد . الديوان/٩٨ وانظر الاصمعيات/١٤٧ (٤) الوضح : الشيب (٥) انظـــر ديوان امرىء القيس/٩ وديوان عنترة/٣٦٩ والمفضليات ٢/ ٣٧ (٦) انظر المفضليـــات ٢/ ١٥٨. (٧) انظر ديوان امرىء القيس/ ١٠٥ (٨) انظر ديوان امرىء القيس/٢٤٣

وهكذا وجدنا الشعراء الجاهليين يعبرون عن احساسهم العميق بالحنين الى ملاعب الصبا ، ويقرأون في هذه الآثار المعفاة . حقيقة الموت التي تثير في نفوسهم المخاوف .

وتعد مشاهد الاطلال من اشد المظاهر الطبيعية تأثيرا في الحس والنفس ، لانها تحمل تخيلات مؤلمة من صور الحياة الدارسة فهي صورة ترمقها العين وتجتلي مظاهرها ولكن آثارها تتخلل النفس ، وتحرك الخواطر .

تصوير الحيوان

تحدث الشعراء عن الحيوان كثيرا ، وعنوا به عناية كاملة ووصفوا حركاته وصفا دقيقا ، ومثلوا هيئاته واشاروا الى عاداته اشارات كثيرة تظهر في احاديثهم وقصائدهم فتكلموا عن الناقة والفرس والكلاب والظباء وعرضوا للأسود والذئاب والضباع والحمر الوحشية والثيران والثعالب وتحدثوا عن الصقور والنسور والرخم والغراب والحمام فوصفوا اشكالها واعضاءها ورسموا لنا من خلال احاديثهم سلوكها وعاداتها وهي تقطع المفاوز ، وتخترق الصحارى وتكر على الاعداء وتنقض على الفريسة ، وتمزق اشلاء القتلى وتصيح في الخرائب وتنعب في الاماكن المهجورة موضحين لنا معتقداتهم التي صاحبت هذه الحيوانات .

على ان وصف الشعراء لبعض هذه الحيوانات لم يكن مجرد اوصاف عابرة لأعضائها ، وانما كان يشوب ذلك حس وعاطفة يضفيان على الوصف طابع الجمال والرقة . وكانت عاطفتهم عاطفة انسانية سامية ، لأنها عاطفة مساواة في الحب والحنان والمشاعر . فاذا اراد الشاعر ان يتحدث عن راحلته شبهها بحمار وحش يسوق اتنه ، تريد ان تشفي غلتها من الماء ، فاذا بها تسمع صوتا خفيفا فتقشعر ابدانها خوفا من ان يكون هناك صائد يتربص لها . حتى اذا اقتربت من مورد الماء ، وحاولت ان ترد منه صوب الصائد سهامه

فطاشت وعندها تعود مسرعة من حيث اتت ، تقدح حصى الصحراء بأقدامها . فالراحلة لم تعد مجرد حيوان وانما اصبحت بضعة من نفوس الشعراء وان اوصافهم لها وحركتهم معها تحملنا على الاعتقاد بمشاركتها لهم في هذه الاوصاف فهي تشعر بالخوف كما يشعر وتحس بالعطش كما يحس ، وتفلت من سهام الصائد كما يفلت من سهام اعدائه وخصومه ، وتعجب بالنصر كما يعجب وتحن على صغارها كما يحن على اطفاله ، وتأبى الضيم ولا تقيم في مكان اذا لم ترض الاقامة فيه كما يأبى الاقامة في مكان يسام فيه الضيم . وكان يداخل الشاعر وهو يرسم هذه الصور كثير من العواطف والمشاعر والاحاسيس . وكان الشعراء يعكفون على تصوير هذه المشاهد فيرسمون دقائقها وهم يحسون احساسا عجيبا ويشعرون شعورا عميقا بالرغبة في تصويرها واثبات خصائصها [١]

فزهير بن ابي سلمى يجعل للبقرة الوحشية التي شبه بها ناقته ولدا ليبعث فيها الحنو ، وليثير فيها العاطفة ولتحتدم في داخلها مشاعر الرعاية فتنطلق لإنقاذ هذا الولد من حالة الجوع والظمأ والخوف والقلق فيقول[٢] :

كخنساء سفعاء الملاطم حرة　　مسافرة مزؤودة أم فرقد
غدت بسلاح مثله يتقى به　　ويؤمن جأش الخائف المتوقد [٣]

ويعيد لبيد قصة هذا الصراع والعاطفة التي تدور في حياة البقرة الوحشية البائسة ، التي عدت على ولدها العوادي . فأكل السبع ابنها ، فبدأت الصياح ، وكانت تحسب ان النبات قد غطاه ، وتظل صائحة منادية حتى يجهدها الصياح والنداء ، ولم تجد بدا من ان تدخل نفسها في جوف شجرة ، لتبقى بعيدة عن المسالك ، والشجرة نابتة في كثبان تنهال رمالها في يسر ، وقد ابدع لبيد

---

(١) انظر ديوان الاعشى/٢١٣ و ٢٩٥ و ٣٦٣　　(٢) زهير . الديوان/٢٢٥

(٣) الخنساء : البقرة والخنس : تأخر الانف في الرأس . السفع : سواد في حمرة . الملاطم : الخدان . المزؤدة : المذعورة . الفرقد : ولد البقرة. الجأش : الصدر . المتوقد : الذي توقد خوفه من الفزع .

في تصوير قلق هذه البقرة الوحشية حين شبهها بلؤلؤة الغواص التي سل خيطها فانفرطت وتساقطت .

ولم يقف لبيد عند هذا الحد من تصوير مأساة هذه البقرة البائسة ، وانما يتابع رسم الصورة بعد أن هيأ لها من الالوان ما يجعلها قاتمة مؤلمة ، فـالليل اطبق على هذه البقرة ببرده وقسوته ، بهمومه واحزانه فتحملته صابرة حتى اذا انجلى هذا الليل اندفعت تصيح ، وهي حائرة تذهب ولا تعلم الجهة التي تذهب اليها ، وتجيء ولكنها تجهل الوجهة التي تريدها ، وهي في كل ذلك مترددة قلقة ، حتى اذا ادركت نهاية طفلها حزنت ، وتركت الوعي فأسحق ضرعها الذي كان حالقا ، وبدأت تتوجس الاصوات الخفيفة عن ظهر غيب ، وكأنها كانت تحسب كل فرج أولى بالمخافة من الثاني لحيرتها وقلقها وخوفها .

وهنا يعكف لبيد على رسم مشاهد الصيادين الذين اعدوا لهذه البقرة من وسائل الصيد ما يجعلهم قادرين على اصابتها فاذا يئسوا من اصابتها بالنبال ، تركوا رميهم ، وارسلوا كلابهم المعودة للصيد ، لتلحق بها ، ولكنها تذودهن - وتخرج من المعركة منتصرة قال لبيد[1] :

خنساء ضيعت الفرير[2] فلم يـرم ... عرض الشقائق طوفها وبغامهـا
لِمُعفّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ ... غُبْسٌ كواسبُ لا يُمَنّ طعامها[3]
صادفن منها غِرة فأصبنهـا ... ان المنايا لا تطيشُ سِهامهـا
باتت وأسبل واكفٌ من ديمةٍ ... يُروي الخمائلَ دائما تسجامها[4]
يعلو طريقة متنهـا مُتواترٌ ... في ليلةٍ كفر النجوم غمامها[5]

---

(١) لبيد . الديوان/٣٠٨ - ٣١٢ . (٢) الفرير : ولد البقرة . لم يرم : لم يبرح او يجاوز . الشقائق : الارض الغليظة بين رملتين . بغامها : صوتها . (٣) المعفر : ابنها الذي قد سحب في التراب . القهد : الابيض وقيل الصغير الاذن من الضأن تعلوها حمرة . الغبس : الذئاب، او الكلاب ذات اللون الاغبر . كواسب : تتعيش من الصيد . لا يمن طعامها : لا أحد يطعمها فيمن عليها وانما هي تعتمد على جهدها . (٤) الواكف : القطر (٥) الطريقة : خطة مخالفة في لونها . متواتر : مطر متتابع . كفر : ستر.

تجتافُ اصلا قالصـــا مُتنبّذا ... بعُجُوبِ أنقاءٍ يُميل هيامها[1]
وتضيء في وجه الظلام مَنــيرةً ... كجُمانةِ البحريّ سُل نظامهـــا
حتى اذا انحسر الظلامِ واسفرت ... بكرت تزلّ عن الثرى ازلامها[2]
عَلِهتْ تردّدُ في نِهاء صَعَائد ... سبعا تؤامـــاً كاملا ايامهـــا[3]
حتى اذا يئست واسحق حالق ... لم يُبله ارضاعها وفطامها[4]
وتوجّست رِزّ الانيس فراعها ... عن ظهر غيب والانيسُ سقامها[5]
فغَدت كلا الفرجين تحسَبُ أنه ... مولى المخافة خلفهـــا وامامهـــا
حتى اذا يئس الرماة وارسلوا ... غضفا دواجن قافلا اعصامها[6]
فلحقن واعتكرت لها مدريـــة ... كالسهمرية حدهـــا وتمامها
لتذودهُنّ وايقنت ان لم تذُد ... أن قد أحِمّ من الحُتوف حمامها
فتقصدت منها كَسابِ فضرّجت ... بدم وغودر في المكر سخامهـــا

وكذلك كان حديثهم عن الثور الوحشي فقد عرض له الشعراء في كثير من الصور التي وصفوا فيها رواحلهم ، فكانوا يقفون في هذه الاوصاف عند بعض الصور التي تستحق الوقوف . فقيام الثور بالحفر استوقف الشعراء قليلا فقدموا لنا من خلال ذلك صورا طريفة .

فالثور هو مكب على وجهه في الليالي الباردة ، قاضي نذور ، يصلي صلاة يقضي بها نذرا ، قال لبيد[7] :

فباتَ كأنه قاضي نذُور ... يلُوذُ بغرقد خَضِل وضال

---

(١) تجتاف : تدخل في جوفه . قالص : مرتفع . المتنبذ : الذي انتحى ناحية . العجوب : جمع عجب وهو اصل الذنب ويعني اطراف الرمال (٢) الا زلام : القوائم، شبهها بالقداح (٣) علهت : جزعت وقلقت . والنهاء جمع نهي : وهو مجتمع الماء . صعائد : اسم مكان . (٤) اسحق : اخلق وذهب ما فيه اللبن . الحالق : الضرع الذي كاد يمتلىء (٥) الرز : الصوت (٦) الدواجن : المعودة للصيد . افل : يابس . الاعصام : القلائد .
(٧) لبيد . الديوان/٧٧

وهو صيقل انكب على جلاء الوان سيف ، ليصيرها بيضا بعد زرقها[1] :

جَنوحَ الهالكيِّ على يــديه　　مُكبّاً يجتلي نُقَبَ النِّصال[2] .

وهو حداد انكب على الفحم ينفخه[3] :

مُولّي الريح رقيبــه وجبهته　　كالهبرقيّ تنحىّ ينفُخُ الفَحما

اما التّراب فكان يهيل كلما عالجه الثور ، قال لبيد[4] :

وبات يُريدُ الكِنَّ لو يستَطِيعهُ

يُعالِجُ رجّافاً من التّرب غائلا

ويرسم النابغة صورة الثور الذي بات برمل منعطف ، يرقبه خشية ان ينهال عليه[5] :

بات بحقف من البقار بحفــرة　　اذا استكف قليلا تربــه انهدما

وقال بشر بن ابي خازم[6] :

وبات مكبا يتّقيها بروقيــه　　وأرطاةِ حِقف خانها النبتُ يَحفِرُ

ومن خلال ذلك تبرز حدة القرون وقوتها وشدتها ، وحدة الاظلاف التي يعتمد عليها في تنظيف المكان الذي يأوي اليه ، قال الاعشى يصف ثورا[7] :

مكبا على روقيه يحفر عرقهــا　　على ظهر عريان الطريقة اهيمــا

وقال امروُ القيس[8] :

تعشّى قليلا ثم انحى ظُلُوفــه　　يثيرُ التّرابَ عن مَبيت ومكنس

---

(١) لبيد . الديوان / ٧٨　　(٢) النقب : الصدأ وانظر ديوان الاعشى / ٢٧٩

(٣) النابغة . الديوان/١٧٢　　(٤) لبيد . الديوان/٢٣٩　　(٥) النابغة . الديوان/١٧١

(٦) بشر . الديوان/٨٢ وانظر صفحة/١٠٢ من الديوان ايضا وديوان الاعشى /٢٩٥ .

(٧) الاعشى . الديوان/٢٩٥ وانظر ديوان امرىء القيس/١٠٢ وديوان لبيد/٨٠ و ١٤٥

(٨) امرؤ القيس . الديوان /١٠٢

وكان الشعراء يصفون جريه حتى يدهمه الليل والمطر ، فيلجأ الى ارطاة أو رمل ، يمضي فيها ليلته ، وما يزال المطر ينهمر من فوقه ، ويتحدر من على جلده كاللؤلؤ(١) .

والتفت الشعراء الى الضجر الذي يتملك هذا الثور ، والمتاعب والآلام التي يعانيها ، والسهر المفزع الذي يسيطر عليه فيدفعه الى ان يقول :

« اصبح ليل » مكنيا بذلك عن الليلة الشديدة ، قال بشر يصف راحلته بعد ان شبهها بالثور(٢) :

فبات يقول : اصبح ليل حتى   تجلى عن صريمته الظلام

وقال الاعشى(٣) :

بات يقول بالكثيب من الا   غبنة اصبحْ ليل لو يفعلْ

وفي هذه الحالة التي يعتور القلق قلب هذا الحيوان ، تتحفز اعضاؤه ، وتتيقظ حواسه ، فاذا سمع شيئا رمى ببصره فكان ذلك تصديقا منه لما يسمع ، وهو لا يخطىء في سمعه ولا بصره . وكان الشاعر يذكر ان هذه الاصوات تأتي اليه من مطلع الشمس : قال بشر(٤) :

فأدى اليه مطلعُ الشمس نَبأةً   وقد جَعَلَت عنه الضّبابةُ تحسِرُ
تمارَى بها رأدَ الضّحى ثم ردّها   الى حُرثيه حافظُ السمع مُبْصرُ

ويفصل لبيد في وصف حال حمار الوحش تفصيلا يجعلنا نحس بما يجري بقلبه من انفعالات الغيرة والحرص على اناثه حرصا لا يقاربه فيه الا الانسان ، فالاتان الوحشية تنافست فيها الفحول ، وازدحمت عليها وكثر فيما بينها الخصام ، ثم استطاع وأحد منها أن يستأثر بها من دون اصحابه ، وهنا يظهر الشك ، وتبدو الريبة ، وتشتد الغيرة فتمتلك عليه جوارحه حتى تصل

---

(١) انظر ديوان الاعشى/٢١٣ و ٢٧٩ و ٢٤٥ و ٣٢٥ .   (٢) بشر . الديوان/٢٠٥
(٣) الاعشى . الديوان/٢٧٩ .   (٤) بشر . الديوان/٨٣ ، ١٢٠ .

به حدا يحمله على العزلة ثم يحرص على هذه العزلة حرصا غريبا وهو يرى تمنع صاحبته وتجنبها .

يقول لبيد[1] :

أو مُلمِـعٌ وَسَقَتْ لاحقَبَ لاحَهُ ... طردُ الفُحُول وضَربُها وكدامُها
يعلو بها حُدْبَ الاكام مُسَحّجٌ ... قد رابه عصيانهـا ووحامهـا
باحزّةِ الثلبوت يَربـأ فوقَها ... قفرَ المراقـبِ خوفها آرامها[2]

وفي كل هذه الصور يتابع الشاعر الجاهلي هذه المشاعر ، فيصفها وكأنه يحس بها ، ويذكر جزئياتها ، وكأنه يعيش لحظاتها .

وبعد هذا الاعداد الكلي الذي تصوره الشاعر ، والتهيؤ الكامل يبدأ وصف المعركة ، وتبدأ في هذه المرحلة مقدرة الشاعر على تصوير الثور الذي يظهر منتهى الضراوة في الدفاع عن نفسه ، ويبدي اقصى ما يستطيعه من قوة ، وهو يجابه المعركة الحاسمة ، وطبيعي ان تنعكس في هذا الجانب مشاعر الشاعر وهو يعالج جانبا واضحا من جوانب الصراع المستحكم بين الحياة والموت ، وتبرز عند ذلك مقدرته على احكام الصورة ، واستيفاء الالوان الكاملة لها ليخلق الجو المناسب ، ويصور الأجزاء الدقيقة للصورة ، فالغبار يتطاير في ساحة المعركة والدماء تسيل ، والارواق تنشب في الاحشاء ، والاجساد ، فتمزق ما تصادفه والقرون الحادة التي يستطيع بواسطتها ان يكسب المعركة ، ويضرج خصومه بالدماء[3] ، ويأخذ الركض جانبا من المعركة .

---

(1) لبيد . الديوان/٣٠٤ – ٣٠٥ . (2) الملمع : الاتان التي استبان حملها . وسقت : حملت . الاحقب : العير الذي في موضوع الحقب منه بياض . لاحه : غيره . كدامها : عضها الحدب : ما ارتفع من الارض . المسحج : المعضض . أحزة : جمع حزيز وهو المكان الغليظ . يربأ : يقف طليعة ، ويشرف ويعلو . الآرام : اعلام الطريق وهو يخاف من تلك الاعلام ، لأنه يتوهم انها ما يخيفه . (3) اوس بن حجر . الديوان/٤٢ – ٤٣

قال اوس بن حجر يصف راحلته[1] :

كأنها ذو وُشوم بين مأفقــةٍ والقُطقُطانة والبُرعوم مَذْعورُ
أحسّ ركزَ قَنيص من بني أسـدٍ فانصاعَ منثويا والخطو مقصور
يسعى بغُضْف كأمثال الحصى زمعاً كأن احناكها السفلى مــآشير
حتى أُشبَ لهنَّ الثورُ مــن كَثَبٍ فارسلوهُنّ لم يــدروا بما ثيروا
ولّى مجدا وأزْمَعْنَ اللّحاق به كأنهُــنّ بجنبيــه الزنــابــيرُ
حتى اذا قُلتَ نالتْهُ اوائلُها ولـو يشاء لنجتــهُ المشــابــير
كَرّ عليها ولم يَفْشَل يُهارِشُها كأنــه بتواليهــنّ مســرور
فشكهــا بذليق حَــدُّهُ سَلِبٌ كأنه حين يعلوهُــن موتــور
ثم استمرّ يُباري ظله جَــذِلا كأنــه مرزبــانُ فــاز محبور

ويعرض لبيد للصور والاحساسات التي تحيط به ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الاحساسات مستمدة من احساسات الشاعر وتجاربه .

وكان الشعراء الجاهليون يحسنون تصوير ما يحس به حيوانهم من مشاعر وحركات فيشاركونه فيها . ومن هناكانت الصور التي يقدمونها حافلة بأمثال هذه الأحاسيس الذاتية من جهة ، والعطف والحنين من جهة أخرى .

فالحيوان الذي يصورونه أبي يأنف الهزيمة ، وقوي يفتك بالكــلاب وعطوف تأخذه العاطفة على ولده ، ومتلهف اذا شعر ان صغاره وقعت فريسة . فهو بهذه الاوصاف يمثل الانسان الذي يعقل ويشفق ويغار ويشعر بلذة الانتصار ، فتتصلب في حناياه الارادة والعزيمة .

وقد منحتهم معرفتهم بالحيوان القدرة على اختيار الصفات الواضحــة

---

(١) مأفقة والقطقطانه والبرعوم : مواضع. الزمع : الذي يسير ببطء وتؤدة يخالس الفريسة . المثابير من المثابرة. الذليق: الحاد ، ويعنى به هنا قرنه . المرزبان : الفارس ، الشجاع المقدم على القوم دون الملك وانظر ديوان بشر / ١٠١ و ١٠٤ و ١٢٠ — ١٢١ وديوان النابغة / ١٥١ وديوان الاعشى /٢١٣ ، ٢٧٩ ، ٢٩٥ وديوان لبيد/٧٦ — ٨٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦ .

فيه ، فامتازت اوصافهم له بالدقة المتناهية التي لا تتهيأ الا لمن عايشه عن قرب . قال عنترة يصف ثعبانا(١) :

له ربقة في عنقه من قميصه   وسائره عن متنه قد تقددا
رقود صحيات كـأن لسانه   اذا سمع الاجراس مكحال ارمدا

وقد مكنتهم هذه القابلية على ان يذكروا الحيات باسمائها دون صفاتها فيذكرون الافعى والاسود والشجاع والارقم(٢) .

وعرفوا مواضيع مزاحفها اذا انسابت في الكثبان والرمل ، وميزوا آثارها قال المتنخل الهذلي(٣) :

كأن مزاحفَ الحيّات فيهـا   قُبيلَ الصّبح آثـارُ السياط .

وقال الآخر ، وهو يصف حيات(٤) :

كأن مزاحفها أنسـع   جررن فرادى ومثناتهـا(٥)

وكذلك عرفوا آثار العظاء ، وميزوا بين آثار مزاحفها ومزاحف الافاعي. انشد ابن الاعرابي(٦) :

بها ضرب اذناب الغظـاء كأنهـا   ملاعب ولدان تخط وتمصع(٧)

ان هذه الملاحظات التي يصور فيها الشعراء هذه الآثار والعادات لا ينتبه اليها الا من عاش في القفار ، وراقب حركات هذه الحيوانات وادرك التغييرات التي تحصل لها في كل وقت ، وعرف اوقات خروجها وتلويها وهي تزحف .

ومن الطبيعي ان يكون الشعراء الذين عاشوا في القفار ادق في اوصافهم ، واكثر استقصاء لأوصاف اعضاء هذه الحيوانات ، لمراقبتهم لها عن قرب ،

---

(١) ابن قتيبة : المعاني الكبير/٦٧٢   (٢) الجاحظ . الحيوان ٤/٢٤٣   (٣) المتنخل . شرح اشعار الهذليين ٣/١٢٧٣   (٤) الجاحظ . الحيوان ٤/١٧٥   (٥) الانسع : جمع نسع وهو سير يضفر ويجعل زماما للبعير وغيره   (٦) الجاحظ . الحيوان ٤/١٧٥
(٧) تمصع : تسرع .

ورصد حركاتها عن كثب ، وتسجيل اوصافها بامعان . وكان تسجيل الشعراء الصعاليك ، واللصوص ، والهذليين لأوصاف حيوانات الصحراء احكم ، وحديثهم في ابراز حركاتهم ادق ، والتفاتهم الى الوانها وعاداتها وظواهرها الغريبة اصدق . فهم يتحدثون عن بؤسها وشقائها وتعاستها فمرارة الجوع التي رسمها الشنفري للذئب الذي صادفه ، تعكس مرارة الجوع الذي يشعر به الانسان المعدم[1] .

والصراع الذي صوره ابو خراش في الصحراء المقفرة بين كائناتها الحية ، يمثل الصراع الذي كان يعانيه هؤلاء الشعراء من اجل الحصول على القوت[2] وبكاء الحمام الذي استثار هموم صخر الغي يدل على قوة الآلام الكامنة في نفسه[3] . وهكذا يسير الشعراء في تتبع هذه الانفعالات ، مستخلصين تجاربهم مما يقع امامهم من صور محسوسة ، مستغلين ضواري الصحراء ، وجوارح الطير في تشبيه انفسهم او رفاقهم او اعدائهم بها . وطبيعي ان تتأثر اوصافهم ومعالجتهم لموضوعاتهم بأحوالهم الخاصة ، وظروفهم التي عاشوها .

أما الحيوان الأليف ، فكان وصف الشعراء له ادق ، وقصيدهم فيه اطول ، لأنهم آنسوا معاشرته ، ودققوا في اعضائه على ان هذه المؤانسة والتدقيق ، لم تجعل وصف الشعراء له واحدا ومكررا . فوصف امرىء القيس وعامر بن الطفيل وعنترة للفرس ، يختلف عن وصف زهير وطرفة والأعشى لأن الوصف عند الشعراء الثلاثة لم يكن مجرد وصف جامد ، لا تشعر للحس فيه روحا ، فهم يدركون دواخل هذا الفرس ، ويحسون بكل حركة يتحركها ، فيهيئون لصورهم ما يجعلها واضحة متكاملة .

ان طبيعة الحياة القاسية جعلت العربي يرتبط بالفرس ارتباطا وثيقا لأنها عنوان بارز في حياته الصعبة ، فهو انيسه في المغامرة . وصاحبه في السرى

---

(١) الزمخشري . اعجب العجب/٣٨ – ٣٩ (٢) انظر شرح اشعار الهذليين ٣/١١٩٣ – ١١٩٤ . (٣) انظر شرح اشعار الهذليين ١/٢٩٢ .

ورفيقه في الحل والترحال ، وقد لمس العربي تلك الصداقة في اشد محنه ، وتذوقها في احرج ساعاته ، وعرفها في التماع الاسنة ، وتحت ظلال السيوف ، يبثه شكواه ويقاسمه احزانه .

وكان يجيش في نفوس الفرسان احساس عميق نحو خيولهم التي تعيش معهم ، حين تنال منها سيوف الاعداء ورماحهم ، وكثيرا ما كانوا يصورون آلامها وجروحها بحيث يرفعونها الى درجة الشعور الانساني ، فيصورون شكواها والشكوى لا تصدر الا من عاقل ، وشكاية فرس عنترة[1] ، عبرة وحمحمة . اما الحارث بن وعلة الجرمي فيمنح فرسه صفة اخرى من صفات الإنسانية ، وهي نداؤها الفرسان لإظهار شجاعتهم ودعوتهم الى الثبات والصمود في القتال اذ وجدهم يولون الادبار ، يقول[2] :

ولمّا سَمِعتُ الخيلَ تدعُو مُقاعِساً تَطَالَعني من ثُغرة النّحر جائرُ[3] .

وهي تثبت في الحرب ، ولا تتألم حتى اذا جرحت ، لانها عريقة النسب أصيلة[4] تخوض الحرب كما يخوضها الفارس ، وتخرج منها محجلة الايدى دما بعد وطئها القتلى ، تأتي بالغنم ، ومن يعرف ايامها تعقبه الخير كما قال الطفيل الغنوي[5] :

طوامح بالطرف الضراب اذا بدت محجلة الأيدي دما بالمخضب
وللخيل أيامٌ فمن يصطبرْ لهـــا ويعرفْ لها ايامَها الخيرَ تعقب

ويدعو الفارس فرسه الى التأسي والصبر اذا شعر بوقع الرماح عليه ، لينالا شرف النصر[6] ، وكثيرا ما كان الفارس يستشهد بالخيل على بدئه في المعركة ، ويضفي عليها صفة العلم والدراية[7] ، وللخيل كر في الحرب

---

(١) انظر ديوان عنترة/٣٧٩ (٢) المفضل . المفضليات ١/١٦٤ (٣) ثغرة النحر : الثغرة في اعلى الصدر . الجائر : حر يؤذي الجوف عند الجوع (٤) انظر المفضليات ١/١٨٣
(٥) الطفيل الغنوي . الديوان/١٥ — ١٦ . (٦) انظر ديوان عامر بن الطفيل/٦٢
(٧) انظر ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال/٢٤٢

يباهي بها ، وكسبها غنيمة يفخر بها[1] .

فامرؤ القيس عندما اراد ان يصف فرسه ، وصفه كما وجده في طرده ولحاق صيده فصور سرعته ، ثم جعله قيدا للأوابد ، وهو لشدة هذه الحركة وقوتها وسرعتها ، كأنه يكر ويفر في آن واحد .

وهو يصب الجري صبا ، ثم يقرن هذه الحركة بغلي المرجل ، ويوحي الشاعر بكل الصور التي تحمل دلالات الحركة والسرعة والقوة ، ويهيء لذلك ما تحتاج اليه هذه العملية من ادوات واصوات واشكال ، ثم يعود لفرسه ، فهو ينطلق مسرعا كخذروف الوليد الذي امضاه ، وهو فرس ضامر كأنه ظبي في نفاره ، ونعامة خفيفة في فزعه ، وذئب في انطلاقه وشدته[2] .

اما عامر بن الطفيل ، فكان يدرك قيمة فرسه بالنسبة له ، وهو يخوض المعارك فكان يخاطبه مخاطبة الصديق للصديق ، فاذا حاول ان ينهزم هـذا الفرس ارجعه ، وان انحرف دفعه ، واذا اصيب واساه وصبره[3] .

وهم بعد كل هذا ينظرون الى خيولهم نظرة المحب الواله العاشق ، وينظرون الى كل دقيقة من دقائقها ، ويكشفون عن كل جانب من جوانبها التي لم يفطن اليها غير الفارس ، ولم يعرفها الا المحارب ، فالفرس رفيقـه الذي يشاطره النصر ، ويقاسمه الهزيمة ، وهو دليله الى المكرمة ، وقائده الى المفخرة ، وكانوا يحرصون على تشبيهه بأسرع الحيوانات[4] .

وكذلك نجد الشعراء غير متفقين في اوصافهم للناقة ، لأن الدقـة التي وجدناها عند طرفة وزهير والنابغة ولبيد والأعشى في اوصافهم لها ، لم نجدها عند امرىء القيس او عامر بن الطفيل او عنترة ، فطرفة اتخذها وسيلة يقطع

---

(1) انظر ديوان الأفوه الأودي (الطرائف الأدبية) /١٢ والمفضليات١/٦٣ (2) انظر امرىء القيس / ١٩ — ٢١ (3) انظر ديوان عامر بن الطفيل / ٦١ — ٦٢ .
(4) انظر حديثنا عن الخيل .

بها الطريق الطويل ، فعرض لوصف اعضائها ، واشار اليها باحكام ، والح في تأكيد هذه الأوصاف والأعضاء الحاحا لم نجده عند غيره من الشعراء ، حتى انه لم يترك فيها عضوا الا قابله بما وقع تحت بصره من اوجه الشبه المادية .

ولم نجد غيره من الشعراء يعرض لها بمثل ما عرض . فقد بدأ وصفه لها كما عودنا الشعراء الآخرون ، فهو يرتحل عليها اذا نزل به الهم ، وكثرت عليه الاحزان[1] .

واني لا مضي الهمّ عنــد احتضاره بعوجاءَ مرقالٍ تَروح وتغتدي .

ثم بدأ يتمثل ناقته في صورة عامة ، وهي مندفعة على الطريق ، فهي ناقة موثقة الخلق ، يؤمن عثارها وزللها ، ثم يحدد لها الطريق المستوي الذي لا يعوق السير فيها عائق فيشبه طرائقه بطرائق الكساء المخطط .

وهي في مشيتها تسابق ابلا كراما ، سريعات في السير ، تتبع وظيف رجلها وظيف يدها ، فوق طريق مذلل ، وفي هذين البيتين تظهر نزعة طرفة التصويرية في رسم التعاريج والخطوط والآثار التي تبدو في معالم هذا الطريق ، وتتجسم فرحته التي تملأ عليه حسه وهو يتبين هذه المعالم ، فتتوضح امـام عينيه ملامح الحياة التي يلمسها في آثار هذا الطريق المسلوك . ويشعر بدبيب الطمأنينة يتسرب الى نفسه وهو في هذه الصحراء القاحلة[2] :

أمونٍ كألواحِ الإران نسأتُها عـلى لاحب كأنه ظهرُ بُرْجُدِ
تباريَ عِتاقاً ناجيات واتبعت وظيفاً وظيفـاً فوقَ مَوْرٍ مُعبّدِ

ثم يصف هذه الناقة ، وهي ترعى ايام الربيع ، في واد اعتادته الامطار ، فينعتها بالذكاء ، لانها تعود الى راعيها حين يدعوها ، والقوة لأنها تدفع الفحول عنها بذنب قوي كأن جناحي نسر ابيض قد غرزا فيه ، تحركه الى

---

(١) ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال/١٤٩ (٢) نفس المصدر/١٥١ – ١٥٣ .

اعلى واسفل من فرط النشاط [1] :

تـَرَبّعت القـُفـّين بالشـّوْل ترتعي حدائق مـَولـِيّ الأسرة أغيـد
تريعُ الى صوت المُهيب وتتقي بذي خـُصَل روعات اكلف مُلبد
كأن جناحيْ مَضرحيّ تكنّفـا حفافيه شكا في العسيب بمسرد
فطوراً به خلف الزميل وتـارة على حَشَف كالشن ذاوٍ مُجَدّد

وان لهذه الناقة فخذين كاملي الخلق مكتنزتي اللحم ، كأنهما مصراعا باب قصر عال مملس ، وفقار ظهر متراصة ، متداخلة ، واضلاعها منحنية في صلابة كالقسي ، تتحمل مشاق السفر وآلامه . وقد شد باطن عنقها وما حوله الى فقار عنق صلبة [2] :

لها فـَخذان اكمل النّحضُ فيهما كأنهما بابا مُنيف مُمـَرّد
وطيّ مَحالٍ كالحُنيّ خلوفهُ وأجرِنَةٌ لُزّت بِدأيٍ مُنَضّد
كأن كِناسيْ ضالـة يكنفانها وأطرُ قِسيّ تحتَ صُلْب مؤيـد

ولهذه الناقة مرفقان شديدان بعيدان عن جنبيها ، كأنهما دلوان بيدي سقاء يجانبهما عن ثيابه ، ثم يستمر طرفة في وصف شدة اعضائها ودقة احكامها ومتانة بنيانها وسرعتها [3] .

لهـا مرفقـان أفتلان كأنمـا تـَمُرّ بسلمى دالـج متشدّد
كقنطرة الروميّ اقسـم ربها لتكتنفـا حـتى تشاد بقرمـد
صهابيّة العُثنون مُوجـودةُ القرا بَعيدةُ وخـد الرّجل مَوّارةُ اليد
أمرّت يداها فتـلَ شزر وأُجنحت لها عضُداها في سَقيف مُسنّد
جَنُوحٌ دُفَاقٌ عَندلٌ ثم أفرِعَت لها كتفاها في مُعالى مُصَعّد

ثم يقف طرفة عند آثار السيور في ظهرها وجنبيها ، فتتبادر الى ذهنه

---

(١) ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال/١٥٤ – ١٥٨ . (٢) نفس المصدر/١٥٩ – ١٦٢ . (٣) نفس المصدر/١٦٣ – ١٦٨

معالم طريق وراد المياه على هضبة في ارض مرتفعة صلبة . فتدب معـالم الحياة في نفسه ثانية ، وتتسرب ملامح الطمأنينة اليها ، فيلح في وصف هذه الآثار الحاحا فيجعلها شديدة البياض وكأنه يريد ان يفرض على الصورة كثرة اولئك الذين مروا على هذا الطريق فحفرته اقدامهم ، وابانته آثار مشيهم[1] :

كأن عُلُوبَ النسعِ في دَأياتِها مَوَارِدُ من خَلقاء في ظهر قَردد
تَلاَقَى وأحيانــاً تَبَيَّنُ كأنها بنائقُ غُــرٌ في قميص مُقدَّدَ

ثم يعود لوصف بقية الاعضاء ، التي يأتي لها بمشبهـات لم يسبقه احد اليها كما يقول الاصمعي[2] . فيصف العنق والجمجمة والخد الابيض وصفاء عينيها وصدق سمع اذنيها وارتياع قلبها وخضوعها لإرادة راكبها ، فإن شاء تركها تسير سيرا عاديا ، وان شاء جعلها تسرع . مخافة سوط شديـد الفتل[3] .

واتلعُ نهّاضٌ اذا صعّدتْ بـه كسُكان بوُصيٍّ بدجلةَ مُصْعِدِ
وجُمجُمة مثلُ العَـلاةِ كأنما وعى المُلتقى منها الى حرفِ مبرد
ووجه كقرطاس الشآمي ومشفرٌ كسبتِ اليماني قدّهُ لم يُجَرّد
وعينانِ كالمـاويتين استكنّتـا بكهفي حِجاجيْ صخرةٍ قلْتِ مورد
طَحُورانِ عُوّار القذى فتراهُما كمكحولتي مذعورةٍ أمِّ فرقد
وصادِقتا سمعِ التوجسِ للسُّرى لِهَجْسٍ خفيٍّ أو لصوت مُنَدَّد
مُؤَلّلتانِ تعرفُ العتقَ فيهمـا كسامعتيْ شاةٍ بحوملَ مُفْرَد
واروعُ نَبّاضٌ احذّ مُلَمْلَمٌ كمِرداةِ صخرٍ في صَفيحٍ مُصَمّد
وانشئتُ سامي واسطَ الكور رأسُها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد .
وان شئت لم تُرقِل وان شئتُ أرقلت مخافةَ ملويّ من القيـد مُحصد

---

(١) نفس المصدر/١٦٩ – ١٧١ (٢) انظر التبريزي في شرح القصائد العشر/٩٨
(٣) ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال/١٧١ – ١٨٠

ومن هنا كانت اوصاف طرفة مغايرة لما عهدناه عند غيره من الشعراء لأنه كان يحدق ــ وهو في حالة وصفه لهذه الناقة ــ في اعضائها كما كان يحدق ببقايا الدار ورسومها . ثم يرسم من خلال ذلك هذه الاعضاء ويصورها تصويرا دقيقا ، وقد حمله هذا الايغال في الوصف على ان ينسى مهمة هذه الناقة ، وكونها اداة للسفر التي تنسيه همه ، وتفرج كروبه .

وكذلك فإن الاعشى يكثر من وصف الصحراء ، وكان لا بدله ــ وهو المعروف بكثرة رحلاته واسفاره ــ ان يتحدث عن اوصافه للناقة ، التي تقطع به مثل هذه المهامه المقفرة الموحشة ، فهي شديدة بيضاء ، صافية العين صلبة ، لم يذهب بعزمها طفل ترضعه ، قد استنفدتها الاسفار البعيدة ، تفري الارض الملتهبة فريا بالارقال ، بخطى سريعة وقوائم صلبة[1] . وهي ضخمة سلسة القياد تنطلق بسرعة وقت الهاجرة ، حين تنكمش الظلال تحت ارجل المطى ، تعتسف الطريق اعتسافا ، تاركة وراءها اثر اخفافها مطبوعا على الرمال[2] .

وهي قوية شديدة لا تتعثر في طريقها تضرب بذنبها ذات اليمين وذات الشمال ، تكلف نفسها مشاق الرحلة فتضمر[3] .

ولكن الاعشى لا يطيل في وصف اعضاء الناقة اطالة طرفة وانما يوجز في حديثه عنها ، الا انه يطيل حين يريد ان يظهر سرعتها وقدرتها على قطع المسافات الطويلة ، فيشبهها بحمار الوحش ، او الثور ، او النعامة ، ثم يبدأ بتفصيل ما يلم به منها ، وما يعرض له من اوصافها .

وكما كان الشعراء يحرصون على تشبيه الخيل بالعقاب ، فقد كانوا يكثرون من تشبيه نياقهم بالبقر الوحشي والحمار الوحشي والنعام ، ثم

---

(١) انظر ديوان الأعشى/٥ – ٧ (٢) انظر ديوان الاعشى/٢٧ – ٢٩ . (٣) انظر ديوان الاعشى/١٠٣ – ١٠٥ ، ١١٩ – ١٣٥ ، ١٦٣ – ١٦٥ ، ١٩٧ ، ٢٤١

يستطردون في هذا الوصف. فناقة زهير تشبه البقرة الوحشية في السرعة، طليقة في الصحراء، تنتقل من موضع الى موضع، وتوصل من مكان الى مكان، ولها قرنان محددان كالسيوف وآذان مرهفة: وقد عاودها الحنين الى ولدها، فعادت اليه فكان بقايا اشلاء ودماء. تحوم حوله الطير، فعادت تجري في الصحراء وهي تنتظر المصير الذي يترصد لها. وقد تمثل هذا المصير في الصيادين. وان افلاتها من الرماة لا يعني خلاصها من النهاية المحتومة، والمصير المنتظر، وكأنها ادركت في مصير ولدها مصيرها هي بالذات: ومن خلال هذه الصورة ترتسم مأساة هذه البقرة. التي ترمز الى مأســاة الانسان نفسه[1].

وعني الشعراء برسم صورة هذه الناقة. وهي تشبه بالحمار الوحشي الذي يقاسي من آلام البرد والمطر ولظى الصيف: وهجــير الصحراء: وهؤلاء الصيادين الذين يضيقون عليه سبيل الحياة. ويملؤونها عليه قسوة وألما وتعاسة، فهو يسرع لا يلوي على شيء[2]. ورسموا صورتها وهي تشبه الثور الوحشي الذي يطوي ليالي الشتاء الباردة. مستظلا بأغصان شجر الارطاة وكثبان الرمال. فإذا تراءت له خيوط الفجر. خرج متواريا في ظلال الرمال والكثبان: حتى اذا رأته كلاب الصيد اسرعت له. محاولة اللحاق به[3]، وكذلك رسموا صورة الناقة وهي تشبه بالنعام[4].

وتتكرر مثل هذه الصور عند معظم الشعراء الجاهليين. وكانت وقفاتهم تتضح، وبواعثهم تبرز، وهم يصورون المعارك التي تنشب بين هذه الحيوانات

---

(١) انظر ديوان زهير/٢٢٥ – ٢٢٩ وديوان لبيد /٣٠٧ – ٣١٢ وديوان – الاعشى/٦٧، ٧٣، ١٠٥ (٢) انظر ديوان لبيد/٣٠٤ – ٣٠٧ وانظر ديوان الاعشى /٧، ١١٩، ١٦٥، ٢٠١/، ٢٠٧، ٢١٣، ٢٢٩، ٣٢٥، ٣٤٩. (٣) انظر ديوان امرىء القيس/١٠١ وديوان النابغة/١٥٠–١٥١، ٢١٩، ديوان بشر ٨٢، ١٠١، ٢٠٢ وديوان الاعشى/٢١٣، ٢٧٩، ٢٩٥، ٣٢٥، ٣٦١ وديوان لبيد/٧٦ – ٧٩ (٤) انظر ديوان زهير/٦٣ وديوان الاعشى/٢٢٩ وديوان لبيد/١٤٧.

وكلاب الصيد ، وبينها وبين الصيادين .

وكان الشعراء يحرصون على اتباع تقليد معين ، تنبه اليه الجاحظ ، وصرح به في قوله[1] : « ومن عادة الشعراء اذا كان الشعر مرثية وموعظة ان تكون ــ الكلاب هي التي تقتل بقر الوحشي ، واذا كان الشعر مديحا ، وقال كأن ناقتي بقرة صفتها كذا ، ان تكون الكلاب هي المقتولة ، وليس على ان ذلك حكاية عن قصة بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب ، وربما قتلتها ».

واما في اكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة ، والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم .

وهي صورة تبين لنا رغبة الشاعر ــ وخاصة في حالة المديح ــ لأنه لا يريد ان يرسم صورة الثور وهو يقع فريسة ، او ينهزم . فالثور رمز لشيخ القبيلة ، لأن ــ الأوصاف التي يخلعها الشاعر على الثور لا تتوفر الا عند الشيخ ، فهو رجل القبيلة في الشدائد ، وعنوانها في الحرب ورأسها في المفاخر وعمادها في النوائب والأزمات ، فلا غرابة بعد هذا ان يرمز الى الشيخ بهذا الحيوان الذي يمثل القوة والصلابة والسرعة في كل احواله . لأنه وجد بينهما اوجه شبه متماثلة . ولأن ــ الممدوح في اغلب الاحيان يمثل الشيخ . ومن هنا كانت قيمة الناقة التي شبهها بهذا الثور مرتفعة في نفسه منسجمة مع مفهومه الرفيع لهذا التكوين العظيم للناقة ، فأصبحت صورتها في نفسه متكاملة ، فافتراسها او سقوطها كان يعني بالنسبة للشاعر انهيار هذه الصورة المتكاملة ، وسقوط النموذج الرمزي الذي ارتسم شكله في اذهانهم وربما كانوا يتخذون الكلاب رمزا لأعداء الممدوح[2] .

ولا يفوتنا ونحن نعرض لحديث الشعراء عن الناقة ان نقول : ان الشعر

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٢/٢٠ وانظر المعاني الكبير لا بن قتيبة ١/٢٢٤ (٢) انظر قصيدة الاسعر الجعفي في الاصمعيات/١٦٠

كان الفن الوحيد الذي يعرفه البدوي ، وان محيط الحياة الذي كان يعيش فيه لم يكن ليسمح بتعاطي الفنون الأخرى ، التي فيها يفرغ الشاعر هــذه القابليات ، فكان لزاما عليه ان يستعيض عنها بهذا التفصيل الدقيق ، والايضاح الشامل ، وهو يعرض لأوصاف هذه الحيوانات التي لازمته عن قرب ، فارتسمت صور اعضائها في نفسه .

ان صحبة الشاعر الجاهلي للناقة ، وقيام حياته على وجودها ، كان من الاسباب الدافعة لهذا الفيض الزاخر من الشعر ، ردا للجميل . واعترافــا بالصحبة وأداء لواجب العطف . ويكفينا دليلا على هذا الاهتمام ان نقول : إن اربعة من شعراء المعلقات وصفوا الناقة في اكثر من مائة بيت[1] ، وهذا ما دفــع صاحب العمدة الى القول : ان اكثر القدماء يجيد وصفها ، لانها مراكبهم[2] .

واقترنت صورة الوعل في حديث الشعراء الجاهليين بصورة الموت حتى كاد شكل هذا الحيوان ، يكون الرمز المجسم لحقيقة هذا الموت ، ولا بد ان تكون هذه الصورة من الصور التي رسخت في اذهانهم ، باعتباره الحيوان الممتنع في قلل الجبال ، والمقيم في الامكنة البعيدة ، والذي يفتت باظلافــه الحجارة الصلدة ، ويعتمد في الوثوب ، وفي القذف بنفسه من اعالي الجبال على القرون[3] ، ويشرب من مناقع المياه الموغلة في اعمــاق الصحراء ، ويطالب الحيات مطالبة شديدة ، ويقوى عليها قوة ظاهرة[4] . وفي كل هذه الصور تتجسم القوة وتبرز القدرة على تحمل المخاطر . وهذا ما كانوا يحسون به . ومن هنا كان هذا الحيوان رمز القوة . ونموذج الجلد الذي شغــل تفكيرهم ، فربطوا بينه وبين الموت . واعتبروه القوة الخارقة التي يقف

---

(١) انظر معلقة طرفة والنابغة والاعشى ولبيد . (٢) ابن رشيق . العمدة ٢/٢٨٠
(٣) الجاحظ . الحيوان ٧/٢٤٨ . (٤) الجاحظ . الحيوان ٦/٥٥ وانظر الصفحات/٢٨ مــن الجزء الأول و/٥٢ من الثاني و ٤٩٧ من الثالث و ١٦٦ من الرابع .

امامها الموت متّرددا ولهذا جاء حديثه في الرثاء ، باعتباره — الصورة الأخيرة التي تخضع لهذا الجبروت ، فكل شيء يفنى ، ولو كان الاحياء يتمكنون من النجاة لنجا هذا الوعل . وكانت الصورة الأخيرة حديث الشعراء الذي رددوه في مراثيهم ، قال صخر الغي يرثي ابنه تليدا(١) :

ارى الايامَ لا تُبقِي كريماً ولا العُصْمَ الأوابِدَ والنعاما
ولا العُصَم العواقل في صُخورٍ كُسينَ على فراسنها خِدَاما(٢)

وقال يرثي اخاه(٣) :

اخي لا اخا لي بعده سبقت بـه منيَّتُه جمع الـرُّقَى والطبائِب
أعينيّ لا يبقى على الدهر قـادِرٌ بتيهورةٍ تحت الطخاف العصائبَ(٤)

اما الطير فكان موقفه لا يختلف تجاهها عن موقفه تجاه المظاهر الاخرى للطبيعة ، فهو لم ينظر اليها نظرة سلبية بحتة ، وانما استوحى نظرته اليها من ايحاء هذه الطيور له ، فالغراب نذير شؤم ، ومدعاة تطير ، والبوم مبعث قلق ، واليف خرائب ، والحمام باعث اشجان ، ومستثير احزان . وهكذا ارتسمت في ذهنه الصور لكل حيوان من هذه الحيوانات .

على ان هذه الهواجس والمشاعر لا تقف حائلا دون الانتفاع من الصور التي كانت تثيرها في نفسه بعض هذه الحيوانات ، فقد وجد في افحوص القطا صورة لتشبيه ما صلع من الرؤوس ، وذهب من الشعر ، لان القطاة تجيء الى الموضع اللين من الارض فتفحصه . وتماسه ، ثم تدير حوله ترابا ، فتبيض على غير عش ، وهي التفاتة طريفة يصورها لنا بشر بقوله(٥) :

---

(١) صخر الغي شرح اشعار الهذليين ١/٢٨٧ . (٢) الفراسن : الاكارع . الخدام : البياض . (٣) صخر الغي . شرح اشعار الهذليين ١/ ٢٤٦ . (٤) القادر : الوعل المسن . التيهورة : ما اطمأن من الأرض . الطخاف : مارق من الغيم وانظر ٢٤٩ من الكتاب نفسه والصفحة/٧٤٢ من الجزء الثاني والمفضليات ٢/٣٨ وديوان عدي بن زيد/٦٥ وديوان لبيد/٢٧٢ . (٥) بشر بن ابي خازم . الديوان/١٥

رأتني كأفحوص القطاة ذؤابتي   وما مسهـا من منعم يستثيبها

او يصورون اثر حركة الرجل بجنبي البعير ، وذهاب الوبر عنها بافحوص انثلمت جوانبه[1] ، ولا بد ان تكون الاستدارة والفراغ الذي يحصل نتيجة ذهاب الشعر او الوبر ، من العوامل الدافعة لرسم هذه الصورة التي وجد فيها الشاعر وجه شبه مناسب . واستغل الشنفري عرقوب القطاة ، وتدويره ، فشبه به فوق سهمه فقال[2] :

عليه نسارى على خوط نبعـة   وفوق كعرقوب القطاة مدحرج

وعلى الرغم من أن الشعراء الجاهليين قد امتلأت قصائدهم بذكـر الحيوان ، فهم لم يعالجوا في هذه القصائد الا حيوانات معدودة ، واغفلوا ذكر حيوانات مألوفة اخرى . كاليربوع والارنب والعقرب والفهد والبغل وغيرها من الحيوانات الاخرى وربما يعزى ذلك الى ضآلة صلتهم بها ، او طبيعة تكوينها مما جعلهم ينظرون اليها نظرة غير النظرة التي ينظرون بها الى الحيوانات الاخرى ، ولعل الرأي الذي عرضنا له في الفصول الاولى ، والذي يعلل استجابة الشاعر للمظاهر القوية اكثر من استجابته للمظـاهر الضعيفة يكون من اقوى الاسباب التي صرفت الشاعر الجاهلي عن التعرض لذكر هذه الحيوانات ، وابعادها عن الحيوانات التي انفق في وصفها طاقاته وقدراته وقابلياته .

---

(١) انظر ديوان بشر/١٩٨   (٢) الشنفري .الديوان (الطرائف الادبية)/٣٤ .

الصيـــد

اقتنع الانسان في حياته الاولى بما تجود عليه الطبيعة من غذاء ، يدفع به عن نفسه غائلة الجوع ، ومما لا شك فيه ان عملية الصيد . نشأت بسيطة وان المستوى العقلي الذي كان عليـــه لم يسمح له بتغيير هذه الطريقة ، ومن الجائز ان تكون قد استمرت مدة طويلة .

والواقع ان ضرورات الحياة ، وحاجات الافراد ، وملء اوقات الفراغ ، كانت تدفعهم إلى ممارسة الصيد بكل وسيلة ، وتثير فيهم الرغبة في الحصول على الحيوان بأي شكل كان . وظلت هذه العملية التي مارسها الانسان منذ فجر التاريخ حرفة تتناقلها الاجيال حتى العصر الجاهلي وما بعده .

وطبيعي ان يضفي الشعراء على هذه الحرفة او الهواية ، طابع الشكل الادبي ، فيتعرضون لوصف ادواتها وحيوانها ، وما يعتور هذا الحيوان وما ينتابه من مخاوف ، وما يصنعه الصياد للاحتيال على صيده ، وما يستخدمه في ذلك من وسائل . متمثلة في الخيول والكلاب ، والسهام والقسي والرماح ، وما ابدعه فكرهم من وسائل يتمكنون بها من الوصول الى هذا الصيد . حتى اصبح صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهـــم . فكانوا يدربون الكلاب عليه . ويضرونها تضرية حتى تصبح الجوارح الفاتكة .

وقد رسم الشعر الجاهلي تلك الوسائل التي استعملت في الوصول الى

هذه الحيوانات ، ويظهر ان صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم ، انما كان هم فقرائهم ومعوزيهم ، ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم[1] . وهذا ما حمل الجاحظ على القول : « وقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ، ويحقرون الصياد ، ومن ذلك قول عمرو بن معد يكرب يهجو قوما بانهم يعيشون على الصيد[2] :

أبني زيادٍ انتمُ في قَومكُمُ ذَنَبٌ ونحنُ فروعُ اصل طَيّبِ
نصلُ الخَميس الى الخَميسِ وانتمُ بالقهرِ بين مريّق ومكلب
لا يحسَبَنّ بنو طُليحَةَ حرْبَنا سوقَ الحَميرِ نجاتــه فالكوكب
حيدٌ عن المعروفِ سَعْيُ ابيهمُ طَلَبُ الوُعولَ بوفْضَةٍ وبأكلُب [3]

وكانت قصائدهم في الصيد ، او ابياتهم التي تعرضوا فيها له ، تأتي من خلال احاديثهم عن رواحلهم ، ولهوهم وايامهم ، وذكريات شبابهم لأنه يعد ضربا من ضروب الفروسية في كثير من الأحيان .

وكما كانوا يصيدون الوعول او الماعز الجبلي ، كانوا يصيدون الوحشي . ويتردد وصفهم له في اشعارهم ترددا واسعا . وهو تردد اتاح للجاحظ في حيوانه سيولا من هذه الاشعار فصور الشعراء في هذه السيول ما كان يصاحب الصيد من مراقبة واحتيال وترصد ، وقدموا من خلال هذه الاوصاف صورا مليئة بالحركة والحياة . فابو دؤاد يصور صيادا يعدو كعدو النعامة ، خفيفا ، يخفي وطأه مدة ، ويخفي شخصه ، ويتقي الناس مرة اخرى ، يقول[4] :

فاتانا يسعى تفرش ام البيض شدا وقد تعالى النهار[5]
غير جعف اوابد ونعام ونعام خلالها انوار

---

(١) انظر تاريخ الأدب (العصر الجاهلي)/٨٠ للدكتور شوقي ضيف . (٢) الجاحظ . الحيوان ٣٠٩/٢ (٣) القهر : الذل . والمريق : اراد به الصائد بالريقة ، وهي العروة في الحبل والمكلب الصائد بالكلاب . الوفضة : جعبة السهام اذا كانت من ادم . (٤) ابو دواد . الديوان/٣١٩ (٥) اتى ذلك الصائد يعدوكما تعدو النعامة .

في حوال العقارب العمر فيهـا حين ينهضن بالصياح عذار

وقال امروءُ القيس ، يصف الصياد ، وهو لاصق بالارض ، يخفي شخصه من الصيد لئلا ينفر ، ويمسح الارض ببطنه وهو يزحف[1] :

بَعثنا رَبيئاً قبـل ذلك مُخملاً كذئب الغضا يمشي الضّراء ويتّقي
فظل كمثل الخِشف يرفع رأسه وسائرُه مثلُ التّرابِ المـدقق
وجاء خفياً يسفِنُ الارضَ بطنُه ترى التّرب منه لاصقا كل مُلصَق

ولم يغفل الشعراء في حديثهم عن الصيد ، ندامة الصياد اذا اخطأ الرمي ، فهذا يعض ابهامه من الندم ، ويلهف سرا امه لئلا يسمعه الوحشي . قال اوس بن حجر[2] :

فعض بإبهام اليمين ندامـة ولهف سرا امه وهو لاهف

وكان لزهير بن ابي سلمى مهارة خاصة في استخدام الالفاظ والعبارات المثيرة التي تجعل المنظر وكانه يتحرك تحت اعيننا ، ففي حكايته للغلام الذي أنبأه بالصيد يقول[3] :

اذا ما غدونا نبتغي الصيد مرةً متى نره فاننـا لا نخـاتلـه
فبينا نبغّي الوحش جاء غلامنا يدب ويخفي شخصه ويضائلـه
فقـال شياه راتعـات بقفـرة بمستاسد القريـان حوّ مسايله
ثلاث كأقواس السراء ومسحل قد اخضر من لس الغمير جحافله
وقد خرَّم الطُّرّادُ عنه جِحاشَه فلم يبق الا نَفسُه وحلائلـه
وقال: أميري ماترَى رأيَ مانرَى انختله عن نفسهِ ام نُصاوِلُـه
فقلت له : سَدّدْ وأبصر طريقَه وما هو فيه عن وَصَاتِيَ شاغلـه
وقلت تعلم أن للصّيدِ غِـرّةً والا تضيعه فـانك قاتلـه

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/١٧٢ (٢) اوس بن حجر . الديوان/٧٢ (٣) زهير . الديوان/ ١٣٠ – ١٣٤ .

فزهير يغدو للصيد – كما يصور لنا ذلك – مع بعض رفاقه ، وهو لا يأخذ صيده بالخديعة ، وتلك مفخرة من مفاخر الصيادين المهرة .

ثم يصور هذا الغلام الذي جاء ينبئهم بمكان الصيد ، وهو حذر محتاط يدب ويخفي شخصه ويضائله ، ثم يمضي زهير في هذه الدقة التي يصور فيها المنظر ، ليحيط بما يريد ان يصوره . فهذه الحمر اربع ثلاث منهن تمتاز بالضمور واما الرابع فهو الفحل ، ثم يبلغ منتهى الدقة في هذا التصوير حين يرسم هذا الحمار وقد اكثر من رعي النبات المخضر ، حتى ظهرت خضرته في فمه . وفي هذا الجو المليء بالفزع والاضطراب والقلق يوصي زهير الغلام ، ويرشده الى الطريقة التي يجب ان يسلكها ليتمكن من صيده .

وكذلك فعل النابغة حين ذكر ناقته ، فزعم انها كالثور ، ثم اخذ يصف لنا قوائمه المزينة ، وضموره الذي يشبه السيف المسلول ، يجري في هذه الصحراء خائفا متوجسا ، ثم يقص علينا قصته حين احس بالصائد ، وسمع صوته ، وهو يهتف بكلابه ، ففزع واسرع في جريه ، وكلما اشتد به الذعر ، اشتدت قوائمه وقويت كعوبه ، واستخرج منها كل ما ينبغي من السرعة ولكن الكلاب ادركته فعطف عليها يصارعها ، ثم اهوى على الكلاب بقرنيه ، فاصاب بعضها فقتله ، واحجم البعض الآخر عن لقائه ، بعد ان اخذه اليأس ، واصابته الخيبة . قال النابغة[1] :

كأنَّ رحلي ، وقد زال النهارُ بنا ... يوم الجليل ، على مستأنس وَحِدِ
من وحشِ وجرة،موشيٍ أكارِعُهُ ... طاوي المصير ، كسيفِ الصيقلِ الفَرِدِ
أسرت عليهِ من الجوزاء ساريةٌ ... تزجي الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ
فارتاعَ من صوتِ كلّابٍ فباتَ له ... طوعَ الشوامت من خوف ومن صَرَدِ[2]
فبثهن عليه ، واستمرَّ به ... صُمعَ الكعوب. بريات من الحرد

(١) النابغة . الديوان/ ٣١ – ٣٣ (صادر) (٢) الشوامت : القوائم . الصرد : شدة البرد.

وكان ضمران منه حيث يُوزعُهُ ... طعن المعارك عند المحجر النّجُد
شَكَّ الفريصةَ بالمِدرى فانقذها ... طعنَ المُبَيطِرِ اذ يشفي من العضدَ
كأنه ، خارجا من جنب صفحته ... سفود شرب تسوه عند مفتاد
فظل يعجم اعلى الروق منقبضا ... في حالك اللون صدق غير ذي أود
لما رأى واشق اقعاص صاحبه ... ولا سبيل الى عقل ولا قود
قالت له النفس: اني لا أرى طمعا ... وان مولاك لم يسلم ولم يصد[1]

اما ناقة لبيد ، فكانت بقرة يطلبها القناص ، وهي تريد ان تنجو ، فهي تعدو ، لا تلوي على شيء ، وقد ملأها الخوف ، وتملكها الرعب ، وهي تنتظر الخطر من امامها . والخطر من ورائها ، وهي تسلم نفسها لقوائمها النحاف ، وكأنهن القداح حتى ايأست الرماة ، وفاقت النبل ، ولكن عجز الرماة ، وقصور النبل لم يؤمنا هذه البائسة ، فكلاب الصيد حاضرة ، وما اسرع ما ارسلها القناص ، فأخذت تعدو ، واخذت البقرة تعدو ايضا ، فلما استيأست من العدو ، وعرفت ألا نجاة لها الا باستقبال الخطب ، عطفت على هذه الكلاب . فكانت بينها وبينهن حرب اسفرت عن قتيلين[2] :

حتى اذا يَئِستْ وأسْحَقَ حَالِقٌ ... لم يُبْلِهِ إرضاعُهَا وفطامُها .
وتَوجّستْ رِزّ الانيس فَراعَهَا ... عن ظهر غيب والانيسُ سَقَامُهُا
فَغَدَتْ كلاَ الفرجين تَحْسَبُ أنّه ... مَولى المخافة خلفُها وامامُها
حتى اذا يئسَ الرماة وارسلوا ... غُضْفاً دواجن قافلاً اعصَامُها
فَلحِقْنَ واعتكرت لها مَدَرِيّةٌ ... كالسمهريّة حدّهَا وتَمامُها
لتذودهُنّ وايقنت إنْ لم تَذُدْ ... أن قد أُحِمَ من الحتوف حِمَامُها

---

(١) الصمع : الضوامر . الحرد : استرخاء عصب يد البعير من شد العقال ، استعارة للثور لأنه لا يشد بالعقال . المحجر . الملجأ . النجد : الشجاع . المفتاد : موضع النار الذي يشوى فيه . الاقعاص : القتل السريع . العقل : الدية . القود : القصاص (٢) لبيد . الديوان/ ٣١٠ . ٣١٢ .

فتقصدت منها كسابِ فضُرِّجتْ   بدم وغودرَ في المَكَرّ سَخامها[1]

وكان الشعراء يشيرون في اثناء حديثهم عن الصيد الى الحفر التي كان الصيادون يحفرونها ، ويحوطون جوانبها ، لينستروا بها ، ويكمنوا في داخلها . لئلا تجد الوحوش رائحتهم[2]. وكانوا يذكرون القبائل التي عرفت بمهارتها في الصيد ، فيضربون بها المثل في جودة الرمي ، كقبيلة طي التي عرف منها ابن مر ، وابن سنيس . قال امروُ القيس[3] :

فَصَبّحــه عند الشّروق غُدَيّةً   كلابُ ابنِ مُرٍ أوكلاب بنِ سنْبِس

وبني اسد التي يذكرها اوس في قوله[4]

أحسّ ركزَ قَنيصٍ من بَني أسْدٍ   فانْصاعَ مُنْشوياً والخَطْوُ مقصور

وثعل التي عرف منها عمرو الذي عد من ارمى العرب ، وفيه يقول امروُ القيس[5]

فاوردها ماءً قليـــلاً أنيسهُ   يحاذرن عَمْرواً صاحب القترات

وصباح[6] وغوث[7] وذلان[8] وذريح[9]

ومثل ما عرفت القبائل واشتهرت بمهارتها في الصيد ، عرف الاشخاص بهذه الصفة ، فكان عوف بن الارقم[10] ، وعمرو بن مسيح الطائي[1] وابن

---

(١) اسحق : أخلق وذهب ما فيه من اللبن . حالق: الضرع الذي كـــاد يمتلىء . الرز : الصوت الخفي . الدواجن : المعودة للصيد . قافـــل : يابس . اعصامها : قلائد الكلاب . اعتكرت: كرت . المدرية . الحربة وهي هنا قرونها . تقصدت : قصدت . (٢) انظر ديوان اوس /٧٠ والمعاني الكبير ٧٨٥/٢ ، والمصايد والمطارد/٢٤٢ (٣) امرؤ القيس . الديـــوان /١٠٣ (٤) اوس . الديوان/٤٢ . (٥) امرؤ القيس . الديوان/٨٠ وانظر الصفحات ٩٦ ، ١٢٣ من الديوان نفسه ، وانظر ديوان الاعشى/٣٦٣ . (٦) انظر ديوان اوس/٧٠ . (٧) انظر ديوان زهير/٢٢٨ . (٨) انظر ديوان الاعشى/١٢١ . (٩) انظر ديوان بشر/٥١ والاصابة ٤٧٠/١. (١٠) انظر ديوان الاعشى/٢٩٥ . (١١) انظر ديوان امرىء القيس/٨٠ ، وكتاب المعمرين /٧٧ .

مر وابن سنيس[1] من امهر رماة العرب ، واشهرهم في هذه الصنعة .

اما طرق الصيد ، فكانت تعتمد على المهارة والخفة والحذر واختيار الاماكن المناسبة ، فكان الرماة عادة يرصدون الوحوش عند موارد المياه حتى اذا وردت واطمأنت رموها واصابوا مقاتلها ، قال امرؤ القيس[2] :

قد أتتْه الوحش واردةً ... فتنحّى النّزعَ في يَسَرِه
فرماها في فرائصها ... بإزاء الحوضِ او عُقُرِه
برهيش من كنانته ... كتلظّي الجمر في شَرَرِه

وقال اوس بن حجر[3]

فأوردَها التقريبُ والشّدُّ منهلاً ... قَطاهُ مُعيدٌ كرّةَ الوِردِ عاطِفُ
فلاقى عليها من صُباحَ مُدمّرا ... لِناموسِه بين الصّفيحِ سقائف

وقال الاعشى[4] :

فاوردَها عَيناً من السيفِ ريةً ... بها بُرءٌ مِثلُ الفَسيلِ المكمَّم
نَباهُنّ من ذَلاّن رامٍ أعدّها ... لِقتل الهوادي داجنٌ بالتوقم

وكان بعض الصيادين يفخر بصيده لأنه لم يتستر ، ولم يخاتل فهو يجاهر وينادي من بعيد بالركوب ، ثقة منه بفرسه الذي لا يفوته الوحش مهما كانت سرعته واعتقادا منه بنفسه وقدرته على اقتناصه مهما كانت قوته ، قال علقمة[5] :

اذا ما اقتنصنا لم نُخاتِلُ بُجنّةٍ ... ولكن نُنادي من بَعيدٍ ألا اركب
اخا ثقةٍ لا يَلعَنُ الحيُّ شَخصَهُ ... صَبُوراً على العِلاّتِ غيرَ مُسَبَّبِ

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/١٠٣ . (٢) امرؤ القيس . الديوان ١٢٤ . (٣) اوس . الديوان/٦٩ – ٧٠ (روى البيت الثاني من الصفيح) والتصحيح من المصايد والمطارد لكشاجم/٢٤٢ . (٤) الاعشى . الديوان/١٢١ . (٥) علقمة . الديوان/٤٣٨ .

وقال زهير[1] :

إذا ما غَدَوْنا نَبْتغي الصَّيْدَ مَرّةً ... متى نَرَهُ فإننــا لا نُخَاتِلُهْ

وغالبا ما يشبهون الصياد بجسمه ولباسه بالذئب ، ليقظته وحذره ، وقوة شكيمته ، وترقبه[2] .

اما الحيوانات التي كانوا يستخدمونها في الصيد . فكانت الخيـــل ، والكلاب والظاهر ان الصيد بواسطة الخيل كان يعد متعة من المتع ، ومظهرا من مظاهر الفروسية وكان الشعراء يقدمون من خلال احاديثهم عن الصيد لوحات فنية جميلة ، تتناثر فيها الألوان والأصوات والصور والحركات . ومعظم النماذج التي قدمت في هذا الوصف ، كانت لشعراء عرفوا بترفهم وغناهم ، وقدرتهم على اقتناء الخيل، كامرىء القيس وعلقمة وابي دؤاد ، وزهير ، والاعشى .

وكان الشعراء يعرضون في احاديثهم عن الصيد بواسطة الفرس للأوقات المناسبة التي يمكن الخروج فيها لإدراك الصيد[3] ، واوصاف الفرس الدقيقة التي تساعده على الصيد ، فهو كريم الاب والام[4] ، مرتفع ، عظيم الخلقة يشبه الثور الوحشي بسرعته ونشاطه واعتداله واستوائه[5] ، منجرد يقيــد الاوابد ولا يغيبها عن عينيه حتى يصيدها[6] ، اضمره اقتفاء كل طلق بعيد حوافره صلبة[7] لا يعيبه تباعد ما بين الفخذين ، ولا اصطكاك العرقوبين[8] صافي اللون[9] ، الى غير ذلك من الاوصاف التي وجد فيها الشعراء عاملا من العوامل التي تساعد هذا الحيوان على تحقيق غايته ، والوصول الى صيده ،

---

(1) زهير ، الديوان/١٣٠ . (2) انظر ديوان الاعشى/١٢١ وديوان لبيد/١٤٥ .
(3) انظر ديوان امرىء القيس / ١٩ ، ٣٧ ، ٧٥ ، ١٦٠ وانظر ديوان علقمة / ٤٣٦ .
(4) انظر ديوان عبيد/١٠٩ . (5) انظر ديوان امرىء القيس/٤٦ . (6) انظر ديوان زهير/٢٢٥ . (7) انظر ديوان امرىء القيس/٦٤ . (8) انظر ديوان زهير/١٦٩ .
(9) انظر المفضليات ٢/٤٢ .

وقد ارتبط الصيد بهذه الوسيلة ببعض العادات ، فكان الفرس اذا عقر عليه خضبوه بدم الصيد ، وكذلك يفعلون مع البازي اذا صاد شيئا من عظام الطير ، وانعكست هذه العادة في تصوير الشعراء لها ، قال امرؤ القيس[1] :

كأنّ دماءَ الهاديات بنحره ... عُصارةُ حنّاءٍ بشيبٍ مُرجّلِ

وقال سلامة بن جندل[2] :

والعاديات أسَابيّ الدماءِ بها ... كأن أعناقَها أنصابُ ترْجيبِ

وقال الأعشى[3] :

بمُشذّبٍ كالجذع صا ... كَ على ترائبه خضابة

وكانوا يفضلون لحم الصيد ، وطيب مضغه على غيره من اللحوم[4] ، وتعد الكلاب الحيوان الثاني الذي كانوا يستعملونه في الصيد ، وقد ذكر الجاحظ خبرة الكلب في الصيد ، ومعرفته اذا عاين الظباء ، وقدرته على التمييز بين القريب والبعيد منها ، والمعتل وغير المعتل ، والعنز من التيس[5].

ثم عرض الجاحظ لذكائه ، ومهارته في الاحتيال للصيد فقال ، ويمضي الكلاب بالكلب ، وهو انسان عاقل ، وصياد مجرب ، وهو مع ذلك لا يدري اين جحر الارنب من جميع بسائط الارض ، ولا موضع كناس ظبي ، ولا مكمن ثعلب ولا غير ذلك من موالج وحوش الارض ، فيتخرق الكلب بين يديه وخلفه ، وعن يمينه وشماله ويتشمم ويتبصر ، ولا يزال كذلك حتّى يقف على افواه تلك الجحرة ، وحتّى يثير الذي فيها بتنفيس الذي فيها . وذلك ان انفاسها وبخار اجوافها وابدانها ، وما يخرج من الحرارة المستكنة في عمق الارض — مما يذيب ما لاقاها من فم الجحر ، من الثلج

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/ ٢١ . (٢) المفضل . المفضليات ١/ ١١٩ . (٣) الاعشى . الديوان/ ٢٨٥ ، وانظر ديوان عبيد/ ٧٠ ، وديوان امرىء القيس ٢١ . (٤) كشاجم . المصايد والمطارد/ ٩ . (٥) الجاحظ . الحيوان ٢/ ١١٧

الجامد ، حتى يرق وان لم يثقب وذلك خفي غامض، لا يقع عليه قانص ولا راع ، ولا قائف ولا فلاح وليس يقع عليه الا الكلب الصائد الماهر[1] .

وكان الشعراء يذكرون اسماء الكلاب التي يصيدون بواسطتها فهي عطاف ومجدول وسلهبة عند الاعشى[2] ، وكساب وسخام وركاح وسائل عند لبيد[3] وسحام ومقلاء وسلهب وجدلاء والسرحان والمتناول عند المزرد[4] وواشق عند النابغة[5]

والذي يبدو على هذه الاسماء ، أنهم كانوا يعمدون اليها تفاؤلا بالكسب او الاكتساب ، او اعتمادا عليها في الحصول على الصيد ، او تشبيها لها بالذئاب أو الافراس الطويلة العظيمة ، ومن عادتهم في استعمال الكلاب تضريتها ، وهي ان تترك حتى يشتد عليها الجوع ، لتكون اكثر ضراوة في الصيد ، وكانوا يطلقون عليها في هذه الحالة الضِراء ، قال عبيد[6] :

مُشْرِعاتٍ كأنّهنّ ضِرَاءٌ   سَمِعَتْ صَوْتَ هاتفٍ كَلاَّبِ

وقال لبيد[7] :

فباكره مع الاشراق غُضْفٌ   ضَوَارِيها تَخُبّ مع الرّجَال

ويظهر ان حديث الشعراء هذا كان يأتي في اثناء حديثهم عن سرعة نياقهم وتشبيهها بالثيران الوحشية ، من حيث القوة والنشاط والسرعة ، ثم ينتقلون الى وصف الثور واعتماده على اظلافه ، وغير ذلك من الاوصاف الأخرى الكثيرة ، حتى وقت الصباح الذي يحين فيه موعد مباشرة الصيادين المهرة لهذا الثور ، تصحبهم مجموعة من الكلاب الضارية[8] ، المتميزة بهزالها

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٢/١١٨ — ١١٩ . (٢) الاعشى . الديوان/٣٦٣ . (٣) انظر ديوان لبيد/٢٣٩ ، ٣١٢ . (٤) انظر ديوان المزرد/٤٧ . (٥) انظر ديوان النابغة/١٥١ (مختار الأعلم) (٦) عبيد . الديوان/٢٣ . وانظر صفحة/٣٢ من الديوان نفسه . (٧) لبيد . الديوان /٧٨ وانظر ديوان اوس/٣ وديوان الطفيل /٨ وديوان الاعشى/١٠٥ . (٨) انظر ديوان امرىء القيس/١٠٣ .

وضمورها وانطوائها وجوعها لتكون احرص على طلب الصيد[1] ، المعودة عليه ، المسترخية الآذان – وهي صفة غالبة لكلاب الصيد[2] ، تنطلق الى صيدها ، وكأنها النبال في سرعتها وقد طوقت اعناقها السيور والسلاســل والقلائد[3] :

وبعد الانتهاء من هذه الاوصاف ، يبدأ الشعراء بابراز الصورة التي يريدون اظهارها وفي هذا الموقف بالذات ، تتجلى قدرة الشعراء على الوصف ، وتظهر براعتهم الفنية في استخدام العبارات والالوان التي تجعل المنظر بارزا وناطقا ومتحركا ، فالثور ايقن ان الكلاب ادركته ، فكانت تلسعه كالزنابير ، فيثار ويزداد هياجه ، ويكر عليها بقرنيه ، فترجع عنه[4] أو تتقرب من مؤخرة فخذه ، ومعاطف جلده فاذا خاف ان تجذبه بافواهها ، حاول دفعها بقرنيه ، وعندها يتمكن من تخليص نفسه من متناول الكلاب وعندما تجد الكلاب نفسها عاجزة عن التمكن منه تعتمد على العواء[5] ولكن ذلك لا يمنع الثور من طعنة نافذة الى صدر الكلب ، يتدفق الدم على اثرها[6] ثم يترك الكلاب الباقية ، وقد شملت الجروح وجهها ، ثم يستمر سريعا يباري ظله ، فرحا بانتصاره ، ظافرا عزيزا كالكوكب المنقض في سرعته ولمعانه وبياضه[7] ، أو شعلة النار المتأججة[8] ، أو الثوب الأبيض[9] او السيف الابيض الصقيل ، أو الصحيفة البيضاء[10] أو الكفن في بياضه[11] .

وفي كل هذه الاوصاف والنعوت يحاول الشعراء اظهار الغبطة وعلامات

---

(١) انظر ديوان زهير / ٤٧ . (٢) انظر ديوان بشر/ ١ﻫ وديوان لبيد / ٧٨ .
(٣) انظر ديوان بشر/٥٦ وديوان الاعشى/١٠٧ وديوان لبيد/٣١١ وديوان المزرد/٤٧ .
(٤) انظر ديوان الاعشى/٢٩٥ (٥) انظر ديـوان بشر/٥٢ . (٦) انظر ديوان بشر/٥٢ (٧) انظر ديوان زهير/٤٨ . (٨) انظر ديوان عبيد/٤٤ ، وديوان اوس/٣ وديوان بشر/١٣١ ، وديوان الاعشى/٣٦٣ (٩) انظر ديوان امرىء القيس /١٠٣ وديوان بشر/١٠٤ . (١٠) انظر ديوان لبيد/١٤٦ . (١١) انظر ديوان النابغة/١٥٠ ، ١٧٢ .

الانتصار والبشر الذي يطفح على الوجه في حالات الانتصار والغلبة ، ولم يجد الشعراء انصع من البياض لونا ، واميز اشراقا ليستعيضوا به عن اوصاف هذا الثور وايحاء المعاني التي كانت تدور في رؤوسهم ، وهم يشعرون بهذه اللذة .

اما الاسلحة التي كانت تستخدم للصيد ، فهي السهام والنبال والرماح واكثر ما نجد هذه الوسيلة واضحة ومتميزة عند شعراء هذيل والصعاليك واللصوص ويبدو أن ضيق ذات يدهم ، وضعف احوالهم المعاشية ، وضآلة موارد رزقهم ، ونظرتهم الى الخيل باعتبارها اقل سرعة منهم ، واتخاذهـا وسيلة من قبل اعدائهم تستغل للحاق بهم ، جعلتهم ينظرون اليها نظرة تختلف عن نظرة الآخرين اليها ، قال صخر الغي يصف صائدا[1] :

أحَاطَ به حتّى رَمَاهُ وقد دَنَـا   بأسمَرَ مفتُوق من النبل صَائِبِ

وقال ساعدة بن جؤية يصف وعلا[2] :

حتّى أتِيحَ له رام بمحـدلـة   جَشْىءٍ وبيض نَوَاحِيهن كالسّحَم

وقال صخر الغي يصف حمارين[3] :

فباتا يُحييان الليل حتّـى   أضاءَ الصّبحُ مُبتلجاً وقاما
فإما يَنْجوا من خَوف أرض   فقد لَقِيا حُتُوفَهُما لزَامَا
فَشَامَت في صُدُورِهمَا رماحاً   من اليَزَنِيِّ أُشرِبَت السُمَامَا

ووردت اشارات لاستعمال السهام في الصيد عند الاعشى ، وقد صور صيادا يهيء سهاما محددة ، يسوقها وتر قوي ، فتمضي مصوتة ، مترنمة ، يقذف بها حمارا ، فتمر من تحت صدره[4] ،

---

(١) أنظر ديوان امرىء القيس/٥٢ .   (٢) ساعدة بن جؤية . شرح اشعار الهذليين ١١٢٦/٣ .   (٣) صخر الغي . شرح اشعار الهذليين ٢٩١/١ وانظر/٤٤٠ من الجزء نفسه والجزء الثالث/١١٧٦ .   (٤) انظر ديوان الاعشى/١٢١ .

والظاهر ان الصيادين كانوا اذا عجزوا عن الرمي ، ويئسوا من بلوغ السهام ارسلوا الكلاب . قال لبيد[1] :

حتى اذا يئس الرماةُ وأرْسلَوا غُضُفاً دواجنَ قافِلاً أعْصامُها

واشار ابو دؤاد الى استعمال الرمح[2] ، وكذلك اشار الاعشى[3] ، وذكر اوس طريقة تكاد تكون غريبة ، أو ندر وجود صورة شبيهة لها عند غيره من الشعراء في صيد النسور ، وهي انهم كانوا يضعون السم في اللحم ، وعندما تأكله النسور تموت ثم يأخذ ريشها[4] :

وَقَتْـلى بِجَنْبِ القُرْنَتَينِ كأنها نُسُورٌ سقَاها بالدماء مُقَشَّبُ[5]

وكانوا يطلبون بها بيض النعام في افاحيصها ، قال الطفيل[6] :

عوازب لم تسمع بنوح مقامـةٍ ولم تر ناراً تمّ حول مُجـرَّم
سوى نار بيض أو غزال مُعفرٍ أغن من الخنس المناخر توْم

هذه اساليب الصيد التي وجدناها متميزة في الشعر الجاهلي ، وقـد استطاع الشعراء الجاهليون اظهارها وتقديمها باعتبارها الوسائل الشائعة لهذه العملية ، ومن الظواهر التي توجب الوقوف عند حديث الشعراء عن الصيد ، هي ان الشعراء كانوا يحرصون على ان تكون اسلحة الصياد الكلاب المعودة على الصيد[7] ، وعندما كانوا يحاولون تشبيهها بالحمار الوحشي ، كانوا يحرصون على أن تكون هنالك أتان ، يحاول القاحها ، فيتودد لها ، ويتشوق اليها ، ثم يصفون الكدمات التي تلوح على وجهه ، والعض والندوب ، واخيراً تنهي هذه المقابلة بسوق الحمار لهذه الاتان نحو المورد الصافي ، وهنا يظهر

---

(1) لبيد . الديوان/٣١١ . (2) انظر ديوان ابي دواد/٣٥٣ . (3) انظر ديوان الاعشى/٢١ . (4) اوس بن حجر . الديوان /٦ . (5) القشب والقشب . بكسر الشين وفتحها : السم ، والجمع : اقشاب ، يقال اقشبت للنسر ، وهو ان تجعل السم على اللحم فيأكله فيموت . (6) الطفيل . الديوان/٤٥ ، وانظر المصايد والمطارد / ٤٧ وما بعدها .
(7) انظر ديوان طرفة/١٨٥ ، وديوان زهير/٢٢٥ ، وديوان لبيد/٦٧ ، ٣٠٧

الصياد ، وقد اعد نفسه ، وهيأ أدواته وتجهز بالسهام الحادة ، والاقواس النبعية المتينة ؛ ولكن هذا لا يغير من سياق القصة ، لأن الصياد يخطىء في الصيد .

وكان الشعراء يتحاشون استعمال الكلاب في هذه الحالة ويقتصرون على الاسلحة[١] .

وكانوا يكثرون من التحدث عن الالوان في تصويرهم للمعركة التي تنشب بين هذه الحيوانات والكلاب . فاذا ارادوا ان يضفوا على الكلاب صفة الترقب والترصد والتجويع ، وصفوا عيونها بنوار العضرس[٢] ، أو منحوها اللون الأزرق[٣] ، واذا بدأت المعركة واشتبكت القرون بالأجسام ، والمخالب بالجلود ، تدفقت الدماء فخضبت اعناق الكلاب ، وقرون الثيران ، وكان الشعراء يبرزون حدة القرون وشدتها وسوادها[٤] ، ثم يشبهونها بالنبال والحراب والمدارى[٥] ، واذا انتهت المعركة ، اشرقت وجوه الثيران او البقر ، بالبياض ، وكان هذا اللون اكثر الألوان استعمالا في هذا الموقف الذي يحمل دلالات الانتصار ، ومعاني الافتخار والاعتزاز .

اما في اوصافهم لهذه الحيوانات ، فكانوا يقفون عند المظاهر الخارجية والتي تتعلق بالصيد فقط ، فهم يعرضون ــ كما اسلفنا ــ لذكر القرون المخضبة والأظافر الجارحة ، والحوافر الصلبة ، لأنها السلاح الوحيد الذي يستعمل في امثال هذه المعارك ، ولكننا لا نجد صدى في احاديثهم للأوصاف الداخلية .

واخيرا ، فالشعراء كانوا يحاولون اضفاء بعض الصور على الصيد ،

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/١٨٠ ، ٣٠٤ . وديوان الاعشى/٣٢٥ (٢) انظر ديوان امرىء القيس/١٠٣ . (٣) انظر ديوان بشر/١٢١ وديوان زهير/٤٧ . (٤) انظر ديوان بشر/١٢٢ ، وديوان زهير/٢٢٩ ، وديوان الاعشى/٢٩٥ (٥) انظر ديوان النابغة /١٥١ وديوان لبيد/٣١٢ .

ليكسبوه جوا من المأساة ، فلبيد عندما شبه راحلته بالبقرة ، اضفى عليها صورة البؤس والحنين لولدها الممزق ، والثكل الذي تعانيه ، واحاط ذلك بجو من الإشفاق والعاطفة . ثم عرض لما تلاقيه هذه البقرة من مطر ينهمر عليها ، فلا تجد ملاذا تلوذ به ، وقد تملكها القلق المفزع والحيرة الطويلة ، ومثل صنيعه هذا صنع الشعراء الآخرون (١) .

وبهذه الاوصاف رفع لبيد وغيره من الشعراء هذه البقرة الى مصاف غير المصاف الذي عرفناه لها ، باضفائهم هذه المعاناة الانسانية ، والقسوة الرهيبة التي صبها القدر عليها . فكانت احاديثهم عن الصيد ، وما اشتملت عليه هذه الاحاديث من الصور المختلفة ، تدل دلالة قاطعة على قدرتهم في استغلال الحس ، واستظهار الصور المليئة بالحركة والإثارة .

(١) انظر ديوان طرفة/١٨٥ وديوان زهير/١٧١ – ٢٢٧ ، وديوان الاعشى/٦٧ ، ٧٣ ، ١٠٥ .

الفصل الثاني

الخصائص الفنية في شعر الطبيعة

١ ـ الواقعية في شعر الطبيعة
٢ ـ القصصية في شعر الطبيعة
٣ ـ الخصائص المعنوية
٤ ـ الخصائص اللفظية والموسيقية

الواقعية في شعر الطبيعة

لقد تحدث الشاعر الجاهلي عن كل شيء احس به وشاهده . وكانت اوصافه مستمدة من هذه المظاهر التي وقعت تحت نظره ، وكان شعره مستمدا من صميم البيئة التي وجد فيها ، ومن النزوع الطبيعي للتعبير عن الوجود الحي الذي كان يعيشه ، ولا اغالي اذا قلت ان الشعر الجاهلي قد صور الحياة الجاهلية تصويرا صادقا ، فالحياة الجاهلية لم تكن نمطا واحدا ، وانما كانت تختلف باختلاف المواطن المختلفة . فهي حياة قبيلة متنقلة في الصحراء وحياة مترفة في قصور الملوك والأمراء والسادة . وكان الشعراء متميزين ، يغلب على شعراء الحضر منهم طابع الرقة والعذوبة ويسر الألفاظ . وتبرز قوة الفخر والنطق بلسان القبيلة والدفاع عنها عند شعراء القبائل وتتضح احاديث العطاء ووصف الحياة المتحضرة وكثرة التطواف عند اولئك الذين كانوا يتعرضون لنائل الملوك ، وعطاء السادة ، ومن هنا نستطيع ان نستدل على ان الشعر الجاهلي تناول جوانب كثيرة من حياة العرب تناولا واقعيا ، فيه استقصاء وشمول ، وفيه دقة وعمق .

ومن هنا كانت الصورة التي يتطرق اليها الشاعر الجاهلي دالة على احساس عميق ببعض المظاهر التي كانت تضطرب في نفسه ، وترتبط في كثير من الاحيان بصور انسانية مؤثرة يعيشها الشاعر نفسه . وكان الشاعر يحرص ان تكون صورته مأخوذة عن واقعه المحسوس ، فالسحاب الذى

بسوقه ريح الشمال يسير كسير الكسير ، قال عدي بن زيد[1] :

وَحِيِيٌّ بعدَ الهُدُوّ تُزَجِّيهِ شَمَالٌ كما يُزَجّى الكَسيرُ
مَرِحٌ وبله يَسُحّ سُيولَ الماءِ سَحّـا كأنـهُ مَنْحورُ

والرماح في ايدي القوم كأشطان البئر كما شبهها سلامة بن جندل في قوله[2] :

كأنها بأكفّ القوم إذْ لَحِقُوا
مَوَاتِحُ البـئرِ او اشطَانُ مَطلُوبِ

والأصحاب تشرق وجوههم كالذئاب[3] ، والأشجار تبدو للخائف المذعور كالأشخاص[4] والظعون كالنخيل أو الدوم أو السفين[5] والحبيبة كالظبية[6] وشعر المرأة في طوله وتداخله وغزارته كشماريخ النخلة[7] ، او مثل الحيات[8] ، وضمور الناقة وانحناؤها لكثرة ما قطعته من المفاوز كالهلال[9] ، وضمور الحصان كسوار الهلوك[10] وعيون الناقة بعد اجهادها وتعبها من سير الليل مثل الآبار التي نضبت مياهها[11] . وآثار بروكها تشبه مواقع القطا[12] وذنبها في كثرة فروعه ، وغزارة شعره مثل عناقيد النخل المرطبة[13] وصور اخرى كثيرة تطالعنا ونحن نقرأ الشعر الجاهلي . امـا الأصوات المتعالية من وقع أخفاف الابل ، وما يعقب ذلك من رنين الحصى ، وتجاوب الأصداء فقد وقف عندها الشعراء وقفات طويلة ، وهم يتأملون قوة هذه الاخفاف وقدرتها على ضرب الأرض وحاولوا ان يأتوا في أوصافهم

---

(١) عدي بن زيد : الديوان / ٨٦ .   (٢) المفضل : المفضليات ١ / ١٢١ .
(٣) انظر ديوان الشنفري (الطرائف الأدبية)/٣٢ .   (٤) انظر شرح اشعار الهذليين ١/٣١٨
(٥) انظر ديوان امرىء القيس/٤٣ وديوان عبيد/١٣٢ وديوان طرفة/٣٠ ، وديوان النابغة /٢٧ ، وديوان زهير/١٤٨ .   (٦) انظر حديثنا عن الظباء .   (٧) انظر ديوان امرىء القيس/١٦ ، ٣٢ .   (٨) انظر الأصمعيات/٦٠ .   (٩) انظر ديوان عبيد/١١١ .
(١٠) انظر ديوان ابي دواد/٣٥٢.   (١٨) انظر ديوان زهير/٣٧١.   (١٢) انظر ديوان بشر/١٤٦ .   (١٣) انظر ديوان علقمة/٩٤ وديوان الاعشى/٢٢٤.

لها بصور تقرب من صور المحسوسات ، فشبه طرفة الحصى المتطاير بالفراش المتفرق[1] ، وشبهه المثقب العبدي بالتعزاف المرن[2] ، وشبهه غيرهما بالدوي المرتفع[3] والصوت الأبح[4]

ولا بد ان يكون للجو الذي كان يسلكه الشاعر وللهدوء الذي يملأ عليه هذه الجوانب المقفرة من الصحراء اثر في ادخال لون من التضخيم على صوره ، ودافع الى تركيز الانتباه ، لتبعد عن نفسه الفراغ الكبير الذي يشغل باله ، وهو يجوب هذه الآفاق[5] ، فهو يعتمد على الواقع في تصويره ، ولكنه يوشيه بآثار من انفعالاته ، تدخل على هذا الواقع الوانا من التخيل .

اما اشاراتهم الى مظاهر الطبيعة واستخدامهم لها ، فكانت تدل على دراية ومقدرة ، لأنهم كانوا يذكرون كل مظهر من مظاهرها في الموضع اللائق به ، فيذكرون الجبال في حديثهم عن البقاء ، باعتبار ان كل شيء عندهم يزول وينتهي وله امد ، ولم تبق الا هذه الجبال التي تلوح صباح مساء ، والتي شاهدت فناء اجيال طويلة من اسلافهم ، كما قال لبيد[6] :

إن يكنْ في الحياة خيرٌ فقد أنْ ظرْتُ لو كان يَنفعُ الإنظَارُ .
عشتُ دهراً ولا يدومُ على الأيام الا يَـرَمْـرَمٌ وتَعَـار

ويذكرون السراب والآل في ارتفاع النهار ، وهم يقطعون الفيافي المقفرة ، ورياح الصبا في التغني والحنين والكرم ، ورياح الشمال في الجدب والقحط والشؤم والقسوة ، والكرم من باب الفخر . واستعملوا شجر النبع والشوحط للقوة والصلابة والشدة والاحكام وقال الاعشى[7] :

ونحن أناسٌ عُودُنا عُودُ نَبعةٍ اذا انتسَبَ الحيان بكرٌ وتغلب

---

(١) انظر ديوان طرفة/٣٢٨ (الاعلم) . (٢) انظر ديوان المثقب العبدي / ٩ .
(٣) انظر المفضليات ١ /٦٠ . (٤) انظر المفضليات ٢ / ٩١ . (٥) انظر حيوان الجاحظ ٦ / ٢٥٠ – ٢٥١ ، ومروج الذهب للمسعودي ٢ / ١٦٠ وما بعدها .
(٦) لبيد . الديوان/٤٣ . (٧) الاعشى . الديوان/٢٠٣ وانظر الاصمعيات/٢٣٣ .

وكنوا عن الضعف بشجر السدر لخوره . قال المفضل النكري[1] :

وجدْنا السِدْرَ خوّاراً ضعيفاً   وكان النَّبْعُ منبتُــهُ وثيــقُ

وعن الشيب بالثغام لبياضه كما قال الاعشى[2] :

فإن تكُ لـِمّتي يا قَتْلُ أضحتْ   كأنّ عــلى مفارقِها ثَغَاما

وعن الفراق والموت بصورة الغراب والبوم ، لاحساسهم — نتيجـة للتجارب التي مروا بها ، وهم يسمعون اصواتها ، ويشاهدون منظرهما — بالشؤم ، لارتياد هذه الحيوانات الاماكن المهجورة ، وهذا ما دعاهم الى الاشارة اليهما في كل حديث يدعو للتشاؤم ، وكل مكان موحش يبعثُ على الخوف والفزع والرهبة . قال عبيد[3] :

زَعَمَ الأحبّةُ أنَّ رِحلتنا غَداً   وبذاك خبّرنا الغُدافُ الاسود

وقال عنترة[4] :

ظَعَنَ الذين فِراقَهُم أتوقّعُ   وجرى ببينِهمُ الغُرابُ الابقَعُ
خَرِقُ الجناح كأنَّ لَحيَيْ رأسِهِ   جَلَمَانِ بالأخبار هَشٌّ مولع[5]
فزجرْتُهُ ألاَّ يُفرّخَ عُشُّــهُ   أبداً ، ويُصبحَ واحداً يتَفجّعُ
ان الذين نَعَبتَ لي بفراقهــم   قد أسهروا ليلي التمامَ فاوجعوا

وقال « بشر » بن ابي خازم[6] :

أمن ليلى وجارتِهــا تروحُ   وليسَ لحاجةٍ منها مُريحُ

---

(٤) الاصمعي . الاصمعيات/٢٣٣ . (٥) الاعشى الديوان/١٩٥ وانظر شرح اشعار الهذليين ١/٢٨٩ (٣) عبيد . الديوان / ٤٣ . (٤) عنترة . الديوان/٣٩٢ (الاعلم).
(٥) خرق الجناح : اي شديد الصوت ، والجلمان ، مثنى جلم : وهو المعراض. وهش : مولع ، فرح . (٦) بشر . الديوان/٤٩ ، وانظر ديوان النابغة/١٨٢ (الاعلم) ، وديوان الاعشى/١٠٣،٧٣ . الاصمعيات/١٩٣ والمفضليات ٢/٢٥ ، ٢١٩ .

ولم تعلم ببينِ الحيِّ حتى اتاكَ به غُدافي فَصيح

وذكروا الضباع في حديثهم عن القتلى لولعها بجثث الموتى ورغبتها بنبش القبور وقرنوا صورتها بصورة الفزع ، وكانوا يظهرون خوفهم ويتحاشون من الوقوع بين براثنها ، ليكونوا طعاما لها ، تعبث بهم كيف تشاء ، وتنزع جلودهم ، وتمكن انيابها وبراثنها في اجسامهم[1] .

وغلب ذكر هذه الصورة عند الشعراء الصعاليك .

ومن مظاهر هذه الواقعية اهتمام الشعراء بالألوان عند تعرضهم لمظاهر الطبيعة وكأنهم كانوا يبتغون الدقة في التصوير بما يعطون من الوان الاشياء او ما يذكرون من تفاصيلها .

وكانت نظرتهم اليها نظرة تدقيق وتمحيص ومراقبة وتتبع ، وهكذا وجدوا في الالوان الصورة المعبرة . فالحيوان اذا اقشعر خرج باطن شعره ، فبدا لون غير لونه الحقيقي ، واذا سكن وزالت عنه هذه الحالة ، عاد لونه الأول ، وتلك التفاتة نادرة ، ولمسة رقيقة ، من الصعب ان نجد لها نظيرا في كثير من النماذج الشعرية، والى ذلك يشير ساعدة بن جوّية في وصفه للحيوان المستوحش ، يقول[2] :

تحول لونا بعدلون كأنه بشفان ريح مقلع الوبل يصرد

وكما ميزوا الوان الحيوان ، ميزوا عرق هذا الحيوان ، فكان لكل حيوان لون معين فيما ينزل منه من العرق ، وعلى هذه الشاكلة كانت الوانهم تتحدد تحديدا صافيا دقيقا .

اما اذا ارادوا ان يشيروا الى السحاب المحمل بالماء فإنهم يذكرون اللون الأسود أو الأخضر . واذا حاولوا الإشارة الى الجدب فالسحاب الاصهب

---

(١) انظر شرح اشعار الهذليين ١/١١٦،٤٦٤،٤٦٨،٣/١١٤٦،١٢٦١ والاغاني ١٨/ ٢١٣ (ساسي) .

(٢) ساعدة بن جؤية . شرح اشعار الهذليين ٣/١١٧ .

أو الأحمر[١]. واذا عرضوا للأثـــافي فهي سفـــع[٢]. والكلـــل وردية الحواشي[٣] ، وفتات العهن احمر[٤] ، والماء ازرق[٥] ، وفم الحمار ، وهو يرعى النبات المخضر اخضر[٦].

ولم ينس الشعراء تشبيه الثور بالكوكب المنقض ، أو الشعلة المضيئة ، في اوصافهم للبقر الوحشي[٧] ، وفي حديثهم عن النعام كانوا يؤكدون احمرار ساقيه ، واطراف ريشه[٨] ، وكذلك كانوا يفعلون في اوصافهـــم للخمر التي وجدوا في حوصلة الرأل صورة مشابهة للونها الأحمر[٩].

واستعمل الشعراء اللون الأسود والرمادي في الصور التي رسموها للنعام وحاولوا تأكيد هذه الصور بما تهيأ لهم من الاصباغ والخطوط فالنغام عبد اسود عليه كساء من القطيفة عند بشر[١١] ، وعبد يرتدي فروا طويلا عند لبيد[١٠].

وقد برزت ظاهرة الألوان بالنسبة للحيوانات بروزا واضحا لا يمكن حصره فكانوا اذا عرضوا للخيل ذكروا الحو والكمت ، واذا اشاروا الى الابل فهي الدهم وعن القطا فهي الكدر ، والعقبان فهي السفع والخدارية ، والجراد فهو الاصفر ، والذباب فلونه الأزرق والاحمر والاخضر والاصفر ، والذئاب فهي الطلس ، وهكذا نجدهم يلونون كـــل حيوان بما ارتسم في اذهانهم من الوانها ، محاولين اعطاء الصورة الحقيقية لهذه الحيوانات .

---

(١) انظر ديوان النابغة/١٨٩ . (٢) انظر ديوان زهير/٨ . (٣) انظر ديوان زهير/٩ . (٤) انظر ديوان زهير / ١٢ (٥) انظر نفس الديوان / ١٣ . (٧) انظر نفس الديوان / ١٣١ . (٦) انظر ديوان امرىء القيس/٢٢،١٧٤ وديوان بشر /٦٥ ، ١١٠ ، وديوان المزرد / ٣٤ وديوان الاعشى / ٣٩ ، والاصمعيات /٧٥ ، والمفضليات ٢ / ١٧٣ . (٧) انظر ديوان بشر / ١٥٤ ، وديوان زهير / ٣١٦.
(٨) انظر ديوان علقمة/٤٢٧ وديوان الاعشى/٧١ . (٩) انظر ديوان بشر/١٥٤ .
(١٠) انظر ديوان لبيد/١٧٤ وديوان عنترة/٣٧٣ .

ومن الظواهر الاخرى في هذه الواقعية ، ظاهرة تصوير الجوانب الدقيقة التي تكمل الصورة ، وتمنحها القدرة على التعبير ، وتبرز الغرض الذي من اجله حاولوا هذه المحاولة ، فاذا رغب امرؤ القيس في تشبيه صفاء عين فرسه ، لم يجد لها نظيراً إلا في صورة مرآة الصناع ، لأنهـا ابداً مجلوة [١] وفي تصويره للصياد نجده يدقق في صورته تدقيقا يصور فيه تستره وتخفيه ، وزحفه على الارض ، ولصوق ذرات التراب على جسمه – وهي التفاتة دقيقة – ليبرز انهماك هذا الصياد ، وانشغاله بأمر هذا الصيد ، وفي وصفه لحوافر الفرس ، تبدو ملاحظته الدقيقة وقدرته في تفصيل الصورة عندما حاول اظهار لون الحافر ، الذي غيره اثر الروث ، فبدا كأنه حجارة ماء علاها الطحلب فاصفرت[٢] . وفي رسمه لصورة الحمار الوحشي الـذي يطارد الحمر الوحشية ، يتجلى احساسه وتظهر قدرته ودقته في تصوير هذا الحمار ، وقد علا حاجبه اثر الضرب الذي لم يبرأ منه بعد ، وأثر العض في اعلى الكاهل وهو متحول الشعر[٣] .

ان اهتمام الشاعر بهذه الصور ، يكشف عن جوانب جديدة ويدلل على دقة متناهية في تصوير جزئيات المنظر ، ومتابعة عناصر الصورة ، لتأخـذ شكلها الواضح[٤] وكذلك فعل عندما اراد ان ينعت مناخر فرسه فشبهها بوجار الضباع[٥] ، وعندما وجد عنترة شخوص عيني فرسه ، وتعلقهما ، لم يجد صورة اوضح من صورة عين الاحول[٦] . اما ابو دؤاد الذي كان يعتز بفرسه ، ويحرص على شدتها وقوتها وهي تدق الارض بحوافرها ، فقد هيأ لهذه الحوافر صورة مكاييل الزيت لثقلها[٧] ، وكذلك فعل الحارث بن حلزة عندما شبه اخفاف ابله وقوتها وشدتها بالمطارق[٨] ، أو المعاول كما نعتها

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس / ٤٨ .
(٢) انظر ديوان امرىء القيس / ٤٧ .
(٣) انظر ديوان امرىء القيس/١٨٠ .
(٤) انظر ديوان امرىء القيس / ١٧٢ .
(٥) انظر ديوان امرىء القيس/١٦٥
(٦) انظر ديوان عنترة/٣٩٢ (الاعلم) .
(٧) انظر ديوان ابي دؤاد/٣٤٣
(٨) انظر المفضليات ١٣١/١ ،

طرفة[1] . ووجد اوس ابن حجر ، والنابغة الذبياني في المناشير صورة مقبولة لتشبيه احناك الكلاب بهما لدقتها[2] .

وحاول الاعشى ، وهو يتحدث عن سرعة ناقته في الهاجرة ، وهي تجري مذعورة ان يعطى سببا لهذه السرعة ، فجعل هرا يخدشها ، ولم تكن روعة الصورة كامنة في هذه السرعة التي حاول الشاعر ان يصورها فحسب ، وانما يبدو جمالها الفني في تعبير الشاعر الرائع عن تقلص الظلال في الهاجرة ، وما اعقبه بعد ذلك من تعبـير عن الظل الذي تلاشى ، ولم يبق لناقته الا ظل اخفافها وهي تنتعله بخطاها[3] .

بجُلالَةٍ سُرُحٍ كأنَّ بغَرْزِهَا هِرّاً اذا انتَعَلَ اُلمطِيُّ ظِلالَهَا

ثم حاول ان يصور لنا جرأة هـذه الناقة وهي تقطع المفاوز المقفرة في الليل بأنها تحتفر الظلماء قال[4] :

ولقد أحزِمُ اللُّبانَةَ أهـلي وأعدِّيهُمُ لأمرٍ قَذيف
بشُجاعِ الجَنَان يحتفِرُ الظلمـاءَ ماضٍ عـلى البلادِ خَشُوفِ

أو تشق برقبتها الطويلة الليل[5] :

تَشُقُّ اللّيلَ والسّبَراتِ عنها بأتلعَ ساطِـعٍ يُشْري الزِّماما .

وتعد مقارنات الشعراء التي كانوا يعقدونها من اكثر الأدلة وضوحا على واقعيتهم لأن هذه المقارنة لا تتهيأ الا لمن خبر الصلة في مقارنته بـين طرفي التشبيه وادرك الصفة البارزة فيهما ، وهذه لم تأت بصورة عفويّة . والشعر الجاهلي مليء بهذه التشبيهات التي لا تخلو منها قصدة .

---

(١) انظر ديوان طرفة/٨٣ . (٢) انظر ديوان اوس/٤٣ وديوان النابغة /٢١٩.
(٣) الاعشى . الديوان/٢٧ ، وانظر الاصمعيات/١٠٦ (البيت/١٤) (٤) الاعشى . الديوان /٣١٥ . (٥) الاعشى . الديوان/١٩٧ .

القصصية في شعر الطبيعة

يعتمد كثير من الشعراء الجاهليين على السرد القصصي في صور تناولهم للحيوان الذي يصورونه ، ويكاد يصبح ذلك تقليدا يتسم به بعضهم ، واكثر ما كان يرد هذا السرد في احاديثهم عن الصيد والمديح والرثاء ، وقد اتخذ الشعراء من حياتهم الحافلة بالحوادث مادة ثرة لهذا الفن ، يعرضون فيه ما يصادفهم ويعترضهم من صعوبات الحياة ومشاكلها واتعابها .

وقد استغل الشاعر الجاهلي في عمله هذا كل ما وقع تحت حواســه ، فمشكلاتــه والحوادث التي تصادفه ، والحيوان الذي يعيش معه أو الشارد في ارجاء الصحراء كانت مقومات ناضجة للسرد القصصي .

وكان الشاعر الجاهلي ينظر الى الفكرة التي يريد معالجتها من جوانبها المتعددة ليمنحها الإطار الكامل .ثم يجمع بعد ذلك اشتاتها . ليعد منها هيكلا عاما لهذا السرد ، اما الحادثة فكان يعطيها اهمية كبيرة ، ويمنحها شكلا خاصا ، فيمهد لها بسلسلة من الوقائع التي يسرد فيها ما يجعل الحادثة مقبولة ومستساغة ، مستخدما في اوصافه ما يستطيعه من عناصر التشويق . المتمثلة في الحركات السريعة التي كان يمنحها لهذا الحيوان الذي يطارده ، أو يصادفه أو يصيده ، أو الذي ينقله الى ممدوحه ، والألوان التي كان يؤكدها في احاديثه مستعينا بالألفاظ المعبرة التي تمهد لفكرته .

ويمكننا اعتبار معظم قصائد الشعراء التي عرضوا فيها لوصف الرحلة

سردا تتمشى فيه الروح القصصية . مسرحه تلك المهامه المقفرة التي تخدع المسافرين وتغتالهم ، تعزف فيها الجن ويصوت في جوانبها البوم ويصر من لفح هجيرها الجندب . ويترك النعام بيضه ، ولا تجد فيها الناقة الا ما تجتره . وزمانه النهار الذي يشوى الوجوه . أو الليلة الماطرة التي تفزع بسحابها المظلم ورعودها القاصفة . او الفجر المشرق الذي يحدد بداية الصراع . ثم تأتي الخاتمة التي تنتهي بانتصار الثور أو الكلاب .

والشاعر الجاهلي في سرده هذا كان يبغي التعبير عن فكرة ماثلة في ذهنه ، ولهذا كانت كافة الحركات تخضع – في داخل السرد – لفكرة الشاعر التي يريدها . وهذا يدل على ان الفكرة التي كانت في ذهن الشاعر هي التي توجه القصيدة ، وتحرك اجزاءها . وترسم الخطوط العريضة لحوادثها .

والشاعر في كل هذه الاحوال يهيء – في حالة وصف الناقة وتشبيهها بالثور او البقرة الوحشية في حالة المديح في الغالب – لهذه المعارك ما يلازمها من السلاح والعدة . فالنبال والرماح والكلاب والعقبان والمخالب والقرون والخيل، وما يستلزم من الصياد من توقف وترصد وتتبع وانقضاض ومطاردة . كل هذه الآلات ، كان الشاعر يرسمها ويخطط لها ، ويعطيها ما تستحقه من اوصاف ، ثم يبدأ بنقلها على لوحته ، ليحدد معالمها على ضوء المعركة المرتقبة التي ارتسمت في ذهنه قبل وصفه ، وتكونت في نفسه قبل ان يخطط لها هذا التخطيط .

ان الموصوف الذي يؤثره الشاعر الجاهلي هو ما يشعر بتأثيره في نفسه مما يعايشه أو يسمعه أو يراه . أو يحس به ، ليكون عنصر الإثارة في الصورة اوضح ودواعي التشويق لتتبعها ادق .

والصورة عنده تكاد تكون حية ، تختلط فيها عواطفه وأمزجته مما يجعلها قادرة على التأثير في نفس السامع او القارىء[1] . وهو من خلال هذه الاوصاف

---

(١) انظر ديوان الاعشى/٧٣ ، ١٠٦ وديوان لبيد/٣٠٨ – ٣١١

يرسم[1] صورا اخرى يعرض فيها جوانب من حياته او مغامراته .

على اننا لا ننسى انصراف كثير من الشعراء — وهم في غمرة هذا الوصف — الى المشبه به ، وترك المشبه ، ذاهبين الى التدقيق في وصفه واظهار قوته أو جماله ، حتى يشبعوا صورته وصفا وتدقيقا ، ويطمئنوا إلى استيفاء جوانب المشبه به وهذا ما يدخل الرضا الى نفوسهم ، وكأنهم يؤدون بذلك مهمة كلفوا بادائها .

وكان اغلب الشعراء يتعرضون لذكر الصيد في حديثهم عن رواحلهم التي تجوب بهم آفاق الصحراء ، سواء أكانت خيلا أم نياقا ، ومن الطبيعي ان يضفوا على حرفة الصيد هذه — عند بعض الشعراء . او هوايتها عند البعض الآخر — طابع الشكل الأدبي ، فيتعرضوا لوصف ادواته وحيوانه ، وما يعتور هذا الحيوان وهو يطارد أو يطارد ، وما ينتابه من مخاوف .

وكان الشاعر يمهد لمعركة الصيد هذه تمهيدا وافيا ، فالراحلة تشبه الثور ، او الحمار الوحشي من حيث القوة والنشاط ، ثم ينتقل لوصف هذا الحيوان ، فهو يعتمد على اظلافه في الحفر . ليقي نفسه المطر الغزير والرياح الباردة الشديدة ، وهو يختار الرمال الصلبة التي لا تنهال ، فيمكث فيها متحملا الآلام والمتاعب ، حتى يحين الصباح ويحين معه موعد مباشرة الصيادين المهرة ، تصحبهم كلابهم المدربة الضارية ، التي تنطلق الى صيدها ، وكأنها النبال أو الخيل في سرعتها ، كل هذا التمهيد يعرضه الشاعر ، باسلوب مسلسل ، ليخلق الجو المناسب للحركة ، ويهيء لها — كما اسلفنا — لوازمها الضرورية : فالثور ايقن ان الكلاب ادركته ، فهي تلسعه كالزنابير ، وهو يزداد هياجا ، فيكر عليها بقرنيه ، فترجع عنه ، ثم تتقرب من مؤخرة فخذه ، فيخشى جذبها له ، فيحاول دفعها ، فيتمكن من تخليص نفسه ويجد الفرصة مؤاتية للرجوع ثانية عليها ، وقد جهز نفسه تجهيزا محكما ، وهيأ لوازمه تهيئة

(١) انظر ديوان امرىء القيس/١٩ — ٢٠، ٣٦، ٧٥، ١٦٠

كاملة ، وعندها لا تجد الكلاب – وهي ترى هذا التصميم – الا ان تتخاذل فتبدأ بالعواء ، ولكن انى لها ذلك ، والصورة في ذهن الشاعر ناضجة والجو الشعري ملائم ، في هذه اللحظة يوجه اليها طعنة نافذة فيبدأ على اثرها الدم بالتدفق ، وتنهزم بقية الكلاب ، وقد شملت الجروح وجهها ، وينتصر الثور ويترك المعركة ظافرا منتصرا ، وهي الخاتمة التي اعد لها الشاعر هذا الاعداد .

وتتكرر هذه الصورة – وان اختلفت الوانها ، أو ادواتها ، أو اسلحتها عند الشعراء ، وهي تحافظ على الاطار العام لها . والشكل المعد لإخراجها والفكرة المهيأة لنهايتها ، وهذا ما يدعونا الى الاعتقاد بأن التقليد اصبح لازما لها ، وهذا وحده جعل الشعراء يلتزمون بهذه الافكار ، ويسلكون هذا المسلك[1] ولا بد لنا من الاشارة الى حديث الشعراء وهم يعرضون لأوصاف خيلهم وسرعتها ، لأنهم ينحون في هذا الوصف منحى تتشرب فيه الروح القصصية ، ولكن بصورة موجزة لم تصل الى المستوى الذي وصل اليه السرد القصصي في حديثهم عن الرواحل فهم يشبهون الخيل بالعقاب التي رأت فريسة فانقضت عليها تعمل فيها ما تشاء ، فتنشب فيها اظفارها ، فتترك في جسدها ثقوبا وجروحا ، وكانت هذه الصورة تختلف عند الشعراء ، فمنهم من يفصل فيها[2] ، ومنهم من يوجز[3] . وكذلك صورة الذئب التي كانوا يؤكدونها في اوصافهم للجوع ، ويهيئون لذلك ما يقدرون عليه من الالفاظ الموحية فالقوت الزهيد والهزال والمشي المضطرب ، والطوى ، وهلهلة الأجسام والعواء ، والضعف وما يقاسيه هذا الحيوان من البؤس ، وهو في هذه الصحراء ، كلها تنعكس في هذه الصورة ، وكثيرا ما كانوا يعقدون المحاورات التي تدور بين الشاعر وهذا الحيوان ، والمناجاة الودية ، والاشارات

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/١٠١ – ١٠٤ وديوان عبيد/٤٤ وديوان اوس/٣، ٤٢ وديوان زهير/٤٧، ٤٨ وديوان بشر/٥١، ٥٢، ٥٦، ١٠٤، ١٣١ وديوان الاعشى/٣٦٣ وديوان لبيد /٧٨ وديوان المزرد/٤٧. (٢) انظر ديوان امرىء القيس/٢٢٥–٢٢٩، وديوان عبيد/١٨.
(٣) انظر ديوان بشر /٢٣، ٤٧، ١١٠، وديوان الاعشى/٢٩، ٣٩، والمفضليات ١/٣٥، ٣٨.

المعبرة ، بأسلوب مترابط ، وتسلسل قصصي واضح ، ممهدين لفكرة كانت تختلف في اذهان الشعراء ، فهي عند المرقش[1] وامرىء القيس [2] ، تنتهي بفكرة الكرم ، لأن الشاعر الأول يكرم الذئب ، ويصور فكرة الكرم الأصيل الذي يقدم للضيف مهما كان شكله ، لا يفرق في تقديمه بين انسان وحيوان . والشاعر الثاني يترك له مورد الماء ليشرب ، اما صورة الشنفري في لاميته ، فتعكس لنا بؤس الشاعر وتعاسته وضجره من هؤلاء الناس الذين فضل عليهم هنا الذئب فآمنه على سره[3] ، ويأتي ابو كبير على ذكر الذئاب العاوية حول هذه الموارد من الجوع .

وقد وجدت القصة عند شعراء هذيل صورة اخرى ، يكاد ينفرد بها شعراء هذه القبيلة وخاصة في احوال الرثاء ، لأنهم وجدوا في الوعل المسن ، والثور الوحشي الاسفع ، والحمار والعقاب . صورة الخلود ، لما تتمتع به هذه الحيوانات ، وخاصة الوعل ، من قوة وصلابة وتمكن من الارتقاء الى المناطق المرتفعة ، وتسلق قلل الجبال المنيعة ، وقابلية على الايغال في اعماق الصحراء البعيدة ، ولكن بالرغم من كل هذا التمتع والتمكن والقابلية فهي تخضع لسلطان الموت ، وحوادث الدهر الذي لا يبقى على حدثانه شيء ، فلا بد ان يتاح لها في يوم من الايام صياد ماهر ، اخذ عدته ، وتأهب للعمل ، واعد السهام القوية ، والرماح الطويلة التي يتمكن بها من اصابتها .

قال صخر الغي يرثي اخاه[4] .

أعينيَّ لا يبقى على الدهر قادر ... بتيهورة تحت الطّخاف العصائب
تملّى بها طولَ الحياة فقرنه ... له حيد اشرافُها كالرواجب
يبيت اذا ما آنس الليلَ كانساً ... مبيتَ الكبير ذي الكساء المُحَارب

---

(1) انظر المفضليات ٢/٢٦ . (٢) انظر ديوان امرىء القيس/٣٦٣ . (٣) انظر اعجب العجب للزمخشري /٣٧ – ٥٠ (٤) وقيل لأخي صخر الغي يرثي بها اخاه صخرا ، انظر شرح اشعار الهذليين ١/٢٤٥

يُروّع من صوتِ الغُراب فينتحي ... مَسامَ الصخور فهو اهربُ هارب
أتيح له يوماً وقد طال عُمرُهُ ... جريمة شيخ قد تحنّبَ ساغب
يُحامي عليه في الشتاء اذا شتا ... وفي الصيف يبغيه الجَنا كالمُناجب
فلما رآه قال لله مــن رأى ... من العُصم شاة قبلَهُ في العواقب
لو انَّ كريمي صِيدَ هذا اعاشَهُ ... الى ان يغيثَ الناسَ بعضُ الكواكب
احاطَ به حتى رماه وقد دنا ... باسمرَ مفتوقٍ من النبل صائب
فنادى أخاهُ ثم طار بشفرَة ... اليه اجتزارَ الفعفعيِّ المُناهِب[1]
ولله فتخَاءُ الجناحَين لِقْوَةٌ ... تُوسّد فرخيها لُحومَ الأرانب
كأن قلوبَ الطير في جوفِ وكرها ... نوى القَسب يُلقى عندبعض المآدب
فخاتت غزالا جاثما . بصرت به ... لدى سَلماتٍ عند ادماءَ سارب
فمرَّت على رَيد فأعنتَ بعضَهـــا ... فخرَّت على الرجلين أخيبَ خائب
بمُنْلفةٍ قفرٍ كأن جناحهـــا ... إذا نهضت في الجو مِخراقُ لاعب
وقد ترك الفرخان في جوف وكرها ... ببلدةٍ لا مولى ولا عندَ كاسب
فُريخان ينضاعان في الفجر كلمـــا ... أحسَّا دوي الريح أو صوت ناعب
فلم يرَهَا الفرخانِ بعد مسائهـــا ... ولم يهدآ في عشها من تجاوب

---

(١) القادر : الوعل المسن والتيهورة : ما اطمأن من الرمل ، والطخاف : مارق من الغيم والمصائب : العمائم ، وتملى : تمتع ، وحيد : جوانب والرواجب : الدقاق الكناس : مثل البيت يحفره في اصل الشجرة ويكون فيه . يقول : يبيت هنا الوعل كانسا اذا ابصر الليل في كناس كمبيت رجل كبير عليه كساؤه . قد عادى اهله فتنحى عنهم ، مسام الصخور : مره في الصخور ، يقول ، الوعل يروع من صوت الغراب ، لخوفه من المنايا فينتحي يعتمد كأنه يروع من كل شيء يسمعه ، انما هو مفزع من كل شيء . جريمة شيخ : اي كاسب شيخ صائد يكسب لابيه ، تحنب اجدودب ، اى تحنت عظامه وساغب : جائع . الجنا : ما اجتنى من الثمر . المناضب المجاهد ، العصم : الأروى . كريمه : يعنى شيخه أى لو صيد له لا عاشه الى ان يغيث الناس بعض انواع النجوم . باسمر مفتوق : بسهم مخلق ، ومفتوق من النبل : يعنى سهما واسع النصل . شفرة : سكين . اجتزر : قطع . الفعفعي : الخفيف المناهب . المبادر .

فذلك مما احدثَ الدهر أنّـــه   او كلّ مطلوبٍ حنيثٍ وطالب [1]

وقال ابو كبير يرثي ابنه[2] :

والدهر لا يَبقَى على حَدَثاتِه   قُبٌ يردن بذي شُجُونٍ مبرم
يرتدن ساهرة كأن جَميمهـــا   وعَميمها اسدافُ ليلٍ مظلمٍ
فرأين قلّةَ فارس يعدو بـــه   مُتفلّقُ النسيين نهد المَحزِم
فاهتجن من فزع وطار جِحاشُها   من بين قارِمها ومَا لم يَقْـــرِم
وَهَلاً وقد شَرَعَ الاسنة نحوهـــا   من بين مُحتَقٍ بها ومشرم [3]

وقال ساعدة بن جوية [4] :

تالله يبقى على الأيام ذو حِيَـــدٍ   ادفى صَلُودٌ من الاوعال ذو خَدَم

---

(١) اللقوة : العقاب ، والفتخ : استرخاء جناحيها . توسد : تطعم . اراد : اعيى لا يبقى على الدهر قادر ولا فتخاء الجناحين. خاتت : انقضت على غزال. سلمات : شجرات ، ادماء : ظبية ، وسارب : اى قد سربت في موضعها فدخلت الريد : الحرف يندر من الجبل ، فاعنت بعضها : اصابه بعنت ، كسر ، أى كسر جناحها فخرت . المولى القريب ، يريد ان يقول ، وقد ترك الفرخان وليس لهما مولى يقوم بامرهما . ينضاعان : يتحركان كلما طلع الفجر أو سمعا صوت ناعب ، وهو الغراب . (٢) شرح اشعار الهذليين ٣/١٠٩٠ (٣) قب : حمض البطون : يريد حمير وحش والشجون : شعاب تكون في الحرة ينبت المرعى مكانها والمبرم : الذي قد خرجت برمته والبرمة : ثمر الطلع . الجميم النبت الذي نبت وارتفع قليلا ولم يتم كل التمام ، العميم : المكتهل التام . نهد المخزم : عظيم البطن . القارم : الذي فطم ، فهو يقرم من يقول الارض . الوهل : الفزع المحتق : الذي قد اصيب فاحتق الرمية . المشرم : الذي قد شق بالعرض . (٤) شرح اشعار الهذليين ٣/١١٢٤ الحيد في القرن أي في قوته حيود . والأدفى : الذي ينحنى قرناه الى ظهره والصلود : الذي يضرب برجله الصخرة فتسمع لها صوتا وذو خدم : اعصم المشمخرات المرتفات . والقان والنشم : شجران تتخذ منهما القسي العربية الجي : مناقع الماء ، الظبان : شجر والعتم : شجر الزيتون البرى (الجبلي) الخش : القضيب الخفيف ، والبيض السهام ، والسحم : شجر له ورق كورق الخلاف يريد ان نصالها مثل ورق هذا الشجر . دمست : التبست الظلمة ، والاسداف : جمع سدف ، وهو الظلمة والغسم : اختلاط الظلمة دلى يديه : كأنه رماه من فوقه . نفاحة : أى تنضح بالدم . غير انباء ، يقول : لم ينب سهمه حين رماه .

يأوي الى مُشمخرات مُصَعّدة شُمٍّ بهن فُروعُ القان والنشم
من فوقه شَعَف قَرٌّ واسفَلُهُ جِيٌّ تنطق بالظيّان والعُتُم
حتى أُتيحَ له رام بمُحدلة جشيء وبيض نواحيهن كالسّحم
فظلّ يرقُبُهُ حتى إذا دَمَسَتْ ذاتُ العِشاء بأسدافٍ من الغَسَم
دلّى يَديه له سيراً فألزَمَهُ نَفّاحَةً غير ابناء ولا شَرَم
فراغ منه بجنبِ الرّيد ثم كبا على نَضِيٍّ خِلالَ الصدر مُنحطم
ولا صوار مَدْراةُ مناسِجُها مِثلُ الفريد الذي تجرى من النّظُم
ظلت صوافِنَ بالارزان صاوِيةً في ماحق من نهار الصيف مُحتدم
قد أوبيت كُلّ ماء فهي طاوِيةٌ مهما تُصِبْ أفقاً من بارقٍ تَشِم
حتى اذا ما تجلى ليْلها فَزِعَت من فارِس وَحَليفِ الغرب مُلتئم
فافتَنّها في فضاء الارض يأفرَها وأصحرتْ عن قِفاف ذات مُعتصم
انحى عليها شُراعياً فغادَرَهَا لدى المَزاحفِ تَلِيٌّ في نضُوُخ دَم

فالشاعر الهذلي في هذا الرثاء ، يسرد لنا الحكاية سردا شيقا ، يصور فيه هذا الحيوان ، وقداكتملت قوته ، وعظم نشاطه ، ويصور ما يصادفه في حياته ، وما يتمتع به من ملذات الحياة . وينعم به من مغانمها ، ليمنحه الصورة الكاملة للقوة والنشاط بأسلوب محكم ، والفاظ مناسبة ، وصور حية ،

= النضى : قدح بغير ريش ولا نصل . خلال الصدر : أى دخل بين اطباق الضلوع . الفريد : شيء يعمل مدور من فضة ويجعل في الحلى . الارزان : الامكنة الصلبة الصاوى : الذابل ، وما حق من نهار الصيف : أى في شدة الحر . أوبيت منعت ، طاوية : ضامرة . تشم : تقدر اين موقعه ثم تمضي اليه .

الحليف : السنان ، وغريب كل شيء : حده وحليف الغرب : أى جديد الحد . افتنها : اشتق بها . يأفرها : ينزوبها نزوا والقفاف : غلظ من الارض لا تجرى فيه الخيل ، يقول : فلما اصحرت عن القفا ادركتها الخيل . انحى : صرف اليها وحمل عليها رمحا . شراعيا : طويلا ، منسوب الى رجل أو بلد ، تليلا : صريعا .

تشد اليها القارىء ، وتدفعه الى التركيز على هذه الصورة التي يقدمها الشاعر بهذا التقديم .

وهنا يعد الشاعر ادواته ليعطي الفكرة المرسومة في ذهنه كل الوانهـا فيصور الموت وقد تهيأ ، ويرسم القدر وقد حان ، وهو على شكل صياد ماهر ، أو حيوان جارح ، يترصد لهذا الحيوان ، ويترقب حركاته ، ويلاحقه ، حتى اذا اصبحت الفرصة مواتية ، سدد سهمه ، وصوب (رمحه، وانقض عليه فارداه على الارض يسح دماؤه .

وهنا يطمئن الشاعر الى هذه النهاية التي وضح خطوطها قبل أن يبدأها ، وصمم هيكلها قبل ان يشرع في سردها .

ويختم القصة بعبارته التي توحي بالرضا ، ليبعث في نفسه الراحة ، لأنه المصير المقدر ، يدرك كل انسان وحيوان ولا يفلت من قبضته احد[1] .

---

(١) انظر شرح اشعار الهذليين ١/٢٥٣ و ٣/١٠٩٣ ، ١١٢٤

الخصائص المعنوية

يتميز الشعر الجاهلي بوضوح معانيه ، وبعده عن كل تكلف أو اغراق وهذا أمر طبيعي ، بالنسبة له ، لنشوئه في بيئة لم تتعقد فيها حياة الانسان تعقيدا يوحي بالتكليف ، ومن هنا كان الشاعر الجاهلي امينا في نقل الصور ، والمحافظة على اشكالها كما هي في العالم المحيط به ، وكان أدب هذه الفترة من اصدق الآداب العربية ، واثبتها في رسم الحياة ، وتبيين مظاهرها التاريخية وهو يعطي الدارسين الوجه التقريبي للحياة العربية خلال العصر الجاهلي .

وقد ادرك القدامى هذه الحقيقة ، فوجهوا اهتمامهم إلى الاستشهاد بنماذجهم الشعرية في كل باب من ابواب الادب . واعتبروها الأساس لكل الجوانب التي اقبلوا على دراستها .

فالشاعر الجاهلي ينقل الصور التي تلوح امامه نقلا امينا ، بعيدا عن تحليل الاوصاف ، والتعمق في التشبيهات والايغال في عقد المقارنات . فاذا اراد التشبيه كانت تشبيهاته حسية ، يحاول فيها ابقاء جواهر الموضوعات على حالها دون تغيير أو تبديل . تدرك لأول وهلة ، ومن هنا كانت معانيهم محدودة في كثير من الصور . فآثار الخيام كأنها بقايا النقش . وقد محاه او كاد يمحوه ، طول الزمن ، أو كانه رجع الوشم ، وقد اخذت الواشمة تعيده وتجدده على اليد أو كأنها الكتاب الذي اكب عليه الكاتب بدواته ، يسوي

سطوره مرة ، ويخالف اخرى ، لعدم مجيئها على استواء واحد . ولكن هذا لم يحل بينهم وبين الصور الجديدة التي كانت ترتسم في اذهانهم . فكانت الصور عند بعضهم شاخصة وحافلة بالحركة والحياة ، تتابعها العين والاذن والخيال ، ولا يقف دونها غموض . ولم يفصل بينها فاصل لأن هذا البعض كان يعرض لها بصورة مباشرة فيجسدها ويجسمها ويمنحها الحياة الشاخصة والحركة المتجددة ، منتزعا صور المشبه به من البيئة التي يعيش فيهـا ، مع محاولات بسيطة لاضفاء بعض الالوان عليها من عاطفة أو حركة ، محاولا طبعها بطابع معين . فصورة الطريق الذي تقطعه ناقة طرفة كساء مخطط يجد فيه جمالاً ، كما يجد في ناقته روعة وبهاء[1] وصورة البقرة الوحشية عند زهير ، وهي تتراءى له في لونها الابيض ، وقوائمها المخططة كأنها الثوب الناصع الجميل[2] . وصورة الطريق البين الواضح الذي تسير به ناقة النابغة ، ثوب ابيض[3] ، اما صورة البيداء المقفرة التي تخترقها ناقة الاعشى ، فكأنها ثوب يمني مخطط ، يستنفد عزيمة ونشاط راحلته فيقول[4] :

وبيداءَ قفرٍ كبُردِ السديـــر مشاربُهـــا دائراتٌ أجُن .

ويقول[5] :

فأفنيتُهـــا وتَعَالَلْتُهـــا على صَحْصَحٍ كرداءِ الرَّدَن

ويتابع المثقب العبدى هؤلاء الشعراء في رسم هذه الصورة فيقول[6] :

في لاحبٍ تعزِفُ جنّانُـــه مُنفهِقِ القفرةِ كالبُرجُدِ

وهكذا يتبارى الشعراء الجاهليون في استنباط الصور التي يتمكنون من استنباطها ليدللوا على براعتهم ومهارتهم وقدرتهم على الايتاء بالصور الجديدة .

---

(١) طرفة . الديوان ٣١٠ (الاعلم) (٢) انظر ديوان زهير/٢٢٨ (٣) انظر ديوان النابغة/٩٣ (صادر) (٤) الاعشى . الديوان/١٧ . (٥) الاعشى . الديوان/١٩ . (٦) المثقب العبدى . الديوان/٨ .

ان حرص الشاعر الجاهلي على نقل الصور نقلا امينا ، جعل تشبيهاته حسية لأنه كان ينزع فيها نزعة مادية بحتة . فالوحش الذي كان يصيده امرؤ القيس ، كانت عيونه متفرقة على الارض ، حول الخباء والارحل كأنها الخرز لما فيهن من السواد والبياض وجعله مثقبا لأنه اصفى له ، واتم لحسنه ، ومما يزيد جمال الصورة ، ابداع الشاعر في حرصه على هذا النقل بتلوين الصورة بالالوان التي تنطبق عليها انطباقا ، فيجعلها زاهية ، تقرب الحقيقة ، حتى تصبح الصورة والحقيقة كأنهما وحدة. واحدة واوس يكثر من التشبيهات المتناثرة في قصائده والتي يحس بها بالسمع والبصر ، فهو يشبه البرق بالصبح المضيء ، مستعملا لفظ لماح ليمثل خطف البرق تمثيلا حسنا ، ثم يضيف الهيدب الى السحاب ، ويقارب بينه وبين الارض ، حتى يكاد يدفعه بالراح أو تمسه بيديك ، وتدفعه اذا قمت . ثم يأتي على جملة تشبيهات ، يقول (١)

إنّي ارقتُ ولم تأرق معي صَاحي   لِمُستكفٍ بُعيـدَ النوم لَوّاح
يا من لبرق ابيت الليل ارقبُهُ   في عارضٍ كمضيء الصبح لمّاح
دان مسف فويق الارض هيدبـه   يكاد يدفعه من قـام بالـراحِ
كأن ريقـه لما عـلا شطبـا   أقراب أبلقَ ينفي الخيلَ رمّاح
كأنمـا بين اعلاه واسفلـه   رَبطٌ مُنشرةٌ أو ضوء مصبـاح
كأن فيه عِشار جِلّةً شرُفَـاً   شعثا لها ميم قد همت بارشاح

وكان التشبيه يصل عند كثير من الشعراء الى السرد القصصي الذي يسرد فيه الشاعر ما يروم التعبير عنه ، ويسكب فيه عاطفته التي تتحد في الصورة . ليكسبها احساسا جديدا ، ففي حديث زهير عن احبته ورحيلهم وهم يمضون لوجههم تراه يوشك ان ينسى الاحبة ، فينصرف الى تشبيه عينه وهي تسكب الدمع سكبا بدلو تملأ ثم تصب في جدول ، ويمضي زهير في تتبع الصورة

---

(١) اوس بن حجر . الديوان/١٥ – ١٦ – ١٧

فيعرض للادوات التي تصحب هذا العمل ، والناقة التي تستقي ، والجدول الذي يصب فيه الماء ، والضفادع التي تعيش في هذا الجدول ، مستطردا في هذه التشبيهات مبتعدا عن ابنة البكرى التي اصبح الحبل منها واهنا خلقـا يقول[1] :

كأن عيني في غربي مُقتّلـةٍ ... من النواضح تَسقى جَنّةً سحقا
تمطو الرشاء وتُجري في ثنايتهـا ... من المَحالة ثقبـا رائداً قَلِقـا
لهـا اداة وأعوانٌ غدون لهـا ... قتبٌ وغَرْبٌ اذا ما أفرغ انسحقا
وخلّفها سائقٌ يحدو اذا خشيت ... منه العذابَ تَمُدّ الصّلبَ والعُنُقا
وقابلٌ يتغنّى كلما قدرت ... على العَراقي يداه قائماً دفقاً
يُحيلُ في جَدولٍ تَحبوضفادعُه ... حَبوَ الجواري ترى في مائه نُطُقا
يَخرُجنَ من شَرَباتٍ ماؤها طَحِلٍ ... على الجُذُوع يَخَفنَ الغمَّ والغَرَقا[2]

وفي حديثه عن ناقته التي يشبهها بالظليم ، يمنح هذا الحيوان وصفاً دقيقاً ويصوره تصويراً كاملاً يحيط به من كل جانب ، فيعرض لهيئته وحركته وذعره وانطلاقه ، والى جانب وصف اعضائه ، فهو صغير الرأس ، متقارب العرقوبين ، صغير الاذنين ، ثم يعرض لحركته ، فهـو يعتسف الصحراء اعتسافا ، وينطلق في رحابها الفسيحة لا يلوي على شيء ، ولا يقف عند حد ، يقول [3] :

كأن الرجل منها فوقَ صَعْـلٍ ... من الظّلمان جؤجؤه هواء
أصك مُصَلّم الأذنـين أجـنى ... له بالسيّ تنّـومٌ وآء[4]

(١) زهير . الديوان/٣٧ – ٤٠ (٢) الغربان : الدلوان الضخمان . والمقتلة : المذللة يعني الناقة . الثناية : الحبل الذى قد اوثق طرفه بقتبها والطرف الآخر في الغرب . والعراقي : الخشبتان على الدلو . (٣) زهير . الديوان/٦٣ – ٦٤ (٤) الجؤجؤ . الصدر . هواء : لامخ فيه . الصكك : اصطكاك العرنقوبين التنوم : الواحدة تنومة : شجيرة غسيراء تنبت حبا دسما والسيء : ارض. آء . الواحدة آءة : ثمر السرح ، والسرحة دوحة محلال واسعة يحل تحتها الناس في الصيف ويبنون تحتها البيوت وظلها صالح .

ولم يجد الشاعر الجاهلي صورة احفظ من هذه الصور التي كانت تطالعه في كل جهة يتجه اليها ، ليقررها ويؤكدها في الذهن فكان هذا الفيض الزاخر من الفاظ الرمال والرياح والسيول والبروق والأبل والخيل والثيران الوحشية والحمر والافاعي والذئاب والوانها واوصافها ، وكأن الشعراء ادركوا حقيقة التصوير والصورة وهي تتجلى بأشكالها وهيآتها واجزائها ، وادركوا كذلك التفاصيل المتمثلة في الألوان والمظاهر التي تبرز تلك الحقيقة ، فكانوا يجمعون بين الركنين جمعا متوافقا ، وهذا ما حمل القدامى على تمييز هذه الطبقة من الشعراء الذين عرفوا بهذا الاهتمام – عفوا أو تعمدا – فأطلقوا عليهم من الاسماء مـا يشير الى حسن الصياغة والتنميق ، واصحاب الصنعة ، وعبيد الشعر

ولعل قصائد اوس بن حجر ، وزهير بن ابي سلمى تُعدّ النماذج الأولى لهذا الاتجاه ، لعنايتهما الشديدة بإبراز الصورة ، وتفصيلهما في جوانبهـا والمامهما الشامل بتفاريعها واجزائها ؛ وكأنهما كانا يدركان الأوصاف التي يريدان ادخالها في الصورة مسبقا ، فيجعلان اطار صورهما واسعا ، ومجال التفصيل فيهما رحبا ليستطيعا ادخال الأجزاء التي كانت تدور في نفسيهما .

فأوس يؤلف الصورة الشعرية تأليفا محكما ، وكان يتحمل من اجل هذا التأليف جهدا وعناء ومشقة ، ليتمكن من الربط بين الخيال الذي يريد ان يطبع الصورة به . والحواس التي تدرك هذا الخيال ، وقد ساعدته على ذلك مهارة فنية نادرة ، وقدرة حسية عجيبة في استخدام الالفاظ وبث الحركة والحياة .

لقد ارتبطت هاتان الميزتان في شعر اوس ارتباطا وثيقا وقد حملته على ان يستوحي الجمال الفني من المظاهر الطبعية المحسوسة .

ولعلنا ندرك ذلك في كثير من قصائده التي تطالعنا في ديوانه . ففي قصيدته الأولى يتحدث عن تماضر التي حلت بربب ثم يتابعها وينتقل معها

الى الغمر فالمرين فالشعب ، ويستمر اوس في هذه المتابعة حتى تحط الرحال في الشام وبعدها يربط بين منازل تماضر التي ابتعدت عنه ، وبين منازل اهله ، حتى اصبح طلابها نصبا . ويلح اوس في البيت الثالث على هذا المعنى . وبعدها ينصرف الى تصوير بقايا الديار ، وما تناثر فيها من الحفر والخطوط فيشبهها بالزخارف الجديدة التي لم تندثر ، ويعرض بعد ذلك الى النعام فيضفي عليه اللون الاسود المغبر ، وقد اتخذ دار صاحبته مقاما ، فهو يمشي كما تمشي الاماء وقد تسربلت جبباً ، وتبرز قدرة اوس في رسم هذا المنظر باستخدام كلمة تمشي التي تبث فيه الحركة ، واضفت عليه عنصراً مهما من عناصر النجاح . اذ يقول [1] :

حَلَّت تُماضِرُ بعدَنا رَبَبا فالغَمْرَ فالمُرَّين فالشُّعَبَا
حَلَّت شاميّة وحَلّ قِساً أهلي فكان طلابُها نَصَبَا
لحقت بأرض المنكرين ولم تُمكن لحاجة عاشقٍ طلبا
شبهت آيات بقين لها في الاولين زخارفاً قُشُبا
تمشي بها رُبْدُ النعام كما تمشي إماءٌ سُرْبلت جُبَبَا

ويستمر اوس في هذا العرض ، فيقدم الحوادث في هذه الصور المتطورة ، فالناقة الضخمة سريعة العدو ، وما اطمأن من الارض حولها مضطرب ، ولوامع السراب تكسو جوانب تلك الارض المطمئنة ، حتى اتصلت برؤوس الآكام ، والثور الوحشي ، الذي شبه به ناقته ، ملمع ، حتى اشبه وحش انبط ، الذي تجمع ولجأ الى مضيق من الأرض ، لاشتداد المطر عليه ، ثم نعته بالبياض . واذا انعمنا النظر في ابيات اوس هذه ، وجدنا قدرة هذا الشاعر على امكنة الصورة . وقدرته على تحديد زمانها ايضا .

---

(١) اوس . الديوان/١

الى جانب الالوان الناضعة التي ملكت عليه حواسه ، وملأت قلبه ، فظل يتابعها في بقية ابيات القصيدة ، متابعة تدل على افتتانه في هذه الألوان ، وشدة احساسه بما تثيره في نفسه من المشاعر والاحاسيس(١) :

وقد لازمت هذه الصفة زهيرا في اغلب قصائده ، حتى اصبحت منهجا واضحا يلتزمه ، وطريقا يسير عليه ولعل معلقته التي وفر لها الجهد الفني الضخم والطاقة التصويرية البارعة ، تعد النموذج الرائع لهذه المهارة والقدرة(٢) فهو يصف الطلل في صمته وسكوته ، ثم يتحدث عن الاثافي ، وعن النؤى القديم الذي حفرته القبيلة حول خيامها وعن بقاياه التي ما تزال قائمة كأنها بقية حوض لم يتثلم ، ويظل زهير يراقب هذه النؤى والاثافي مراقبة صامتة ، فيطيل اليها النظر ، ويستعيد الذكريات حتى اذا استيقن انها ديار صاحبته القديمة ، توجه اليها بتحيته الهادئة العميقة ، واودع هذه التحية كل ما يحمله لها في قلبه من وفاء ، ومن تشبث بذكريات . رغم تقادم العهد ، وتطاول الزمن ، وتباعد الأيام(٣) ، ثم ينصرف الى الحديث عن الطلل ، وقد استحال مسرحا فسيحا للبقر الوحشي ، والظباء التي تمشي متخالفة وصغارها التي تنهض في نشاط وحيوية . ثم ينتقل الى وصف معالم هذه الديار فهي لا تزال باقية ، كأنها الوشم المرجع في عروق المعصم ، ثم يصف وقوفه فيها ويصور صمتها وسكوتها فهو لا يكاد يعرفها ، وهنا يستعين بلفظ (فلأيا) ، ليعبر عن الحالة الشعورية التي انتابته ، والأحاسيس القوية التي اعترته وهو يظفر بحاجته بعد عشرين حجة . حتى لاحت له ، وهي واضحة المعالم محـــدودة الابعاد ، متميزة الألوان(٤) .

ثم يستعيد زهير ذكرياته القديمة في المنظر الثاني ، فيطلب الى صاحبه ان

---

(١) اوس . الديوان/٢ – ٣ . (٢) شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في الشعر العربي / ٢٩
(٣) شوقي ضيف الفن ومذاهبه في الشعر العربي/٣٠ ، ومقال للدكتور يوسف خليف في مجلة (المجلة) . العدد/١٠٠ السنة التاسعة ، نيسان/١٩٦٥ (٤) انظر معلقة زهير في ديوانه .

يتبع بخياله رحلة صاحبته المسافرة ، فينتقل معها من العلياء الى القنان ومن القنان الى السوبان ، ومن السوبان الى وادى الرس ، وفي وادى الرس تستقر الرحلة ، فلا تجوز ولا تخطى . كما لا تجوز اليد اذا قضدت للفم ولا تخطئه وزهير لا ينسى اثناء هذه الرحلة ، أن يعطي كل مكان صورته بالتفصيل ، فهو يبصر الظعائن وهن ينتقلن في شعاب الصحراء . وقد رفعت فوق المطايا الانماط العتاق والكلل الوردية الحواشي .

ولا ينسى زهير ان يحدد نوعية الرحال ، وما يتساقط من فتات العهن في المنازل التي ينزلن فيها ليكمل اجزاء الصورة ، ويحدد مقوماتها الفنية ، ويبرز قابليته على استيعاب هذه اللوازم .

لقد اعطى زهير كل جزء منها لونا ، وكأنه يحسن استعمال هذه الألوان في تصويره احسانا شديدا ، فقد اعطى للكلل اللون الوردى ، ومنح فتات العهن اللون الاحمر ، فقارب بين الألوان مقاربة تظهر براعته ، وتبرز قدرته على هذا الذوق الفني الرفيع في الاستخدام[1] .

فالصورة بعد كل هذا كانت عماد الشعر العربي ، وقد حاول الشعراء ان يجعلوا هذه الصور واضحة ، وهذا ما حملهم على نقل جزئياتها صورا والوانا وحركات ، وهم في الغالب لا يستقصون هذه الجزئيات استقصاء تاما منظما . ولكن ذلك لا يقلل من اجادتهم في لم اشتات هذه الجزئيات الى بعضها ، وتكوين الصورة الكاملة الى حد ما اجادة تضطرنا للوقوف عندها وقفة تأمل واعجاب .

ولا بد ان تكون هذه الصور متباينة في اخراجها قوة وضعفا ، لأن بعض الشعراء كان يقف عند حدود المرئيات منها . وكان البعض الآخر يتجاوزها الى ما اوحته اليه هذه الصور .

---

(٢) انظر معلقة زهير في ديوانه ومقال الدكتور خليف. في مجلة المجلة التي اشرنا اليه سابقا .

ومن الطبيعي ان تظهر معالم التكرار في هذه التشبيهات والصور لأن معظم الشعراء كانوا يدورون حول معان متعارف عليها ، وتشبيهات محددة لا يكادون يبتعدون عنها ، ففي حديثهم عن الرحيل ، كان الشاعر يتحدث عن هذا الرحيل ، ويقص على نفسه قصة الرحلة الطويلة وكأنه يريد ان يقنع نفسه بها ، فيكرر الذكريات ، ويلح في هذا التكرير ، فيشبه النساء وقد دخلن الهوادج بالظباء يأوين الى الكنس .

وفي هذه الصورة يقدم الشاعر تشبيهات حسية كثيرة فالسراب ينتشر في كل جانب ، والآبل منتقلة من سراب الى آخر ، والآكام تحجبها تارة ، وتظهرها اخرى وقد تعاور الشعراء على مثل هذه الصور . اما في مجال التشبيه فنجد الشعراء اذا وصفوا الديار شبهوها بالكتاب[1]

واذا ارادوا ان يشبهوا آثارها ، شبهوها بالصحف أو الزخارف[2] ، وكأنهم كانوا يقرأون في هذه الآثار المتبقية من الذكريات ما يقرأونه في الكتب ، واذا رغب الشاعر في مقابلة صورة الاثر قابلها بالوشم[3] ، واذا تحدثوا عن الكثيب شبهوه بعجز المرأة[4] ، وكذلك شبهوا اعجاز النساء بالعجل المملوء بالماء[5] وكانـــوا يستعيرون للسحاب المملوء بالماء الروايا من الابل ، وهي التي يحمل عليها الماء للسقي[6] .

وشبه عنترة قرارات الروضة وحفرها بالدراهم وصوت الذباب بصوت الشارب المترنم : قال[7] :

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/٨٩ وديوان ابي دواد/٢٩٣ . (٢) انظر ديوان عنترة /٣٩٤ (الاعلم) وديوان بشر/١٣٧ ، ١٥٢ وديوان اوس/١ . (٣) انظر ديوان عنترة /١٩٠ وديوان الطفيل/٦٤ وديوان طرفة/٣٠٨ (الاعلم) وديوان زهير/٥ . (٤) انظر ديوان عبيد/٢٢ وأيوان امرى القيس/٣٠ وديوان طرفة/٣٥٦ (الاعلم) وديوان الاعشى/٣٥٣ (٥) انظر ديوان الاعشى/٥٩ . (٦) انظر ديوان علقمة/١٩ . (٧) عنترة . الديوان/١٤٥ (عبد الرؤف الشلبي) .

أو روضةً أنفا تضمّنَ نبتَها غيثٌ قليلُ الدمن ليس بمَعْلم
جادَتْ عليها كلّ عينٍ ثرَّةٍ فتركن كُلّ حديقةٍ كالدرهم
سَحّاً وتسكاباً فكلّ عشيّةٍ يجرى عليها الماء لم يَتَصرّم
وخلا الذباب بها فليس ببارحٍ غردا كفعل الشارب المترنّم

وقد اعجبت هذه الصورة الجاحظ اعجابا شديدا حمله على ان يعد تشبيه عنترة هذا من التشبيه المصيب التام ، وانه وصف اجاد صفته ، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له احد منهم ، وانه لم يسمع في هذا المعنى بشعر ارضاه غير هذا الشعر[1] .

واذا وصفوا الدروع شبهوها بماء الغدير الذي تصفقه الرياح[2] ، اما السحاب البطيء ، وهو تسوقه ريح الشمال فيشبه الكسير اذا سبق ، موضحين في هذا التشبيه صفة التثاقل والتباطوء[3] ، وشبهت شدة السحاب وقوته وتجمعه بصور كثيرة ، من ذلك تشبيه السحاب المملوء بالماء المترامي بعضه في اثر بعض بالجبال[4] وشبهت الكتائب في غاراتها بالسحاب المندفع الجارف لكل ما يعترض سبيله[5] .

اما تشبيه السحاب بصور الحيوانات فقد وردت من ذلك في شعرهم صور كثيرة والظاهر ان المعاني التي اوحتها اليهم هذه السحب وهي تتشكل باشكال متباينة ، انعكست في شعرهم بحيث تمكننا قراءة ما اوحته الى نفوسهم تلك الاشكال فصورة البرق اللامع وسط السحاب الأسود عند عروة بن الورد فرس بلقاء تنفي ذكور الخيل عن ولدها[6] .

ارقتُ وصحبتي بمضيق عمقٍ لبرقٍ في تهامة مستطير
اذا قلت استهلّ على قديدٍ يحورُ ربابُهُ حورَ الكسير

---

(١) الجاحظ . الحيوان ٣/٣١١ — ٣١٢ . (٢) انظر ديوان عامر بن الطفيل/١٠٢، والمفضليات ١/٤٠ ، ٨٤ . (٣) انظر ديوان عدي بن زيد/٨٦ . (٤) انظر ديوان المزرد/٢٤ . (٥) انظر ديوان اوس/١٠٤ . (٦) عروة الديوان/٣١ (صادر) .

تكشف عــائذ بلقــاء تنفي ذكورَ الخيل عن ولدٍ شفور

ويشبه عبيد بن الابرص السحاب بأصول افخاذ فرس ابلق فيقول[1] :

كأنَّ رَيّقَـــهُ لما عَلا شَطِبــاً اقرابُ ابلقَ ينفي الخيلَ رمّاح[2]

ويجسم لبيد الصورة ، ويضفي عليها حركة واسعة ، فالسحاب الـذي نراه متدليا يشبه اعناق النعام ، وانكشاف البرق عن سواد الغيم يشبهه بحبشان بأيديهم حراب فيقول[3] :

أرِقتُ له وأنجدَ بعــد هــدء وأصحابي على شعب الرحــال
يضيء ربابه في المزن حبشـا قياما بالحراب وبالا لالــي
كأن مصفحـات في ذراه وانواحـا عليهن المــآلي[4]

والصورة بهذا الشكل ، كما قال الجاحظ[5] ، مخيفة ، مرعبة ، لأنهم اذا اقبلوا بحرابهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم وراياتهم وخيولهم ، مـع سواد الوانهم ، وضخم ابدانهم ، رأيت هولا لم تر مثله ، ولم تسمع به ، ولم تتوهمه ويقدم الاعشى صورة اخرى : يشبه فيها تجمع السحب المتكاثفة والمتراكبة بقطع من النعام ، تهدل ريشه ، فظل معلقا في الفضاء فقال[6] :

بل هل ترى برقا على الجبلين يعجبني انجيابــه
من ساقط الاكناف ذي زَجلٍ اربَّ بــه سَحابهُ
مثــل النعــام معلقــاً لمــا دنا قرداً شرابه[7]

(١) عبيد . الديوان/٣٥ . (٢) الريق : اللمعان . شطب : اسم جبل . الاقراب : جمع قرب ، وهو الخاصرة ، الرماح : الكثير الرفس . (٣) لبيد الديوان/٨٩ — ٩٠ .
(٤) أنجد : ارتفع ، اخذ البرق الى ناحية نجد ، يقول شمته على نجد ، بعد هده من الليل ، شعب الرحال : عيدانها ، الرباب : السحاب الذي تراه كأنه متدل ، كأنه أعناق النعام . الالال : الحراب. المصفحات : الابل اللواتي قد صفحت عن اولادها أي عزلت عنها : فشبه صوت الرعد في هذا السحاب بصوت هذه الابل . المآلي : الخرق التي تكون مع المرأة تحركها تندب بها .
(٥) انظر رسالة فخر السودان على البيضان للجاحظ (٦) الاعشى . الديوان/٢٨٩ .
(٧) انجيابه : الكشافة . ارب : أقام . قردا : مجتمعا .

وكذلك يشبهه زهير بن عروة[١] .

ولم تكن هذه الصور وحدها تدور في ذهن الشاعر الجاهلي ، وهو يتحدث عن السحاب ، وانما كانت هناك صور اخرى تمثل الجانب الرقيق من حياته ، حاول ان يجعلها اطرافا في هذه الصور ، فقد شبه مرور المرأة لثقلها ، وتقارب خطوها بمرور السحاب[٢] ، كما شبهوا المرأة ببنات مُخر[٣]

اما البرق فقد شبهوا انتشاره وتشعبه وهو يتابع بعث اللمعات ، بحركة اليدين وتقليبهما[٤] ، والظاهر ان لمعان البرق واستنارته وتلألؤه لاقى هوى في نفوس الشعراء ، فأكثروا من التشبيه به ، فشبهوا الوجه المشرق والمستنير بالبرق[٥] ، وشبهوا بريق الاسنان بلمع البرق[٦] واذا تكلل السحاب ، وصار بعضه فوق بعض ، فهو اشد لاضاءة البرق وعندها يكون التشبيه اروع ، والتلألؤ اوضح ، وبذلك شبه اوس بن حجر السيف فقال[٧] :

وابيضَ هِندياً كأن غرارَهُ   تلألؤ بَرقٍ في حبي تكللا

وهذه الصورة قريبة من صورة امرىء القيس الّتي شبه بها وميض البرق بلمع اليدين على ان الشعراء لم يتخذوا البرق طرفا واحدا في تشبيهاتهم (مشبها به) وانما حاولوا ان يجعلوه (مشبها) ايضا ليقروا صورة المشبه به في الذهن ويؤكدوا الإحساس الّذي يحسونه في الصورة ، فقد شبه عبيد بن الابرص البرق بمصباح النبط[٨] وشبه لمعانه بتبسم النجوم[٩] .

ووردت اشارات كثيرة الى الدلاء في مجال تشبيه الدموع بها[١٠] ، وشبهوا

---

(١) انظر الكامل للمبرد ٣/٨١٧ . (٢) انظر ديوان الاعشى/٥٥ . (٣) نبات مخر : هن سحائب حسان مستطيلة ، منتصبات . رقاق كانوا يزعمون ان هذه السحب اذا رئين في اول الشتاء كان ذلك العام خليقا بالمطر . انظر ديوان طرفة/٧٤ . (٤) انظر ديوان امرىء القيس /٢٤ . (٥) انظر شرح اشعار الهذليين ٣/١٠٧٤ . (٦) انظر ديوان امرىء القيس /٢٣٣ . (٧) اوس بن حجر. الديوان/٨٤ . (٨) انظر ديوان امرىء القيس/١٣٩ (٩) انظر ديوان عبيد/٧٦ . (١٠) انظر ديوان علقمة/٤٢٥ وديوان زهير/١٤٨ وديوان لبيد/١٢١ .

نقض العهد بقطع الحبل من الدلو[1] والرماح لطولها بحبال البئر[2] والآتان في سرعتها وانقضاضها على عدوها بالدلو اذا انقطع حبلها[3].

والظاهر انهم كانوا يضربون المثل بالدلو في كثير من تشبيهاتهم وصورهم لكثرة استعمالهم لها ، وهم يضربون المثل كثيرا بما يعرفونه ويستعملونه. والناقة يركبها الشاعر ، لتقطع به الفيافي والمفاوز ، وهو في خلال هذه الرحلة يضفي عليها مختلف النعوت ، فهي حمار وحشي ، أو ثور وحشي ، طاردته كلاب الصيد ، وكثيرا ما يذكر أنه خاض معها اعنف المعارك وخرج من المعركة منتصرا وهي نعامة خاضبة ، اعترضت سوقها الحمرة ، يعرض لها الظليم المصلم الدقيق الرأس ، ذو العنق الضخم ، والمخالب الحادة ، الذي تشبه اهداب ريشه زنجيا عليه كساء من القطيفة[4].

ولا بد أن تكون هذه التفاصيل من الاسباب التي تجعل سير الناقة اشد واسرع لانها تكون مطاردة مذعورة ، وفي هذه الحالة يجد الشعراء عدة مظاهر لهذه الشدة في الركض ، منها اسراع يدها وتقدمها على رجلها[5].

وحاول بعض الشعراء تشبيه رواحلهم بالنعام النافر الشارد[6] ، أو النعامة التي تسابق الظليم[7] ، أو حمار الوحش الذي ضيق عليه المجال ، واحاط به الصائدون من كل جانب[8] ، ليخلصوا من ذلك الى شدة سرعتها وقوتها ونشاطها.

والظاهرة الجديدة التي تطالعنا في حديث الشعراء عن سرعة الناقة ، هي

---

(١) انظر ديوان بشر/٢١ . (٢) انظر ديوان بشر/٢٣ والمفضليات ١/١٢١ (٣) انظر ديوان زهير/٦٧ . (٤) انظر ديوان بشر/ ١٥٤ . (٥) انظر المفضليات ١/٥٦ . (٦) عبيد بن الابرص /. الديوان/٨٤ . (٧) المفضل . المفضليات ٢/١٠٣ ، (٨) وانظر ديوان امرىء القيس / ١١٥ ، وديوان زهير / ١٦٨ ، وديوان لبيد/١٤٧ وانظر ديوان عبيد / ٩٢ ، ولويس شيخو . شعراء النصرانية (المتلمس) ١/٣٤٠ وديوان بشر/١٩٧ .

اقتران هذه السرعة بتمضية الهم ، وازاحة العلة ، وتسلية الاحزان ، ولا بد ان تكون دواعي هذا الانتقال قادرة على منح الشاعر بعض التنفيس عما اعتراه من الحزن عند وقوفه على الاطلال ، فكانت تنازعه هذه الرغبة في تفريج الهم ، وازالة بواعثه ، وعندها لا يجد غير هذه الناقة السريعة التي تندفع به في مجال الصحراء الفسيح ، لتبعده – بما تهيأت له من ضروب السرعة –[1] عن بواعث الحزن ، قال بشر[2] :

ولقد أُسلّي الهمّ حين يعودني بنَجاء صادقةِ الهواجرِ ذِعْلبِ

وقال طرفة بن العبد[3] :

واني لأمضي الهم عند احتضاره بِعوجاءَ مرقالٍ تروح وتغتدي

وقال لبيد[4] :

وكنتُ اذا الهمومُ تحضّرتْني وضَنَّتْ خُلّة بعد الوصال
صَرَمتُ حبالَها وصددتُ عنها بناجية تَجِلّ عن الكَلال

ولم يقفوا بسرعة الناقة عند هذه الاوصاف ، وانما حاولوا ان يضفوا على دواعي السرعة ، دواعي اخرى ، فاذا وصفوها بأنها رواع[5] ، شديدة التفزع لفرط نشاطها ومرحها ، وصفوا بأن هرا قد نيب في دفها[6] ، وانما يذكرون في هذا الباب السباع المنعوتة بالمخالب ، وطول الأظفار ، ويذكرون الموضع الذي يوصف بالخلب والخدش والخمش والتظفير[7] ، وربما خصوا الهر ، لأنهم كانوا لا يتخذونه في البوادي الا قليلا ، فكانت ابلهم لا تعرفه ،

---

(١) انظر ديوان علقمة/٤٢٦ (تلاحظ السوط شزرا) ، وانظر ديوان طرفة (المعلقة) ، وان شئت لم ترقل ، وديوان زهير/٢٤٤ (وتتقي علالة ملوي) ، وديوان الاعشى (تعاللتها بالسوط) /١٩٥،٨٣ وديوان المثقب/٦ (تعطيك مشيا حسنا). (٢) بشر . الديوان/٣٥ . (٣)طرفة . الديوان/٣٤ . (٤) لبيد . الديوان/٧٥ ، وانظر ديوان بشر/١٦٢،١٥٨،١٥٣،٥٠، ١٩٥،١٦٨. (٥) وصف من الروع وهو الفزع . (٦) نيب من التنييب ، وهو العض بالناب . الدف : الجنب (٧) الحيوان : الجاحظ ٢٧٨/١ .

وذلك أشد لنفارها وجزعها ، قال امروْ القيس[1] :

بَعيــدةُ بين المنكبين كأنّهــا تـَرَى عند مَجْرى الضَّفرِ هرّاً مُشجَّرا

وقال عنترة[2] :

وكأنما تنأى بجانب دفها الوحشي من هزج العشي موؤم

هر جنيب كلما عطفت له غضبى اتقاها باليدين وبالفم[3]

وقال اوس بن حجر مضيفا الى الهر حيوانات أخرى[4] :

كأن هِرّاً جَنيباً تحت غرضها واصطك ديك برجليها وخِنزيرُ[5]

وكان تعرض الشعراء الجاهليين لصفات الناقة الجسمية متباينا ، ومعالجتهم لها مختلفة ، ولكنهم يجمعون على مدح الضامرة ، التي تشبه برقتها جفن السيف عند لبيد[6]:

أجــد المرافق حــرة عيرانــة حرج ، كجفن السيف غير سئوم

أو تشبه بضمورها وانحنائها ، لكثرة ما قطعت من المفاوز ، الهلال كما هي الحال عند عبيد[7] :

عنتريس كأنهــا ذو وشوم أحرجته بالجو احدى الليــالي

ثم أبرى نحاضهــا فتراهــا ضامرا بعد بدنها كالهــلال[8]

وكانوا يطلقون على الناقة الضامرة (حرفا) تشبيها بحرف الجبال[9] ولم

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/١٧٠،٦٣. (٢) عنترة: الديوان/٣٧٣ - ٣٧٤. (٣) انظر ديوان الاعشى/٢٧ وديوان المثقب العبدي /٣٤ والمفضليات ٢/١٠ والاصمعيات/١٨٨ .

(٤) اوس . الديوان/٤٢ . (٥) الغرض والغرضة واحد : وهو حزام الرحل .

(٦) لبيد . الديوان/١١٥ . (٧) عبيد . الديوان/١١١ (٨) العنتريس : الصعبة . ذو الوشوم يريد الثور الوحشي فيه سواد وبياض . احرجته ، الجأته الى شجرة بالجوا وحبسته نحاضها: لحمها . وابرى نحاضها : أهزل لحمها . البدن . السمن . (٩) انظر ديوان بشر /١٣٢،١١٠.٣٥ وديوان زهير/٣٧ ، وديوان لبيد/٩٦ وديــوان الاعشى/٨٣ ، ٣٢٣ ، والمفضليات ١/١٢٧ .

تكن اوصاف السرعة التي وصفوا بها الناقة مجرد صور ساكنة وصامتة ، وانما حاولوا ان يمنحوا هذه الصور حركات والوانا تهيء لها القدرة على التعبير .

فالناقة في سرعتها عند المسيب بن علس ، تحرك يديها بسرعة وكأنها تلعب الكرة ، ولعل الصورة بهذا الشكل لا زالت غير متكاملة في ذهن الشاعر ، ولا زالت خطوطها غير واضحة في نفسه ولهذا نراه يحاول محاولة اخرى في اكمالها ، فيقدم حركة جديدة تتمثل في تشبيه سرعة يديها بأيدي امرأة تحوك ثوبا ، وقد ادركها الوقت ، فهي تهم الاسراع ، لانجازه ، وفي هذه الصورة ينهي تخطيط صورته . ويكمل اللوحة التي سعى الى تصويرها اذ يقول(١) :

مرحت يداها للنجاء كأنما تكرو بكفي لاعب في صاع
فعل السريعة بادرت جدادها قبل المساء تهم بالاسراع

وحاول اوس تشبيه ناقته، والسرعة التي تنطلق بها بالدرر التي خانها النظام فانفرطت(٢) .

كأن ونى خانت به من نظامها معاقد فارفضت بهن الطوائف

ويشبه عبيد تدفق ناقته ، وسرعة سيرها ، بتدفق المياه اذ يقول(٣) :

فالحقنا بالقوم كل دفقة مصدرة بالرحل وخباء شملال

اما الحارث بن حلزة فيصف في معلقته ناقته ، ويصور حركتها في قلب الصحراء وهي تثير الغبار ، فتترك طرقات خفافها فوق الرمال اثارا واضحة تلوى بها الصحراء فيقول(٤) .

---

(١) المسيب بن علس. الديوان(ضمن شعر الاعشين/ جاير) ٣٥٤. (٢) اوس. الديوان/ ٦٦ .
(٣) عبيد . الديوان/١١٤ . (٤) ابن الانباري . شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات /٤٤١ - ٤٤٤ .

بزفوف كأنهـا هقلـة أ   م رئـال دويـة سقفـاء
آنست نبأة وافزعهـا الـقـ   ـنّاص عصرا وقد دنا الامساء
فترى خلفها من الرجع والوقـ   ـع منينـا كأنـه اهبـاء
وطراقا من خلفهن طـراق   ساقطات تلوى بها الصحراء[1]

وفي كل هذه الصور ، تبدو مهارة الشعراء في التقاط المشاهد التي يحسون بها فتبلغ منتهى الدقة في اوصاف هذه المحسوسات ، وهي تنبه حواسهم لها تنبيهاً دقيقاً .

اما وصف اعضائها فقد تعرض له الشعراء ، ويعد طرفة بن العبد في مقدمة الشعراء الجاهليين الذين عالجوا هذا الجانب الوصفي من الناقة فخصص وصفه كله للناقة ، وقد عني بوصفها كما عني امرؤ القيس بوصف فرسه في معلقته وبالغ كل منهما في ذكر ضخامة حيوانه الضليع الممتلىء العالي ، حتى استغرق وصف طرفة من معلقته اكثر من ثمانية وعشرين بيتا ، الم بها الماما شاملا متناولا كل عضو من اعضائها ، مقارنا ذلك بما تهيأ له من الصور والتشبيهات التي وقعت تحت حسه ، ويمهد طرفة لوصفه هذا باكتمال خلق هذه الناقة ، وقوة سرعتها ، واداء مهمتها في نشاط متواصل ، لا تعرف فيه الكلال ولا الملل ، وهي مقدمة لا بد منها حتى يتمكن من الحديث عـن اعضائها التي تساعدها على اداء هذه المهمة الصعبة ، فضخامة الرأس وصلابة الجمجمة ، وصفاء العيون ، وحدة نظرها وغؤورها في مكان امين ، والخد الابيض الذي لا شعر فيه ، والأذنان الحادتا السمع ، اللتان تحس بهما كل

---

(١) الزفوف : الناقة المسرعة الخفيفة . والزفيف : عدو النعام اذا اسرع. الهقلة : النعامة . الرئال : فراخ النعام . الدوية : منسوبة الى الدو ، وهو الارض الواسعة ، البعيدة الاطراف. السقفاء : النعامة التي في رجلها انحناء . النبأة : الصوت الخفي . المنين : الغبار الدقيق الذي تثيرة بقوائمها . الاهباء : اثارتها الهباء والهباء : الغبار الذي كأنه دخان . الطراق : مطارقة نعال الابل ، وساقطات : قد سقطت من ارجلها ، فالطراق تؤدى بها الصحراء ، اى تبلى هذه النعال فتسقط .

صوت خفي ، والعثنون الذي يخالط بياضه حمرة ، والمشفر الطويل اللين الذي لا يعرج في تقطيع النبات ، والعنق المشرف الطويل ، المتصل بفقار الظهر ، وظهرها الموثق الصلب ، وضلوعها المنحنية ، والفخذان الكاملا الخلق ، المكتنزا اللحم ، واليد المفتولة ، والمرفقان المتباعدان ، والذنب القوي الذي تدفع به كل اذى ، كل ذلك مذكور في المعلقة[1] .

هذه الصفات التي لم يترك فيها طرفة عضوا من اعضاء ناقته الا وقف عنده ، تعتبر اجمع لوحة شعرية عرفها الشعر الجاهلي ، صور فيها ما وقع من اعضاء ناقته تحت بصره ، متخذا من بعض الصور الخارجية الحسية أو المادية اوجه شبه للمقارنة .

ويتضح من اوصاف طرفة انه لم يراع ترتيبا ما في منحنا صورة الناقة فقد وصف الوجنات اولا ، ثم وصف الذيل ، ثم الفخذين ثم الأضلاع ، ثم المرفقين ثم الغثنون ، ثم اليدين ، ثم الجمجمة ثم العيون ، والذي يبدو من هذه الأوصاف انه رسم ما جذب نظره من جسدها اينما كان موضعه ، فكان ينتقل بين انحاء الجسد دون ترتيب وذلك امر يختلف عن صورة الرسام ، فانه لا بد ان يتبع ترتيبا متناسقا لرسم الصورة ، فلا يستطيع ان يقفز من الوجنات الى الذيل كما فعل طرفة وكما يتضح لنا من خلال اوصافه انه لم يكن وصفا مجردا ، وانما هو وصف محب مولع بكل دقيقة من دقائقها وعضو من اعضائها . وكأنه يريد ان يصنع من هذا الوصف تمثالا يحفره حفرا في اذهان العرب ، الذين كانوا يعجبون بنوقهم اعجابا لا حد له . ففصل جمال بنائها ، ورشاقتها ، وكان يرسم من خلال هذه الأوصاف ايضا الطريق الذي كانت تسير فيه هذه الناقة ، والآثار التي تتركها فوق رماله . وفي هذه الالتفاتة تبرز قدرة طرفة على الوصف ، تتجلى مهارته على اختيار اللفظ وتظهر

---

(١) انظر معلقة طرفة في شرح القصائد السبع الطوال لابن الانباري/١٤٩ – ١٧١ .

نزعته التصويرية في رسم التعاريج والخطوط والآثار التي تبدو كالكساء المخطط[1] ثم يكرر طرفة وصف الطريق وحركة ناقته ، وكيف كانت تسابق العتـاق الناجيات في سيرها وان رجليها كانتا تتبعان يديها في انتظام رائع فوق طريق موطأ مستو ، لا يعوق السير فيه عائق[2] . ثم يعكف طرفة على وصف اعضاء هذه الناقة ، فيلح في وصفها الحاحا يبرز فيه ضخامة هذه الأعضاء وحسنها[3] ثم يختم هذا الوصف ، كما بدأه بصورة تتجمع فيها الحركة ، وتتمثل في عناصرها البراعة والتدرج من تصوير الهيئة الى تصوير الحركة[4] .

اما الشعراء الآخرون ، فكانوا يقفون عند بعض اعضائها وقوفا قليلا ، ثم ينتقلون الى الاوصاف الاخرى . فبشامة بن الغدير يشبه عيونها بعيون مفيض القداح الذي يقلب اقداح الميسر ، ويدفعها ليظهر الرابح مشيرا الى حـدة نظرها ويقظتها وحذرها ، يقول[5] :

بعين كعين مفيض القـداح اذا ما اراغ يريـد الحويلا

ويشبه زهير غوؤر اعين الابل من سير الليل ، بآبار نضب ماؤها ، يقول[6] :

وكأن اعينهن من طول السرى قلب نواكز ماؤهن منضب

اما علقمة فيشبه عيون الابل — بعد ان انضاها واجهدها التعب بقوارير نضب منها الطيب ، يقول[7] :

وعيس بريناهـا كأن عيونها قوارير في ادهانهن نضوب

واشار بعض الشعراء الى طول عنقها ، فشبهوه بالشراع[8] ، ووقف

(١) انظر شرح القصائد السبع الطوال/١٥١ — ١٥٣ وانظر الدكتور شوقي ضيف ، العصر الجاهلي /٢٢٣ . (٢) انظر شرح القصائد السبع الطوال/١٥٣ وكتاب الشوامخ لمحمد صبرى /١٠٢ (٣) نفس المصدر/١٥٩ — ١٦٨ (٤) نفس المصدر/١٧٩ — ١٨٠
(٥) المفضل . المفضليات ١/٥٥ (٦) زهير . الديوان/٣٧١ . (٧) المفضل . المفضليات ١٩٢/٢ . (٨) انظر المفضليات ١/٦٠/٢/٩١ .

بعض الشعراء عند يديها ولينها وقوتها وسهولتها ، فشبه بشامة ناقته وقت كلال غيرها من الابل ، بسابح كاد يغرق ، فهو اشد لتحريك يديه مخافة على نفسه[1] :

كأن يديهـــا اذا ارقلت　　　وقد جرن ثم اهتدين السبيلا
يـــدا عائم خر في غمرة　　　قد ادركه الموت الا قليـــلا

وشبهها ثانية بيدى ساق اصم لا يسمع ما يشغل به عن استقائه من البئر لحده[2] :

ويدي اصم مبـــادر نهلا　　　قلقت محالته من الـــنزع

والشاعر في الصورتين يقدم لنا تعليلا للحركة ، وتفسيرا لدوامهـــا ، فالغريق لا يسلم للموت بسهولة ، فهو يحاول النجاة ، وهذا العمل يكلفه مشقة وعناء والأصم لا يسمع الصياح من حوله ، فهو جاد في الاستقاء ، دائم الحركة فيه ، وهاتان الصورتان تدلان على قدرة الشاعر على ابتكار الصور المتحركة ، ويكاد علقمة يتفق في تشبيهه مع بشامة عندما يشابه ذراعي ناقته ــ بعد الاعياء والكلال ــ بذراعي رجل قد تجرد من ثيابه ، أو شمر عنهـــا ليستقي حينما يقول[3] :

كأن ذراعيها على الخل بعدما　　　ونين ذراعـــا ماتح متجرد

ويصور المثقب العبدي صوت قائمتي ناقته الاماميتين ، وهي ترجع بهما الى وسط بطنها في مسيرها بنواح ابنة الجون[4] ، على هالك عزيز تبكيه . يقول :[5]

كأنمـــا اوب يديهـــا الى　　　حيزومها فوق حصى الفدفد

---

(١) المفضل . المفضليات ١/٥٦-٥٧.　(٢) المفضل . المفضليات ٢/٢٠٨ وديوان الاعشى /٨٣　(٣) علقمة . الديوان/١٤٠ .　(٤) ابنة الجون : امرأة من كندة عرفت بشدة النواح .　(٥) المثقب العبدي . الديوان/٨ .

نوح ابنة الجون على هالك　　تندبـــه رافعـــة المجلد[1]

وكما وقف الشعراء عند يدي رواحلهم ، وقفوا عند تصوير ضلوعها فنعتوها بمجفرة الضلوع ، وهو مستحب من خلقها كما وصفهـــا ثعلبة بن صعير[2] ووصفوها بالعوج المتناطحة يريدون بذلك ان اضلاعها قوية متداخلة تدل على ان عظامها ضخمة ، كما اشار بشامة بن العذير[3] ، ولم يترك الشعراء اثر النسوع وهي تحز جنبيها ، فشبهوه بآثار الحبال في البئر[4] ، وصور بشر صرير النسوع وهي تحز جوانبها بصرير القناة المشوية على النار ، عند تسويتها في الثقاف[5] ، ويسمع الاعشى لسيور الرحل حين تحز في هيكلها الضخم صوتا كأنه صوت الرماح في يد من يلينها ويثقفها[6]. اما سنامها فقد تعرضوا له باعتباره ابرز عضو يقع عليه النظر فشبهوه بالآكام[7] ، وبالضريـــح المرتفع[8] والغرى المجسد[9] ، والجبل[10] ، والقبة ،[11] واكمة الرمل[12] وحافة كير الحداد[13] .

ويشبه جنباها في انتفاجهما بالقنطرة[14] ، وآثار بروكها بموقع القطا[15] وقوائمها بالعسيب[16] ، وذنبها في كثرة فروعه وغزارة شعره بعناقيد النخل المرطبة[17] .

ويشبه عمرو بن كلثوم ذراعي امرأته بذراعي الناقة الطويلة يقول[18] :

---

(١) المجلد : جلد كانت تأخذه النائحة فتضرب به صدرها . (٢) انظر المفضليات ١/١٢٧ وديوان بشر/١٥٨ (٣) انظر المفضليات ١/٥٦ (٤) انظر ديوان زهير/٣٣١ وديوان الاعشى/٤٧ (٥) انظر ديوان بشر/١٤٥ ، ١٦٢ . (٦) انظر ديوان الاعشى/١٩٥ وانظر الصفحات/٧ ، ١٠٥ (٧) انظر ديوان ابي دواد/٣٣٩ (٨) بشر . الديوان /٥٥ (٩) انظر الاصمعيات/١٩٥ (١٠) انظر ديوان أوس/٣٨. انظر المفضليات١/٦٠ (١٢) انظر المفضليات٢/٣٠ . (١٣) انظر المفضليات ٢/١٩٨ . (١٤) انظر المفضليات ١/٥٩ .(١٥) انظر ديوان بشر/١٤٦ (١٦) عبيد . الديوان/٦٩ (١٧) انظر ديوان علقمة/٩٤ وديوان زهير/٢٢٤ وديوان الاعشى/١٠٥ ، ١١٩ (١٨) ابن الانباري : شرح القصائد السبع/٣٧٧

تريك اذا دخلت على خـــلاء وقد امنت عيون الكاشحينا
ذراعي عيطل ادمـــاء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينـــا

واشار الشعراء الى صوت الحصى ، وتطايره تحت اقدامها في حديثهم عن سرعتها ، من مثل قول طرفة[1] :

فترى المرو اذا ما هجرت عن يديها كالفراش المشفتر

وشبه المثقب العبدي مشيها في باطن الوادي ، واصطدام وظيفها بالحصى الغليظ بالتعزاف المرن[2] :

لا يرفع السوط لها راكب اذا المهارى خودت في اليـــد
تسمع تعزافـــا لـــه رنـــة في باطن الوادى وفي القردد

ويشبه المسيب بن علس هذا الصوت المتناوب بالدوى المرتفع يقول[3] :

واذا تعاورت الحصى اخفافها دوى نواديه بظهر القـــاع

ويعود المثقب الى هذا الصوت ثانية ، وقد اجهد نفسه فيسمعه وقد ابح من الرنين[4] .

ويقرن ما يتطاير من الحصى ، بما يتطاير من الرحى عند رضخها النوى[5] ووقف الشعراء عند صلابة الاخفاف وقوتها وشدتها[6] فشبهوها بالمطارق[7] وتطرق بعض الشعراء الى الصفات الداخلية للناقة ، فوصفوا شدة فؤادها ، وقوة نبضه ، وجدته وخفقانه .

قال المسيب بن علس يصف ذلك[8] :

---

(١) طرفة . الديوان/٧٦ (٢) المثقب . الديوان/٩ (٣) المفضل . المفضليات ١/ ٦
(٤) انظر ديوان المثقب/٣٦ (٥) انظر الأصمعيات/١٨٨ (٦) انظر ديوان الاعشى /٢١١ ، ٢٤١ ، ٣١٧ (٧) انظر المفضليات ١/ ١٣١ وانظر المفضليات ١ /١١٥
(٨) المفضل . المفضليات ١/ ٦٠

واذا اطفت بها اطفت بكلكل   نبض الفوائض مجفر الاضلاع

وقال علقمة [١] :

الى الحارث الوهاب اعملت ناقتي   بكلكلهـا والقصريين وجيب

ويصف المثقب العبدي زفيرها الذي يملأ جوفها فيقطع النسع يقول [٢] :

يحـد تنفس الصعـداء منها   قوى النسع المحرم ذي المتون

اما احاسيس حيواناتهم ، فلا تختلف عما يحسون به من الحنين وهـم يذكرون احبتهم ، ويحنون الى مرابعهم وقد حملهم ذلك على ـ وضع الكتب في حنين الابل الى ـ الاوطان ، وكان ما تصدره هذه الحيوانات من اصوات ، تثير في نفوسهم البكاء ، قال سبيع بن الخطيم يذكر حنين ابله ، ويشبهـه بالقصب المجوف الذي تمسكه ايدي الزامرين [٣] :

اما ترى ابلي كأن صدورهـا   قصب بأيدي الزامرين مجوف

ويشبه علقمة صوتها وهي تحن ، بدف مخروق ، فهو ابح الصوت يقول [٤]

تتبع جوتا اذا ما هيجت زجلت   كأن دفا على عليـاء مهزوم

وكانوا يعرضون من خلال احاديثهم عن السرعة الى ذكر ضمور هذه الخيول [٥] فيشبهونها بصدر القنا [٦] ، والجدى [٧] ، وسوار الهلوك ، زيادة في الضمور [٨] وهي صورة طريفة يقدمها ابو دواد حين يقول [٩] :

غدونـا به كسوار الهلـو   ك مضطمرا حالبـاه اضطمارا

---

(١) علقمة . الديوان/٤٢٠ (الاعلم)   (٢) المثقب . الديوان/٣٦ .   (٣) المفضـل . المفضليات ٢/١٧٢ .   (٤) علقمة . الديوان/٤٣١ (مختار الاعلم)   (٥) انظر ديوان النابغة/٢٠١ وديوان بشر/٣٩ ، ١٨٩ ، وديوان الاعشى/٣٧ ، ٣٤١ .   (٦) انظر ديوان الطفيل/٤ وديوان الاعشى/١٩٣ .   (٧) انظر المفضليات ٢/١٣٧ والاصمعيات/٢١٨

(٨) لأن المرأة الهلوك تكثر من لبس السوار ، وهي تليحه وتبرزه ، وفي هذه الحالة يصبح ارق من غيره من الاسورة .   (٩) ابو دواد . الديوان/٣٥٢ .

ويشبهونها ايضا بالسعفة المشذبه[١] ، وغصن البان في الاعتدال وصفاء اللون[٢] وجذع النخلة[٣] ، وقضب الشوحط[٤] .

وكانوا يعللون الضمور بكثرة الجري وراء القنيص ، قال ابو دؤاد[٥] :

طواه القنيص وتعـداوُه وارشاش عطفيه حتى شسب[٦]

والظاهر من النماذج الكثيرة ، ان الشعراء كانوا يحرصون على وصف افراسهم بهذا الوصف ، ويصرون على التشذيب ، مشيرين في ذلك الى أن الافراس قصيرة الشعر منجردة[٧] ، باعتبارها من الخيل العتاق ، اضافة الى ان الجذع اذا شذب ، تبين طوله وهذا بالذات . كان الشاعر يحرص على تقديمه ، وكذلك ذكروا الاعراف الطويلة ، باعتبارها جزء من الاعناق[٨] ووصفوا الذراع[٩] ، وصلابته وتثنيه[١٠] والقوائم وقوتها وشدتهـا[١١] وطولها[١٢] الذي شبهه علقمة باعنـاق الضياع في الغلظ والقوة[١٣]، وبمقاعد رقباء لاعبي الميسر[١٤] ووصفوا الرسغ . وشبهوه بالحبل المفتول[١٥] . واعناق الضياع[١٦] ووصفوا المرفق[١٧] ، والمنكب[١٨] .

اما الحيول فكانوا يشبهونها بالذئب في السرعة والخفة والنشاط والاندفاع ويضيف بعض الشعراء الذئب الى الغضا . لأن ذئاب الغضا اخبث وافتك .

---

(١) انظر المفضليات ٤٢/٢ (٢) انظر ديوان امرىء القيس/١٧٣ (٣) انظر ديوان الاعشى/٢١ ، ٣٩ ، ٢٨٥ ، والمفضليات ١٠٤/١ (٤) انظر ديوان الاعشى/٩
(٥) ابو دواد . الديوان/٢٩١ (٦) ارشاش عطفيه : تعريفه اياه حتى ضمر . شسب : ضمر ونحف (٧) انظر ديوان عبيد/١٠٢ ، ١١٧ وديوان الطفيل/٥ وديوان عامر بن الطفيل/٢٧ ، ١٠٢ وديوان الاعشى/١٨٧ والمفضليات ٤٠/١ ، ٦٣ (٨) انظر ديوان امرىء القيس/٢١ (٩) انظر ديوان ابي دواد/٢٩٢ (١٠) نفس المصدر/٢٩٥
(١١) نفس المصدر/٢٩٥ وانظر ديوان الاعشى/٣٤٩ (١٢) انظر ديوان ابي دواد/٢٩٩ وديوان الاعشى/٣٤٩ (١٣) انظر ديوان ابي دواد/٢٩٩ وديوان الاعشى/٣٤٩
(١٤) انظر ديوان علقمة/٤٣٧ (١٥) انظر ديوان ابي دواد/٣٠٧ (١٦) انظر المفضليات ٢١٤/٢ (١٧) انظر ديوان ابي دواد/٢٨٤ (١٨) انظر ديوان ابي دواد/٢٨٩ .

واكثر اندفاعا وانكر . قال الطفيل الغنوي[1]

وفينا رباط الخيل كل مطهم   رحيل كسرحان الغضا المتأوب

ويزيد طرفة ايضاحا آخر على صورة الذئب ، فيشبه فرسه بذئب الغضا الذي هيجه انسان ، وهو ذاهب لورود الماء ، وعند ذلك يكون في هذه الحالة اكثر اندفاعا . يقول[2] :

وكَرّي إذا نادَى المضافُ مُحَنّباً   كَسِيد الغَضَا نَبّهتَهُ المُتَوَرّدِ

وتشبه الخيل السريعة الخفيفة بالخيفانة (الجرادة)[3] . وكذلك شبهت غاراتها بغارة الجراد ، وجماعات الطير في الكثرة والانتشار والسرعة وشدة الطيران[4] . وشبه تتابعها وصلابتها وكثرتها بتتابع التمر المنثور من الجراب[5] وشبهوها بالعقاب الذي يطارد قطعان بقر الوحش . سعيا لاطعام صغاره الضعاف بعد ان خلفهم في العش[6] ، وتشبه بظل العقاب زيادة في السرعة[7] وكذلك شبهت بالباز[8] والصقر[9] والحداء[10]

وفي كل هذه الصور تبرز قوة الفرس وشدته وانقضاضه وهو ما كان الشعراء يسعون اليه من هذه التشبيهات ، ولا سيما في حالة الصيد ، لأن الحيوان في هذه الحالة اضرى من غيره من البيزان والصقور والعقبان .

---

(١) الطفيل . الديوان/٥ وانظر الصفحات / ٢١ ، ٢٣ ، ٣٣ من الديوان نفسه وانظر ديوان عبيد/٥ ، وديوان امرىء القيس/٦٧ وديوان عامر بن الطفيل/١٣٠ والاصمعيات/١١٥

(٢) طرفة . الديوان/٣١٧ (الاعام)   (٣) انظر ديوان امرىء القيس/١٦٣ ، ١٦٦ وديوان بشر/٧٤   (٤) انظر ديوان امرىء القيس/١٢١ وانظر/١٩٣ من الديوان نفسه وانظر ديوان الطفيل/٩ ، ٢٢ ، ٣٣ وديوان طرفة/٨٥ وديوان النابغة/١٥٢ والمفضليات ١/١٥٦ .

(٥) انظر ديوان الاعشى/٣٧ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/٥٢ ، ٥٣   (٦) انظر ديوان امرىء القيس/٣٨ وديوان الاعشى ٢٩ والمفضليات ١/٣٥   (٧) انظر ديوان بشر/١٨٩

(٨) انظر ديوان امرىء القيس/١٧٣ والاصمعيات/١٥٨   (٩) انظر ديوان لبيد/١٨٨ والمفضليات ٢/٥٦ والاغاني ١٠/٣٩ (دار الكتب)   (١٠) انظر ديوان النابغة/٢٠٤ (الاعلم) وديوان عامر بن الطفيل ٥٦

وكانت النعامة — كما اسلفنا — طرفا آخر من تشبيهاتهم لخيولهم [1] وكانوا يؤكدون كون النعام مذعورا ، أو راعه خطب ، لأن ذلك ادعى للسرعة [2] وشبهوها بالوعل والظبي [3] والطير [4] والرشاء [5] والسهم [6] والخذروف [7].

اما وصف اعضائها ، فقد دققوا فيه ، فوقفوا عند كل عضو من اعضائها مشيرين الى الصفة المحمودة فيه ، مقارنين ذلك بما وقع تحت انظارهم من الصور . فشبهوا اعناقها بجذع النخلة [8] ولم يكن تشبيههم للفرس بالنخلة مكتملة فحسب ، وانما شبهوا بكل جزء منها ، فشبهوا بساقها [9] وبجريدها المشذب [10] وبشوكتها في الدقة [11]. ووصفوا نواحيها وجباهها [12] ، ووصفوا عيونها بالاكتناز والصلابة والضخامة [13] ، وشبهوا غؤورها بالنقر التي يجتمع فيها الماء في الجبل [14] . اما صفاؤها فشبهه امرؤ القيس بمرآة الصناع ، لانها ابدا مجلوة نظيفة [15] . وعرضوا لحدة نظرها [16] وشبه عنترة شخوص عيني فرسه وتعلقهما في وجه الاعداء ، خشية ان يصيبه مكروه او يلحق به سوء بعين الاحول [17] ، ووصفوا آذانها ونعتوهما بصدق السمع وشدته [18] ،

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس / ٢٣٣ وانظر ديوان ابي دواد ٣٢٢ وديوان زهير / ٢٠٤ وديوان النابغة / ١٦٤ وديوان النابغة / ١٦٤ وديوان لبيد/١٣٤ والمفضليات ٢ / ٢٠٧

(٢) انظر ديوان ابي دواد/٢٨٤ ، ٣٤٢ وديوان الاعشى / ٣٤٩. (٣) انظر المعاني الكبير لابن قتيبة ١/٤٠ والمفضليات٢/٩٧ (٤) انظر ديوان النابغة / ١٥٢

(٥) انظر المفضليات ٢ / ٤٣ (٦) انظر ديوان عبيد بن الابرص / ١٠٩ وديوان الاعشى/٣٤١ (٧) انظر ديـــوان امرىء القيس/٢١،٥١ (٨) انظر ديوان امرىء القيس/٤٨ وديوان ابي دواد/٢٨٥،٢٩٢،٣٢٨، وديوان عنترة /٣٩١ (الاعلم) وديـــوان الطفيل/٥،٧،٢١ وديوان الاعشى/٢١ والمفضليات ١/١٢٠ (٩) انظر ديوان عامر بن الطفيل / ١٢ (١٠) انظر ديوان عامر / ٢٧ (١١) انظر ديوان علقمة/٧٥

(١٢) انظر ديوان امرىء القيس/١٦٣ — ١٦٥ وديوان عبيد/١٧ والمفضليات ١ /١١٩

(١٣) انظر ديوان امرىء القيس / ١٦٦ (١٤) انظر ديوان المزرد / ٣٨

(١٥) انظر ديوان امرىء القيس/٤٨ (١٦) انظر ديوان ابي دواد/٢٨٨ و٢٨٩ والاصمعيات /٣٣ (١٧) انظر ديوان عنترة/٣٩٢ (١٨) انظر ديوان ابي دواد/٣٠٧ وديوان علقمة /٤٣٧ والمفضليات ١/٣٨

وشبهوا مناخرها بوجار الضباع لسعتهما [1] ، وعرضوا لوصف خدهـا واستوائه وقلة لحم وجهها [2] .

واستحبوا من الخيل الطويلة العنق ، ولهذا كانت صور المشبه به كلها تمتاز بهذه الصفات ، فشبهوها بجذع النخلة المشذبة كما قال ابو دؤاد [3] :

وهادٍ تَقَدَّمَ لا عيبَ فيـه ... كالجذْعِ شُذِّبَ عنه الكَرَب

او الجذع الذي ما زال فيه الشذب باقيا كما قال ايضا [4] :

كأنَّ هاديَـهُ جذعٌ بُرايتُـه ... من نَخْلِ مِذْوَدَ فيباقٍ من الشَّذب

ووقفوا عند حوافرها وقفة طويلة ، فشبهوها بالقعب الذي يتخذ الفأر فيه مغارا كما قال عوف بن عطية [5] :

لها حافر مثل قعب الوليـد ... يتخـذ الفأر فيه مغارا [6]

او هي من القوة بحيث تكسر الارض ، وتفتت الصخور ، وتؤثر في الاماكن المرتفعة الغليظة كما نعتها طرفة [7] ، وهي لثقلها تشبه مكاييل الزيت كما نعتها ابو دواد في قوله [8] :

ونسور كـأنهـن اواق ... من حديد يشقى بهن الرضيم

وهي صلبة كالحجر [9] ، بل هي كالمعاول [10] ، اذا وقعت على الارض ، ودخلت فيها . وشبهت صلابتها وملاستها بحجارة ماء قد علاها الطحلب ،

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس/ ١٦٥ وديوان ابي دواد/٣٤٣ وديوان عنترة/ ٣٩١ (٢) انظر ديوان ابي دواد / ٢٨٨ — ٢٨٩ وديوان الطفيل الغنوي /٣٣ وديوان الاعشى / ٢٨٥ (٣) ابو دواد . الديوان/٢٩٢ وانظر /٣٢٨ من الديوان ايضا . وانظر ديوان عبيد/١٢٣ وديوان امرىء القيس/٤٨ وديوان عنترة/٣٩١وديوان طرفة /٨٣ وديوان الطفيل/٥ و٦ و ٢١ وشرح اشعار الهذليين ٣/١١١٧ وديوان عامر بن الطفيل/٢٧ و ١٠٢ وديوان الاعشى /٢١ والمفضليات ١/ ١٢٠ . (٤) ابو دواد . الديوان / ٢٨٥ . (٥) المفضل .المفضليات ٢/ ٢١٤ . (٦) القعب : القدح الصغير . (٧) انظر ديوان طرفة/١٣٦ (٨) ابو دواد . الديوان /٣٤٣ (٩) انظر ديوان عنترة/ ٣٩٢ (١٠) انظر ديوان طرفة /٨٣ .

فاصفرت وصلبت[١] ، وبلغت شدتها مبلغا يجعلها تخرج القران من مكامنها لما تسمعه من صلابتها وقوتها[٢] . وكانوا يقرنون بين وصف الحوافر بالشدة وبين قوة وطئها الارض ، ووهصها الحصى ، فشبهوا الغبار الذي تثيره هذه الحوافر وهي تدق الحصى ، بغبار قطن النوا دف ، او الدخان الابيض المتصاعد من شجر التنضب [٣] . او ذرى البرد المتحلب [٤] ، وكانوا يلونون الغبار في بعض الاحيان بالصهبة[٥] . ووصفوا الكتف ، وشبهوه بالقتب لارتفاعه [٦] وعرضوا لوصف ظهرها[٧] ، واستحبوا فيه الملاسة بحيث يشبه الزحلوف[٨] وشبهوا اللبد اذا زل عنه بالذي يزل عن الصخرة الملساء [٩] ، كما شبهوه بظهر الايل[١٠] ، وتحدثوا عن فقار هذا الظهر واشرافها [١١] ، وذكروا القطاة[١٢] وشبهوها بالبكرة [١٣] ووصفوا جوانبها وشبهوها بالقداح المبرية في صلابتها ودقتها[١٤] .

ومدحوا انتفاخ جنبيها ، وخرجوا من هذه الصورة الى صور اخرى ، فاذا وثبت قطع الحزام لسعة هذا الانتفاخ ، او قطع حلق الرحالة اذا عدا[١٥] واستحبوا ما كان من الخيل عريض الجانب ، منحني الضلوع ، واسع الجفرة[١٦] ووصفوا عجزها ، وشبهوه بالصخرة التي جرى عليها السيل فأذهب ما كان عليها من الغبار[١٧] ، وكما عرضوا لوصف ذنب الناقة ، عرضوا لوصف

---

(١) انظر ديوان امرى القيس/٤٧ وديوان عنترة/٣٩٢ وديوان النابغة/٢١١ وشرح اشعار الهذليين ٣/١١١٧ (٢) انظر ديوان امرىء القيس/٥١ (٣) انظر ديوان الطفيل/٨ و ٩ وديوان بشر/١٧٩ (٤) انظر ديوان الطفيل/٩ (٥) انظر ديوان الطفيل/٢ وانظر ديوان بشر/٧٤ . (٦) انظر ديوان ابي دواد/٤٣٢ وديوان لبيد/١٨٧ (٧) انظر ديوان ابي دواد/٢٨٨ و ٢٩٥ وديوان امرىء القيس ١٦٤ (٨) انظر ديوان علقمة /٤٣٧ وديوان الطفيل/٨ (٩) انظر ديوان امرىء القيس/٢٠ وديوان اوس / ٦٦ (١٠) انظر ديوان عنترة/٣٩٢ (١١) انظر المفضليات ٢/٢١٤ (١٢) القطاة : مقعد الردف . (١٣) انظر ديوان امرىء القيس/٤٩ وانظر ديوان علقمة/٤٣٧. (١٤) انظر ديوان المزرد/٣٩ . (١٥) انظر ديوان بشر/١٨٨ وديوان لبيد/٢٢ (١٦) انظر ديوان ابي دواد/٢٨٩ ، ٣٠٤ ، ٣١٨ وديوان الطفيل/٥ (١٧) انظر ديوان امرىء القيس/١٦٤.

ذنب الفرس ، وان كانت الصور متشابهة ـ الى حد ما ـ فشبه عنترة ذنب ، الفرس ، وان كانت الصور متشابهة – إلى حد ما – فشبه عنترة ذنب فرسه ، وكثرة الشعر المحيط به برداء الغني الثري[1] وشبه امرؤ القيس ذيل فرسه وغزارته بشماريخ نخل مرطب من نخل بُسْر سميحة بالمدينة[2] ، وعرضوا لطوله وامتداده[3] ، وشبهوه بذيل العروس[4] ، وذيل الهدى[5] .. امـــا ضخامته وعلوه فقد اكثر الشعراء من ذكرهما ، فشبهوا الفرس الضخـم بالبناء العالي الذي يبتعد فيه[6] ، وشبهها ابو داود بالثور الوحشي النشيط لقوتها[7] ، وشبه امرؤ القيس فرسه لقوته ونشاطه بتيس الربل[8] .

ولم ينس الشعراء ان يشبهوا الثور بالكوكب المنقض في سرعته ولمعانـه وبياضه وهو يخرج من المعركة عزيزا ظافرا[9] . اما وصف اعضاء هذا الحيوان فكانت تأتي من خلال اوصافهم العامة عنه ، فشبهوا رأسه بـالدن لكبره[10] ، والقرون بالسفود الذي يشوى عليه القوم[11] . وكان الخـد يوصف بالسواد المشرب بالحمرة ليمنحه حسنا ويكسوه رونقا[12] . وكانوا يلحون في ذكر اوصاف الضمور والهزال والجوع[13] .

اما الاظلاف فقد شبهوها بالصدف[14] ، والصخرة الصلدة[15] .

---

(١) انظر ديوان عنترة / ٣٩٣ (٢) انظر ديوان امرى القيس/٤٨ ويستعمل الطفيل الصورة نفسها في ديوانه/٨ (٣) انظر ديوان امرى القيس/١٦٦ (٤) انظر ديوان امرى القيس/١٦٤ (٥) انظر المعاني الكبير لابن قتيبة ١٤٩/١ (٦) انظر ديوان عنترة/٣٩١ (٧) انظر ديوان ابي دواد/٣١٧ وديوان الاعشى/١٢١ (٨) انظر ديوان امرى القيس/٥٤ و٨٧ وديوان الطفيل /١٢ وديوان الاعشى/٣٣٥ والمفضليات ٩٧/٢ و ١٦٧ (٩) انظر ديوان عبيـد / ٤٤ وديوان اوس /٣ وديوان بشر /١٣١ وديوان الاعشى / ٣٦٣ (١٠) انظر ديوان اوس /٧٣ (١١) انظر ديوان النابغة/١٥١ (١٢) انظر ديوان الاعشى/٢٩٥ و ٢٦١ وديوان المثقب/١٠ . (١٣) انظر ديوان عبيد / ٤٤ وامرى القيس / ١٠١ وديوان الاعشى/٢٧٩ ، ٢٩٥ (١٤) انظر ديوان بشر/١٠٢ وديوان الاعشى/٣٢٥ (١٥) انظر ديوان امرىء القيس/٧٦ .

اما النساء فقد جعلهن الشعراء شبيهات بقطيع من بقر الوحش[١] ، وشبه امرؤ القيس بقر الوحش في مشيتها وبياضها وبريقها بالعذارى وهن يرفلن في الملاحف الطويلة[٢] وتشبه عيون العذارى بعيون البقر الوحشي في الجمال والسعة وشدة البياض والسواد[٣] ، وشبهوا كشح المرأة بكشح البقر الوحشي في طيه واستوائه[٤] . ووردت اوصاف للقرون ، فشبهت بالرماح الطويلة[٥] وبالمنفاخين الصغيرين اللذين تباعد ما بينهما وانفرج[٦] .

وربما يتفق الشعراء في تأكيدهـــم اللون الأبيض ، او البياض المشوب بالسواد في حديثهم عنها ، ولهذا كانوا يختارون صور المشبه به من الصور التي يكون فيها هذا اللون واضحا وبارزا ، فشبهوهن بالسيوف في بريقهن وبياضهن وحسنهن[٧] ، والنجوم[٨] ، وبعقد اللؤلؤ اذا انقطـــع سلكه[٩] ، والشيب الذي لاح في الشعر الاسود[١٠] ، والجزع في بريقه وما فيه مـــن البياض والسواد[١١] .

اما الاشجار والنبات والازهار فكانت طرفا آخر في مجالات التشبيهات التي شبه بها الشعراء ، فاتخذوا من النخل الذي حان جزاره او النخل الرديء صورة كنوا بها عن الرجل الضعيف[١٢] ، وشبهوا شعر المرأة في طولــه وتداخله وغزارته بشماريخ النخلة[١٣] ، كما شبهوا اجساد القتلى بجذوع النخيل[١٤] ، وشبهوا كرم الممدوح بنوع من النخيل يأتي بمحصول وفير[١٥] .

ووجد الشعراء في صورة التمر وهو ينثر من جراب جامعه ، صورة

---

(١) انظر ديوان الطفيل/٢٤ وديوان لبيد/١٢١ و ديوان الاعشى/١٧١ (٢) انظر ديوان امرىء القيس/٢٢ (٣) انظر ديوان امرىء القيس/١٦ وديوان عبيد/١٣٤ وديوان طرفه /٦٩ (٤) انظر ديوان طرفه/٦٩ (٥) انظر المفضليات ٢/٢٠٥ (٦) انظر ديوان الاعشى/٢٠٩ (٧) انظر المفضليات ٢/١٧٣ (٨) انظر ديوان بشر/٦٥ (٩) انظر ديوان الاعشى/٣٩ (١٠) انظر ديوان بشر/١١٠ والاصمعيات/٥٧ (١١) انظر ديوان امرىء القيس/٢٢و ١٧٤ (١٢) انظر ديوان طرفــه/١٥٠ (١٣) انظر ديوان امرىء القيس/١٦ و ٣٢ (١٤) انظر ديوان اوس/٣٠ (١٥) انظر ديوان عبيد/٤٥ .

سريعة ومتحركة وحية ، فقابلوها بصورة الخيل ، وهي تخرج من خلال غبار المعارك سريعة مضطربة[1] .

ولصلابة بعض الاشجار شبهوا بها ضلوع الناقة[2] ، ولاستواء وطول البعض الاخر شبهوا به الجوارى الحسان ، والغانيات الناعمات[3] . اما شجر العندم ، الذي يصبغ به ، فقد شبهت به الخمرة[4] ، وشبه به الدم وعصارة الفرصاد لحمرتها[5] . وبشجر العضرس شبهت عيون الكلاب وهي مفتوحة مترقبة ، عندما تغرى بالصيد ، لان ذلك ادعى لظهور هذه الحمرة[6] .

وهناك انواع من الشجر استعملوها في مجال التشبيه بالغبار كالغرقد والتنضب والعلندى ، لان هذه الاشجار كثيرة الدخان اذا احرقت ، وكذلك شبهوا الشيب بالثغام لشدة بياضه :

على ان هذا التحديد في الصور ، وهذا التعود على رسمها ، لم يقفا حائلا دون اظهار براعة الشاعر الجاهلي في التشبيه ، وانما اعطياه مجالا للتدقيق في الصورة ، والتقصي في جزئياتها ، ليكون له الفضل في التجديد ، والقدرة على الابداع ، فعندما وجد الشاعر الجاهلي صور الطلل المكررة ، وتشبيهاته التي اقتصرت على الكتابة ، بدأ يستقصي صورة المشبه والمشبه به ، فوجد في الطلل اثارا وحفرا ، ووجد في الكتابة سطورا وتنميقا ، ووجد الصفة المشتركة بين الصورتين واضحة الملامح ، بينة الخطوط والالوان ، فشبه هذه الاثار بالسطور والكتابة المنمقة ، فكانت مقارنته جديدة ، وانتباهه دقيقا يوحي بالابداع[7] وكذلك فعل الشعراء عندما جاءوا الى وصف رواحلهم ، لانهم وجدوا صور المشبه به — في حالة وصف هذه الراحلة بالسرعة — واحدة ،

---

(١) انظر المعاني الكبير/٥٢ . (٢) انظر ديوان علقمة/١١٩ (٣) انظر ديوان الاعشى/٣٥٣ (٤) انظر ديوان الاعشى /٣٥٣ (٥) انظر ديوان عبيد/٤٩ وديوان عنترة/٣٧٥ . (٦) انظر ديوان امرىء القيس/١٠٣ (٧) انظر ديوان طرفه/٣٣٤ (الاعلم) وديوان اوس/١ وديوان بشر/١٥٢ والاصمعيات/١٤٦ .

او تكاد تكون كذلك ، فهو الحمار الوحشي ، او الثور الوحشي ، او البقرة الوحشية ، او النعامة . فلا مفر اذن من التجديد في الصورة لتمييزها ، ولاظهار قدرتهم وطابعهم الشخصي في اخراجها ، فكانت عند بشر حمارا وحشيا يريد اتانا ، فهو يعدو خلفها[1] ، وكانت عند الاعشى حمارا مخططا يتابع اتانا موفورة النشاط ، مكتنزة اللحم[2] . وكانت حمارا وحشيا ضيق الصائد عليه المجال ، واحاط به من كل جانب عند المتلمس[3] .

وسلكوا هذا المسلك في حديثهم عن هذه الرواحل ، وهم يسلون همومهم ، فناقة طرفه عوجاء مرقال[4] ، وناقة بشر نجاء صادقة الهواجر[5] ، وراحلة لبيد ناجية تجل عن الكلال[6] ، او كأنها السحاب قد اراق ماءه ، فخف واستسلم لا يسر الريح[7] ، وحاولوا ان ينعتوها بنعوت مختلفة ، ليهيئوا الاسباب الموجبة لهذه السرعة لتقطع بهم هذه المهامه ، وتفرج عنهم الهموم ، لذا فهي رواع ، شديدة التفزع ، كأن هرا قد نيب في دفها[8] .

اما ضمورها فهو محمود عندهم اجماعا ، ولكن ابداع الشعراء لم يتحدد بهذه الصورة وخيالهم لم يقف عند شكل واحد في وصف هذا الضمور ، ولهذا وجدنا عبيدا يشبه هذه الرقة بالهلال[9] والصورة جديدة في الشعر الجاهلي .

وكما وجدنا ابداع الشعراء وبراعتهم في اوصاف الابل نجد هذه البراعة في وصف الخيل ، فالسرعة صفة محببة فيها ، واكثر الشعراء من ترديدها ، ولكن ذلك — كما اسلفنا — لم يقيد خيال الشعراء ، ولم يقعد بهم عن استخدام الصور المناسبة لهذه السرعة ، فالطفيل الغنوى ، وهو الشاعر المعروف بنعته

---

(١) انظر ديوان بشر/١٨٧ (٢) انظر ديوان الاعشى/٢٩٩ (٣) انظر شعر المتلمس في شعراء النصرانية . (٤) انظر ديوان طرفة/٣٤ (٥) انظر ديوان بشر / ٣٥ (٦) انظر ديوان لبيد / ٧٥ (٧) انظر ديوان لبيد/٣٠٤ (٨) انظر ديوان امرىء القيس/٦٣ و ١٧٠ وديوان اوس / ٤٢ وديوان عنترة/٣٧٣ — ٣٧٤ وديوان الاعشى/٢٧ وديوان المثقب/٣٤ والاصمعيات/١٨٨ والمفضليات ٢/ ١٠ . (٩) انظر ديوان عبيد/١١١

للخيل ، واهتمامه باوصافها ، يرى ان هذه السرعة المتناهية التي وجدها في فرسه ، تصنع حفيفا مثل حفيف النار ، وان هذه النار تتوقد في نبات العرفج ، وقد اختار هذا النبات بالذات ، لان ناره اشد حمرة واكثر توقدا ، واعلى صوتا ، وهذا ما كان الشاعر يبغيه من الصورة ، ليدلل على المعنى الـذي يريده والذي اهتدى اليه[1] .

وكان الشعراء يفصحون عن مهارتهم في جوانب كثيرة من شعر الطبيعة ، سواء اكان ذلك من حيث الصور او المعاني ، وقد اتاحت لهم هذه المهارة تنسيق الموضوع الذي يعالجونه ، وترتيب الافكار التي يطرقونها ، وتسلسل هذه الافكار ، وحسن الانتقال ، ومن هنا نجد قسما من الشعراء لا يأخذون كل ما يفد على خاطرهم من المعاني ، بل لا يزالون يثقفون ويصقلون ويتخيرون حتى يستوي لهم المعنى المقصود .

وقد عرف اوس بن حجر بهذه الصنعة ، وبرزت قدرته في كثير من الصور المتناثرة في ديوانه ، ففي قصيدته التي يصف فيها المطر[2] :

اني ارقت ولم تأرق معي صـاحي ... لمستكف بعيـد النوم لـواح

يا من لبرق ابيت الليـل ارقبه ... في عارض كمضيء الصبح لماح

فهو يشبه البرق بالصبح المضيء ثم يمضي الى استعمال لفظ لماح الذي يمثل خطف البرق تمثيلا حسنا ، ليصور قوة ضوئه حتى يومض . وسرعته حين يمر . وفي هذا التمثيل والتصوير تبرز مقدرة اوس في استخدام اللفظ الدقيق العبارة المثيرة ، التي تجعل المنظر بارزا متحركا .

وكذلك كان زهير بن ابي سلمى يعنى عناية كبيرة بتنقيح المعاني وصياغتها ودفعته في تحديدها ومهارته في استعمالها وقد انعكست هذه العناية في شعره فاستطاع ان يبث الحركة والحياة في كثير من الصور التي تعرض لها ، فاذا

---

(١) انظر ديوان الطفيل الغنوى/٩ و ٢٣ .   (٢) اوس بن حجر . الديوان/١٥ .

قرأت له هذه الابيات التي يصف فيها المطر والنبات والفرس ادركت قدرته في العرض وتمكنه من الدقة في الوصف[1] :

وغيثٍ من الوسميّ حُوٍّ تِلاعُهُ ... اجابت رَوابية النجاءَ هَوَاطله
صبحتُ بممسود النواشر سابح ... مُمرٍّ اسيل الخد نهد مراكله
أمين شظاه لم يُخرّق صفاقه ... بمنقبة ولم تُقطّع اباجله
قليلاً علفناه فاكمل صُنعُه ... فتمَّ وعزّته يداه وكاهله

فهو يصف المطر يتساقط على المرتفعات والوهاد

وقد انتشر فيها النبات الضارب الى السواد ، وهو يقبل مع بعض رفاقه على فرس مفتول ، محكم الخلق ، ناعم الخد ، ضخم الجوف ، فطم منذ عهد قريب ، فهو اشد ما يكون قوة . لم يداو بآلة بيطار ، لأنه لم يصب بعلة .

وعلى هذا النحو يمضي زهير في كثير من قصائده التي استتمت له فيها براعته المتناهية في دقة اختيار المعاني .

ويشارك النابغة اوس بن حجر وزهير بن ابي سلمى في هذه الدقة والمهارة ففي ابياته التي يقف فيها عند اطلال احبته يقول [2] :

وقفت فيها أُصيلاناً اسائلها ... عيّت جواباً ، وما بالرَّبع من أحد
الا الاواريَّ لأياما أُبيّنُها ... والنؤيَ كالحوض بالمظلومة الجلد
ردت عليه اقاصيه ولبّدَه ... ضربُ الوليدة بالمسحاة في الثأد
خلّت سبيل اتيٍّ كان يحبسه ... ورفّعته الى السّجفين فالنّضد

فهو يحدد وقت الوقوف فيجعله الاصيل ، ويعبر عن السكوت بالاعياء والعجز ويدقق في صورة هذه الاثار وما ابقاه الزمن فيها . وفي هذه الصور تبرز قدرته ومهارته في صياغة بارعة ، فهو لم يجد في هذه الاثار الا الاوتاد وما يربط بها من حبال او دواب ، والحفر المتناثرة حول الخيام ،

---

(١) زهير . الديوان/١٢٧ — ١٣٠ (٢) النابغة . الديوان/ ٣٠ (صادر)

وقد حفرتها جارية في ارض صلبة .

وما زالت هذه الخادمة ترد الاتربة على حوافيها ، لتبسط الطريق الى الخيام حتى ترد سيول المطر .

ثم يعرض لنا صورة اخرى للألم الذي يحسه ، والسهد الذي يعانيه فيقول [1]

فبتّ كأني ساورتني ضئيلةٌ   من الرّقش في انيابها السّمّ ناقعُ
يُسَهّد من ليل التمام سَليمُها   لحلي النساء في يديه قعاقعُ
تناذرَها الراقون من سوء سمها   تُطَلّقُه طوراً، وطورا تُراجعُ

فهو يشبه الألم بلدغ الأفعى ، ثم يدقق في صورة هذه الافعى ويوسع فيها حتى يجسّم الالم ، فهي دقيقة الجسم ، فيها نقط بيض وسود ، تستودع السم القاتل في انيابها ، من لدغته يمنع من النوم ، وتجعل الحلى والخلاخل في يده . يحركونها لئلا ينام فيدب السم فيه اعتقادا بأنها تشفيه ، وتخفف من المه ، وهي خبيثة لا تجيب الراقي ، فأنذر الراقون بعضهم بعضا .

وقد دلل الشعراء الجاهليون — وهم يعرضون لأوصاف الطبيعة — على قدرتهم في التركيز وحشد المعاني في الالفاظ القليلة واحساساتهم بالموصوفات احساساً قوياً ، وشعورهم بها شعوراً عنيفاً ، فعندما اراد امرؤ القيس ان يصف فرسه وصيده ولذاته ، حاول ان يبسط مهارته وشجاعته وفروسيته في ركوب الخيل واصطياد الوحش ، فصور سرعة فرسه تصويرا بديعا ، فجعله قيدا لا وابد الوحش ، اذا انطلقت في الصحراء فانها لا تستطيع افلاتا منه . حتى كأنه لها بمنزلة القيد . الذي يأخذ بأرجلها ، ثم صور حركته وسرعته ، فكأنه يفر ويكر في آن واحد ، ويقبل ويدبر في آن واحد ، وكأنه الصخرة التي حطها السيل من ذروة انحدارها . يقول[2] :

وقد اغتدي والطير في وكناتها   بمنجردٍ قيّد الأوابد هيكلِ

(١) النابغة . الديوان/٨٠ (صادر)   (٢) امرؤ القيس . الديوان/١٩

مكرٍّ مِفرّ مُقبلٍ مُدبرٍ معــاً   كجلمود صخر حطّه السيل من عل

وكذلك يحشد امرؤُ القيس الافكار ويركز المعاني في اوصافه لفرسه ايضا اذ يقول[1] :

له أيْطلا ظَبْيٍ وساقا نعامةٍ   وارخاء سرحان وتقريب تَتْفُل

فهو فرس ضامر كأنه ظبي نافر ، له خاصرتاه النحيلتان ، بل لكأنــه نعامة خفيفة فله ساقاها الضشيلتان الصلبتان ، وهو يهوي في الارض كأنه الذئب الفزع ويقفز كأنه الثعلب الخائف[2] . ثم يعود لوصف فرســه في قصيدة اخرى يقول[3]

كأن قلوب الطير رطبــا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالى

فهو يشبهه بعقاب تنقض انقضاضا على فريستها ، ثم يذكر ان هــذه العقاب تصيد الطير ، وتحمله الى وكرها ، فتأكله الاقلوبه ، فمنها الطريّ الغض الذي يشبه العنّاب ، ومنها الجاف المتقبض الذي يشبه الحشف البالي ، أو التمر الرديء الجاف[4] . وهي صورة حشد لها امرؤ القيس كثيرا من الصور والمعاني واستطاع ان يلائم ملاءمة خيالية بين اشياء متعددة ، تدل على مقدرته وتمكنه من التركيز على هذه المعاني تركيزا دقيقا ، وصياغته لها صياغة توحي بهذا التمكن والمقدرة كأنه وضع يده على اعنة اللغة ، ينتقي منها ما يشاء ، ويختار من معانيها ما يحقق له هذا التركيز الدقيق في الوصف والمتابعة .

ويعرض لبيد صورة الاطلال التي يقف بها ، وقد عفت ودرست بعد رحيل اصحابها عنها منذ سنين طويلة ، والتي تراءت له من بعيد قبل ان يصل اليها – كما تتراءى سائر الاطلال – متشابهة المعالم وكأنها نقوش مكتوبة في حجارة[5]

(١) امرؤ القيس. الديوان/ ٢١ .   (٢) انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف/ ٢٥٤
(٣) امرؤ القيس . الديوان/ ٣٨ .   (٤) انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف/ ٢٦٣
(٥) لبيد . الديوان/ ٢٩٧ .

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها
دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها

ثم يرسم بعد ذلك صورة جميلة تفيض بالحياة لنبات الصحراء الذي اخذ ينمو في هذه الاطلال في اعقاب الامطار الغزيرة التي اصابتها ، ولقطعان الظباء والنعام والبقر الوحشي التي اتخذت منها مرابع ، تتكاثر بها ، وتعيش هي وصغارها آمنة مطمئنة في فضائها العريض[1] :

رزقت مرابيع النجوم وصابها ودق الرواعد جودها فرهامها
من كل سارية وغاد مدجن وعشية متجاوب ارزامها
فعلا فروع الايهقان واطفلت بالجلهتين ظباؤها ونعامها

ثم يصف بعد ذلك ما فعلته السيول بهذه الاطلال ، فقد كشفت عنها رمالها فبدت كأنها صحف تجدد الاقلام كتابتها ، او وشم طال عليه الزمن فراحت الواشمة الخبيرة تجدده[2] .

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زُبُر تُجِدّ مُتُونَها اقلامُها
أو رَجْعُ واشمةٍ أُسِفَّ نؤورُها كِفَفاً تَعَرّضَ فوقهنّ وِشامُها

ولبيد في ابياته هذه يعبر تعبيرا صادقا عن فتنته بالطبيعة وقدرته على تصويرها ، وتمكنه من النفاذ من خلالها الى الصحراء العريضة التي فتن بها فحشد لها ما استطاع من المعاني والافكار .

وهكذا نجد الشعراء يقدمون صورا جديدة مغايرة للصور التي تعودوا على رؤيتها ، وكأنهم ادركوا القيمة الفنية لعملهم هذا ، ووجدوا فيها طرافة ادبية لطيفة ، تميزهم عن غيرهم من الشعراء ، مستخدمين في ذلك براعتهم

---

(١) لبيد . الديوان/٢٩٨ (٢) لبيد . الديوان/٢٩٩ وانظر مقالة الدكتور يوسف خليف في مجلة المجلة . العدد/١٠٠ ، ١٩٦٥

في حشد المعاني ومهارتهم في صياغتها ، وقدرتهم على استنباط الصور فاستعملوا الكناية والاستعارة ، فكانت صور صرير الجندب[1] واشراف الحرباء[2] وترقرق السراب وتلألؤه[3] من الكنايات التي كنوا بها عن اشتداد الحر . اما الاستعارة فكانت اكثر من الكناية . فقد استعار امروْ القيس صورة القيد – كما ذكرنا – لفرسه[4] ، والتغريد للحمار الوحشي اذ يقول[5] :

يُغرّد بالاسحار في كُلّ سُدْفةٍ   تَغَرُّدَ مَيّاح الندامى المُطرب

واستعار زهير صورة الاسد للحرب يقول[6] :

متى تَبعثوهـا تبعثوها ذَميمةً   وتضرَ اذا ضَرّيتمُوها فتضرم

ثم استعار لها صورة الناقة[7] واستعار صورة الاسد لوصف الشجاع فقال[8] :

لدى اسَد شاكي السلاح مُقذّفٍ   له لبد اظفاره لم تُقَلّم

واستعار النابغة نقيق الضفادع لغناء القيان فقال[9] :

اذا نزلوا ذا ضرغدٍ فعتائدا   يُغنيهم فيها نقيق الضفادع

كل هذا يدل على ان الشعراء لم يقفوا عند حدود التشبيهات والصور التي عرفت ، وان وجود هذه التشبيهات لم يحل بينهم وبين المعاني التي استنبطوها والصور الجديدة التي اهتدوا اليها بعد وقوفهم الطويل عند المعاني المتداولة في عصرهم . وهي بعد كل ذلك – تصور مدى الجهد الذي كان يودعه الشعراء قصائدهم .

---

(٣) انظر ديوان بشر/٣٨   (٤) انظر نفس الديوان/٤٥ .   (٥) نفس الديوان/١٦٢
(١) انظر ديوان امرى القيس/١٩   (٢) امرؤ القيس . الديوان/٤٥ .   (٣) زهير . الديوان/ ١٩   (٤) انظر ديوان زهير/١٩ .   (٥)زهير . الديوان/٢٣ .   (٦) النابغة . الديوان/٨٤ (صادر) .

الخصائص اللفظية والموسيقية

ترتبط الخصائص اللفظية في الشعر الجاهلي ارتباطا وثيقا بالخصائص المعنوية لأن التراكيب اللفظية لا تنبثق الا من هذه الخصائص ، وطبيعي ان تكون الألفاظ متشابهة الى حد كبير ما دامت المعاني التي كان الشاعر الجاهلي يعرض لها متشابهة . ولهذا وجدنا التكرار الذي وقع فيه الشعراء الجاهليون ، وهم يطرقون الموضوعات الواحدة أو يعالجون الحالات المتشابهة ، وكان الشعراء يحسون بدائرة الألفاظ تضيق بهم ، ويشعرون بوقوعهم تحت طائلة هذا التكرار وهذا ما حمل امرؤ القيس على ان يقول [1] :

عوجا على الطلل المحيل لأننا   نبكي الديار كما بكى ابن خذام

ودفع عنترة على مشاركته في هذا الاحساس[2] ، ولكن ذلك لم يقف حائلا دون التزام الدقة في وضع الالفاظ في مواضعها بحيث تؤدى المعاني المطلوبة عند بعض الشعراء . وقد انعكست ظاهرة التكرار هذه بصورة جلية في قصائد الشعراء الجاهليين حتى اصبح بأمكاننا ان نضع معجما بالألفاظ التي استخدمت في هذه الموضوعات ، فاذا ارادوا ان يذكروا ابلهم وهي

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/١١٤   (٢) عنترة . الديوان/٣٦٩ . (الاعلم)

تسلي همهم وتقطع بهم الصحراء نعتوها بالجسرة والناجية والذعليه والخطارة والامون والذمول والمذعورة والهلواع .

قال امروْ القيس [1] :

فدع ذا وسلّ الهم عنك بجسرة   ذمول اذا صام النهار وهجرا

وقال عبيد[2] :

وقد اسلّي هُمُومي حين تحضُرُني   بجَسْرةٍ كَعَلاة القَيْنِ شِملال

وقال علقمة :[3]

فدعها وَسَلّ الهمّ عنك بجسرة   كَهَمّكَ فيها بالرّداف خَبِيبُ

وقال بشر بن ابي خازم[4] :

لَولا تُسلّي الهمَّ عنك بجَسْرةٍ   عَيرانَةٍ مِثْلِ الفَنيقِ المُكْدَمِ

وقال زهير : [5]

دَعْها وسَلّ الهمّ عنكَ بجَسرةٍ   تَنْجُو نَجاءَ الأخدَرِيّ المُفْرَد

وقال الاعشى[6] :

فدعهـــا وسلّ الهم عنك بجسرة   تزيّد في فَضْل الزّمام وتَغْتَلي

وقال عبيد يصفها بالنجاء[7] :

زيافــة بقُتُود الرحـــل ناجيَةٍ   تَفْرِي الهَجيرَ بتَبْغيلٍ وإرْقال

---

(١) امرؤ القيس . الديوان/٦٣ (٢) عبيد . الديوان/١٠١ (٣) علقمة . الديوان /٤١٩ (٤) بشر . الديوان/١٧٩ (٥) زهير . الديوان/٢٧٠ (٦) الاعشى . الديوان/٣٥٥ وانظر الصفحات/١٧ و ٣٧ و ٥٩ و ٨٩ و ١٤٧ و ٢٠١ و ٢١٩ و ٣٥٩ وانظر ديوان لبيد/٦٧ (٧) عبيد . الديوان/١٠٢

وقال بشر[1] :

وناجيةٍ حمّلتُ عــلى سَبيل كأنّ على مَغابِنها مَلابَــا

وقال زهير[2] :

هل تُبلّغني الى الأخيار ناجيةٌ تَخْدي كوَخْدِ ظُليم خاضِبٍ زَعِرِ

وقال الاعشى[3] :

بناجيــة كاتــان الثميــل تُوَفّي السُّرى بعد أين عسيرا

وقال لبيد[4] :

وناجيــة أعلتهــا وابتذلتُهــا اذا ما اسجهرّ الآل في كل سبسب

وهكذا يستعين الشعراء بالأوصاف الّتي ذكرناها في حديثهم عن سرعة رواحلهم واذا رغبوا في وصفها بالشدة والصلابة والقوة والجرأة ، قالوا عنها جمالية ووجناء وحرف وعذافره وعرمس وعلنداة ومذكرة وعاقر ومقذوفة وغيرها من الأوصاف الّتي تتضمن معنى الصلابة وتوحي بمفهوم القوة والشدة قال عبيد ينعت راحلته[5]

لولا تُسلّيكَ جُماليّــةٌ أدْماءُ دامٍ خُفّها بازل

وقال بشر بن ابي خازم[6] :

جُماليّةٍ غَلْباءَ مضبُورةِ القرى أمُونٍ ذَمُولٍ كالفَنيقِ العَجَنّس

وقال زهير[7] :

جُمَاليّة لم يُبْقِ سَيْري ورِحلتي على ظَهْرِها من نَيّها غيرَ مَحْفِدِ

---

(١) بشر . الديوان/٣٢ وانظر الصفحات/٥٤ و ١٥٤ و ١٥٨ و ١٦٢ . (٢) زهير . الديوان/٣١٦ وانظر /٢٢٢ (٣) الاعشى . الديوان/٩٧ . (٤) لبيد . الديوان/١٨ وانظر الصفحات/٦٧ و ٧٥ . (٥) عبيد . الديوان/٩٨ (٦) بشر . الديوان/١٠١ (٧) زهير . الديوان/٢٢٠ .

ويسلك الشعراء الآخرون هذا المسلك في اوصافهم ، حتى اذا أجهد هذه الرواحل الكلال ، وغارت عيونها فهي الخوص ، واذا كانت اضلاعها قوية متداخلة فهي مجفرة الضلوع ، واذا ضمرت فهي حافر ، وهكذا كانوا يطرقون هذه المعاني ، وهم يذكرون هذه المراكب التي كانت تقطع بهم هذه الفيافي المقفرة .

اما الفرسان الذين عنوا بالخيل ، واهتموا بأوصافها وادركوا ما يستحب منها ويحمد ، فلهم مجموعة اخرى من الالفاظ ، يستخدمونها وهم يذكرون هذه الخيول وهي تحملهم الى اعدائهم فيخوضون بها المعارك ، ويطردون بها صيدهم ويقيدون بها الاوابد ، فاذا ذكروا طولها قالوا : السلهب والخنذيد والطمر والشوقب. والشيظم والشرجب ، واذا وصفوا قوتها وشدتها قالوا : النهد والصلدم والعجلزة ، واذا اشاروا الى ضمورها ذكروا الاقب والشازب والعنجوج ، وكذلك كانوا يذكرون الألفاظ التي اصطلحوا على ذكرها في اوصاف الثيران الوحشية ، والحمر الوحشية ، والبقر الوحشي والنعام والعقبان وغيرها من الحيوانات .

ويتضح لنا من دراسة هذه الألفاظ التي ذكرناها ، ان الشعراء الجاهليين كانوا يؤثرون في وصف حيواناتهم اللفظ الجزل والغريب ، لما يوحيه من امارات القوة في الحيوان الذي يتحدثون عنه . وكأنهم كانوا يرون لزاما عليهم ، وهم يعرضون لأوصاف هذه الحيوانات ان يوفقوا بين القوي منها ، والجزل من اللفظ ، فكانت هذه الشدة ، وكانت هذه الصلابة التي اصبحت تقليدا لفظيا يسير عليه الشعراء ، وتكاد هذه الصفة تختفي في الغالب عند تعرضهم لوصف الجوانب الاخرى من حياتهم .

ولا بد لي من ان اشير الى ان كثيرا من الشعراء كانوا يسلكون مسلكا واحدا ويستعملون أفعالاً معينة أو متشابهة في الاحاديث المتشابهة ، فاذا وصفوا الاطلال استعملوا الفعل لاح وتلوح وابتدأوا الحديث بلمن الديار ، ولمن

طلل . وفي احاديثهم عن الثيران وهي تختفي في الرمال ، ذكروا الفعل اكب ومكب وفي حديثهم عن التهيؤ للحرب ، والاستعداد لما يقول ، لبس جلود نمر ويؤكدون الفعل لبس . وفي حديثهم عن البرق يستعملون الافعال راقب وارق وشام . واذا تحدثوا عن النعام اكدوا الفعل ازج وأزف ، واذا عرضوا لوصف الثغور شبهوها بالاقحوان ، واستعملوا معها الفعل تضحك أو تبسم ، وإذا استقصينا امثال هذه الافعال والعبارات لجمعنا معجما آخر للألفاظ التي تعود الشعراء على استعمالها في شعر الطبيعة . ومن هنا كان الشعراء يجهدون انفسهم في التنقيح والتهذيب وفي اختيار الالفاظ التي يجدون فيها الجدة ليثبتوا براعتهم ويظهروا مهارتهم ، وهذا ما حملهم على الاتجاه نحو قوالب التعبير ، فبالغوا في صياغتها مبالغة مفرطة ، لفتت اليهم انظار النقاد القدامى ، فاطلقوا عليهم من الصفات ما يشعر بهذا التنقيح ، ويدلل على هذه المهارة والتجويد .(١)

وكان بعض الشعراء يميل الى استعمال الالفاظ التي توحي بالمعنى وتشعر بالحركة(٢) . سالكا في ذلك طريق التصوير القوي المؤثر الذي يثير في النفس الاعجاب ، مستخدما ذلك في دقة لا تشبهها دقة ، ووضوح لا يخفى من معالم الصورة شيئا مستعينا بالموسيقى الداخلية التي تنشأ من انسجام الحروف اولا ، واتساق الالفاظ ثانيا . فعندما اراد تأبط شرا ان يصف الظليم استغل الالفاظ التي توحي بالسرعة والخفة والحركة والصوت ، وقد الح على الافعال التي تؤكد هذه المعاني ، فجعلنا نشاركه حسه ، وهو ينظر اليه ، ويتأمل نشاطه قال(٣) :

وحثحثت مشعوف النجاء كأنني   هجف رأى قصرا سمالا وداجنا

---

(١) انظر البيان والتبيين (٢/٧ - ١٣ والاغاني ٥/٥٧ (دار الكتب) و ١١٢/٢١ (ساسي) والمفضليات (لايل) ١/٤١٠   (٢) انظر ديوان طرفه/١٠٨ (صادر)   (٣) الاصفهاني . الاغاني (ساسي) ٢١٣/١٨

من الحص هزروف كأن عفاءه اذا استدرج الفيفا ومد المغابنـــا
ازج زلوج هـــذرفي زفازف هزف يبذ الناجيات الصوافنـــا

وعندما اراد عنترة ان يصور المطر وهو ينهمر بصورة سريعة ومدرارة على روضة استعمل الالفاظ التي تشعر بالانهمار والهدير والجريان ، الى جانب استخدام الصورة الدائرية المتمثلة في الدرهم الابيض ، ليرمز الى اماكن تجمع المياه بهذه الهيئة وعلى هذا الشكل[1] :

جادت عليها كل عين ثـــرة فتركن كل حديقة كالدرهم
سحا وتسكابا فكل عشيـــة يجري عليها الماء لم يتصـــرم

ويرسم امرؤ القيس لفرسه صورة مليئة بالحركة ، ليصور شدة سرعته وجريه ، معتمدا على التقطيع الصوتي في هذه الاوصاف والملائمة بين الكلمات فيقول[2] :

مكر مفر مقبل مـــدبر معـــا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وكان البعض الاخر من الشعراء يلح على تكرير الالفاظ التي يحاول فيها تقوية المعنى ، والتشديد على رنينها ، ليؤكد رسم الصورة ، والاهمية الـــتي يريدها من هذا التكرير ، فعندما اراد امرؤ القيس ان يصف ديار سلمى وقد تعفت ودرست لالحاح المطر عليها ، ولزومه اياها ، لم يجد اوقع من ترديد اسم سلمى ليكون التشوق اشد . قال[3] :

ديار لسلمى عافيات بذى خال الح عليها كل اسحم هطـــال
وتحسب سلمى لاتزال ترىطلا من الوحش اوبيضا بميثاء محلال
وتحسب سلمى لاتزال كعهدنا بوادى الخزامى اوعلى رس اوعال

(١) عنترة . الديوان/٣٧١ (٢) امرؤ القيس الديوان/١٩ (٣) امرؤ القيس . الديوان /٢٧ وانظر قصيدة الحارث بن عباد في شعراء النصرانية وقصيدة المسيب بن علس في ديوان الاعشى ، نشر جاير/٣٥٣ .

ليـــالي سلمى اذ تريك منصبا وجيدا كجيد الرئم ليس بمعطال

وكان فريق منهم يردد بعض الحروف التي تمتاز بجرسها ، ويحاول ان يوزعها توزيعا متناسبا يضفي على القصيدة نغما معينا، وينقل اللفظ مـــن مجموعة حروف الى جرس موسيقى بلغة نغم ملحن[1].

واستعان الشعراء ، لغرض التأثير في سامعيهم بطائفة من المحسنات اللفظية من مطابقة او مجانسة ، فكانت تتناثر من حين الى حين الوان من هذه المقابلات في قصائدهم . متوخين من خلال تلك الصور الدقة البالغة في التعبير ، والحرص الزائد في رسم الصور الجديدة التي كانوا يهتدون لرسمها . مما يدل دلا لـــة واضحة على عناية الشعراء باحسانهم كلامهم ، والتفنن في اظهار فنونـــه البليغة ، فالجناس التام واضح كل الوضوح في قول الافوه الاودى[2] :

واقطع الهوجـــل مستأنســـا بهوجـــل عيرانـــة عنتريس

والجناس الناقص في قول اوس بن حجر وهو يصف السحاب[3] :

فالتج اعلاه ثم ارتـــج اسفلـــه وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح

وفي قول ابي دواد ينعت فرسه[4] :

مخلط مزيل معـــن مفـــن مطرح مضرح جموح خروج

يجانس بين معن ومفن ومطرح ومضرح .

ويعد التشبيه من اكثر المحسنات اللفظية دورانا في اشعارهم ، لانهم لم يعرضوا لوصف شيء الا قابلوه بما يقع امامهم وما يماثل الصور التي يحسون بها . وقد مرت نماذج كثيرة من ذلك .

وكما ادرك الشعراء استعمالات الالفاظ ، وقوة ادائها التعبيري ، فقـــد

(١) انظر المفضليات ١٣٠/١ (٢) الافوه الاودى . الديوان (الطرائف الادبية)
(٣) اوس بن حجر . الديوان/١٦ (٤) ابو دواد . الديوان/٢٩٩ .

ادركوا البحور التي يعرضون فيها اوصافهم ، ففضلوا البحور الطويلة على غيرها من البحور ، لاستيعابها للمعاني ، واتساعها للتشبيهات والاستعارات والمجازات والكنايات ، ولان الصورة التي يريدون استعمالها لا تكمل في البحور القصيرة ، لذا فقد وجد الشاعر فيها المجال الفسيح الذي يوسع الصورة في ذهنه ، ويكمل اللوحة الفنية التي اراد تخطيطها . الى جانب كون هذه البحور — بطبيعة تفعيلاتها الثقيلة ، ومقاطعها الكثيرة — تسمح بحشد الالفاظ المختارة التي يبلغ فيها الشاعر ما يرمي اليه من التأثير اذا مدح او افتخر او اعتذر ، وكان الشاعر يحكم صياغة اوصافه ، ويضبطها ادق ضبط ، ويحقق لها ما تحتاج اليه من الرونق والبهاء . فنظم في دائرة هذه الاوزان عواطفه وخواطره وافكاره . وفي كل هذه الخصائص يحاول الشاعر ان يجد الطريق للتأثير في نفوس السامعين . ومن خلال هذه المحاولات يبرز مدى الجهد الفني الذي كان الشاعر يبذله في سبيل ذلك حتى يأتي باللفظ المؤثر والتشبيه الطريف والمعنى الدقيق .

الخاتمة

لهذه الرسالة على الرغم من الجوانب التي تعالجها . والموضوعات التي تتعرض لها ، شكل عام ينتظمها ، ووحدة موضوعية شاملة تلم اطرافها ، لانها تدور في الواقع ، حول موضوع شغل الشعراء كثيرا ، فعرضوا له في كل حديث ، وتمثلوا به في كل موضع وكانت طبيعة الرسالة تفرض علي ان امهد لها بمقدمة ، احدد فيها الحيز الذي عشت فيه خلال البحث ، واوضح الاطار الذي دارت عليه ، او حوله ، هذه المجموعة الشعرية ، فكان التمهيد وصفا عاما لجزيرة العرب ، لعلاقتها بهذا البحث ، وتأثر هذا النوع من الشعر بمظاهرها وتصويره لاشكالها ، وخضوعه في كثير من اخيلته وصوره لطبيعة تكوينها ، ورأيت بعد هذا ان اقسم الرسالة الى بابين كبيرين هما الدراسة الموضوعية ، والدراسة الفنية ، ثم قسمت الدراسة الموضوعية الى فصلين ، شمل الفصل الاول منهما الظواهر الصامتة في الطبيعة الصحراوية ، وقد عرضت فيه للجبال والكثبان والسراب والوديان والدارات والبرق والرياض والابار والعيون والرياح والانواء والامطار والنجوم ، واخيرا الشجر والنبات ، وشمل الفصل الثاني منهما ، الحيوان الاليف والوحشي والطيور والزواحف والحشرات .

وكان لا بد لي من الوقوف عند هذه المظاهر ، لان الشاعر الجاهلي ،

وجد فيها مادة خصبة للحديث ، وميدانا فسيحا للتصوير ، فاستخدمها استخداما موفقا ، وعرض لها عرضا دقيقا ، ولم يترك مما يحيط به الا ما كان مبهما ، او مهملا ، او منسيا ، وقد اكثر الشاعر الجاهلي من ذكر الجبال ، لما يجد فيها من صور البقاء والخلود ، فهي ثابتة لا تتغير ، تشهد فناءه ، وفناء اجيال كثيرة سبقته . ومع كل هذا فهو لا يعرض لها في وصف خاص ، او حديث مباشر .

اما الكثبان ، فكانت لها في نفسه اسماء ، واشكال ، يوحي له كل شكل بوصف ، ويحرك كل تكوين فيها بواعث ، واغلب ما كانت تأتي اشاراته اليها في معرض حديثه عن الاطلال ، لانهم كانوا لا ينزلون الا في صلابة من الارض ، ليكون ذلك اثبت لاوتاد الابنية . وامكن لحفر النؤى ، وانما تكون الصلابة حيث ينقطع الرمل ويلتوي ويرق .

وذكر الشعراء الجاهليون السراب ، واستخدموه لتحريك صور الصحراء ، وكأنهم ادركوا قيمة الحركة في الوصف .

وذكروا الوديان ، ووقفوا عندها باعتبارها مناطق خصب ، تستقر فيها القبائل ، وتقيم مرابعها . وفي حديثهم عنها يذكرون ملاعب الصبا ، ويستذكرون ايام اللهو ، لانها تمثل ايام الصفاء والاستقرار بالنسبة لهم ، الى جانب تعرضهم لها ، وهم يذكرون انتصاراتهم ومفاخرهم ، لانها كانت تقع عند هذه الوديان ، فتقترن باسمائها . وكان لاثار عزيف الرمال ، وهي تخرق هذه الوديان ، هواجس عجيبة في نفوسهم ، ومشاعر غريبة ، ظل صداها يتردد ، ودخل قسم منها في الاساطير والمعتقدات .

اما حديثهم عن الدارات والبرق والرياض والحرّات ، فكان قريبا من حديثهم عن الوديان ، باعتبار هذه المناطق تشكل اماكن خصب كانوا ينزلون فيها ، فينعمون بخيرها ومائها وخضرتها

وارتبطت الرياح عندهم بموضوع الامطار ، وكان تعرض الشعراء لها

من خلال اوصافهم للطلل ، وتعفيته ، وتناوبها عليه ، وهي تجرر ذيولها ، وتمحو اثار ملاعبهم ، وتزيل بقايا ذكرياتهم ، الى جانب تعرض الشعراء لها من خلال احاديثهم عن الشوق والبعاد ، وتغنيهم بالكرم عند هبوب الشمال لانها كانت تحمل اليهم القحط والمحل والجدب ، وعندها تمتحن سرائـــر الرجال ، وقد وضعوا لكل ريح اسما يختلف باختلاف مناطق هبوبها ، وتبركوا بريح الصبا وتفاخروا في الكرم عندما تهب ، وجعلوا بيوتهم ازاءها ، وكرهوا ريح الشمال ، وكانت لهم فيها احاديث طويلة .

اما المياه فكان حديثهم عنها طويلاً ، لانها سبب حياتهم ، واساس وجودهم ، ولهذا افاضوا في ذكرها ، وقدسوا مواضعها ، وانشدوا الاراجيز في اثناء حفرها ، والاستقاء منها ، ووصفوا كل مصدر من مصادر المياه ، فنظروا الى السماء وهي تزدحم بالسحب ، وميزوا بين كل لون من الوان هذه السحب ، وربطوا بينها وبين مقدار ما تحمله من المياه ، وتعرضوا لذكر ابعادها وكثافتها وسيرها ، وكانوا يلحون على هذه الاوصاف الحاحا تخلصوا منه الى مقدار ما تدره عليهم ، وشاموا البرق ، وتأملوا فيه ، ونبهوا اصحابهم لمراقبته ، وكانت جلجلة الرعد تبعث في نفوسهم الحنين . وفرحوا بالمطر ، وتغنوا به ، وهو يحمل اليهم الخير والحياة ، وراقبوه وهو يمر ووصفوه وهو يكون سيولا موارة ، تقلع الشجر وتهد البيوت ، وتنزل العصم من قلل الجبال .

ومن الطبيعي ان ينال الشجر والنبات ، والثمر والازهار والاعشاب والبقول نصيبا وافرا من حديث الشعراء ، لاتصالها المباشر بحاجاتهم التي يعتمدون عليها في مجابهة ظروف الحياة . فقد استفادوا من التمر الذي كان يشكل غــذاء رئيسا لهم ولحيواناتهم ، واستمدوا من النخل صورهم وتشبيهاتهم ، ومنحتهم الوان النخلة ، والوان تمرها ، قدرة على عقد المشابهات . اما شكلها المتناسق ، وتجمع سعفها ، وقد توسطته العذوق والشماريخ ، فكان مجالا من مجالات التذكير بالظعون والهوادج ، وقد اظهرت النماذج التي استشهدنا بها معرفتهم بفنون زراعته ، وتبصرهم بالطرق السليمة التي تتبع في هذه الزراعة ، وهي

بالنالي تدلنا على اهتمامهم بهذا النوع من الشجر .

وكان تعرضهم لشجر الجبال يأتي في أحاديثهم عن الصلابة والقوة ، والشدة والاحكام ، وهذا ما دفعهم الى اتخاذه مادة اولية صالحة لاستعمال السهام والرماح والقسي ، اما حديثهم عن الاشجار الباقية فكان مستمدا من طبيعة هذه الاشجار نفسها ، ومنسجما مع استفادتهم منها ، فاذا اراد الشاعر ان يكني عن الضعف ، كنى بشجر السدر لخوره ، واذا اراد ان يكني عن الذلة والهوان ، اشار الى الكمأة ، لهوانها وضعتها وضعفها . واذا اراد ان يصور القلق والحذر والخوف ذكر السيال والهراس والعضاة ، واستفاد الشاعر الجاهلي من الوان بعض الاشجار لعقد مشابهاته ، فاستعمل الثغام في حديثه عن الشيب واشار الى الغرقد والتنضب والعلندى في نعته للغبار ، وذكر الاقحوان في وصفه للثغور ، ووقف عند الفرصاد والعندم في حديثه عن الدم . وهو يذكر الاثل والعشر في حديثه عن بناء البيوت ويذكر الاثل وحده في حديثه عن صنع القصاع والجفان والانية والمكاييل ومارق من الاقداح ، ويشير الى الميس في مديحه للرحال ، وهو بذلك يستعمل كل نوع من هذه الانواع في المحل المناسب له .

وكان موقفهم من الحيوان يتحدد بمدى الفائدة التي يقدمها هذا الحيوان لهم ، وبمقدار الاعانة التي يتمكن فيها من تذليل مصاعب الحياة التي كانوا يقاسون منها وطبيعي ان يكون هذا الموقف متفاوتا بين الحيوان الاليف والوحشي ، ولا بد ان يكون الاهتمام بالحيوان الاليف اكثر ، لانتفاعهم منه ، والفتهم له ، واستفادتهم مما يقدمه لهم من طعام وكساء . فكانت الابل اول هذه الحيوانات ، لاهميتها البالغة بالنسبة لهم ، ولقدرتها على مقاومة ظروف الصحراء ، وللائمة كثير من اعضائها لهذه البيئة ، الى جانب مدها لهم بالغذاء والكساء ، وهذا ما جعل قصائدهم فيها اطول ، ونفسهم في ذكرها امد ، واستقصاءهم لاوصافها ادق واحكم ، وكان التجاوب في نفوس الشعراء – وهم يعرضون لها – عميقا ، والاحساس متبادلا ، والمشاركة

الوجدانية التي تطبع اوصافهم صادقة ،وقد بلغ اعزازهم لها مبلغ افتدائها بالنفس.

واستأثرت الخيل بحب العرب ، لما ادته لهم من نفع كثير . لذلك كانت عنايتهم بها ، واهتمامهم بتربيتها ، عناية تفوق كل شيء ، فاشتهروا بالمحافظة على انسابها وعدم الخلط بين سلالتها ، وخلدوا ذكرها وصفاتها واسماءها في قصائدهم ومقطعاتهم ، وصنفوا في ذلك المؤلفات . وكان لهم فيها من التباهي والتفاخر والتنافس ما يدعو الى التأمل والاعجاب . ولا غرابة في ذلك اذا علمنا ان الخيل كانت وسيلتهم للحرب ، يطردون بها الخصوم ، وتنجيهم من المآزق اذا وقعوا فيها . وهي معقلهم الذي يتحصنون به ، وسبيلهم الى اللهو والصيد ، وزينتهم في الفخر والفروسية والحرب والكسب والرهان . وتحدثوا عن الكلاب لاعتمادهم عليها في صيدهم وحراستهم ودليلهم الذي يهتدي بواسطته الضيفان ، وتلك مكرمة من مكارمهم ، ومفخرة من مفاخرهم ، على أن الحديث في مجال الصيد يعد من أوسع المجالات التي ورد فيها ذكر الكلاب لأنهم وصفوها وهي تترصد ، وتترقب ، وتنطلق وكان الحاح الشعراء ينصب عليها وهي جائعة ، لتحرص على الصيد ، وتضرى به ، ثم ذكروا الغنم ، وكان ذكرهم لها سريعا ومرورهم عليها عابرا ، مستخدمين صورة الشاة والنعجة للهجاء في اغلب الاحيان لضعفهما .

اما حديثهم عن الحيوان الوحشي ، فكان يأتي من خلال اوصافهم لرواحلهم وهي في طريقها الى ممدوحيهم ، او احبتهم ، لانهم يريدون اضفاء طابع الشدة والقوة والصلابة والسرعة على هذه الرواحل ، فلم يجدوا اصلب واقوى واسرع من الثيران الوحشية ، والبقر الوحشي ، والحمر الوحشية ليشبهوا بها هذه الرواحل ، ومقاومتها ، وقدرتها على السير المتواصل ، وتحملها العبء المجهد ، والسهر الطويل ، الذي كانت تفرضه عليهم طبيعة الرحلة . وقد حملهم هذا الوقوف عند مظاهر بعض هذه الحيوانات الى تقديم بعض الصور الفنية التي يلمس منا التجديد والابداع والابتكار .

واكثر الشعراء من ذكر الظباء ، واوصافها ، والتشبيه بها ، واكدوا بعض هذه الاوصاف في حديثهم عن المرأة ، فشبهوا بها كل ما وجدوه

رائقا في نظرهم ، جميلا في نفوسهم ، وحاولوا ان يقرنوا ذكرها بالاطلال ، ويقتصروا في كثير من الاحيان على ذكرها ، وذكر بعض الحيوانات الوديعة الاخرى في ارتياد هذه الملاعب ، لوداعتها ، وجمال صورتها ، وتناسبهـا مع ما يحملون لهذه الديار من مكانة رفيعة . ولمسوا فيها السرعة والضمـور والنشاط ، فشبهوا بها خيولهم ، ووجد فيها الشعراء الصعاليك مجالا للمقارنة ، فقارنوا بين سرعتهم وسرعتها ، وذكروا النعامة وكان استقصاؤهم لاعضائها ، ووقوفهم عند بعض عاداتها اطول ، فشبهوا بها المراكب ، وهم ينعتونهـا بالسرعة والنجاء ، وضربوا بها المثل في الخوف والذعر والهزيمة والموق والحذر ، وكانوا يؤكدون اوصاف السرعة في حديثهم عنها وقد احمر ساقاها . واطراف ريشها ، لكونها — وهي في هذه الحالة — انشط واسرع واشد ، فلا تتمكن الخيل من طلبها ، وقد وجدت بعض النماذج التي تفند الزعم القائل بموق النعام وبلاهته وحمقه وتظهر هذه النماذج حرصه على بيضه ، وسرعته اليه باقصى ما يستطيع من السرعة ليحتضنه .

وكما وجد الشعراء الصعاليك في الظباء حيوانا يقارنون به سرعتهم ، فقد وجدوا في النعام حيوانا آخر يقرنون به هذه السرعة ، وكانوا يحرصون على ان يكون النعام مذعورا ، او مجفلا ، لتكون دواعي السرعة اشد . وهذا ما كانوا يقصدون اليه ، لان النعام في هذه الحالة لا يدرك . وعلى الرغم من كل هذا الجو الذي يخلقه الشاعر ، ويحيط به هذا الحيوان ، فهو اسبق منه ، وركضه اسرع من ركضه ، اما الوانه واوصافه وبعض اعضائه فقد وقفوا عندها ، ودققوا في تصويرها ، وابدعوا في اظهار هذه الالوان . وتحدثوا عن الوعول ، واقترنت صورتها عندهم بصورة الموت ، حتى اوشكت ان تصبح رمزاً مجسما لحقيقته .

وذكروا الذئاب ، ووجدوا فيها رفيقا دائما من رفاق الجوع ، وزاوجوا بين الصورتين ووقفوا عند الضباع والثعالب ، وربطوا بين صورتها ، وصورة الفزع عند الموت باعتبارها من الحيوانات المعروفة بولعها بجيف الموتى ، والمشهورة برغبتها في نبش القبور . وهذا ما كان يخيفهم منها ، لانهم معرضون لان يموتوا في العراء ، وتترك اجسادهم فيه ، وعندها يصبحون طعاما سائغا

لهذه الحيوانات ، تعمل بهم ما تشاء ، وخصوا الثعلب بالمكر والحيلة والروغان .

اما الضب ، فكان تعرضهم له في مواضع الهجاء ، وكان ذكر الاظفار والبراثن يقرن باوصاف الشعراء لهذا الحيوان ، لان الذي عرف به هو انه لا يحتفر الا في مكان صلب حتى لا ينهدم ، وهو يعمق حفرته ويطيل فيها حتى تفنى براثنه ، متوخيا بذلك الارتفاع عن مجاري السيل والمياه ، وعن مدق الحوافر ، لكيلا ينهار عليه ، ولذلك كانت براثنه ناقصة كليلة ، وهذا ما اوحى للشعراء باغلب المعاني التي استشهدوا بها .

ومن الحيوانات الاخرى التي تحدثوا عنها الاسد . ولكن الغريب في الامر ، ان معظم النماذج الشعرية التي وصلت الينا ، لم تتحدث عن رؤيا حقيقية له ، الا ابيات عروة بن الورد[1] ، التي وصفه فيها وصفا مباشرا ومغايرا لكل الاوصاف والنعوت التي وجدناها عند غيره من الشعراء ، والتي كانت تذكر في اغلب الاحيان في تشبيه الفتيان او الفرسان او الشجعان ، او في احاديث الشعراء عن مفاخرهم ، ومفاخر قبائلهم ، وانتصاراتها ، او في ذكر مناقبهم ، او مناقب ممدوحيهم ، او في مراثيهم التي اطلقوا فيها على قتلاهم وموتاهم نعوت هذا الحيوان واقترن ذكر النمر بالاسد مرة ، وبالاساود اخرى ، وكان يأتي ذكره في باب المجاز ، وخاصة عندما كانوا يريدون ان ينعتوا من اشتد غيظه ، وتجهم وجهه وكثر غضبه .

والهمت بعض اصناف الطيور الشعراء مشاعر القوة والسيطرة ، وتوزع البعض الاخر منها في اثارة هواجس التشاؤم والقلق والخوف ، او الحنين والعطف . وقد انعكست هذه الصور في الشعر الجاهلي ، فكانت لها اشكال واوصاف وصور . واستخدم منها الشعراء ما وجدوه ملائما للمواضع المناسبة التي ارادوا الحديث عنها ، فكان للعقاب ، والصقر والنسر والرخم جانب وصور ، وكان للحبارى والحدأ جانب آخر وصور اخرى .

---

(١) انظر ديوان عروه / ٥٥ – ٦٦ .

اما الحمام فقد اكتسب جانبا عاطفيا خاصاً ، فهام به الشعراء ، وابدعوا في تصوير غنائه ، ولا بد لنا من ادراك الصلة المتينة بين هذه الاصناف من الطيور ، وبين هؤلاء الشعراء ، لنعرف بواعث هذا الحنين ، ودواعي هذه العاطفة ، فهي تشد الرحال من وقت الى وقت ، وهي تعاني من اجل ذلك الم الرحلة ، ومرارة الغربة ، وصعوبة الانتقال . وتقاسي من هذا ما تقاسيه . والشاعر الجاهلي يعيش المأساة نفسها ويتحمل هذه الالام بنفس الشكل الذي تتحمله هذه الطيور ، فلا غرابة اذا انعقدت الصلة ، وارتبطت الاحاسيس .

وحديث الغراب عند الشعراء الجاهليين طويل ، لانه اشأم الطيور — كما يقولون — وليس في الارض شيء اشأم منه ، ومن اجل هذا اصبح كل جزء منه مدعاة للتطيّر ، فاشتقوا من اسمه الغربة والاغتّراب والغريب ، وتشاءموا من صياحه ، واعتبروه نذير البعد ، ودليل الفرقة . وكذلك كان معتقدهم في البوم ، لانها — كما يعتقدون ايضا — تجلب المصائب ، وتجر النوائب ولعل ذلك بسبب منظرها الكئيب ، وصوتّها الحزين ، وارتيادها المحلات المهجورة ، والمنازل الخربة ، فاقترنت صورتّها باذهان الناس بصورة هذه المحلات والاماكن

واستخدموا القطا في تشبيه الخيل ، لسرعتها وانطلاقها ، وعند وصفهم للابل ، وهي تشق هذه الصحراء وقت الهاجرة ، وعندما يكون القطا جاثما على الارض او نائما ، اتقاء حرارة الشمس اللافحة ، مؤكدين نشاط رواحلهم في هذا الوقت الذي يصعب فيه السير ، اما افحوصها ، فقد وجد الشعراء فيه صورة لتشبيه ما صلع من الرؤوس ، وذهب من الشعر ، لان القطا تجيء الى الموضع اللين من الارض فتفحصه وتملسه ، ثم تدير حوله ترابا فتبيض على غير عش ، وقد وجدوا في طرفي التشبيه جوانب واضحة لعقد مثل هذا التشبيه . ووقف الشعراء عند الديك ، وكنوا به عن الفجر ، لان صوته ينغص على الندامى مجلسهم ، وعرضوا لذكر الحجل . والسمام والعصافير والخفاش والكركي وطير الماء والهدهد وبعض الطيور الاخرى التي دخلت في مجال الاساطير كالزماح والقوارى ، وذكروا بعض اصناف الزواحف والحشرات

كالافاعي واكدوا الوانها ، وشبهوا بها ، وذكروا وقت خروجها ، شأنها في ذلك شأن بقية المحسوسات التي كانت تقع تحت انظارهم . وكنوا بالعقارب عن الاذى والمنة والشرور والمكائد ، وتعرضوا لذكر الحرباء في حديثهم عن شدة الحر .

وكان وجود الذباب بالنسبة لهم يعني الحياة ويقظتها ويعد وجوده دليلا من ادلة الخضرة والربيع ، لانه لا يغني الا في الرياض ، ولا يهزج الا في الخضرة ، وشبهوا خيلهم بالجراد ، ووجد هذا التشبيه في نفوس الشعراء رضى واستحسانا . اما النحل فكان له عند هذيل شأن ، ولهم في اشتيار عسله قصص حفظها لنا الشعر الجاهلي وحفظ لنا وسائلهم التي كانوا يستخدمونها في سبيل ذلك ، ومتاعبهم التي كانوا يعانون منها الامرين وهم في طريقهم الى خلاياه .

ومن هذا العرض السريع الذي اوجزته بهذه الصفحات ندرك موقف الشعراء الجاهليين من هذه الحيوانات .

ثم درست الظواهر الفنية في شعر الطبيعة ، وحاولت ان امهد لهذه الظواهر بدراسة موجزة لفن الشعر الجاهلي وتطوره ، ووجدت انه من العبث ان نحاول تحديد البداية الاولية للشعر العربي ، وتثبيت المراحل التي مرّ بها ، وبينت انَّ الشعر العربي الموجود بين ايدينا قد سبق بمحاولات كثيرة ، وتجارب متعاقبة ، ارست دعائمه ، وحققت له مقوماته وتقاليده الفنية التي استقرت واصبحت معالم ثابتة ، ثم اشرت الى ان صناعة هذا الشعر قد توفر لها من الخصائص ما جعلنا نعتقد ان الشعراء كانوا يبذلون في سبيل الوصول الى هذه الصناعة جهدا شاقا ، وعناء كبيرا ، وهم من اجل ذلك ينقحون ويجودون ، ويعاودون النظر ليصونوا كلامهم مما قد يفسده ، ليحققوا الشكل الفني المتعارف عليه ثم لاحظت في تصويرهم لظواهر الطبيعة الصامتة ايمان بعض الشعراء بقوى خفية في بعض النباتات والجمادات والحيوانات فكانوا ينسبون اليها قدرة تفوق قدرة البشر ، ويسلمون بسيطرتها على الطبيعة ، واختفائها وراء كل ظاهرة تعرض لهم . فحاولوا التقرب اليها ، واسترضاءها واستمالتها

اليهم بما يقدمونه لها ، وكانوا يرون في صور بعض الاشياء صورة اشياء اخرى فحاولوا ان يقيموا بينهما علاقات التشبيه وهكذا كان كل شيء يقع تحت بصرهم يحسون فيه الحياة والحركة .

ولا بد ان يكون هذا التصور نتيجة طبيعية للحياة العربية ، فالعربي يتفرد في القفار والوديان ، ويسلك المهامة الموحشة واذا صار الانسان في مثل هذه الأماكن تداخلت عليه الظنون وتصورت له الاصوات ، وتضخمت في مخيلته الاجسام . وقد انعكست هذه الصوَر في الشعر الجاهلي بصورة واضحة تدل على مدى تأثر حياتهم بامثال هذه الكائنات الروحية التي لا أول لها ولا آخر .

ثم وجدت وقوفهم عند الاطلال طويلا ، وهذا الوقوف حملني علـى التعرض للمحاولات التي جرت في تفسير هذه الظاهرة ، فاعتبرت اشارة ابن قتيبة من اولى الاشارات التي حاولت ذلك . وتعليل الدواعي التي دفعت الشعراء الى سلوك هذا المسلك . ثم عرضت لرأى المستشرق الالماني فالنر براونه الذي حاول تفسير هذه الظاهرة من خلال التماسه لألـوانٍ من التفكير الوجودي ، فاعتقد ان موضوع اختيار القضاء والفناء والتناهي هو الذي حرك الانسان في كل زمان ، وهو الموضوع الذي يرده عن وعيه ، وان الشعراء صدروا في نسيبهم عن مشاعر صادقة كامنة في نفوسهم ، تمثل نوعا من القلق الوجودى

ثم اشرت الى محاولة الدكتور يوسف خليف ، والتي حاولان يجعل فيها فترات الفراغ التي كانت تطول في بعض الاحيان — وخاصة في ايام الربيع ، عندما تتحول البادية الى جنة خضراء — سببا من اسباب ملء اوقات الفراغ باي شيء . حتى لا تستحيل الحياة معها فراغا باردا ، لا احساس بالوجود فيه ، وشعورا بالضياع في هذه الصحراء التي تخيل للانسان فيه انه يعيش في عالم لا يعرف الحدود ، ولا يدرك معنى النهاية ، ثم تتبعت تحديد الدكتور يوسف مسائل حل هذه المشكلة ، فوجدته يحددها في ثلاثة اتجاهات اساسية ، هي الخروج الى الصحراء للرحلة او للصيد ، والالتقاء بالرفاق لشرب الخمر ، والسعي خلف المرأة ، طلباً للحب والغزل ، ثم محاولة الدكتور تفسير بداية

هذه المقدمة فجعلها طبيعية عند شعراء المرحلة الفنية الاولى ، ثم تحولت الى مقدمة تقليدية عند شعراء المرحلة الثانية من حياة هذا الشعر ، ثم المرحلة الثالثة التي استقرت فيها القصيدة العربية واتضحت مقومات العمل الفني ، حتى خيل لبعض الشعراء انه لم يعد هنالك جديد يستطيعون اضافته الى شعرهم .

وارى ان بكاء الاطلال ليس عاطفة خاصة ، ولا تجربة وجدانية ذاتية ، بل لحظة حزينة املاها على الشاعر شعور الجماعة التي ينتمي اليها ، بالحرمان من الوطن المكاني ، وبالحنين الى الاستقرار والمقام الثابت الذي يستطيع فيه ان يقيم بيتا يخلد فيه ذكرياته ، ويسترجع ملاعب صباه ، وهو في الواقع لا يواجه ذكرى حبه فحسب ، وانما كانت تتداعى في ذاكرته صور شبابه الذاهب . وهذان الدافعان يكفيان لخلق عاطفة تثير في نفسه جوا مناسبا يحمله على الحنين ، وكان هذا الجو يعد التمهيد الذي يخلق الجو الشعري المناسب لقول القصيدة . وقد اصبحت المقدمة الطللية – بكل صورها والوانها – تؤدى وظيفة خلق هذا الجو الشعري الذي يمنح الشاعر القدرة على القول . لانه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة ، تمده بالعاطفة اللازمة ، التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس في نفسه من الاحساسات وهو في نفس الوقت يهيء الجو المناسب للمستمع الذي يجد في هذه يعد التمهيد الذي يخلق الجو الشعرى المناسب لقول القصيدة . وقد اصبحت المقدمة الطللية – بكل صورها والوانها – تؤدى وظيفة خلق هذا الجو الشعرى الذي يمنح الشاعر القدرة على القول . لانه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة ، تمده بالعاطفة اللازمة ، التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس في نفسه من الاحساسات وهو في نفس الوقت يهيء الجو المناسب للمستمع الذي يجد في هذه المعاناة شبها لما يحس به هو ، فينشيء بهذه البداية لنفسه ولسامعه وقارئيه حالة شعورية مليئة بعواطف الحنين والشوق والاستعداد للانشاد او الاستماع او المتابعة ، يبتعد فيها الانسان عن كل ما يحيط به ، او يتصل بحياته القريبة ، وهذا ما دفع الشعراء الى الالتزام بها ، والتقيد بمعانيها ، والمحافظة على اصولها .

ثم وجدت ان وصف الطلل من اكثر الموضوعات الجاهلية عاطفة واصدقها تعبيرا واشدها اتصالا بالوجدان . وبالتالي فهو يمثل تجربة الرحلة التي قامت عليها الحياة الجاهلية . فالحنين الى الطلل يمثل الحنين للوطن ، لان الطلل وما يحيط به ، وما يتناثر حوله من الدمن ، يمثل مجموعة البيوت التي حفظت ذكريات الشعراء فلا غرابة اذا وجدنا الشاعر الجاهلي يبرز ذاتيته ، ويفرغ شخصيته — وهو يقف امام هذه الاحجار او الاثار — محاولا بذلك اثبات وجوده المبعثر في هذه الصحراء التي لم يضمن فيها مسكنا يلم حياته الضائعة ، وسط رحلة لا تستقر ، وتنقل لا يقف .

وقد التزم الشعراء في هذا الوقوف مجموعة من الظواهر ، فكانوا مثلا يحرصون على ان يكون حديثهم بصيغة التثنية ، لان اقل اعوان الرجل في ابله وماله اثنان ، واقل الرفقة ثلاث ، وان طبيعة الرحلة كانت تفرض على الشخص ان لا يرحل وحده ، وانما يرحل مع رفيقين . وكانوا يحرصون ايضا على تحديد الفترة الزمنية التي مرت على ترك هذا الاثر ، لانها تمثل الفترة الحيوية من حياته ، واللحظات السعيدة التي عاشها بين جوانب هذه البقايا . وكان حرصه يدفعه ايضا الى تحديد المواضع جغرافيا ، وتعديدها ، وتسميتها ، ليدخل الرضا الى نفسه ، وليكون مطمئنا الى صحة هذه المواضع . وعندها يكون الوقوف او البكاء في المحل الذي وقف من اجله ، او بكى عنده وقوفا يستحق هذا البكاء ويستأهله .

ثم درست تصويره للحيوان الذي اعتنى به عناية كاملة ، ووصف حركاته وصفا دقيقا ، ومثل هيئاته ، واشار الى عاداته وكان هذا الوصف والاعتناء يتوقف على مقدار صلته بهذا الحيوان من جهة ، وطبيعة الحيوان نفسه من جهة اخرى . فحديثه عن الناقة والفرس ونعته لاعضائهما واوصافهما الداخلية والخارجية لم نجد له نظيرا في اوصافه للثور الوحشي او غيره من الحيوانات . على أن بعض اوصاف الشعراء لقسم من هذه الحيوانات لم يكن مجرد اوصاف عابرة ، وانما كان يشوب ذلك حس وعاطفة تضفي على الوصف طابع الجمال

والرقة . وقد منحتهم معرفتهم بطبائع الحيوان قدرة على اختيار الصفات البارزة ، فكانت اوصافهم لبعضها تدل على دقة وبراعة ، لا تتهيأ الا لشخص عاش في المفاوز ، فراقب حركاتها وادرك التطورات التي يحصل عليها ، وعرف الالوان التي تتلون بها .

ثم درست تصويرهم للصيد الذي وجدوا فيه جمعا بين روائع الطبيعة وخلق الفروسية ، وتبين لي ان ضرورات العيش ، وحاجات الأفراد ، وملء اوقات الفراغ ، كانت تدفعهم الى ممارسته بكل وسيلة ، وتثير فيهم الرغبة في الحصول على الحيوان ، ولاحظت ان الخيل والكلاب والسهام والنبال والرماح هي الوسائل التي كانوا يستعملونها ، وان الصيد بواسطة الخيل كان يعد متعة من المتع ، ومظهرا من مظاهر الفروسية ، وكانت تمارسه فئة مترفة من العرب ، تهيأت لها اسباب الحياة .

اما الكلاب ، فكان حديثها يأتي عرضا في تشبيه الرواحل بالثور الوحشي الذي تهاجمه كلاب الصيد . واكثر ما نجد السهام والرماح والقسي مستعملة عند شعراء هذيل والصعاليك واللصوص . وهذا ما يؤكد حاجة هؤلاء ، للانتفاع بلحوم هذه الحيوانات ، ووجدت في بعض النصوص اشارات الى ان العرب كان يستذلون الصيد ، ويحقرون الصياد .

ثم درست في الفصل الثاني الخصائص الفنية لشعراء الطبيعة ، ولاحظت ان هذه النوع من الشعر يتسم بالواقعية ، وان الشعراء كانوا يحرصون فيه على ان تكون صورهم مطابقة للواقع ، مشابهة له ، وبينت مظاهر هذه الواقعية المتمثلة في الخبرة والمقدرة والدراية واستخدام كل صفة في المكان المعين ، واستغلال ظاهرة الالوان التي كانت تمنح الصورة قدرة اكثر على التعبير ، ثم تصوير الجوانب الدقيقة في الموصوفات . واخيرا مقارنات الشعراء التي كانت لا تتهيأ الا لمن خبر هذه الصلة في مقارنته بين طرفي التشبيه ، وادرك الصفة البارزة فيه . ثم رأيت ان الشعراء قد استغلوا الحوادث التي كانت تحيط بهم استغلالا قصصيا موفقا ، وان النماذج الشعرية التي اشرت اليها تعطينا

فكرة واضحة عن المفهوم القصصي عند الشعراء الجاهليين ، ويمكننا اعتبار هذه البداية نقطة انطلاق للقصة الشعرية التي تعد الرائد الصحيح لهذا الفن .

اما الخصائص المعنوية لشعر الطبيعة ، فقد وجدت الشاعر الجاهلي ينقل الصور التي تلوح امامه نقلا امينا بعيدا عن تحليل الاوصاف والتعمق في التشبيهات وكانت بعض التشبيهات ، تصل عند بعضهم الى القصة التي يسردون فيها ما يرومون التعبير عنه . وكأن الشعراء ادركوا حقيقة التصوير والصورة ، وهي تتجلى باشكالها وهيأتها واجزائها ، وادركوا كذلك التفاصيل المتمثلة في الألوان والمظاهر التي تبرز تلك الحقيقة ، فكانوا يجمعون بين هذين الركنين جمعــا متوافقا .

وفي الخصائص اللفظية وجدت بعض الشعراء يميل الى استعمال الالفاظ التي توحي بالمعنى ، وتشعر بالحركة ، وكان البعض الآخر يضطر الى تكرير اللفظ الذي يحاول به تقوية النغم ، والتشديد على رنين الكلمات ، او استعمال بعض الحروف التي تمتاز بجرسها ، واتضح لي من دراستي هذه ان الشعراء كانوا يؤثرون في وصفهم حيوانهم اللفظ الجزل ، والعبارة الصعبة ، وعللت ذلك بالربط بين القوة اللفظية والقوة الجسدية التي لم يستهن بها الشاعر الجاهلي ، وكأنه كان يرى لزاما عليه ، وهو يعرض لاوصاف هذه الحيوانات ، ان يوفق بين الحيوان القوى واللفظ الجزل ، فكانت هذه الشدة ، وكانت هذه الصلابة التي اصبحت تقليدا لفظيا يسير عليه الشعراء ، ولاحظت اوجه التشابه بين الفاظ الشعراء ، وهم يطرقون الموضوعات الواحدة ، او يعالجون الحالات المتشابهة ، وخلصت الى انه باستطاعتنا ان نصنع معجما بالالفاظ التي تستخدم في الموضوع الواحد .

وبعد ، فهذه هي الطبيعة في الشعر الجاهلي كما لاحظتها ، وهذه هي خلاصة الدراسة التي قمت بها ، والله الموفق لكل خير .

مصادر البحث ومراجعه

(١) الأبرص :

عبيد بن الابرص
الديوان . تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار
ط . القاهرة . ١٣٧٧ – ١٩٥٧
الديوان . ط. بيروت – ١٩٥٨

(٢) ابن الاجدابي :

ابو اسحق ابراهيم بن اسماعيل (ت حوالي ٦٥٠ هـ)
الأزمنة والانواء . تحقيق الدكتور عزة حسن
ط . دمشق – ١٩٦٤

(٣) الأزدى :

ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١ هـ)
وصف السحاب والمطر . تحقيق عز الدين التنوخي
ط . دمشق – ١٩٦٣

(٤) الأسد :

ناصر الدين
مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية
ط . دار المعارف – ١٩٥٦

(٥) الاصطخرى :

ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٥٦ هـ)
المسالك والممالك .
ط . بريل – ليدن – ١٩٢٧

(٦) الاصفهاني :

ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموى (ت ٣٥٦ هـ)
الاغاني
ط . دار الكتب والسياسي بحسب ما يذكر في الهامش

(٧) الاصمعي :

ابو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦ هـ).
(أ) الأصمعيات . تحقيق الأستاذين عبد السلام هارون واحمد محمد شاكر
ط . دار المعارف — ١٩٥٥
(ب) الابل . ضمن مجموعة الكنز اللغوى
ط . بيروت — ١٩٠٣
(ج) الدارات . سعى بنشره وجمع رواياته الدكتور اوغست هافنر . نشر في مجلة المشرق — السنة الاولى ١٨٩٨
(د) الشاء . تحقيق هافنر — ١٨٩٦
(هـ) النبات والشجر . ضمن مجموعة البلغة في شذور اللغة
ط. الكاثوليكية . بيروت — ١٩٠٧
(و) النخل والكرم . تحقيق الدكتور اوغست هافنر
ط . بيروت — ١٩٠٨

(٨) ابن الاعرابي :

محمد بن زياد (ت ٢٣١ هـ)
اسماء خيل العرب وفرسانها . تحقيق جرجس لوى دلاويدا
ط . بريل — ليدن — ١٩٢٨

(٩) الاعشى :

ميمون بن قيس
الديوان . شرح وتعليق للدكتور م . محمد حسين
ط . النموذجية — القاهرة — ١٩٥٠

(١٠) الالوسي :

محمود شكرى (ت ١٣٤٢)

بلوغ الارب في معرفة احوال العرب . تحقيق محمد بهجت
الاثرى .
ط . مصر — ١٣٤٢

(١١) الآمدى :
ابو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى (ت ٣٧٠ هـ)
الموازنة . ط دار المعارف — ١٩٦١

(١٢) امرؤ القيس :
ابن حجر الكندى .
الديوان . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم
ط دار المعارف — ١٩٥٨

(١٣) ابن الأنباري : ابو بكر محمد بن القاسم (ت ٣٢٨ هـ)
شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات
تحقيق وتعليق الاستاذ عبدالسلام هارون
ط . دار المعارف — ١٩٦٢

(١٤) الاودى :
الافوه
الديوان في الطرائف الادبية
تحقيق عبد العزيز المينى
ط . لجنة التأليف ١٩٤٧

(١٥) الايادى :
ابو دواد
شعره ضمن دراسات في الادب العربي
جمعه غوستاف فون غرنباوم
ط . بيروت — ١٩٥٩

(١٦) البحترى :
الوليد بن عبيد الله بن يحيى (ت ٢٨٤ هـ)
الحماسة . ضبط وتعليق كمال مصطفى
ط . الرحمانية — القاهرة ١٩٢٩

(١٧) البصري :

صدر الدين علي بن ابي الفرج بن الحسن (ت ٦٥٩ هـ)
الحماسة البصرية (مخطوطة – نسخة مكتبة راغب باشا استانبول
تحت رقم ١٠٩١) طبعت في الهند – حيدر آباد – ١٣٨٣
وانا في المراحل الاخيرة من عملي .

(١٨) البغدادي :

عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ)
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب
ط . بولاق – القاهرة – ١٢٩٩

(١٩) البكري :

ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ)
معجم ما استعجم . تحقيق الاستاذ مصطفى السقا
ط . لجنة التأليف والترجمة – ١٩٤٩

(٢٠) البلاذري :

احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)
فتوح البلدان . دى غويه
ط . بريل – ليدن – ١٨٦٦

(٢١) الثعالبي :

عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩ هـ)
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب
ط . القاهرة – ١٩٠٨

(٢٢) ثعلب :

ابو العباس احمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ)
مجالس ثعلب . تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون
ط . دار المعارف – ١٣٦٩

(٢٣) الجاحظ :

ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)
(أ) البيان والتبيين . تحقيق حسن السندوبي

ط . الاستقامة — القاهرة ١٩٤٧
(ب) الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون
ط . الحلبي — القاهرة ١٩٤٣
(ج) رسالة في فخر السودان على البيضان
ط . القاهرة — ١٣٢٤

(٢٤) الجزائري :

محمد
نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد
ط . الأهلية — بيروت — ١٣٢٦

(٢٥) ابن جندل :

سلامة
الديوان . تحقيق لويس شيخو
ط . بيروت — ١٩١٠

(٢٦) الجوهري :

اسماعيل بن حماد الفارابي (ت ٣٩٨ هـ)
الصحاح . تحقيق احمد عبد الغفور عطار
ط . دار الكتاب العربي — ١٩٥٦

(٢٧) ابن حبيب :

ابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ)
(أ) المحبر . ط . الهند — حيدر آباد — ١٩٤٢
(ب) اسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية
تحقيق عبد السلام هارون ضمن نوادر المخطوطات
ط . لجنة التأليف والترجمة — ١٩٥٤

(٢٨) حتى :

فيليب
تاريخ العرب (مطول)
ط . دار النشر والطباعة — ١٩٥٨

(٢٩) ابن حجر :
اوس
الديوان . تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم
ط . بيروت — ١٩٦٠
(٣٠) حسن الباشا :
تاريخ الفن في العراق القديم
ط . مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥٦
(٣١) حمزة :
فؤاد
قلب جزيرة العرب
(٣٢) ابو حنيفة :
احمد بن داود الدينورى (ت ٢٨٢ هـ)
قطعة من الجزء الخامس من كتاب النبات
عن بنشره ب . لوين
ط . بريل — ليدن ١٩٥٣
(٣٣) ابن ابي خازم :
بشر
الديوان . تحقيق الدكتور عزة حسن
ط . الترقي — دمشق — ١٩٦٠
(٣٤) الخالديان :
ابو بكر محمد بن هاشم (ت ٣٨٠ هـ) وابو عثمان سعيد
ابن هاشم (ت ٣٩١ هـ)
كتاب الاشباه والنظائر من اشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين
تحقيق الدكتور محمد يوسف
ط . لجنة التأليف والترجمة — القاهرة — ١٩٥٨
(٣٥) ابن الخطيم :
قيس
الديوان . تحقيق الدكتور السامرائي والدكتور مطلوب

ط . بغداد — ١٩٦٢
الديوان تحقيق الدكتور ناصر الاسد
ط . المدني — القاهرة ١٩٦٢

(٣٦) خليف :
يوسف
الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي
ط . دار المعارف — ١٩٥٩

(٣٧) الذبياني :
النابغة (زياد بن معاوية بن ضباب)
الديوان . ضمن مجموعة الاعلم الشنتمرى
تحقيق الاستاذ مصطفى السقا
ط . مصطفى الحلبي — القاهرة ١٩٤٨
الديوان . دار صادر — بيروت ١٩٦٠

(٣٨) ابن رشيق :
ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ ﻫ)
العمدة في محاسن الشعر وآدابه
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
ط . حجازى — القاهرة — ١٩٣٤

(٣٩) الزبيدى :
محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدى
(ت ١٢٠٥ ﻫ)
تاج العروس من جواهر القاموس
ط . الخيرية — القاهرة ١٣٠٢ — ١٣٠٦

(٤٠) الزمخشرى :
محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي (ت ٥٣٨ ﻫ)
(أ) اعجب العجب في شرح لامية العرب
ط . الوراق — ١٣٢٨
(ب) المستقصى في امثال العرب

ط . حيدر اباد – للدكن – ١٩٦٢ ·

(٤١) ابن زيد :

عدى

الديوان . تحقيق الاستاذ جبار المعيبد

ط . وزارة الثقافة والارشاد – بغداد ١٩٦٥

(٤٢) السجستاني :

ابو حاتم (ت ٢٥٠ هـ)

المعمرون والوصايا تحقيق عبد المنعم عامر

ط . القاهرة – ١٩٦١

(٤٣) السكرى : ابو سعيد الحسن بن الحسين (ت ٢٧٥ أو ٢٩٠ هـ)

شرح اشعار الهذليين تحقيق عبد الستار احمد فراج

ط . المدني – القاهرة – ١٩٦٥

(٤٤) ابن سلام :

محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ)

طبقات فحول الشعراء تحقيق محمود محمد شاكر

ط . دار المعارف – ١٩٥٢

(٤٥) ابن ابي سلمى :

زهير

الديوان . صنعة الامام ابي العباس احمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب

ط . دار الكتب – ١٩٤٤

الديوان . ضمن مجموعة الأعلم الشنتمرى تحقيق الاستاذ مصطفى السقا

ط . البابي الحلبي ١٩٤٨

(٤٦) السلمي :

عرام بن الاصبغ

اسماء جبال تهامه وسكانها تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون ضمن المجموعة الخامسة من نوادر المخطوطات

ط . لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٤

(٤٧) ابن سيده :

ابو الحسن علي بن اسماعيل (ت ٤٥٨ ﻫ)
المخصص . ط الاميرية — بولاق — ١٣١٦

(٤٨) السيوطي :

جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ ﻫ)
المزهر في علوم اللغة وانواعها
ط . بولاق — ١٢٨٢

(٤٩) ابن الشجرى :

ابو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة
(ت ٥٤٢ ﻫ)
(أ) الحماسة . ط حيدر اباد — الدكن ١٩٤٥
(ب) مختارات ابن الشجرى . ضبطها وشرحها محمود حسن زناتي ط . الاعتماد — ١٩٢٥

(٥٠) ابن شداد :

عنترة
الديوان . تحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي
ط . القاهرة
الديوان ضمن مجموعة الاعلم الشنتمرى

(٥١) الشنتمرى :

يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالاعلم
مختار الشعر الجاهلي تحقيق مصطفى السقا
ط . البابي الحلبي — ١٩٤٨

(٥٢) الشنفرى :

الديوان ضمن مجموعة الطرائف الادبية
تحقيق عبد العزيز الميمنى
ط . لجنة التأليف والترجمة . القاهرة — ١٩٤٧

(٥٣) شيخو :

لويس شيخو

شعراء النصرانية ط . بيروت — ١٩٠٠

(٥٤) الصغاني :

اسامي الذئب وكناه

ط . استانبول — ١٣٣٠

(٥٥) الضبي :

المفضل بن محمد (ت ١٧٨ هـ)

المفضليات — تحقيق ليال — اكسفورد — ١٩٢٠

المفضليات . تحقيق الاستاذين احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ط . دار المعارف — ١٩٤٣

(٥٦) ضيف :

شوقي

(أ) تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي

ط . دار المعارف — ١٩٦٠

(ب) الفن ومذاهبه في الشعر العربي

ط . مكتبة الاندلس ١٩٥٦

(ج) التطور والتجديد في الشعر الاموى

ط . دار المعارف — ١٩٥٩

(٥٧) الطائي :

حاتم

الديوان . بيروت — صادر ١٩٥٣

(٥٨) طه حسين :

(أ) في الادب الجاهلي ط. القاهرة ١٩٣٣

(ب) حديث الاربعاء . ط القاهرة ١٩٣٧

(٥٩) ابن الطفيل :

عامر . الديوان ط بيروت — ١٩٥٩

(٦٠) ابن العبد :
طرفة الديوان . تحقيق الدكتور علي الجندى
ط . الرسالة — ١٩٥٨
الديوان ضمن مجموعة الاعلم الشنتمرى

(٦١) العبدى :
المثقب . شعر المثقب العبدى
تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين
ط . بغداد ١٩٥٩

(٦٢) العسكرى :
ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥)
ديوان المعاني
ط . القدسي — القاهرة — ١٣٥٢

(٦٣) علي :
جواد تاريخ العرب قبل الاسلام
ط . المجمع العلمي العراقي — بغداد ١٩٦٠

(٦٤) ابن ابي عون :
ابو اسحق ابراهيم بن محمد بن احمد (ت ٣٢٢ هـ)
التشبيهات . ط . كيمبرج — ١٩٥٠

(٦٥) الغطفاني :
المزرد بن ضرار
الديوان تحقيق الاستاذ خليل ابراهيم العطية
ط. بغداد — ١٩٦٢

(٦٦) الغنوى :
الطفيل الديوان . ط. لندن — ١٩٢٧

(٦٧) الفحل :
علقمة الديوان . اعتنى بتصحيحه الشيخ ابن ابن شنب
ط الجزائر — ١٩٢٥
الديوان . ضمن مجموعة الاعلم الشنتمرى

(٦٨) الفيرز أبادى :

محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم (ت ٨١٧ هـ)
القاموس المحيط
ط. المكتبة التجارية – ١٩١٣

(٦٩) القالي :

ابو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)
الامالي ط. دار الكتب – ١٩٢٦

(٧٠) ابن قتيبة :

ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، (ت ٢٧٦ هـ)
(أ) الشعر والشعراء ط. بيروت – ١٩٦٤
(ب) ادب الكاتب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط. الرحمانية – ١٣٥٥
(ج) المعاني الكبير ط. حيدر اباد – الدكن – ١٩٤٩
(د) الانواء في مواسم العرب ط. حيدر اباد – الدكن – ١٩٥٦

(٧١) القرشي :

ابو زيد محمد بن ابي الخطاب (ت)
جمهرة اشعار العرب ط. الرحمانية ١٩٢٦

(٧٢) كشاجم :

ابو الفتح محمود بن الحسن الكاتب (ت بعد ٣٥٨ هـ)
المصايد والمطارد تحقيق الدكتور محمد اسعد طلس
ط. دار المعرفة – بغداد – ١٩٥٤

(٧٣) ابن الكلبي :

هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٦ هـ)
انساب الخيل تحقيق احمد زكي
ط. دار الكتب – ١٩٤٦

(٧٤) لبيد :

الديوان تحقيق الدكتور احسان عباس

ط. الكويت ـ ١٩٦٢

(٧٥) المبرد :

ابو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ)
الكامل في اللغة والادب تحقيق الدكتور زكي مبارك
ط. القاهرة ـ ١٩٣٦

(٧٦) المرتضى :

الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوى (ت ٤٣٦ هـ)
امالي المرتضي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم
ط. القاهرة ـ ١٩٥٤

(٧٧) المرزوقي :

ابو علي بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١ هـ)
(أ) شرح الحماسة . تحقيق عبد السلام هارون واحمد امين
ط. لجنة التأليف والترجمة ـ ١٩٥٣
(ب) الازمنة والامكنة
ط. حيدر اباد ـ الدكن ـ ١٣٣٢

(٧٨) ابن المعتز :

ابو العباس عبد الله بن المعتز بالله الخليفة العباسي
(ت ٢٩٦ هـ)
البديع . ط . الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٤٥

(٧٩) ابن منظور :

محمد ابن مكرم ابن علي ابن احمد (ت ٧١١ هـ)
لسان العرب . ط. القاهرة ـ ١٣٠٨

(٨٠) الميداني :

ابو الفضل احمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨ هـ)
الامثال .ط. المحمدية ـ القاهرة ـ ١٩٥٥

(٨١) ابن النديم :

ابو الفرج محمد بن اسحق بن يعقوب (ت ٣٨٥ هـ)
الفهرست .ط. التجارية ـ القاهرة ـ ١٣٤٨

(٨٢) نوفل :
سيد. الطبيعة في الشعر العربي
ط. القاهرة — ١٩٤٥

(٨٣) ابن الورد :
عروة. الديوان. تصحيح الشيخ ابن ابي شنب
ط. الجزائر — ١٩٢٦
الديوان ط. بيروت — ١٩٥٣

(٨٤) هذيل :
ديون الهذليين
ط. دار الكتب — ١٩٤٨

(٨٥) ابن هشام :
ابو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣ هـ)
السيرة النبوية تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط. القاهرة — ١٩٣٧

(٨٦) الهمداني :
ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ)
(أ) صفة جزيرة العرب ط. بريل. ليدن — ١٨٨٤
(ب) الاكليل. نشر نبيه فارس
ط. برنستن — ١٩٤٠

(٨٧) ياقوت :
ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦ هـ)
معجم البلدان
ط. لايبزك ١٨٦٦

الفهرس

الصفحة

الصفحة



